

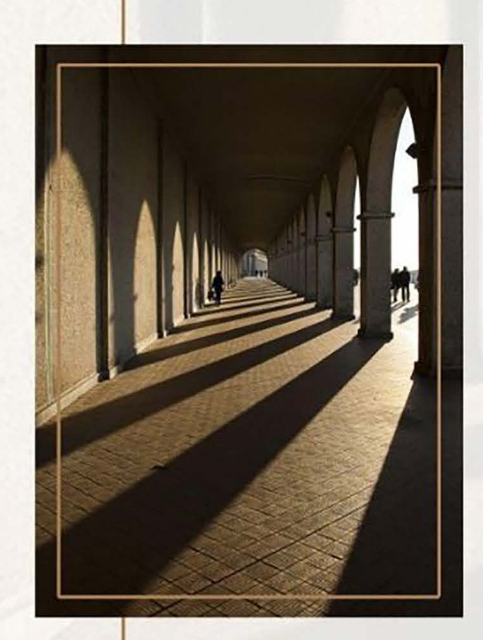
آداب

الظل والحرور

مختارات

مُنتخباتٌ مِنَ السِّيَرِ الذَّاتيَّة

المجموعة الأولى



فهد بن عبد الله بن صالح الجريوي


الظل والحرور
مُنتخبات من السير الذاتية



مُنتخبات من السِّيَرِ الذَّاتيَّة

المجموعة الأولى

فهد بن عبد الله بن صالح الجريوي

ح فهد عبد الله صالح الجريوي، ١٤٤٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الجريوي، فهد عبد الله صالح

الظل والحرور./ فهد عبد الله صالح الجريوي- الرياض، ١٤٤٣هـ.

٥٦٢ ص؛ ١٧× ٢٤ سم

ردمك: ٢-٠٧٠٠-٠٤-٦٠٣-٩٧٨

١- التراجم الذاتية

٢ - السيرة الذاتية

أ. العنوان

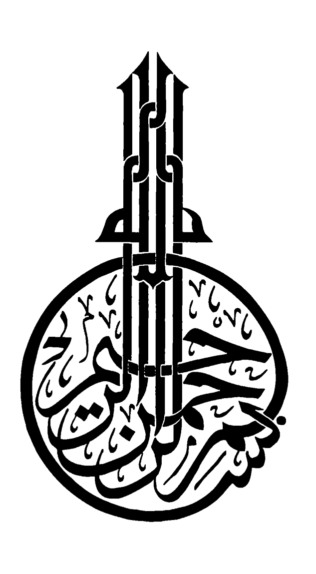
ديوي ٩٢٨,٩ ١٤٤٣/٨٦٩٦

رقم الإيداع: ٨٦٩٦/ ١٤٤٣

ردمك: ٢-٠٧٠٠-٠٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م


بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى القصيّ الداني

فهرس المحتويات

المقدمة

الحمدُ لله علىٰ أفضاله ونِعَمه، والصلاةُ والسلام علىٰ أشرف أنبيائه ورُسله؛ وبعدُ:

فهذه سطورٌ من أوراق العُمر، وصفحاتٌ من دفاتر الأيام، وشجوٌ من حديث الذكريات، وصوًىٰ علىٰ طريق الحياة، وذكرىٰ من عهود الصِّبا، وأشتاتٌ من معارف الشباب وحِكمة الشيوخ.

نجلو غُبارَها، ونبلو أخبارها، ونعيش مع أصحابها في قوَّتِهم وضَعْفِهم، وانتصارهم وخَيْبَتِهم، وظِلِّهم وحَرُورِهم.

هذه الصفحات تُرِيكَ وجوهَ البشَر، تُريك ابتساماتهم وانكساراتهم، وتأخذ بك لتعيش مع أفراحهم وأَتْرَاحِهم، وتمارس معهم شدَّةَ الأيام ورخاءَها، وبُخلَ الأحوالِ وسخاءَها.

إنَّ الحديث عن خبايا النفوس وأسرارها، وتجارب الحياة حلوِها ومُرِّها، أَلِقِها وأَرَقِها، وما اجتواه أصحابها من خيبات، حديثٌ عذبٌ محبَّب مُشوِّق، لعلَّه مِن أشهىٰ أنواع القراءة وأحفلِها بالمتعة؛ لأنَّه يمرُّ بك علىٰ قنطرةٍ بين توهُّج الحياة وأُفُولِها.

أحببتُ السِّيَر الذاتية، وما كان شَجْنَةً منها متصلًا بها؛ كالمذكرات والذكريات، والاعترافات واليوميات، واتَّصلت أسبابي بها من نحو عشر سنين؛ جمعت خلالها ألفَ عنوانٍ أو تزيد لمن دوَّن سيرتَه من المشاهير وغيرهم في عامَّة التَّخصُّصات،

إلَّا أني لم أجد من نفسي ميلًا للمذكرات السياسية؛ لأنَّ حقَّها أشبَهُ بالباطل، وباطلُها أشبَهُ بالحق؛ لذا أَعرَضتُ عنها في هذا الكتاب.

ولعلِّي أُصارح القارئ الكريم، وأعترف له أني بعد هذه الرحلة مع السِّيَر الذاتية -مطالعةً وجمعًا وعناية- أُصِبت بخيبة أملٍ في كثير من السير الذاتية؛ وذلك لضَعْفِها وقِلَّة أحداثها، وشُحِّ الدروس والعبر فيها؛ فلا يَغُرَّنَّك جمالُ عنوانِ كثيرٍ من تلك السير، وإيَّاك أن تدفعك كثرةُ ثناءِ الناس علىٰ سيرةٍ ربما لم تُقرأ! علىٰ أن تقتَنِيَها وتحفل بها، أو أن تأسف علىٰ فواتها؛ فعيونُ السِّيَر محدودة، وما فيها من متعة وفائدة قليل مقارنةً بعددها وتنوُّعِها.

لقد عِشتُ مع جملةٍ من السير الذاتية أيامًا حلوة ومرة: ضَحكًا كالبُكا، وحزنًا مَشوبًا بالسرور، ومتعة يُكدِّرُها شيء مما تقع عليه العين؛ من مجاهرة بالخطيئة، وترويج للباطل، وفساد في الأخلاق. ومع هذا كله؛ ففي جُملَتِها ألوانٌ من العِبَرْ تَـهْدِي إلىٰ الاعتبار.

لذا، أحببتُ أن أنتخب للقارئ خلاصاتٍ من أشهر السير الذاتية، العربية والغربية، وأُتحِفه بأجمل ما فيها وأكثرها تشويقًا وفائدةً ومتعة، من أطاريفَ تُعجِب وتَلَذُّ، خلَّصتُها من عامَّة ما يَشين، وأرجو أن تكون ثمرةً دانيةَ القِطافِ، ناضرةَ الرِّواء.

وقد نظمتُ هذه المنتخبات في فصولٍ موضوعيَّة، من بداية حياة أصحاب تلك السير إلىٰ ختامها؛ وأرجو أن تكون هذه الطريقةُ أَعْذَبَ ذوقًا، وأشمل أثرًا، وأقربَ بُلْغَة للقارئ الكريم.

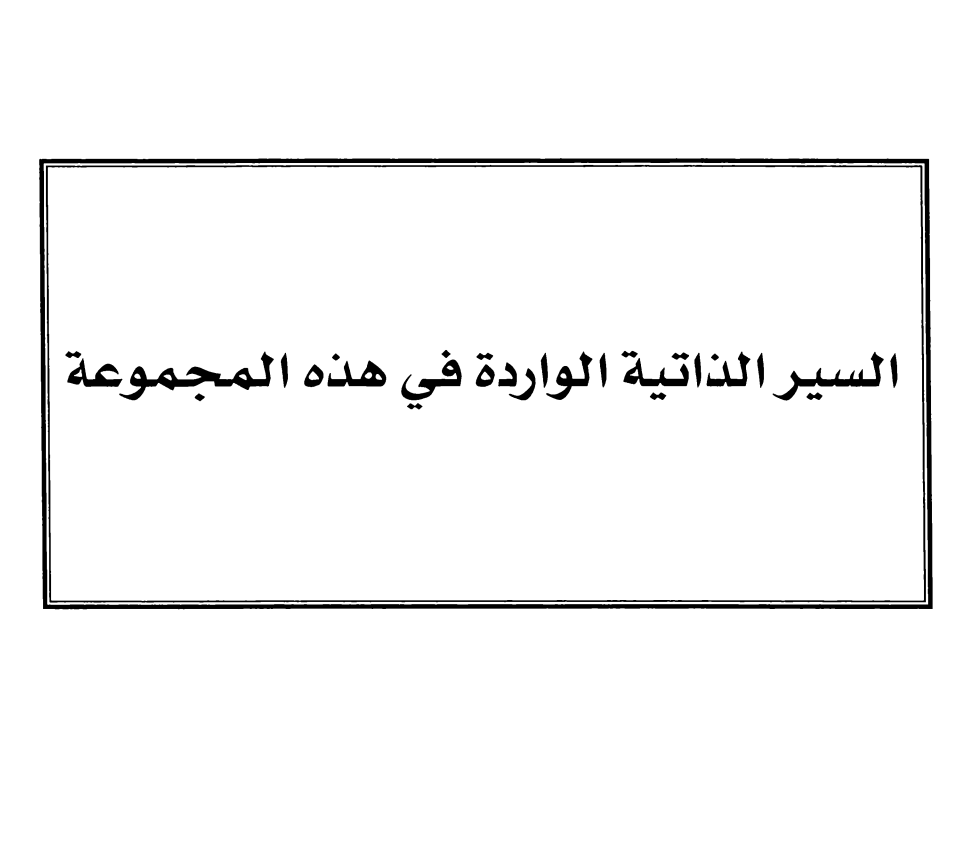
أضع هذه المنتخبات بين يدي القارئ، وأرجو أن يَلقَىٰ فيها لذَّةً هَيِّنة لَيِّنة، وأن يجد فيها ذِكرىٰ تَعِظُه، وحديثًا يُسلِّيه.

وفي الختام؛ أتقدم بالشكر والدعاء للكرام الذين طوقوا عُنُقي بجليل معاونتهم وتشجيعهم، وجميل دلالتهم أخص منهم الأستاذ الأديب عبد الله أبو بكر، والشيخ محمد بن سليمان المهنا، ود. عبد الرحمن بن حسن قائد، ود. محمد بن سعيد النعيمي، والشيخ حمزة الخزي، والشيخ مشاري بن سعد الشثري. وأصلي وأسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

فَهْد بْن عَبْدالله بْن صَالِح الجريوي

٢ / ٩ / ١٤٤٣هـ

faljrewi@gmail.com



السير الذاتية الواردة في هذه المجموعة

قرأت جملة من السير الذاتية ولم أستملح منها شيئًا؛ إما لأن جمالها في تتابع أحداثها واتصال فصولها، كسوانح الأيام للبرقعيّ، ويوميات مجاور لسليمان فياض، ومذكرات نعمان السامرائيّ، واعترافات حافظ نجيب، وصفحات من تجربتي لعثمان أحمد عثمان، وقصة حياتي لشارلي شابلن، وسيرًا قرأتها ولم يستوقفني من أحداثها ما يستحق النشر، مثل سنين الحب والسجن لعبدالله الطوخيّ، وصفحات من رحلة الحياة لعبد المنعم الرفاعيّ، وسيرتي وأسرارهم للوتس عبد الكريم، وتحت الرماد لمحمد سعيد العريان، وشيء من حياتي لمراد السباعيّ، وزهرة العمر لتوفيق الحكيم، و٦٠ سنة صحافة لعبد الله أحمد، وعشت مع هؤلاء الأعلام لعبد الله يوركي حلاق، وحياتي بين الشعر والشعراء لأحمد سعيد محمدية[١]، وهذه حياتي لعبد الحميد جودة السّحار، ومن أوراق العمر لصباح قباني، وحصاد السنين لزكي نجيب محمود، ومن حديث الذكريات لمحمد عبدالمنعم خفاجي، وسيرة المُنتهىٰ لواسيني الأعرج، وزوجي كما عرفته لعائدة الجراح، وعلىٰ مقهىٰ الحياة لسمير سرحان[٢]، ومن زوايا الذاكرة لمنصور الخريجي، ومارون عبود من خلال ذكرياته، ونفسي لأحمد عكاشة، وأيام القراءة لمارسيل بروست، وفي معنىٰ أن نموت لكوري تايلر، وقصة قلبي لريتشارد جفريز، وقصة حياتي لهيلين كيلر، ذكريات تراني لتوماس ترنسترومر، وقصة حياتي لهانز آنديرسين ومجموعة من السير الذاتية تفاجئت ببذائتها وسوئها أحمي بصر القارئ أن أورد أسمائها.

ولو سُئِلْتُ عن أجمل ما مرّ بي من السير الذاتية في هذا الجزء لقلتُ : رحيق العمر وماذا علمتني الحياة لجلال أمين، وغبار السنين لعمر فروخ، والطريق

(١) مع ما في الكتاب من أخبار وأحداث عايشها في حياتهم قد لا توجد في كتاب آخر.
(٢) عامة ما في سيرته أوردها في كتابه أيام العمر الجميل وهو من السير الواردة في هذا الكتاب.

الوعر لميونج باك، ومن البادية إلىٰ عالم النفط لعلي النعيمي، والنصف الأول من سيرتي الفكرية لعبدالوهاب المسيري وأقترح أن يقرأ في جلسات متعددة لكثافته وعمقه وكثرة فوائده، والنصف الأول من طبيب في رئاسة الوزراء لمهاتير محمد، ومشيناها خطىٰ لعباس خضر، وسوانح الأيام للبرقعي، وظلال من حياتي لمحمد رجب البيومي، والتباريح وشيء من التباريح لأبي عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري، وذكريات علي الطنطاوي، وقوافي الحياة لعبدالله ابن إدريس، وأنيس صايغ عن أنيس صايغ، وحياتي لأحمد أمين، والعمر الذاهب لإبراهيم المازني.

ومن أجمل السير الكتابية الثقافية معايشة النمرة لجبرا إبراهيم جبرا، وواحات العمر لمحمد عناني، والجيل الرائع للبطوطي، وذكريات عمر أكلته الحروف لنجيب المانع، ومن أجمل سير الأطباء سيرة نجيب محفوظ، وللكتبيين مذكرات قاسم الرجب.

۞ ۞ ۞

وفي هذه المجموعة منتخَبَاتٌ مبوَّبةٌ من (١٥٠) سيرةً ذاتيةً، وهي:

١. ذكريات (١-٨)، علي الطنطاوي.

٢. طبيب في رئاسة الوزراء، مهاتير محمد.

٣. حياتي، أحمد أمين.

٤. ماذا علمتني الحياة، جلال أمين.

٥. رحيق العمر، جلال أمين.

٦. المكتوب علىٰ الجبين، جلال أمين.

٧. ظلال من حياتي، محمد رجب البيوميّ.

٨. كنت صبيًّا في السبعينات، محمود عبد الشكور.

٩. معي (١–٢)، شوقي ضيف.

١٠. سنوات وذكريات، أحمد هيكل.

١١. في بيت حسين مؤنس، منىٰ حسين مؤنس.

١٢. ذكريات طفل وديع، عبد العزيز الربيع.

١٣. مشيناها خطىٰ، رءوف عباس.

١٤. حكايا ذات، عبد الرحمن الشبيلي.

١٥. الاعتراف الأخير لمالك بن الريب، يوسف صايغ.

١٦. همس القلوب، عفاف أباظة.

١٧. العيش علىٰ الحافة، شكري عياد.

١٨. الطريق الوعر، لي ميونج باك.

١٩. غبار السنين، عمر فروخ.

٢٠. حكاية الفتىٰ مفتاح، عبد الفتاح أبو مدين.

٢١. الأيام (١–٣)، طه حسين.

٢٢. من البادية إلىٰ عالم النفط، علي النعيمي.

٢٣. يومًا أو بعض يوم، محمد سلماوي.

٢٤. خطىٰ اجتزناها، حامد عمار.

٢٥. نهر العمر ودهره، شعبان خليفة.

٢٦. من سوانح الذكريات، حمد الجاسر.

٢٧. حفريات من الذاكرة، محمد عابد الجابري.

٢٨. تباريح التباريح، أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري.

٢٩. شيء من التباريح، أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري.

٣٠. ذكريات عمر أكلته الحروف، نجيب المانع.

٣١. علىٰ الجسر بين الحياة والموت، عائشة بنت الشاطئ.

٣٢. غربة الراعي، إحسان عباس.

٣٣. التحدث بنعمة الله، حسين نصار.

٣٤. فصول ذاتية من سيرة غير ذاتية، علي جواد الطاهر.

٣٥. حياتي في الإعلام، عارف حجاوي.

٣٦. الجمر والرماد، هشام شرابي.

٣٧. صور الماضي، هشام شرابي.

٣٨. من أوراقي المجهولة، سيرة ذاتية ثانية، نزار قباني.

٣٩. قصتي مع الشعر، نزار قباني.

٤٠. زكي مبارك، بقلم زكي مبارك.

٤١. ذكريات الأدب والحب، سهيل إدريس.

٤٢. أجنحة من نار، زين العابدين أبو الكلام.

٤٣. الفصول الأربعة، معن زيادة.

٤٤. حياة طبيب، نجيب محفوظ.

٤٥. آخر الخوارج، نجيب الريس.

٤٦. البئر الأولىٰ، جبرا إبراهيم جبرا.

٤٧. معايشة النمرة، جبرا إبراهيم جبرا.

٤٨. شارع الأميرات، جبرا إبراهيم جبرا.

٤٩. قال الراوي، إلياس فرحات.

٥٠. زمن جميل مضىٰ، جابر عصفور.

٥١. عذابات العمر الجميل، فاروق شوشة.

٥٢. لمحات من تجاربي الفكرية، صلاح الدين المنجد.

٥٣. من ذاكرتي، باسل الراوي.

٥٤. الجيل الرائع، ماهر البطوطي.

٥٥. ساعات من العمر، عبد الوهاب مطاوع.

٥٦. مشيناها خطىٰ، عباس خضر.

٥٧. ذكرياتي الأدبية، عباس خضر.

٥٨. سيرة الرماد، يحيىٰ الشيخ.

٥٩. رحلة جبلية رحلة صعبة، فدوىٰ طوقان.

٦٠. الرحلة الأصعب، فدوىٰ طوقان.

٦١. مذكرات، قاسم الرجب.

٦٢. أيامي مع جورج طرابيشي، هنرييت عبودي.

٦٣. مسيرتي في التأليف، ستيفن كينغ.

٦٤. درب الشوك، سامي الدهان.

٦٥. المذكرات (١-٥)، محمد كرد علي.

٦٦. الذات بين الوجود والإيجاد، بنسالم حميش.

٦٧. شيء من الذكريات، إبراهيم بيومي مدكور.

٦٨. مذكرات غير شخصية، عبد الله كنون.

٦٩. سلام من جزيرة منسية، محمد خير رمضان.

٧٠. الحمد لله هذه حياتي، عبد الحليم محمود.

٧١. أيام العمر الجميل، سمير سرحان.

٧٢. مذكراتي في ثلثي قرن، محمد عبد الله عنان.

٧٣. مذكرات، يوسف ياسين.

٧٤. صفحات من حياتي، عمر الأشقر.

٧٥. قافية الحياة، عبد الله بن إدريس.

٧٦. من حياتي، يوسف السباعي.

٧٧. أوائل زيارات الدهشة، محمد عفيفي مطر.

٧٨. ينابيع الشمس، عبد الوهاب البياتي.

٧٩. مدن ورجال ومتاهات، عبد الوهاب البياتي.

٨٠. في الخمسين عرفت طريقي، محمود الربيعي.

٨١. قبل الخروج (١-٢)، مصطفىٰ عبد الغني.

٨٢. حديث السنين، إبراهيم السامرائي.

٨٣. نصيبي من الحياة، مفيد فوزي.

٨٤. ما وراء الكتابة، إبراهيم عبد المجيد.

٨٥. سامي الدروبي، إحسان بيات الدروبي.

٨٦. الكتابة والحياة، علي الشوك.

٨٧. مذكرات، نجاتي صدقي.

٨٨. سيرة ذاتية، شكيب أرسلان.

٨٩. تربية، سلامة موسىٰ.

٩٠. حياتي، جابر سالم القحطاني.

٩١. ذكريات عارية، السيد أبو النجا.

٩٢. الجنوبي، عبلة الرويني.

٩٣. مذكرات، يونس بحري.

٩٤. حياتي في حكاياتي، حسن الشافعي.

٩٥. مذكرات جريح، بولس سلامة.

٩٦. واحات العمر، واحات، الغربة، واحات مصرية، محمد عناني.

٩٧. لهو الأيام، أحمد الجندي.

٩٨. ترميم الذاكرة، حسن مدن.

٩٩. عبد الرزاق السنهوري من خلال أوراقه الشخصية.

١٠٠. رحلة ٣٠ سنة قانون من سيرة قاضي مصري، خالد القاضي.

١٠١. عين النقد–سيرة فكرية، صلاح فضل.

١٠٢. بعد الخمسين، محمود الربيعي.

١٠٣. بين الصناديق، وجيه بيضون.

١٠٤. ذكرىٰ عهود، أحمد حسن الزيّات.

١٠٥. العمر الذاهب، إبراهيم المازني.

١٠٦. إيقاع المدىٰ، محمود السمرة

١٠٧. حياتي بين السيف والقلم، السيد فرج.

١٠٨. إقلاع وهبوط، منير شماعة.

١٠٩. قصة حياة، إبراهيم المازني.

١١٠. ذكريات مطوية، يحيىٰ حقي.

١١١. ذكرياتي (١–٢)، محمد مهدي الجواهري.

١١٢. أنيس صايغ عن أنيس صايغ.

١١٣. أوراق العمر، لويس عوض.

١١٤. سيرتي الذاتية، مارك توين.

١١٥. ما كان أكبره قد كان إنسانًا، سعاد أبو ريشة.

١١٦. علىٰ طريق العمر، سليمان العيسىٰ.

١١٧. مجرد ذكريات (١-٢)، رفعت السعيد.

١١٨. سيرة شعرية، غازي القصيبي.

١١٩. هذا ما حدث، علي فهمي خشيم.

١٢٠. مذكرات (١-٥)، نجيب الكيلاني.

١٢١. شاهدة ربع قرن، عايدة الشريف.

١٢٢. في بلاط الصحافة والأدب، فتحي سعيد.

١٢٣. شفاء الروح، محمود تيمور.

١٢٤. أمواج، عبد الله إبراهيم.

١٢٥. حياتي في قصصي، عبد الستار ناصر.

١٢٦. العوالم الثلاثة، علي صالح.

١٢٧. شذرات سيرية، عبد الرحمن الجرعي.

١٢٨. ثمانون، سليمان موسىٰ.

١٢٩. لمحات من الماضي، عبد الله خياط.

١٣٠. رحلتي الفكرية، عبد الوهاب المسيري.

١٣١. لكم وللتاريخ، حمد المانع.

١٣٢. شظايا عمري، عبد المعين الملوحي.

١٣٣. قصة مكتبة (خمسون عامًا في صحبة الكتب والمكتبات)، عبد الله عسيلان.

١٣٤ .من نافذة القطار، عبدالله الطيب.

١٣٥ . حكاية عمر، بولس سلامة.

١٣٦ .حياتي، أبو القاسم سعد الله.

١٣٧ من حقيبة الذكريات، عبدالله الطيب.

١٣٨ .حكاية مكتبة (السيرة الذاتية لعقل إنسان)، كمال الدين حسن البتانوني.

١٣٩ .جورج برنارد شو يُفْصِحُ عَنْ نَفسِه.

١٤٠ .عصيان الوصايا، لطفية الدليمي.

١٤١ . مع سيرتي الذاتية، حامد عمار.

١٤٢ .خطوات علىٰ الطريق، سليمان موسىٰ.

١٤٣ .ذكريات من حياتي، عبدالعظيم أنيس.

١٤٤ .سيرة حياتي، عبدالرحمن بدوي (١-٢).

١٤٥ .أقدار، عبدالستار الحلوجي.

١٤٦ . خيارات، لؤي صافي.

١٤٧ .من المجمعة إلىٰ مجمع البحوث الإسلامية، محمد بن أحمد الصالح.

١٤٨ .مذكرات وذكريات من حياتي، عبدالكريم الجهيمان.

١٤٩ .انثيال الذاكرة هذا ما حصل، فتحي خليل البس.

١٥٠ .مذكرات عبدالله البردوني.

آباء وأمهات

قد تجد في الناس من يُظهر لك من حبه أكثر مما تُظهِره الأم ويُظهِره الأب، ولكن منهم من يحبك لمالك أو لجمالك أو لجاهك وصلاح حالك، فإن ساءت الحال أو ذهب الجمال أو قلّ المال أعرض عنك ولم يعد يعرفك، أما الذي يحبك لذاتك ويبقىٰ علىٰ حبك مهما تبدلت الحال بك فهو أمك وأبوك، لا تجد مثلهما حتىٰ في الزوجات، ومن الزوجات الوفيات الصالحات الصابرات الراضيات، لا يتخلّين عن الرجل ولو مرض وذهبت صحته، ولو افتقر وضاع ماله، ولو سقطت منزلته في الناس فهجروه. ولكن هذا في بعض الزوجات، أما الأمهات فجميعهنّ بلا استثناء.

فمن كانت له أم أو كان له أب فقد فُتح له باب الجنة، فمن الذي يمر بباب الجنة مفتوحًا فلا يدخلها؟!

إني أكتب اليوم عن موت أمي، وقد كتبت من قبل عن موت أبي، وإن كنت أتمنىٰ أن أخسر تسعة أعشار ما أملك من مال أقتنيه وكُتُب ألّفتها وشُهرة نلتها ومناصب تقلدتها، وأن تكون قد بقيت لي أمي وبقي أبي[1].

۞ ۞ ۞

كان والدي محمد بن إسكندر رجلًا ذا شخصية غير عادية في مسألة الدراسة، كان يفرّ إلىٰ المدرسة وليس منها، وقد كان يكتم عن أبويه أمر التحاقه بالمدرسة، فتلك الخاصيّة هي التي علّمتني في النهاية تبجيل التعلّم والمعرفة.

وبينما شدّد والدي علىٰ التعليم العادي، أصرّت والدتي علىٰ أن يتلقّىٰ أبناؤها علوم الإسلام في مرحلة مبكرة من حياتهم، وبما أنها تجيد تلاوة القرآن الكريم

---

(١) علي الطنطاوي، الذكريات (٢/ ٩٦).

فقد علّمتنا تجويده بنفسها، وعُرفت شقيقتي الكبرىٰ رفيه -ولقبها بوتيه[1]- بصوتها الجميل عندما تتلو القرآن، كما أننا تعلّمنا في المدرسة الملايويّة أساسيات الدين، وحفظنا سورًا مختارة من القرآن الكريم من دون تَعلّم تفسيرها، وفي مرحلة لاحقة، حفظنا مزيدًا من الآيات عن ظهر قلب علىٰ يد معلّم من مدرسة عربية يُدعىٰ: إنسيك زكريا محمد نور، وشرح لنا معانيها باللغة الملايويّة، وما زلت أحفظ هذه الآيات إلىٰ الآن، وبفضل تشديد والدي علىٰ طلب العلم وإصرار والدتي علىٰ أن أتعلّم أصول ديني، تولّدت لدي حماسة لاكتساب المزيد من المعرفة ومطالعة الكتب علىٰ اختلاف أنواعها.

كنت أقرب إلىٰ والدتي منّي إلىٰ والدي؛ ولذلك كان تأثيرها أعظم في بناء شخصيتي، حيث علّمتني القيم التي تمسكت بها طوال حياتي، وخصوصًا خلق التواضع وعدم التباهي بأفعالي، والتي عندما كنت أتحدث عن نفسي، ربما بنبرة متعالية، كانت تقلّل من شأن إنجازاتي، فقد رأت أنه ينبغي لي الإذعان في أي نزاع أو شجار، وكان ذلك صعبًا جدًّا عليّ لأني كنت أعتقد في العادة أنني علىٰ حق، لكن وبحسب ما تسعفني به ذاكرتي، لا أذكر أنها وقفت بجانبي في نزاع ما.

كما علمتني بوضوح شديد بأني إذا أردت شيئًا، عليّ أن أبذل قصارىٰ جهدي للحصول عليه، وعندما أردت شراء قلم، طلبت إليّ حمل دِلاء الماء لسقاية شجيرات الياسمين مقابل سين واحد في اليوم كي أجمع المال اللازم، تعلّمت منها أن هذه هي الطريقة المشرّفة للحصول علىٰ ما أريد.

لذلك،لم أشتكِ عندما تقلّص مصروف جيبي من أربعة سينات إلىٰ سينين عقب تقاعد والدي، وعوضًا عن ذلك بذلت جهدي لأجني مزيدًا من المال ببيع البالونات لأصدقائي، كما جنيت بعض المال من أداء مزيد من الأعمال المنزلية، إذ كانت أمي

(١) بوتيه تعني البيضاء باللغة الملايويّة

تربّي بعض الدجاج والبط تحت المنزل، وكنتُ أعينها علىٰ إطعامها وإعادتها إلىٰ أقفاصها في المساء، كما كنت أحتطب جذوع الباكو -وهي من أشجار المنغروف - لإعداد نار الطهي، وكنت أتقاضىٰ لقاء هذه الأعمال المنزلية سينًا واحدًا أجرة.

امتلكت أمي قطعة أرض صغيرة، وكان أكثر ما فيها شجيرات الياسمين والورود، كنا نجمع زهور الياسمين ونعلّقها علىٰ سيقان أعشاب جافة مشقوقة بدقة تسمىٰ مينيرونغ، ثم يأتي بائع أزهار هنديّ ليجمع خيوط الأزهار تلك ويبيعها للفتيات اللاتي كن يضعنها حول جُديلات شعورهن، وفي حيّنا اشتهرت أمي أيضًا بصناعة السيلاك أو الكحل، كان عملًا مُضنيًا يقوم علىٰ دق الكحل بواسطة هاون من البورسلان وتحويله إلىٰ مسحوق ناعم.

أفترض أننا كنا نُعدّ من أبناء الطبقة الوسطىٰ الفقيرة، لكن والديّ لم يبخلا علينا بشيء؛ وإن تقلص مصروفي اليومي من أربع سينات إلىٰ سينين، فلأن معاش أبي التقاعدي آل إلىٰ ثلث آخر راتب تقاضاه وكان ٢٧٠ رينغت ماليزيّ.

أحسست بحب والديّ لي، مع أن أبي عاش بعيدًا عني ولم يحسن التعبير عن عواطفه، وعرفت أن أمي أرادت مني قبل كل شيء أن أكون رجلًا صالحًا مستقيمًا، وعلىٰ صعيد المهن، هناك مهنتان -لا غير - لم تشأ مني الاشتغال بهما، وهما مفتش في جهاز الشرطة، وطبيب، وهو الأمر المثير للسخرية، فكانت تقول: إن كلتا المهنتين تعني أنني لن أخلد إلىٰ النوم، لكنني عندما أردت الالتحاق بكلية الطب لم تعترض علىٰ ذلك.

لم يكن في منزلنا غير سريرين معدنيين فقط، واحد لوالديّ، والثاني لأي فرد من الأسرة متزوج حديثًا، وكان الباقون ينامون علىٰ فرش رقيقة علىٰ الأرضية تعلوها ناموسيات معلقة بمسامير مغروزة في القوائم الخشبية، وفي الصباح تُرفع

الناموسيات وتسند الفرش إلىٰ الجدار مع الوسادات، وعندما أصبحت رئيسًا للوزراء وصرت أزور اليابان كثيرًا، سررت لشرح اليابانيين بالتفصيل عاداتهم في النوم علىٰ الأرضيات؛ لأنها لم تختلف في شيء عن عاداتي في حداثة سني.

في أسرتي التي أصفها بأنها ملايويّة مسلمة ملتزمة، كانت النساء -باستثناء أمي - لا يأكلن إلا بعد أن يفرغ الرجال من طعامهم، وكنا نتناول وجباتنا قعودًا علىٰ الأرض ولم نكن نتكلم أثناء الأكل، ولا نأكل إلا بعد أن يتناول الرجال طعامهم، حتىٰ صغار الصبية مثلي، ثمّ ينقل الطعام إلىٰ ناحية المطبخ الذي كان مستواه خفيضًا لتتناول شقيقاتي طعامهنّ.

إضافة إلىٰ التواضع الذي علّمتني إياه أمّي، فقد أورثتني أيضًا قيمتي التسامح والاحترام، وعندما أصبحت مساعد رئيس الوزراء ورئيسًا للوزراء،لم أنقل أي موظف في فريقي لسوء عمله كما هي الممارسة المتبعة، وسعيت عوضًا عن ذلك لحملهم علىٰ فعل ما أتوقعه منهم بكسب ولائهم، وكانوا قادرين عمومًا علىٰ تطوير أدائهم وتحسينه وصولًا إلىٰ مستوىٰ مُرضٍ، وما يزال عدد من أعضاء فريقي معي بعد عقود من الخدمة، ولديّ إيمان راسخ بأنه علىٰ عاتق الرئيس تقع مسؤولية الانسجام مع الفريق واستخلاص أفضل ما عنده، لا مفر من ارتكاب الأخطاء، وتغيير الفريق ليس ضمانة بأن الموظفين الجدد سيكونون أفضل، وأنا علىٰ دراية تامة بأنه ليس للأشخاص المثاليين وجود، وبقدر ما كنت أستاء من أعضاء فريقي، لا بد من أنهم كانوا يستاءون مني غالبًا، لكن توجيهات أسرتي عادت عليّ بنفع عميم في أثناء مدة شغلي منصب مساعد رئيس الوزراء ورئيس الوزراء.

تعلمت من مراقبة والديَّ وأنا في حداثة سني تعظيم مفهوم الأسرة، كان والدايّ قريبين جدًّا من بعضهما، وقد اعتاد والدي الجلوس علىٰ الأرضية في المساء ومد رجليه وإسناد ظهره إلىٰ الركيزة الأساسية لمنزلنا وهو يتحدث إلىٰ أمّي، كانت ناحية

الركيزة مكانه المفضل، وقد أصبح سطحها أملسًا علىٰ مر السنين من كثرة اتكائه عليها،لم أكن أعرف الموضوعات التي كانا يناقشانها لكنهما كانا رفيقين جيدين، ومع أنهما لم يظهرا عواطفهما لبعضهما لأن فعل ذلك لم يكن لائقًا آنذاك، إلا أنني عرفت أنه جمع بينهما حب كبير.

مع تقدم والدي في السن ومعاناته من قلبه، أعرض عن الذهاب إلىٰ أي مكان، وأعتقد أنه خشي أن يموت وهو بعيد عن المنزل، كنت قد أصبحت طبيب صحة عامة مقيمًا في المستشفيات الحكومية حينئذٍ، لكني حرصت علىٰ زيارة والدي كل يوم، وفي النهاية جاء اليوم الذي رفض فيه تناول الدواء الذي وصف له فضعف جسمه إلىٰ أن فاضت روحه بهدوء في سنة ١٩٩٢م.

لم يعد لدىٰ أمي رغبة في العيش بعد وفاته فانزوت عنا جميعًا، لم تعد تأكل جيدًا أو تتحدث كثيرًا، وبعد مدة، تمددت علىٰ حصيرة علىٰ الأرضية فاترة الهمة وقد قبضت رجليها والظاهر لي أنها لم تكن ترغب في النهوض، وفي النهاية تجمدت رجليها في تلك الوضعية، وعندما فاضت روحها لم نستطع تمديدهما، كان لدي عيادة خاصة آنذاك وكنت أتوجه إلىٰ المنزل في كل يوم لأتفقدها بعد أن أعالج آخر مرضاي، حاولت أن أبعث السرور في نفسها، لكن الأمر بدا صعبًا ومحبطًا، وبعد ثلاث سنين من وفاة والدي، فارقت والدتي الحياة أيضًا.

تعلمتُ من والدتي أيضًا أهمية الأسرة الكبيرة؛ إذ كنا شديدي الالتصاق بأقاربنا، حتىٰ أقاربنا في النسب، علىٰ أن الروابط الأسرية والمنصب الرفيع ليست توليفة مريحة دائمًا، فبعد أن أصبحتُ رئيسًا للوزراء لم يفهم عدد من أفراد أسرتي الموسعة أنني لا أستطيع استخدام سلطتي في الحصول علىٰ ما أريده (أو يريدونه)، فقد توقع بعضهم أنني سأحابيهم في العقود والتراخيص وما شابه ذلك فكانوا يأتون إلىٰ منزلي مسلحين بمغلفاتهم البنية التي تحتوي علىٰ كافة أنواع العروض، لكن

جل ما كان في استطاعتي فعله هو أداء دور رجل بريد وإيصال هذه المغلفات إلىٰ المسؤولين المعنيين وربما كتبتُ علىٰ المغلفات في بعض الأحيان «أرجو النظر»، يقول البعض: إنها عبارة كافية للتأثير في المسؤولين وتقديم المطلوب، لكني أعرف أيضًا أن أغلبية أقربائي وأصدقائي لم يحصلوا علي شيء؛ وإذا تلقوا ردًا إيجابيًّا فلأن عروضهم كانت قوية في نظر المسؤولين المعنيين.

ما يزال بعض أقربائي الذين فشلوا في الحصول علىٰ شيء يقاطعونني، وفي إحدىٰ الحالات، سعىٰ ابن أختي أحمد مصطفىٰ -وهو صحافي - دخول قطاع الأعمال وحاول إقناعي بشراء ما قال إنه طائرة سوخوي - ٣٥، وقلت له: إن أي قرار بالشراء سيعتمد علىٰ مدىٰ جودة الطائرة، وعندما استعلمتُ عن المسألة مستعينًا بأحد الروس، قال: إنه لا يوجد طائرة اسمها سوخوي - ٣٥، ولكن هناك سوخوي - ٣٠ التي اشترتها الهند فقط، ولم يتم تصنيع النموذج ٣٥ إلىٰ يومنا هذا، حتىٰ إني سألت الرئيس الروسي فلاديمير بوتن عن هذه الطائرة بما أنني رغبت في تأمين الأفضل لسلاحنا الجوي، وأكد لي أنه ليس لديهم طائرة اسمها سوخوي - ٣٥؛ ولذلك قررت حكومتنا شراء سوخوي - ٣٠.شعر مصطفىٰ أنني خذلته شخصيًّا وما يزال كذلك إلىٰ اليوم، وهو لا يكلمني، هذه هي مخاطر تولي منصب عام، ويتعين عليّ تحمل استياء أقاربي مني.

عرف أبنائي وجهات نظري فلم يزعجوني، حتىٰ أني لم أسمح لهم بالترشح لمناصب في أمنو أو الترشح للانتخابات، فلدي إيمان راسخ بأنه ليس لأسرتي دور تؤديه في الحكومة وكنت رئيس وزراء الشعب وليس أسرتي.

وفي بعض المناسبات حصل أبنائي علىٰ أسهم في شركات وعلىٰ تراخيص لاستيراد سيارات، فأحسست بعد تقاعدي أن حرمان أبنائي من الاضطلاع بدور في السياسة لم يعد منصفًا إذا كانت تلك مشيئتهم، لم ينتفع أبنائي مباشرة من السنين

التي قضيتها رئيسًا للوزراء، ومع أنه ليس في يدي حيلة عندما يربط بعض بينهم وبين اسمي، فقد بنىٰ أبنائي حياتهم ومستقبلهم بأيديهم. وكما تلقيت المبادئ الأخلاقية من والدي ووالدتي، تلقىٰ أبنائي التوجيه الأخلاقي منّي أو هذا رجائي، ومن بين جميع الدروس التي آمل أنهم تعلموها، أهم درس هو عدم إساءة استخدامهم لمناصبهم[1].

۞ ۞ ۞

كان أبي مولعًا بالكتب في مختلف العلوم، في الفقه والتفسير والحديث واللغة والتاريخ والأدب والنحو والصرف والبلاغة، وإذا كان الكتاب مطبوعًا طبعتين: طبعة أميرية وطبعة أهلية لم يرتح حتىٰ يقتنيه طبعه أميرية، وقد مكنه عمله مصححًا في المطبعة الأميرية أن يقتني كثيرًا مما طُبِعَ فيها وكانت هذه المكتبة أكبر متعة لي حين استطعت الاستفادة منها، وقد احتفظت بخيرها واتخذته نواة لمكتبتي التي أعتز بها وأمضي الساعات فيها كل يوم إلىٰ الآن[2].

ماتت أمي وأنا أستاذ بكلية الآداب سنة ١٩٣٦ وقد ناهزتْ الثمانين، وكانت من أسر «تلا» بالمنوفية فانتقلت إلىٰ القاهرة لأسباب لا أدريها، واشتغل رجالها بالتجارة، فكان خالاي تاجري «عطارة» في الغورية.

أمي طيبة القلب، كانت أقرب إلىٰ السذاجة، وكأكثر نساء وقتها، أمية لا تقرأ ولا تكتب، وكانت محبوبة من أهل حارتها لطيب قلبها، أما أنا فشديد الحب لها والإشفاق عليها؛ لأنها تألمت كثيرًا في حياتها، فقد مات ثلاثة من أولادها وهم في شبابهم، وعاملها أبي معاملة شديدة قاسية، سلبها كل سلطاتها وكبت شخصيتها

---

(١) د. مهاتير محمد، طبيب في رئاسة الوزراء ص٢٩، ٤٠.
(٢) أحمد أمين، حياتي ص١٩-٢٠.

وحرمها دائرة نفوذها، وطغىٰ بشخصيته علىٰ شخصيتها فعاشت كسيرة القلب منقبضة النفس، لا يحملها علىٰ البقاء في البيت إلا حبها لأولادها، فتحتمل ذلك كله وتطيل الاحتمال، وتصبر وتطيل الصبر وتحن علينا، وإذا غضب علينا أبونا احتمينا بحنوها وأنسنا بعطفها.

ولهذا لمّا كان لي من الأمر شيء جهدت أن أريحها وأسعدها وأقضي دينها، وكم كنت أتمنىٰ أن تعيش معي بعد وفاة أبي لأطالع وجهها وأتلقىٰ دعواتها صباح مساء، ولكن صمَمَتْ أن تكون في حيِّها بين جيرانها، وخشيتُ أن ينالها أذىٰ ولو قليل من العِداء الطبيعي بين الزوجة والأم، فجاريتها علىٰ رأيها وخضعت لمشورتها.

كانت سخية اليد علىٰ قلة ما تملك، لا تعبأ بالمال إلا ما يضمن معيشتها، لما ركنتْ إليَّ ووثقتْ بي تنازلت عن مالها لأولادها، لم أسمع منها يومًا تفكيرًا في تدبير مال ولا شكوىٰ حال، ولا حسدًا لغني ولا اعتراضًا علىٰ قدر.

فقدتُها وأنا كبير ولي زوجة وأولاد، ومع هذا أحسست بفقدها فراغًا لم يملأه شيء، وبذلت جهدي في إراحتها، حتىٰ لما هرمتْ كنت لا أستريح إلىٰ سفري إلىٰ الإسكندرية للتصييف إلا إذا كانت معي، أستبشر كل يوم برؤيتها والجلوس إليها ومع هذا لا أرىٰ أني قضيت لها بعض دينها، وكانت تبشرني من صغري بأني سأكون أسعد أولادها؛ لأنها رأت ليلة في منامها أني كنت أسير بجانبها، فدخلنا بيتًا فُتِحَ لنا فيه كنز، وإذا غرف مملوءة ذهبًا، فأمرتني أن أملأ حجري منه علىٰ عجل، فقال لها الملك الموكل بالكنز: لا تعجلي فكل هذا لابنك هذا، ففرحت بهذا الحلم واعتقدت صحته واستبشرت به، وصارت تعيده علىٰ كل مناسبة وفي جميع أدوار عمري إلىٰ أن ماتت(١).



(١) أحمد أمين، حياتي ص٢٥٨، ٢٥٩.

لا يجب أن يتوقع أحد أن يكون بحوزتي صورة لأبي وأمي يوم زواجهما، يبتسم فيها الزوج لزوجته كما يفعل الناس في هذه الأيام، لديّ بالفعل صورة لأبي يوم زواجه، ولكنها له وحده، فقد ذهب بمفرده إلىٰ المصور بعد إتمام عقد الزواج، فالتقط له المصور صورة، وبدلًا من الزوجة استند أبي بيده إلىٰ بضعة كتب، وكتب خلف الصورة التي ما تزال في حوزتنا، أنه اختار الكتب رمزًا أو شعارًا، كما كتب أيضًا وراء الصورة «وأرجو من الله أن يوفقني إلىٰ عمل عظيم أنفع به أمتي»، وقد وفقه الله إلىٰ ذلك فعلًا، ولكن المهم لديّ أنه لم يشر فيما كتبه وراء الصورة -ولو إشارة عارضة - إلىٰ أمي التي كان قد عقد لتوّه زواجه عليها.

كان أبي رجلًا قليل الكلام قليل المرح، يأخذ الحياة مأخذ الجد، ولا يجد متعة حقيقية إلا في القراءة والكتابة، والزواج في نظره لا يستلزم الحب، بل هو لمجرد تكوين أسرة وإكمال الدين، ومن ثم فهو يطلب يد أمي دون أن يراها، وأسرة الفتاة تقبل تزويجها له دون أن تشترط موافقة الفتاة، التي لم تكن بدورها قد وقعت عيناها عليه قط، المهم فقط أن ترضىٰ أسرة الفتاة أو وليّ أمرها عن خلقه واستقامته وتتأكد من قدرته المالية.

بدأت أمي منذ أيام زواجها الأولىٰ تضيف القرش بعد القرش إلىٰ دفتر التوفير بمكتب البريد، تقتطعه مما يعطيه لها أبي من مصروف البيت، فلم يكن لها مصدر للدخل إلا هو، وهي تحتفظ بحجم مدخراتها سرًّا من الأسرار لا يعرفه غيرها، كان أبي يعرف ما يحدث بالضبط ويغض البصر عنه، وحيث تعرف قلة مبالاته بالمال فإنها تبالغ في تصوير ما يتكلفه الطعام ولوازم البيت فيعطيها دائمًا ما تطلبه دون نقاش، وهو يعرف جيدًا أن ما يعطيه لها أكثر بكثير مما تحتاجه؛ ولكنه إذ كان يعرف هو نفسه عجزه التام عن الادخار يتظاهر بتصديقها أملًا في أن تقوم هي بما يعجز عن القيام به من ادخار، فاجأته مرة بإخباره أنها أصبحت الآن تملك ثلاثمائة أو أربعمائة

جنيه في دفتر التوفير، وأنها تريد أن تشتري منه نصف البيت الذي نسكنه، وكانت قيمة هذا النصف تزيد بالطبع عدة مرات عما تملكه، فإذا به يوافق دون مناقشة، علىٰ أن يكتب باسمها نصف المنزل، وتصرّ هي بعد قليل علىٰ تسجيل ذلك رسميًّا فيسجّله، ثم لم تنقض سنتان أخريان أو ثلاث حتىٰ أعلنت أنها تملك الآن بضع مئات أخرىٰ وأنها ترغب في شراء النصف الآخر، فوافق أبي علىٰ ذلك أيضًا، رغم تفاهة المبلغ الذي تعرضه عليه، وإذا بالبيت الذي نسكه وهو فيلا جميلة من دورين بحيّ راق من أحياء القاهرة (الدقي) قد اشترته أمي بأقل من ألف من الجنيهات، ثم تمر بضع سنوات أخرىٰ وإذا بأمي تقول لأبي ضاحكة إنه يسكن في بيتها دون أن يدفع لها إيجارًا، ثم تتحول النكتة إلىٰ جد، فيقبل أبي أن يعطيها عشرين جنيهًا في الشهر إيجارًا للبيت الذي نسكنه، ولم تقنع أمي بهذا بل ظلت كل بضع سنوات تتندّر بتفاهة هذا الإيجار، معددة مزايا المنزل ومشيرة إلىٰ جماله وجمال حديقته، بما فيها من أشجار الجوافة وشجرة المانجو، فإذا بها تطلب كل بضع سنوات زيادة الإيجار ويقبل أبي عن طيب خاطر ما تطلبه.

مع أفضل الأفكار التي كانت تدور برأسه عن الأسرة السعيدة ومع كل حسن نيته، لم يكن قادرًا علىٰ التخلص من دور الزوج الديكتاتور صاحب السلطة المطلقة أو أن يجد في نفسه القدرة علىٰ ملاطفة امرأته، ظلت والدتي طول حياتها لا تستطيع أن تصدّق أن زوجها لم ينادها باسمها مرة واحدة، بل كان إذا أراد أن يلفت نظرها إلىٰ شيء صاح «يا ولد» فتفهم أنها هي المقصودة، وكانت تتندر بذلك أحيانًا إذا أحسّت منه ببعض الرضا، فتسأله عما إذا كان من المحتمل أن يأتي اليوم الذي تترقىٰ فيه فيخاطبها علىٰ الأقل بـ«يا بنت!»، إن كان مصرّا علىٰ رفضه أن يناديها باسمها، فأقصىٰ ما يستطيع إذا شعر نحوها بمنتهىٰ الرضا أن يناديها بـ«أم حمادة»، مستخدمًا اسم التدليل لأكبر أبنائهما، ولكن هذا أمرًا نادرًا للغاية لا أذكر أني سمعته

منه أكثر من مرتين أو ثلاث طول حياتي، وإن كانت هي شغوفًا بذكر القصة التالية علىٰ مسامعنا، عندما نوديت بالفعل بـ«أم حمادة» في ظروف كان أبي يشعر فيها بمنتهىٰ الاضطراب والخجل أمامها، وهو الأمر الأكثر ندرة بالطبع والأكثرر مدعاة لشعورها بالاعتزاز والفخر.

أما القصة فهي أن أبي كان يخطر له أحيانًا في لحظة من لحظات سأمه من القراءة والكتابة، أن يقوم بعمل غير مألوف لديه، من باب الترويح عن نفسه، كصنع المربىٰ مثلًا، كانت أمي في زيارة لأخيها عندما خطر لأبي مثل هذا الخاطر فأتىٰ ببعض البلح وشرع في صنع المربىٰ، فوضع البلح مع بعض السكر علىٰ النار ونسي أن يضيف الماء، ثم خطرت له فكرة مقال جديد فغادر المطبخ واتجه إلىٰ حجرة مكتبه ليشرع في الكتابة ونسي أمر المربّىٰ برمّته، وصلت إليه بعد مدة رائحة حريق، فإذا به يجد البيت كله وقد امتلأ بالدخان، وبينما كانت أمي تصعد السلّم عائدة من زيارتها استقبلها أبي في أعلىٰ السلم وهو مضطرب، وقد اعتلت وجهه ابتسسامة عريضة، وقال لها مُرحبا علىٰ غير عادته: «أهلا بالست أم حمادةَ». وأصابت أمي دهشة عظيمة، إذ تُستقبل هذا الاستقبال الحافل، وبهذا التعبير الودي غير المألوف، فنظرت إليه نظرة ملؤها الشك قائلة: «والله إنت عامل عَمْله!»، وسرعان ما اكتشفت قصة المربىٰ التي لم يكن من الممكن إخفاؤها فاتضح لها كل شيء[١].

كان أبي بلا شك رجل مبادئ، كان رجلًا نزيهًا وعـادلًا، مستعدًا للتضحية بمصلحة خاصة له في سبيل المصلحة العامة، أو في سبيل ما يعتقد أنه العدل، وكانت كلمة العدل من أكثر الكلمات ترددًا علىٰ لسانه، وقد ذكرها طه حسين في المقال الذي نشره في رثاء أبي، حين قال إن أصدقاءه كانوا يسمونه «العدل» لكثرة ما كان يذكره في كلامه، وقد فهمت من ثنايا السطور التي كتبها طه حسين عن ذلك

---

(١) جلال أمين، ماذا علمتني الحياة ص٢٣، ٣١.

أن شعوره نحو هذه الصفة من صفات أبي كان مزيجًا من التقدير والإشفاق؛ إذ كان يرىٰ أن أبي يفرط أحيانًا -في نظر طه حسين علىٰ الأقل- في التمسك بما يعتقد أنه العدل.

ولكن يبدو أنه مهما كانت قوة تمسك المرء بمبادئه وحبه للعدل، لا بد أن تكون لهذا الأمر حدود إذا تعلق بما فيه مصلحة مهمة لأولاده، سمعت أبي أكثر من مرة يقول بشيء من الحزن الحديث الشريف: «إن الولد مجبنة مبخلة»، أي أن من له أولاد يميل إلىٰ أن يكون أكثر جبنًا وأقل كرمًا ممن لا ولد له، ولا شك أن أبي كان يقول ذلك متأثرًا بتجاربه، فمن المؤكد أنه شعر أنه لولا كثرة أولاده لاتخذ مواقف أكثر جرأة في مواجهة أصحاب السلطة، ولما قَبِلَ أن يقوم بأعمال تدرّ عليه دخلًا أكبر علىٰ الرغم من كراهيته لها.

كان أبي يعتقد اعتقادًا راسخًا بأن من أسوأ طرق تربية الأولاد أن يجدوا من السهل الحصول علىٰ المال كلما احتاجوا إليه، كانت قد نمت إلىٰ علمه قصتان أو ثلاثة عن أولاد بعض الأثرياء الذين أفسدتهم كثرة الأموال في أيديهم، وكان كثيرًا ما يعيد علىٰ أسماعنا ما حدث لابن ذلك الثريّ الكبير، الذي أضاع ميراثه الضخم وأصبح يتسوّل المال من هذا الصديق القديم أو ذاك، إلىٰ أن انتهت حياته أسوأ نهاية.

لهذا وضع أبي قانونًا مقتضاه أن يعرف كل منا المبلغ المخصص له بالضبط في كل أسبوع (عندما كنا صغارًا)، ثم في كل شهر (عندما كبرنا)، ويستحيل عليه في أي ظرف من الظروف أن يحصل علىٰ أكثر منه، وقد طبق أبي هذا القانون تطبيقًا صارمًا، لقد كان يبدو لنا في بعض الأحيان بالغ القسوة والتّزمت، عندما تظهر حاجة شديدة لم تكن متوقعة، أو عندما يكون المبلغ الإضافي المطلوب تافهًا لا يجوز التشدد بشأنه، كان يلجأ في بعض هذه الأحوال -وإن كان هذا نادرًا- إلىٰ التحايل علىٰ هذا

القانون بأن يعطىٰ والدتي المال الإضافي المطلوب، ويوصيها سرًّا بأن تعطيه للولد المحتاج متظاهرة بأن المبلغ منها هي، وأنها تعطيه من دون علم منه؛ لكي يستمر الاعتقاد راسخًا لدينا بأن مصادر المال محدودة ولا يمكن زيادتها بمجرد الطلب، وأظن أن النتيجة النهائية كانت طيبة، فلم يصبح أي منا -نحن الإخوة الذكور أو الإناث - متلافًا للمال، وكان لدىٰ بعض إخوتي ميل إلىٰ اكتناز المال أكثر من الباقين، ولكن لم يكن هذا ما يخشاه أبي[1].

۞ ۞ ۞

حين بدأت أنشر مقالاتي بالمجلات الأدبية، كنتُ أرسل بعضها إلىٰ والدي إذ يهمه أن يتابع ما أكتب، وفي جلسة هادئة معه، قال لي: أنت يا ولدي تكتب مقالات عن الغزل في شعر المرأة، وإنجلترا في مرآة حافظ، والجن في منطق الأساطير، وشعر معروف الرصافيّ والزهاويّ! وهذا جيد، ولكن الأجود منه أن تكتب كتابًا يفيدك في الدنيا والآخرة، قلت: في أي موضوع أكتب؟ فقال بدل أن تتحدث عن الرصافي والزهاوي وحافظ وشوقي تتحدث عن الأئمة الأربعة أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل، فتزداد علمًا وفقهًا، ويدركك الثواب من الله، فكان حديث والدي مدعاة لأن أكتب مُؤلَّفًا مستقلًّا عن الإمام أحمد بن حنبل في نسق أدبيّ يزيل جفاف التراجم الفقهية، وحين قدّمته إليه في طبعته الأولىٰ التي نشرتها الدار القومية

---

(١) د. جلال أمين، رحيق العمر (ص٥٤-٦٠). ومن الممكن اعتبار هذا الكتاب الجزء الثاني من «ماذا علمتني الحياة؟»، فهو استكمال له، ولكن ليس بمعنىٰ أنه يبدأ من حيث ينتهي الأول، بل بمعنىٰ أنه أيضًا سيرة ذاتية، وأحاول فيه أيضًا أن أستخلص «ماذا علمتني الحياة؟». هذا الكتاب يسير موازيًا للكتاب الأول، فهو مثله يبدأ من واقعة الميلاد، بل قبل الميلاد، وينتهي إلىٰ لحظته الراهنة، لكنه بالطبع لا يكرر ما سبق قوله، وكأننا بصدد شخصين يصفان حياة واحدة، ولكن ما استرعىٰ انتباه أحدهما، واعتبره يستحق الذكر، غير ما استرعىٰ انتباه الآخر. د. جلال أمين، رحيق العمر ص٩.

للنشر في أوائل الستينات، كان فرحه به لا يصدق وقد اشترىٰ من السوق عدة نسخ منه، وجعل يهديها لمن يزوره في منزله من الأحباب كما يصفهم، واتفق مع صديقه العارف بالله الشيخ علي عثمان رحمه الله، أن يقرآ الكتاب معًا، في جلسات تحدد موعدها، وأذكر أن الشيخ علي عثمان قابلني بعد عدة أشهر فقال لي مبتسمًا: الكتاب كله نور نور، وكان في نيتي أن أواصل الكتابة عن الثلاثة الأئمة، ولكن لله شئونًا تصرف الإنسان عما يبتغيه![1]

❁ ❁ ❁

لمّا نوقشت رسالة الماجستير[2] مناقشة علنية، وغص المدرج رقم ٧٨ الذي عُقِدَت فيه المناقشة بكلية الآداب بحشد كبير من الطلاب والجمهور حتىٰ لم يكد يبقىٰ فيه مكان لقدم..!، وفي أثناء قراءة تلخيص الشاب[3] لرسالته حانت منه التفاتة فوجد أباه الشيخ واقفًا مع عشرات من الطلاب مكدسين في مدخل المدرج ولم يكن أنبأ أباه بيوم امتحانه، غير أن أباه قرأ خبرًا عنه في الصحف صباحًا، فسافر إلىٰ القاهرة توًّا، واتجه إلىٰ الجامعة، فسمع ابنه -وهو ما يزال علىٰ أبواب الجامعة الخارجية- يُلقي تلخيص بحثه! وما أعجب الآباء..! إنهم يمنحون أبناءهم الحياة والوجود، ويمنحونهم أنفَسَ ما يملكون.. يمنحونهم القلوب والأفئدة، بل كل ما

(١) د. محمد رجب البيومي، ظلال من حياتي ص١.

(٢) ستأتي تفاصيل أوسع لهذه الرسالة وموضوعها في فصل الجامعة من فصول هذا الكتاب.

(٣) كتب د. شوقي ضيف سيرته بصيغة الغائب متبعًا في هذا أستاذه طه حسين وسيمر هذا في الكتاب كثيرًا. يقول جلال أمين: وجدت بعض كُتّاب السيرة الذاتية يفضلون الإشارة إلىٰ أنفسهم بصيغة الغائب، فبدلًا من أن يكتبوا قلت وفعلت، يقولون قال صاحبنا أو قال الفتىٰ كذا أو فعل كذا. ولم أستسغ هذه الصيغة قط في القراءة، فلم يخطر ببالي قط أن أستخدمها في الكتابة. وإذا كان البعض يرىٰ في هذه الصياغة تواضعًا فإني أرىٰ فيها عكس ذلك، بل إنها تمكّن الكاتب من كيل الثناء علىٰ نفسه، ونسبة الفضل إليها بأكثر مما تمكنه الإشارة المباشرة إلىٰ نفسه دون التواء. ماذا علمتني الحياة ص١٨.

تشتمل عليه الأفئدة والقلوب من الحب الخالص لا يبتغون عليه جزاء ولا شكورًا، ومهما صنع الأبناء لآبائهم، ومهما قدموا لهم من العون ومن الرفق والود وصفو الحياة فلن يستطيعوا أن يوفوهم حقوقهم، لا حقوق رعايتهم وتربيتهم فحسب بل -أيضًا - حقوق البر والرحمة والحنان والعطف والشفقة(١).

۞ ۞ ۞

لن أنسىٰ أبي المكافح الشيخ عبد المقصود، الذي كان يضاعف العمل -رغم تقدم سنه- لكي يساعد في الوفاء بالتزامات هذه الأسرة التي ازداد عددها وضاعفت الحرب من أعباء القائم علىٰ أمرها.. كذلك لا أنساه وهو يصر علىٰ الخروج إلىٰ صلاة الفجر كل يوم، والظلام دامس والغارات متوقعة، ولكنه كان دائمًا يجد من إيمانه نورًا يهديه، ومن صلته بربه درعًا يحميه... ثم لا أنساه وهو الرجل الذي لم يشتغل بالعلم ولم يعايش الكتاب، يدرك بفطرته النقية قيمة العلم والكتاب؛ ولذا كان يقول لي حين يعرف أني اشتريت كتابًا جديدًا: «اشتر الكتب ما استطعت، فالكتب زينة للرجال كما أن الحلي زينة للنساء».. رحمه الله، فقد كان قدوة في تقدير العلم وفي الاستقامة والحفاظ علىٰ الكرامة(٢).

۞ ۞ ۞

كانت حياتنا في البيت منظمة والسبب يرجع إلىٰ أمي، فمواعيد الإفطار ووجبتا الغداء والعشاء كانتا دائمًا هي هي لا تتغير إلا عند انتقالنا من بلد إلىٰ بلد، فكان أبي يستيقظ مبكرًا في الصباح وفي نفس الميعاد، ثم يجمع الأسرة ميعاد وجبة الغداء وكنا نجتمع فيها سويًّا، حيث كان للمائدة احترامها فنبدأ الأكل معًا، وكانت أمي تغرف الأكل في الأطباق، تبدأ بطبق أبي فكان يرحمه الله أهم ما في حياتها.

---

(١) د. شوقي ضيف، معي (١/ ١٦٧).

(٢) د. أحمد هيكل، سنوات وذكريات ص٣٩-٤٠.

وكان بعد تناوله كل وجبة من الوجبات ينزل إلىٰ الشارع ليمشي نصف ساعة، علىٰ إثر نصيحة قدمها له طبيب صديق في أسبانيا، واستمر طوال عمره ينزل لكي يمشي نصف ساعة ثلاث مرات في اليوم، وكانت أهمية ذلك المشي أن عمله كان يتطلب منه الجلوس إلىٰ مكتبه ساعات طويلة متصلة، وحتىٰ بعد عودتنا نهائيًّا إلىٰ مصر -كان ذلك في منتصف السبعينيات - وجد أنه من الصعب المشي في الشوارع في القاهرة بسبب عدم أمان الأرصفة فكان يتمشىٰ داخل البيت.

وأظن أن انتظام استيقاظه في نفس الميعاد وانتظام مواعيد الأكل بالذات هي من العناصر التي ساعدته في عمله كثيرًا، حتىٰ استطاع أن ينتج هذا الكم الهائل من الكتب في مجال تخصصه -وهو التاريخ الإسلامي- ومئات المقالات للصحف والمجلات، وكذلك ما كان يكتبه من قصص أدبية، ويرجع الفضل في هذا الانتظام إلىٰ أمي.

كان بيتنا -عمومًا - يتسم بالهدوء والصمت، فأبي يعمل في البيت بعد الظهر في القراءة والكتابة، حيث يجلس إلىٰ مكتبه ساعات طويلة لا يمل أبدًا، وكذلك أمي أيضًا تقرأ، وأما أنا فحين كنت صغيرة لم أكن أفهم ما هي القراءة ولا ما الذي يقومان به. فكنت أفتح أي كتاب وأنظر في صفحاته لعل به شيئًا يظهر بعد التدقيق فيه، ولكن لم يحدث طبعًا شيء من هذا القبيل، فكنت ألعب وغالبًا أقوم بصنع مراكب من الورق وألعب بها إما في الحوض وإما في طشت الغسيل بالحمام؛ ولأنني لم أفهم قيمة الكتب والكتابة كنت أحيانًا آخذ صفحات من كتاب موجود في مكتبة أبي أو جزءًا من مقال كان يكتبه وأصنع منه أسطول المراكب الذي سألعب به، وهذا ما يثير يغضب أبي، فيلومني علىٰ ذلك كثيرًا، حتىٰ فهمت أن هذا الورق المطبوع مهم وذات قيمة، ثم بدأت أمي تعلمني الحروف وكذلك أبي يفعل ذلك أحيانًا، فتعلمت فك رموز الكتابة قبل دخولي المدرسة بمدة.

وعند خروجنا للشارع بدأت أقرأ الإعلانات وأسماء المحلات وكانوا يكافئونني علىٰ ذلك، وبالتدريج انفتحت أمامي عوالم جديدة لم أكن أتصور أنها موجودة وحدث ذلك عن طريق القراءة، ويرجع الفضل في هذا الكشف إلىٰ كل من أبي وأمي ثم أصبحت القراءة -وبالذات بعد دخول المدرسة- عادة أقوم بها كل يوم حتىٰ أصبح من الصعب التخلص منها، وتابعني أخي علىٰ نفس العادة وأصبح أكثر شغفًا مني بالقراءة، ويرجع فضل ذلك إلىٰ الأبوين ووجود مكتبة بالمنزل واحترام الكتاب، فالكتب في بيتنا كانت تعامل بعناية وتوضع في مكان آمن وتنظف ولا يكتب فيها إلا بالقلم الرصاص لو لزم الأمر ذلك.

القراءة حقيقة شيء جميل، ولكن لو دخلت بيتًا ووجدته كل يوم من أيام الأسبوع صامتًا لأن صاحبه يقرأ ويكتب فلا بد أن تشعر الزوجة بالمعاناة من هذا الوضع، إذ يكون الزوج دائمًا معها جسديًّا ولكنه منهمك في عمله روحيًّا، ومثل هذا الرجل يحتاج إلىٰ نوع معين من الزيجات فلا أتصور أن أي امرأة تستطيع أن تتقبل ذلك، أما في بيتنا فقد كان أبي يمضي طول عمر زواجه علىٰ هذا المنوال جالسًا كل يوم ساعات طويلة مشغولًا بعمله، غير أن أمي[١] تكيفت في هذا الجو وتعلمت كيف تملأ وقت فراغها دون أن تسبب له أي إزعاج.

ورغم اشتغاله الدائم بقراءاته وكتاباته فلم ينس أبي أمي أبدًا، إذ استمر طول حياته يخصص لها يومًا يخرجان فيه وحدهما ويبعدان عن العمل، وكان هذا اليوم هو ظهيرة أيام السبت في أسبانيا وأيام الجمعة بالكويت، وفي هذه الأيام تحديدًا لا يفتح أبي موضوع عمله فكان هذا اتفاقًا بينهما[٢].

---

(١) تزوج الدكتور حسين مؤنس من فتاة سويسرية.

(٢) د. منىٰ حسين مؤنس، في بيت حسين مؤنس ص٣٣، ٣٩.

في السنوات الثلاث الأخيرة من عمر أبي حرصت أمي علىٰ الاستيقاظ قبيل الفجر -في حوالي الثالثة صباحًا- حتىٰ تقوم بكل أعمال البيت قبل أن يصحو أبي من النوم في حوالي السابعة صباحًا، إضافة إلىٰ أنها تكرس اليوم كله لمساعدته في جميع احتياجاته، وكنت كثيرًا أقول لها: إن هذا تعب كثير عليك، فكانت تقول: «إن أباك تحملني طول عمره ودللني وأحبني وأعطاني الكثير جدًّا واحترمني حقيقة طوال زواجي منه، وجاء الدور عليَّ أن أُعيد إليه بعض هذه الأفضال العديدة، وأنا سعيدة بما أقوم به من أجله»[1].

❁ ❁ ❁

من الأمور الكبيرة التي أذكرها لأمي بكل تقدير واعتزاز حرْصَها علىٰ أن تجعل من بيتها سكنًا سعيدًا، يغمره الهدوء والحب، وأشهد أنها وُفِّقَت في ذلك توفيقًا لا مزيد عليه، فلا أذكر أن خصامًا أو شجارًا أو ملامة من أي نوع وقعت بين أبي وأمي.

كان منزلنا -بطوابقه الثلاثة ونوافذه التي تطل بعضها علىٰ بستان يجاوره، حافل بأنواع الشجر وأفواف الزهر - منزلًا غارقًا في الصمت والهدوء والسعادة، ورغم أن أبي لم يكن ميسورًا فلم أشعر يومًا بحاجة أو بحرمان، ويعود الفضل إلىٰ حكمة أبي وتدبير أمي، وإلىٰ جو الصفاء الذي كان يلف بيتنا.

ولقد اعتقدت بعض الوقت أنه لم يحدث أي خلاف بين أبي وأمي طوال الفترة التي عشتها بينهما، وكان ذلك يثير في نفسي تساؤلًا لم أعرف له جوابًا، ثم عرفت بعد ذلك أن خلافات كثيرة قد حدثت بينهما، وصلت في بعض الأحيان إلىٰ الطلاق، وقد أثار ذلك في نفسي تساؤلًا آخر وهو:

---

(١) د. منىٰ حسين مؤنس، في بيت حسين مؤنس ص١٤٥.

كيف استطاع هذان الأبوان أن يخفيا هذه الاختلافات عني، وكيف استطاعا أن يضبطا أعصابهما فلا تنفجر إلا في أوقات أكون فيها خارج البيت أو بعيدًا عنهما، وكيف حافظا علىٰ ذلك فأصبحا القاعدة التي لا تعرف الشذوذ؟، وهي تساؤلات يصعب الوصول إلىٰ أجوبتها، وإن كان الذي لا شك فيه هو أن الفضل الأكبر يعود إلىٰ أمي وإلىٰ حسن إدراكها لمسئوليتها تجاه أولادها، وإلىٰ إيمانهما جميعًا بأهمية البيت الصافي في تربية هؤلاء الأولاد، وفي إبعادهم عن كل ما يؤثر علىٰ نفسياتهم ووجدانهم وضمائرهم(١).

۞ ۞ ۞

اقتضت ظروف الحرب التوسع في خدمة السكة الحديد للمجهود الحربي للحلفاء في قناة السويس، فنُقل والد صاحبنا للعمل في محطة العجرود بين الإسماعيلية والسويس، وظل هناك مع أسرته الصغيرة حتىٰ عام ١٩٤٣، عندما نُقل إلىٰ القاهرة فلم تستطع الأسرة الحياة فيها بالراتب الضئيل الذي يتقاضاه الأب، إضافة إلىٰ أنه حُرم من السكن المجاني شأنه في ذلك شأن من يعملون بالقاهرة، فسارع بطلب النقل إلىٰ الريف، فكان من نصيبه العمل بمحطة أوسيم بمحافظة الجيزة عام ١٩٤٤ علىٰ خط المناشي (مديرية التحرير فيما بعد)، وظلت الأسرة هناك حتىٰ عام ١٩٥١ عندما رُقي الأب إلىٰ وظيفة «ملاحظ بلوك» ونُقل إلىٰ طوخ- قليوبية.

مع هذه التنقلات تأثرت أحوال صاحبنا تأثرًا شديدًا، فمنذ أواخر عام ١٩٤٣ عاش بالقاهرة مع جدته لأبيه، فكان الأب يحس بالذنب تجاهها لتركه لها (رغم ما عاناه من زوجها) وخاصة أن طلاقها من زوجها الثاني جعلها في حاجة إلىٰ رعاية

---

(١) عبدالعزيز الربيع، ذكريات طفل وديع ص٢٤٢-٢٤٤.

ولدها الوحيد لها، فقد كانت تكسب عيشها من الاشتغال بالخياطة لجيرانها من سكان المنطقة الشعبية التي كانت تقطنها بشبرا.

رفضت الجدة أن تترك القاهرة وتعيش مع أسرة ابنها، فقد كانت تكره زوجته (أم صاحبنا) لأنها كانت من اختيار طليقها (والده)، فخصص لها نجلها ربع دخله المحدود، وأصرت علىٰ أن تحتفظ بصاحبنا (الطفل) معها ليلتحق بكُتَّاب مشهور بشبرا بأرض البدراويّ التي تقع مقابل مدرسة التوفيقية علىٰ شارع شبرا، وكانت فاتحة الإقامة مع الجدة سقوط صاحبنا (الطفل) من الطابق الثاني من فوق درج البيت (الذي كان بلا سياج) ليهوىٰ علىٰ رأسه في صحن البيت، وظل صوت ارتطام رأسه بالأرض يدوي في أذنيه عدة سنوات، وظل لمدة سنتين (بعد الحادث) يهب من نومه مذعورًا يبكي لساعات.

لم يكن الاستيقاظ في منتصف الليل في حالة هلع وذعر شديدين هو كل ما ترتب علىٰ الحادث المروع من نتائج، فقد أصيب صاحبنا بكسر في الفك الأيسر لم ينتبه إليه أحد إلا بعد نحو خمس سنوات من الحادث، ترتب عليه عدم استطاعته فتح فمه باتساع يزيد عن نحو واحد ونصف سنتيمتر، وأورثته هذه العاهة -التي لازمته حتىٰ اليوم وستصحبه إلىٰ قبره - متاعب نفسية شديدة في فترة المراهقة علىٰ وجه التحديد، فكان لا يتناول طعامًا أمام غرباء عنه حتىٰ لا يثير فضولهم السؤال عن سبب تناوله الطعام بطريقة غريبة عن المألوف، بل جعلته هذه العاهة يحرص علىٰ أن يكون آخر من يدخل مطعم المدرسة الابتدائية، ويتلكأ في تناول وجبته حتىٰ ينصرف من حوله علىٰ المائدة، عندئذ يسرع بالتهام الطعام، وإضافة إلىٰ تلك العاهة فإنه كان يعيش حياته بعيدًا عن أسرته وإخوته الذين كان يزورهم يوم الخميس بعد انتهاء اليوم الدراسي ويعود من عندهم مساء الجمعة مما أورثه ميلًا إلىٰ الانطواء، وحذرًا شديدًا في الاختلاط مع أقرانه، وحرصًا شديدًا في اختيار من يتخذه صديقًا،

وصاحبته الكثير من أعراض تلك الحالة النفسية حتىٰ التحاقه بالجامعة، فبدأ يتخلص-تدريجيًّا - منها، فلم يبق منها إلا الحرص الشديد في انتقاء الأصدقاء.

منذ وعي، كان يسمع جدته تختتم صلواتها (التي تحرص عليها) بالدعاء علىٰ أمه سائلة الله أن «يحرق قلبها علىٰ أولادها» وكانت تعامله بجفاء شديد، فتمنعه من الخروج من الغرفة محدودة المساحة إلىٰ الشارع، ولم يستطع أن يتمتع بما يتمتع به أترابه من حرية اللعب إلا بعد التحاقه بالمدرسة، فكان لا يعود إلىٰ البيت كل يوم إلا قبيل الغروب، يتوقف أثناء العودة بملاعب التوفيقية الثانوية للفرجة علىٰ تدريبات الملاكمة والمصارعة والجمباز، ثم يتوقف في فناء كنيسة مارجرجس.

وحرصت الجدة علىٰ أن تكلفه بأمور لا تفسير لها سوىٰ إرهاقه انتقامًا من أمه في شخصه، فلا ترتاح إلا إذا أرسلته إلىٰ حقول منية السيرج ليقطع المسافة في ساعتين ذهابًا وإيابًا ليشتري من هناك بخمسة مليمات الملوخية والطماطم ويحصل علىٰ الفجل والجرجير (فوق البيعة)، حتىٰ إذا عاد من تلك الرحلة المضنية، صبت عليه وعلىٰ أمه اللعنات لأنه تأخر في مشوار هو مجرد «فركة كعب»، وإذا احتاجت لشراء الخبز أرسلته إلىٰ مخبز يقع علىٰ مسيرة ساعة ذهابًا وإيابًا رغم توافر الخبز عند بقال الحي، وكانت ترىٰ أن وجبة العشاء مضرة ولا تنفعه لأنه صغير وتناول العشاء قبل النوم يؤثر علىٰ قدرته علىٰ الفهم، وتتناول وحدها العشاء وهو يرقبها حتىٰ تعود ذلك، فحذف من قاموسه مصطلح العشاء، وإذا طبخت لحمًا أكلته وحدها (لأنها مريضة والحكيم وصفه لها)، وعندما تجرأ وأكل سرًّا قطعة من اللحم ظنًّا منه أنها لن تكتشف الأمر، اتضح أنها تحمل معها (محضر الجرد) فاكتشفت السرقة، ولعنته وأمه لأنه (مفجوع) مثلها، وتوعدته أن ينال من الله جزاء السارق، فيَصلىٰ نارًا موقدة، أما الإفطار فلا مكان له سوىٰ أيام الكُتَّاب، أما بعد الالتحاق بالمدرسة فلم تعد هناك حاجة إليه لأن المدرسة تقدم وجبةً ساخنةً أيام السبت والأحد والثلاثاء والأربعاء،

ووجبةً جافةً يومي الاثنين والخميس، وتناول وجبة الإفطار يؤثر علىٰ قدرته علىٰ التحصيل، فكان عليه أن يذهب إلىٰ المدرسة في الصباح سيرًا علىٰ الأقدام لمدة ساعة يوميًّا، دون أن يتناول طعامًا منذ ظهر اليوم السابق.

غير أن تطورًا خطيرًا عوضه عن الحرمان من الإفطار، فقد رفع والده مصروفه اليومي من مليم واحد (أيام الكُتَّاب) إلىٰ خمسة مليمات دفعةً واحدة عندما التحق بالمدرسة، وكانت الجدة ملزمةً بإعطائه المصروف يوميًّا لأن والده يعطيها أمامه مصروف الشهر ويحدد قيمة مصروفه اليومي، فكان يصر علىٰ الحصول علىٰ الخمسة مليمات يوميًّا، يشتري بها سندوتش أحيانًا، ويشترىٰ بها مجلة «البعكوكة» أسبوعيًّا، وعندما اكتشف وجود مجلة «سندباد» كان يشتريها من بائع الصحف بالتقسيط، فيدفع له خمسة مليمات لمدة أربعة أيام متتالية، وظل يشتري «البعكوكة»، وبذلك لم يتبق له إلا مصروف يوم واحد.

شكا حاله لأمه يومًا عند زيارته لأسرته في نهاية الأسبوع، فبكت وهي تستمع إلىٰ شكواه، وحرصت علىٰ أن تعطيه (سرًّا) ثلاثة قروش أسبوعيًّا حتىٰ يشترىٰ مجلاته المحببة، ويحتفظ بالمصروف اليومي لشراء سندوتش ولكنها لم تنقل الشكوىٰ للأب الذي كان يتقمص في البيت شخصية «سي السيد» التي أجاد تصويرها نجيب محفوظ، ولم تجرؤ علىٰ البوح بما يتعرض له ولدها من سوء المعاملة إلا عندما رسب بالفرقة الأولىٰ الثانوية، وفكر الأب في إنهاء تعليمه عند هذا الحد، فيلحقه بعمل حتىٰ يبلغ الثامنة عشر، عندئذ يسعىٰ إلىٰ تعيينه بالسكة الحديد بوظيفة كتابية، فانفجر غضب الأم الصبور المطيعة دومًا، وحكت للأب كل ما يعانيه ابنه، وتعرض الولد لاستجواب طويل من جانب الأب الذي كان يجهل تمامًا حقيقة ما يجري لولده، وعلىٰ ضوء ذلك قرر نقله إلىٰ مدرسة طوخ الثانوية (حيث كان يعمل هناك)، فأحس صاحبنا لأول مرة بدفء الحياة الأسرية، وتعرف علىٰ إخوته واندمج بينهم،

وفُتحت بذلك صفحة جديدة من حياته، كان لها أثرها في تكوينه النفسي، فتلاشىٰ الشعور بالاضطهاد الذي لازمه طوال حياته بعزبة هرميس، وتخلص تدريجيًّا من الانطواء، وتحسن أداؤه الدراسي كثيرًا، كما تحسنت أحواله الصحية، ولكنه لم يتخلص من كراهيته للجدة رغم اضطراره لزيارتها مرة كل أسبوع تنفيذًا لأوامر أبيه، ويحرص علىٰ العودة في اليوم نفسه بعدما تُسمعه معزوفتها المعتادة في نقائص أمه، وتنعىٰ عليه ما أصابه من زيادة الوزن مما يدل علىٰ أن أمه (تحشر) له الطعام، فيؤدي ذلك إلىٰ (تخن) مخه وخيبته في الدراسة (بإذن واحد أحد)!!.

لم يعد الفتىٰ يلقىٰ بالًا لهذا الهراء، طالما كانت الزيارة قصيرة روتينية، وعندما طلب منه والده أن يقضي إجازة الصيف مع جدته بعزبة هرميس، جرؤ -لأول مرة- علىٰ رفض طلب أبيه، ولكنه برر ذلك برغبته في العيش مع إخوته لأنه يشعر أنه يُعامل معاملة (المنبوذ) دون مبرر، واكتفىٰ الأب بتسديد نظرة قاسية نحوه، وقد كست ملامح الغضب وجهه، ولكنه لزم الصمت وانتهىٰ الأمر عند هذا الحد[١].

رأيتُ والدي قبل تقاعده يخرج من بيتنا حوالي الساعة الثالثة فجرًا، مصطحبًا معه أخي إبراهيم (شقيقي الأصغر) ليدركا القراءة قبل الفجر عند الشيخ المفضال عبيد الله الأفغاني -رحمه الله -، وظلَّا علىٰ هذه الحال بشكل يومي -تقريبًا- طوال عامين كاملين، حتىٰ أتقنا القرآن بروايتين، ومنحهما الشيخ الإجازة، فكانت لدىٰ أبي أغلىٰ كنوز الدنيا[٢].



(١) د.رءوف عباس، مشيناها خطىٰ ص٣٣،٢٣.

(٢) عبد الرحمن الجرعي، شذرات سيرية ص١٠.

كان أبي يحترم الكتابة كثيرًا، ولكنه يرىٰ أنها مسئولية خطيرة. قال لي أبي مرة: اكتب كأن العالم كله سيقرأ لك، واقرأ كأنك الشخص الوحيد الذي كُتب له الكتاب[1].

۞ ۞ ۞

تزوج الوالد في البداية حصة الصالح السحيمي وأنجبت ابنهما عبد الله (الأول) المتوفىٰ ووالدته مبكرًا، ولا يُستبعد كونهما تُوفّيا في سنة من سنوات الأوبئة التي مرت بالبلاد ورصدها المؤرخون النجديون، كسنة الرحمة التي تفشت فيها الإنفلونزا الإسبانية سنة ١٣٣٧هـ/ ١٩١٥م وتوفي بسببها خلقٌ كثير، وكان الوالد رثىٰ زوجته الأولىٰ (أم عبد الله) بقصيدة متداولة في أوساط المجتمع في نحو مئة بيت رباعية التشطير تُعرف باسم «السحيمية» يقول في مطلعها:

الحمد للمولىٰ علىٰ ما دهاني ... وصبر علىٰ ما قابلنِ به زماني

وأشكر لجبار السماء ما عطاني ... علىٰ وليف ما يحصَّل بالأثمان

كانت الوالدة تحفظها بأكملها وتثير غيرتها، وعندما تمازح الوالد بشأنها يَعِدُها بمثلها إن هي سبقته[2].

۞ ۞ ۞

حكيت ليوسف صايغ عن أمي، أخبرته كيف كنا نعيش في حجرتين، واحدة لها وأبي وواحدة أشغلها بكتبي، وبقية الأشقاء ينامون علىٰ الكنب الموجود في الصالة الصغيرة، أخبرته أيضًا أنها كانت تقضي وقتها في الركن عند ملتقىٰ كنبتين، ومرة لاحظت أن لمبة حجرتها مع أبي مطفأة دائمًا، وقلت مخاطبًا أصغر أشقائي:

---

(١) محمود عبدالشكور، كنت صبيًا في السبعينات ص٣٩.

(٢) د. عبدالرحمن الشبيلي، حكايات ذات ص٣٩، ٤٠.

«هي الأوضة دي مظلمة كده ليه؟». «اللمبة محروقة». «الله؟ طيب ما تغيروها».

قال: «ما هو ما حدش بيدخلها». «محدش بيدخلها؟». «أمك ما دخلتهاش من ساعة أبوك ما مات».

وكان أبي قد مات قبل ذلك بحوالي سبع أو ثماني سنوات، قلت ليوسف إنني كنت أجلس معها، وأراها في مكانها أثناء عبوري الصالة إلىٰ حجرتي، داخلًا أو خارجًا من حجرتي، تتفرج علىٰ التليفزيون أو تطل من الشباك المجاور أو تغفو قليلًا، ولم ألحظ أبدًا أنها قضت هذه السنوات في ركن هذه الصالة ولم تدخل هذه الحجرة بعد ما مات أبي، وانهمك يوسف الصايغ يجهش في البكاء بصوت مسموع، ترك دموعه علىٰ خديه وقال:

«لازم يا إبراهيم تكتبها في رواية». وأنا كتبتها في رواية، أتذكره بها دائمًا[1].

❁ ❁ ❁

مرضت أمي وسعت إلىٰ قلبها الآلام، وظلت شهورًا أربعة هي التي عاشتها بعده، وكانت تقاوم المرض والمرض يقاومها، وتدافع الهموم والهموم تدافعها، ويخرج طبيب ليأتي طبيب، وكان أبي شاردًا حزينًا يخفي همه بين ضلوعه، وحينما كانت تفاجئ أمي النوبة القلبية كان أبي يسارع إليها ويسند ظهرها علىٰ صدره، ويعكس وجهه ما تلاقيه هي من آلام وأوجاع إلىٰ أن انتزعها الموت يوم ١٩ من يونيو ١٩٤٢، وهي بين يديه فاندك البيت علينا ولمَّا انتبهنا وجدنا أبًا ملتاعًا ووجد هو أبناءً ذاهبين، وغرق أبي في أحزانه، وفجَّرت هذه الكارثة مشاعره النائمة وكتب ديوان «أنات حائرة»، وكانت «أنات حائرة» أول معرفة بالناس بالشاعر عزيز أباظة، ويعتبر هذا الديوان أول ديوان شعر في العربية بأسرها خصص لرثاء الزوجة، فقد

(١) إبراهيم أصلان، الاعتراف الأخير لمالك بن الريب ليوسف صايغ ص٨، ٩.

كان الرجال قبل ذلك يخجلون من إظهار الحزن على الزوجة، أما هو فقد كان رثاؤه لها آهة مدوية، وبكاها بدموع حارة، وبكاها معه كل من قرأ هذا الديوان(١).



كانت والدتي تنظر إليَّ وكأني يوسف بن يعقوب -عليه السلام، ولا تسأل عن سعادتها وسرورها بقدومي، وبقدر سعادتها وسرورها البالغ تجرَّعت مرارة إصابتي بمرض الجدري، الذي سلب صاحبنا نعمة البصر، إذ خرج من محبسه الذي استمر أربعين يومًا، وتجرع آلام الكيَّ بأن وجد نفسه في ظلام دامس أبدي سرمدي، وتمثَّل الآية الكريمة ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص:٧١] فقد شعر صاحبنا أنه ليس في الدنيا ولا من أهل الدنيا، ولا من أين جاء ولا إلىٰ أين يذهب، ولا يشعر بلذة طعام أو شراب، بل ولا يقبل أي طعام أو شراب، وهذا ما دفع بالوالدة الرحيمة إلىٰ مزيد من المرارة والأحزان حتىٰ تأثرت مآقيها من البكاء، وتمنت لو تنازلت عن إحدىٰ عينيها لابنها، ولم تكن تعلم بما قال تعالىٰ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦] ولا ريب أنه كان لدعائها أعمق الأثر في حياتي، وأقوىٰ الحوافز في شحذ الهمة واستنهاض العزيمة، ولا سيما دعاؤها المؤثر وأمنيتها الصادقة أن أكون خليفة للشيخ عبد الله بن عبد العزيز العنقري.

وقد صارت حالة صاحبنا كالطائر المعصوب العينين، غير أن ما خفي من لطف الله، وما أسبغه من الفضل والمنن جعلني أتلمَّس الطريق إلىٰ المسجد، وأستمع إلىٰ قراءة الإمام وهو يتلو قوله تعالىٰ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس:١] فصارت هذه التلاوة كالبلسم الشافي والمطر علىٰ أرض مجدبة، فقد شعرت أني أقف علىٰ أرض صلبة،

---

(١) عفاف أباظة، همس القلوب (سيرة حياة، سيرة كتابة) ص٢٧، ٢٨.

وبأقدام قوية، وعزيمة صادقة، وارتفع بهامة عالية؛ لأن الله جل وعلا عاتب إمام المتقين وسيد المرسلين، وخاتم النبيين، عندما أعرض عن عبد الله بن أم مكتوم -رضي الله عنه-، حين أقبل علىٰ المصطفىٰ ينهلُ من علمه ويتلقىٰ ما جاء به عن ربه[1].

وقد كانت والدتي عليها رحمة الله تأمرني في كل ليلة أن أُسمعها سورة يوسف وسورة الكهف والسجدة، وسورة الواقعة، وسورة الملك، وسورة الإنسان إذ تقف عند كل آية من هذه السور في خشوع ورغبة ورهبة وإنابة، ويتضاعف خشوعها وتضرعها بين يدي الله وتفيض عيونها من الدمع عند سماعها سورة يوسف -عليه السلام-، ويتجلىٰ عندها التأثر ويعظم البكاء عند سماعها قول الله تعالىٰ علىٰ لسان يعقوب -عليه السلام-: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف:٨٤]، فتتوقف عن الاستماع، ويزول عنها الأسىٰ، والحزن، وتستبشر ويظهر عليها الأنس والبهجة عند سماع قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف:٩٦]، رحم الله والدتي فقد كانت تحوطني بعناية ورعاية، وحنان وشفقة بحيث لا أستطيع التعبير عن مشاعري نحوها[2].

---

(١) محمد أحمد الصالح، من المجمعة إلىٰ مجمع البحوث الإسلامية ص٦، ٧.

(٢) محمد أحمد الصالح، من المجمعة إلىٰ مجمع البحوث الإسلامية ص٩١.

الطفولة والصِّبا

لم تكن الحياة بالنسبة إليَّ مسألة سهلة قط والناس يتذكرون أيام طفولتهم غالبًا بشيء من الحنين، وربما تخيلوها فردوسًا مفقودًا وأظن السبب في هذا هو أنهم ينظرون إلىٰ الأطفال من زاوية الشخص الكبير، فيرون لعبهم ومرحهم وضحكهم، ولا أدري لماذا لا ينظرون إلىٰ ألمهم وبكائهم حين يمرضون أو حين يحرمون من شيء يحبونه وهم -الكبار - يضخمون دورهم في توفير الغذاء والكساء وسائر متطلبات الحياة لأطفالهم، ويظنون أن الأطفال لكونهم غير مكلفين بشيء من ذلك يعيشون في سعادة لا يكدرها شيء يؤسفني أن أقول: إن للطفولة متاعبها التي ينساها معظم الأطفال حين يكبرون[1].

❁ ❁ ❁

عندما انتهت الحرب الكورية عام ١٩٥٣ كنتُ في الثانية عشرة من العمر[2]. حينها كانت الدولة تعاني دمارًا هائلًا، إذ تشير التقديرات إلىٰ أن الحرب قد خلّفت أكثر من مليوني قتيل من المدنيين، ومئات آلاف الجرحىٰ أو المفقودين، حيث تمزّق شمل الأسر خلال الحرب، وحتىٰ عقب توقيع الهدنة وتقسيم شبه الجزيرة إلىٰ جزأين لم يتمكن الكثيرون من التواصل مع أحبائهم أو رؤيتهم لأكثر من أربعة عقود، وفي ظل الدمار الشامل ذاك، لم يُترك الناس بلا وظائف ولا عمل فحسب، بل لم يكن لديهم ما يأكلون، فقد عانىٰ كثير من الأطفال اليتم، وسوء التغذية، وطاف كثير منهم في الشوارع بحثًا عن أي طعام يسد رمقهم، وللأسف، فإن الربيع الذي انتظره كثير منهم لم يأت أبدًا.

---

(١) شكري عياد، العيش علىٰ الحافة ص٢٧.

(٢) هذا الموضع قد يكون أطول موضع متتابع في الكتاب أوردته كاملاً لاتصاله وإثارته وكثرة العِبَر فيه.

أما أنا فكنت محظوظًا لأن أمي قامت علىٰ رعايتي، ورغم أن أسرتي كانت تعاني فقرًا مدقعًا، إلا أننا بقينا معًا، أتذكر خلال فترة طفولتي المبكرة، أنني كنت أساعد أمي في بيع قطع الكعك الصغير المحشوة بمعجون الفاصولياء الحمراء في السوق المحلية.

لا يمكنني نسيان العمل، فلطالما كان العمل جزءًا من حياتي، لكن حلم أمي لم يكن أبدًا هو الهروب من الفقر ولم تدفعنا أبدًا لكي نصبح أثرياء، فقد كانت حياتها بسيطة جدًّا وصادقة جدًّا، وكذلك شاكرة قانعة حيث تعيش يومًا بيوم، وتتمسك بحلم واحد في وقت واحد، مثل إرسال أخي الأكبر مني إلىٰ الكلية أو لمّ الأسرة بأسرها للاحتفال بعيد ميلاد أحدنا، فهي تبذل كل ما في وسعها في أي عمل تقوم به اعتقادًا منها بأن الله سيتكفل بالباقي، هكذا أرادتنا أن نحيا: أن نعمل بجد وأن نثابر وأن يكون لدينا إيمان قوي وأن نخدم الآخرين ونحبهم.

عندما كنت شابًّا تعهدتُ بأنني يومًا ما لاحقًا، -حينما تتوافر لدي أموال وفيرة- سوف أشتري لأمي فستانًا جميلًا، وأصطحبها إلىٰ مطعم راق، ونذهب معًا في رحلة عبر البحار، والآن، وآسفاه، أعرف أنه لا يوجد «لاحقًا»، ورغم أنني لم أتمكن من الوفاء بأي من تلك الأشياء التي وعدتها بها، يحدوني الأمل أن يساهم هذا الكتاب -الذي لا يتعلق بما فعلته بقدر ما يركز علىٰ ما علمتني إياه- في رد الجميل لوالدتي العظيمة.

أصعب شيء يمكن تحمّله هو الجوع المستمر، الجوع شديدًا لدرجة الألم، ومن حسن حظنا أن الكوخ الذي كنا نعيش فيه هو الأقل ضوضاء؛ لأن الأسرة كانت تخرج بكاملها للعمل، ورغم جهودنا الجماعية لم نستطع توفير المال، وكان التفكير فيما نأكله صراعًا يوميًّا.

في تلكم الأيام كانت وجباتنا تتكون بشكل رئيس من بقايا الأرز عقب تخمير الأرز وتحويله إلىٰ كحول، كنا نشتري أسوأ عبوات الأرز؛ نظرًا لضيق ذات اليد، حتىٰ أننا نأكله مرتين يوميًّا لأسابيع، وكنت أمشي محمر الوجه ومخمورًا قليلًا؛ لأن هذا الطعام يحتوي علىٰ الكحول، وإن كان بكميات قليلة.

في المدرسة كان بعض المدرسين ينعتونني ظلمًا بالمنحرف؛ نظرًا لاحمرار خدودي وأرنبة أنفي دائمًا وكأني مخمور (وكنت كذلك لكن ليس عن قصد)، بالطبع لم يكن في مقدوري أخذ طعام إلىٰ المدرسة، وفي الوقت الذي كان فيه التلاميذ يتناولون طعامهم، كنت أذهب إلىٰ صنبور الماء لأملأ جوفي ماءً عسىٰ أن يسد رمقي، أتذكر أنني كنت أشرب الماء حتىٰ ينتفخ بطني، وحينها أدركت أنه مهما تشرب من ماء فإنك لن تشعر بالامتلاء.

عندما كان يحل موعد دفع المصاريف الدراسية، كان يُقال لي اذهب للبيت وأحضر المصاريف، حينئذ أتجول خارج المدرسة أو أصعد إلىٰ التل الذي يقع خلفها وأمكث لبعض الوقت، فأنا أعلم أنه لا فائدة من ذهابي للبيت لأنه لا يوجد مال أعطيه للمدرسة، وبعد فترة أعود وأطلب من المدرسين أن يعطوني مهلة.

لم يكن لدينا مال لدفع مصاريف الدراسة؛ لأن أبي منذ كان يعمل في اليابان يرسل المال الذي يجمعه إلىٰ عمي حتىٰ يتمكن من إرسال ابن عمي للمدرسة، أبي فعل هذا لسنوات كثيرة، وعندما جاء الوقت لإرسال أبنائه للمدرسة لم يكن لديه المال، رغم أن الأمر يبدو عبثيًّا وتصرفًا غير مسؤول؛ لكن هكذا كان أبي، ومع أنني لا أستطيع لومه، إلا أن تلك الأيام كانت عصيبة علىٰ طفل صغير.

ومع ذلك لم نستخدم الفقر كعذر مطلقًا، بل إن الفقر قوّانا؛ ذلك أنه إذا جلس فقير بانتظار المعونة المادية، فلن يستطيع الهروب من الفقر أبدًا، بل إن الفقر لهذا

الرجل سيكون جرحًا متقيحًا لا يمكن الشفاء منه أبدًا، في المقابل ساعد الفقر في تقوية عزيمتي وعزيمة إخوتي كذلك، فقد كنا مُصرّين ألا ندع الفقر يخنقنا.

مع دخولي الصف الخامس، كنت قد طرقت معظم الأبواب التي يمكن أن أحصل من خلالها علىٰ المال، اشتغلت ببيع الكبريت الذي كنت أصنعه بنفسي بغمس نهايات أعواد الخشب في الكبريت، وأعددت «الكيمباب» (أرز ملفوف في طحالب بحرية)، وكنت أبيعه للجنود قرب الثكنات العسكرية. وفي إحدىٰ المرات أمسك بي أحد رجال الشرطة العسكرية؛ لقيامي ببيع قطع الكعك المصنوعة من دقيق القمح وأوسعني ضربًا.

رغم أنني كنت أعاني من الجوع باستمرار، إلا أنني واصلت الذهاب إلىٰ المدرسة مشيًا علىٰ الأقدام لأربع ساعات ذهابًا وإيابًا حتىٰ أصبح جسدي ضعيفًا، ومع دخولي المرحلة الإعدادية، كان جسمي شبه معطوب، وعندما كنت في الصف الثامن، أصبحت مريضًا جدًّا ولزمت الفراش لثلاثة أشهر، لا أعرف حتىٰ الآن سبب ذلك المرض الغامض لكنه ربما يعود لسوء التغذية، لم يكن بمقدوري الذهاب إلىٰ المستشفىٰ، وأفضل شيء كان متاحًا لي هو الراحة في الفراش انتظارًا للتعافي، عقب ثلاثة أشهر علىٰ هذه الحال، نهضت واستأنفت روتيني اليومي، المشي لأربع ساعات من المدرسة وإليها.

ربما لهذا أيضًا كنت أنا الأقصر طولًا بين جميع أفراد الأسرة، حيث لم يزد طولي عن خمس أقدام وست بوصات، فيما كان يبلغ طول والدي وكذلك اثنين من إخوتي الأكبر مني قرابة خمس أقدام وتسع بوصات. ولو أنه كان بمقدوري أن أتغذىٰ بشكل طبيعي مثل الأطفال الآخرين، لكنت أطول بالتأكيد، ومع ذلك فقد عوض جسمي قصر قامتي في شكل نمو ذراعيّ، حيث إنهما أطول من متوسط طول

ذراع الشخص العادي بما لا يقل عن أربعة إنشات؛ ولهذا كان يطلق علي «الولد ذو الأذرع الطويلة».

عندما صرت شابًّا شعرت بالغيرة من إخوتي الأكبر مني لاستمرارهم في دراستهم، في الوقت الذي كان يتعيّن علي العمل إلىٰ جانب أمي، كانت أمي تعتقد أنه من الأفضل أن تدعم ابنها الأكبر بدلًا من أن ترسل جميع أولادها للمدرسة، في المقابل توقعت من إخوتي الأكبر أن يتفوقوا في الدراسة وأن يعتنوا بالأصغر منهم؛ (ولهذا السبب كان أخي سانج- دوك، الأكبر مني يشعر دائمًا بأنه مدين لي، وكان يشجعني فيما بعد علىٰ الدراسة حتىٰ أجتاز الامتحانات وألتحق بالكلية).

كانت أمي تواسيني قائلة: «باك، ليس ضروريًّا أن تلتحق بالكلية وتحصل علىٰ شهادة لكي تكون ناجحًا في الحياة، يمكنك أن تصبح ثريًّا وتساعد الآخرين من خلال العمل بجد، تعال هنا سنعمل سويًّا»، خلال فترة حملها بي رأت حلمًا، جاء إليها قمر مُكتمل وعشعش داخل ملابسها، قالت لي: إن القمر كان ساطعًا جدًّا لدرجة أن نوره أنار الحقول وفاض علىٰ القرية المجاورة، استبشرت بهذا الحلم خيرًا، فأقنعتْ أبي بأن يسميني ميونج (ساطع) باك (بعيد النطاق).

كانت أمي تساعد الناس دائمًا وكانت تطلب مني أن أساعد الآخرين أيضًا، وقالت لي: بأن لا أقبل بأي شيء في مقابل مساعدتهم، كانت تعطيني تعليمات في كيفية تنفيذ المهام، مثل: «باك، الأخت الكبرىٰ في محل بيع الزيت ستتزوج اليوم، اذهب وساعدهم، هل تمانع في ذلك»؟ إذا ما اعترضت وقلت: إنهم ليسوا أقارب لنا، فسوف تنظر إليّ وتقول: «ألم أقل لك إن جيراننا أقرب إلينا من أقربائنا؟ رجاء اذهب الآن»! وفي الوقت الذي أهمُّ فيه مترددًا بالذهاب، كانت تقول لي بصوت مرتفع: «باك، لا تقبل بأي شيء بعد أن تساعدهم، ولا حتىٰ كوب ماء، هل تسمعني!

لا أريدك أن تأخذ أي شيء، حتىٰ لو قدموا لك طعامًا، أريدك أن ترفض بأدب وتأتي مباشرة إلىٰ البيت».

كانت تؤكد علىٰ هذه الأمور مرارًا وتكرارًا، وعندما كانت تأمرني بالذهاب لمساعدة جيران أثرياء ممن ينظمون حفلة، كنت أتذمر دائمًا قائلًا: إنهم أثرياء لا يحتاجون إلىٰ مساعدتي، وكانت لا تعترف بهذا، وتصرخ فيّ بألّا أقبل بأي شيء في مقابل مساعدتي.

بعد سنوات أدركت لماذا كانت تصر علىٰ ألا أقبل أي شيء، لقد كانت تريد أن تعلمني متعة الخدمة، كان الجيران الأثرياء يعطونني بقايا الطعام الشهي لأعود به إلىٰ البيت وكنت أرفض بأدب، عندها أدركت أن الناس: فقراء أو أثرياء، كانوا ممتنين للمساعدة التي أقدمها لهم، والأهم من ذلك هو أنني شعرت بأنني شخص مفيد.

مع مرور الوقت بدأت أشعر بالفخر لمساعدة الآخرين ولا أتوقع شيئًا في المقابل، وبدأ الجيران أيضًا يفهمون ذلك، ويقولون: إن الأطفال في أسرتنا فخورون لكنهم ليسوا متفاخرين، مخلصون لكنهم ليسوا متذللين.

بعد سنوات عدة، عندما لم أُقبل في الخدمة العسكرية بسبب اعتلال صحتي، عدت إلىٰ السوق مجددًا حيث تعمل أمي، لم أستطع أن أقول لها إنني قد رُفضت لاعتلال صحتي، ذُهلت أمي عندما رأتني أمامها، إذ يفترض أن أكون في الجيش في ذلك الوقت، قصصت لها ما حدث، أخذتني في حضنها وقالت: «باك، أنا آسفة، لم أدرك أن صحتك بهذا السوء، سامحني»، ثم صاحت: «هذا بسبب بقايا الأرز التي كنت أقدمها لك حينما كنت صغيرًا، وبسبب أنني لم أعتنِ بك جيدًا عندما كنت صغيرًا. أنا آسفة جدًّا»، في هذا اليوم أعدَّت أمي لي وجبة العشاء قبل بقية

الأسرة، علىٰ الطاولة، وضعت طبق أرز أبيض تمت تسويته علىٰ البخار وبيضة غير مطهية، أسرتنا كانت تتناول الأرز مرة واحدة، وربما مرتين في العام، فالبيض كان في العادة باهظ الثمن ولا نستطيع شراءه، ومن ثم كانت تلك بمنزلة مأدبة عشاء فاخرة وخاصة، جلستُ مع أمي لتناول العشاء وبكينا كثيرًا في تلك الليلة، وكانت تلك أول وآخر مرة أرىٰ فيها أمي تبكي.

لم أنقطع عن مساعدة أمي خلال المدرسة الثانوية، ومع مساعدتي لها في إعداد الكعك قررت أن أستقل، وأن أبدأ مشروعي الخاص، كنت أبيع المثلجات (الآيس كريم) أو ألواح السكر اعتمادًا علىٰ الطقس، وخلال فصل الشتاء كنت أبيع الفشار المصنوع من الأرز، فقد صنعت مقلاة لفشار الأرز باستخدام شبكة حديدية وسيخ للتقليب، وعند تسخين الأرز وتفشيره يصدر صوتًا مدويًا، ووضعت أمي ماكينة الفشار هذه بجوار طاولة الكعك، وكنت أعد فشار الأرز وأبيعه.

لقد كان أول مشروع تجاري مستقل لي، كنت دائمًا منهكًا والعرق يتصبب من وجهي، وملابسي متسخة من جرّاء الدخان المتصاعد من مقلاة الفشار، وكنت أذهب إلىٰ المدرسة بملابسي المتسخة تلك لأنه لم يكن عندي ملابس أخرىٰ.. المشكلة هي أنه كانت توجد فتيات من المدرسة الثانوية علىٰ مقربة من الركن الذي كنت أقف فيه أنا وأمي في السوق؛ لذا فكل يوم في الصباح وبعد المدرسة كانت تمر الفتيات أمامنا وتنظر إلىٰ ذلك الفتىٰ الذي يبيع فشار الأرز وهو يرتدي الزي المدرسي، وحين تنظر الفتيات إليّ بنوع من الفضول والدهشة كنت أرتبك ويحمر وجهي؛ لأني أشعر بإحراج بالغ في أن تراني الفتيات في مثل هذه الملابس، وكنت أسعىٰ لتجنب عدم رؤيتهن لي، وللأسف، مهما حاولت، فقد ظللت الفتىٰ الضامر النحيف ذا الأذرع الطويلة والوجه والملابس المتسخة الذي يقلي الفشار.

بعد طول تفكير، توصلت إلىٰ خطة ذكية، بحثت ووجدت قبعة كبيرة مصنوعة من القش، رغم أنها كانت بالية وممزقة إلا أنها أدت الغرض، وعندما كنت أضع هذه القبعة وأنزلها لأسفل لإخفاء وجهي كانت أمي تضحك عليّ، وتقول: «باك! لا ترتدي القبعة مرة أخرىٰ، ليس هناك شيء يجب أن تخفيه، رجاء! ارفع رأسك، يا فتىٰ»!

لاحقًا عندما كنت عمدة لسيول، رأيت رجالًا مشردين يجوبون الشوارع، وفي أحد الأيام التقيت بهم عقب إطلاق برنامج في المدينة يشجع الشركات علىٰ توظيفهم، كان البرنامج يحظىٰ بدعم من مجلس المدينة، حيث يسعىٰ لمساعدتهم في الحصول علىٰ وظائف وبدء حياتهم من جديد، وعندما دلفت إلىٰ الغرفة للالتقاء بهم، كان أول ما لاحظته، هو أن معظمهم يرتدون قبعات، كان بعضهم يرتدي قبعات البيسبول، وآخرون يرتدون قبعات ممزقة وجدوها في مكان ما، كانت قبعاتهم متدلية للأسفل تخفي جزءًا من وجوههم، ورؤوسهم منحنية للأسفل، تمامًا مثلما كنت أفعل منذ سنوات، فقلت لهم: «دعوني أرىٰ هذه الوجوه الوسيمة! ارفعوا رؤوسكم عاليًا»! لقد كانت أمي علىٰ صواب، ليس هناك شيء يجب إخفاؤه.

في سنتي النهائية في المدرسة الثانوية، اتخذت أمي قرارًا هامًّا، قررت أن تنتقل الأسرة بكاملها، عداي أنا وأختي إلىٰ سيول حتىٰ يتمكنوا من تدبير مصاريف أخي سانج الأكبر الذي كان قد انتقل بالفعل إلىٰ هناك، حيث كان يتعين عليّ البقاء هنا حتىٰ أتخرج من المدرسة.

شرع والداي في بيع كل شيء نمتلكه تقريبًا لتوفير المال للانتقال إلىٰ سيول، لكنهما لم يجمعا مالًا وفيرًا لأنه لم يكن لديهما أشياء كثيرة يمكن بيعها، أكدت أمي أنها سترسل نقودًا لي ولأختي كل شهر، وهكذا حزمت أسرتي أمتعتها وغادرت بوهانج، وبقينا أنا وأختي في موقع المعبد القديم.

كانت أمي ترسل لنا نقودًا كل شهر، لكن لم تكن كافية قط، حتىٰ أصبحت حياتي أكثر تعاسة، كنت أنا وأختي نعاني الجوع دائمًا، حيث عليّ أن أشتري الأرز ونلتزم بالكمية اليومية، وإلاَّ سوف ينفد منا الطعام قبل أن ينتهي الشهر؛ ولذا صنعت ثلاثين حقيبة باستخدام بقايا الورق، وقسمت فيها الأرز إلىٰ ثلاثين حصة يومية، وأعطيت أوامر صارمة لأختي بعدم تجاوز الكمية اليومية.

في يوم من الأيام، بلغ الجوع بأختي مبلغًا عظيمًا فصاحت قائلة: «دعنا نأكل كما نريد لمدة عشرين يومًا ثم نجوع باقي الشهر»، حتىٰ اليوم تقول لي أختي: كم كنتُ شحيحًا في تلك الأيام، قالت لي لاحقًا: إنها فكرت في الهرب مرات كثيرة، ولم أقل لها إن الفكرة ذاتها قد راودتني كثيرًا أيضًا، كان الجوع مؤلمًا، كان يوجع بمعنىٰ الكلمة، ولأحصل علىٰ بعض المال كنت أقوم بتقطيع الأخشاب وبيعها، ورغم ما فعلت وحاولت لم أستطع الهرب من الفقر.

في عام ١٩٥٩ تخرجت من المدرسة الثانوية، وتم اختياري لإلقاء كلمة التخرج، لكن لم يكن لديّ الوقت لحضور حفل التخرج، لأنني كنت سأسافر إلىٰ سيول مباشرة للانضمام إلىٰ باقي الأسرة، وربما لأني كنت أريد أن أترك بوهانج في أسرع وقت ممكن للهرب من الجوع الموجع، أمسكت بيد أختي الصغرىٰ وركبنا القطار المتجه إلىٰ سيول.

في طريقنا كان الخوف والقلق يتملكني، لم أتوقع أن يتحسن وضعي في سيول، وكنت في الواقع قلقًا من أن يزداد الوضع سوءًا، في ظل ما سمعته من والديَّ أن الحياة فيها تشبه تقريبًا الحال التي كنا عليها في «بوهانج»، حاولت أن أكون إيجابيًّا علىٰ أمل أن أجد فرصًا كثيرة في مدينة كبيرة مثل سيول وأن تتحسن الحياة، لكن الأمل ظل يهرب مني.

عندما وصلت وجدت والديَّ يعيشان في كوخ صغير في بلدة «إيتايون» التي تقع في وسط سيول، وكانا يبيعان الخضراوات علىٰ طاولة، لا شيء تغير، فأسرتي ما تزال فقيرة، وما نزال جوعىٰ، اولفارق الآن هو أننا فقراء وجوعىٰ في سيول بدلًا من بوهانج.

لم تدم كثيرًا فرحة إعادة التجمع والتئام الشمل، وجدت أن المنزل الذي يعيش فيه والداي صغير جدًّا ولا يسعنا بوجودي أنا وأختي، وفي اليوم التالي، بحثت ووجدت غرفة صغيرة، وهكذا كانت أسرتي مفرقة حتىٰ في سيول، وكانت أمي حزينة لهذا الأمر. وكثيرًا ما تطلب مني أن أذهب إلىٰ المنزل مرتين يوميًّا حتىٰ تتناول الأسرة علىٰ الأقل الوجبات معًا. لكن المكان كان بعيدًا جدًّا، حيث لا أستطيع أن أقطع المسافة مشيًا علىٰ الأقدام، ولم يكن معي مال يكفي لركوب الحافلة.

أحد الأمور الجيدة في الحياة في سيول، هو أنه لأول مرة في حياتي يصبح لدي وقت فراغ كبير. فعلىٰ عكس الوضع في بوهانج لم يكن لدي هنا الكثير مما يمكنني القيام به، كنت أستيقظ في الرابعة صباحًا وأهرول إلىٰ «سوق العمال» حيث يصطف عمال اليومية في طابور بانتظار أن يتم اختيارهم لأي مهمة يقومون بها، لكن جسمي كان ضامرًا نحيفًا، وعادة ما يتم تجاوزي لاختيار من يقف بجواري، الذي عادة ما يكون أطول مني قامة، فكنت أجعل ظهري مستقيمًا سعيًا لتطويل قامتي، وأنفخ صدري وأحاول أن أبدو قويًّا، لكن كل ذلك دونما جدوىٰ، ولم يبال أحد بأنني خريج مدرسة ثانوية عامة عندما كدت أسقط ميتًا عند محاولة رفع كيس إسمنت.

في الأيام التي لم يكن يتم اختياري فيها (وما أكثر تلك الأيام)، لم يكن لدي ما أفعله، خلال تلك الأوقات كنت أركب القطار -دون أن دفع الأجرة- وأسافر الطريق كله، أو أهيم علىٰ وجهي متسكعًا في سيول، كثيرًا ما كنت أجد نفسي

بالقرب من كليات مختلفة وعندما كنت أرىٰ طلاب الكليات كنت أفكر في نفسي: «ماذا أفعل هنا»؟ ثم أعود.

وأتذكر بطاقة بريدية أرسلها لي أخي عندما كنت أدرس في الثانوية العامة، حيث كتب فيها «باك، لا تتخل أبدًا عن حلم الالتحاق بالجامعة، ورغم أنك في مدرسة ليلية، لكنك إن اجتهدت فيمكنك الالتحاق بالجامعة».

فكرة الجامعة كانت تتملكني وكانت تستحوذ علىٰ فكري، لكنني لا أعرف ماذا أفعل أو من أين أبدأ!، ثم تذكرت معلمي في المدرسة الإعدادية، ورغم أن ما قاله لي بضرورة الحصول علىٰ الشهادة الثانوية لم يساعدني في الحصول علىٰ عمل، إلا أنني أعلم أنه كان علىٰ صواب إجمالًا، قياسًا علىٰ ذلك، استنتجت أنه من الأفضل لي أن أكون خريج جامعة بدلًا من أن أبقىٰ خريج مدرسة ثانوية.

وحيث إن الالتحاق بالجامعة كان أمرًا بعيدًا من مقدرتي المالية، خطرت ببالي خطة بديلة، فأفضل شيء بالنسبة لي في ظل هذه الظروف هو أن أصبح متسربًا من الجامعة! ذلك أن الناس ينظرون باحترام للمتسرب من الجامعة أكثر من خريج الثانوية العامة فقط، كل ما أحتاج إليه هو اجتياز امتحان القبول بالكلية التي أرغب فيها، وعندها أصبح بشكل تلقائي متسربًا من الجامعة، بدا لي أن هذه فكرة رائعة.

في اليوم التالي، التقيت صديقًا قديمًا من بوهانج يعيش في سيول، بدأنا ندرس سويًّا ونستعد للامتحان، فالمشكلة الوحيدة التي كانت تقف أمامي هي أنه ليس لدي أي فكرة ما هي الكتب التي يجب أن أذاكرها وكيف أستعد للامتحان!، ولكن صديقي هذا كان ريفيًّا، ولم يمض وقتًا طويلًا في سيول، وبالتالي لم يفدني بشيء.

وجدت صديقًا قديمًا آخر من المدرسة الإعدادية، عقب التخرج من المدرسة الإعدادية في بوهانج، التحق صديقي هذا بمدرسة كيونج-جي، وهي واحدة من

أكثر المدارس الثانوية الكورية التي يتمناها الطلاب، ثم التحق بكلية القانون في جامعة سيول الوطنية التي تعد أعرق الجامعات الكورية، عندما شرحتُ له خطتي الطموحة (المجنونة)، قاطعني وقال لي: «أتريد الالتحاق بالجامعة؟ انظر يا باك، لا يمكنك الالتحاق بالجامعة لمجرد أنك تريد ذلك، لا تضع وقتك، أعتقد أنه من الأفضل لك أن تبحث عن شيء آخر، إضافة إلىٰ أن تخرجك من المدرسة الليليّة لن يساعدك في شيء».

كان تعليقًا أمينًا فشكرت له صراحته رغم أنه آلمني لم أُلمه؛ لأنه يعلم تمامًا ما هو وضعي، ومع ذلك سألته إن كان بوسعه مساعدتي وإعارتي بعض الكتب، لكنه ظل يلف ويدور حول الموضوع ورجعت صفر اليدين.

ومع ذلك لم أستسلم، وفي أحد الأيام عرض أحد الجيران حلًّا لمشكلتي، قال لي إنه يمكنني الحصول علىٰ كافة الكتب الضرورية في مكتبات الكتب المستعملة، واقترح عليّ أن أذهب وألقي نظرة عليها، وبعد أن ادخرت عشرة آلاف «هوان» (قرابة ٣٠ دولارًا أمريكيًّا) من خلال العمل في السوق في مدينة إيتايون، ذهبت إلىٰ مكتبة لبيع الكتب المستعملة التي تبيع «الأدلة الإرشادية للطلبة المتقدمين لامتحانات دخول الجامعة»، كان صاحب المكتبة رجلًا في الأربعينيات من العمر، سألني: ما نوع المواد التي تبحث عنها؟ أجبته: «لا أعرف، ليس لدي فكرة عن الكتب التي يجب أن أدرسها».

نظر الرجل إليّ في إشفاق وقال: «هل تريد أن تلتحق بإحدىٰ كليات العلوم الإنسانية، أم العلوم الطبيعية؟»، ففي كوريا عادة ما يقرر الطلاب خلال دراستهم في المدرسة الثانوية العامة ما إذا كانوا سيواصلون دراسة العلوم الإنسانية أو العلوم الطبيعية، ويدخلون امتحانات دخول الكليات بناءً علىٰ ذلك؛ لكن نظرًا لأنني تخرجت من مدرسة ثانوية تجارية لم يكن فيها تمييز من هذا النوع، فلم أفكر في هذا مطلقًا.

لذا فقد وقفت حائرًا، ثم قلت: «أريد الالتحاق بكلية تجارية» لأن أخي الأكبر تخرج في كلية تجارية، وأنا تخرجت في مدرسة ثانوية تجارية، رد صاحب المكتبة: «حسنًا، أنت تعني العلوم الإنسانية، الآن .. ما هي الكلية التي تريد أن تلتحق بها»؟ قلت له: «لا يهم، طالما قُبلت، أي كلية ستكون جيدة بالنسبة لي».

حملق الرجل في دهشة ثم اتجه نحو الرف الخلفي واختار بعض الكتب، وبعد وضعها علىٰ الطاولة، بدأ في حساب السعر مستخدمًا آلة العد الصينية (المسماة Abacus)، وقال لي: «إجمالي السعر هو ثلاثون ألف هوان وهذا سعر مخفض لك يا بني».

ترددت، فكل ما كان معي هو عشرة آلاف هوان فقط.

وجه الرجل إليّ نظرات حانقة وبدأ يسبني بألفاظ جارحة، فوجئت بسلوكه، ونظرًا لطبيعة الرجل وغضبه خشيت أن يفتك بي، لكنني كنت في حاجة ماسة إلىٰ هذه الكتب.

شرحت له خطتي وعندما انتهيت، هدأ الرجل نوعًا ما، وأعاد الكتب ورجع بمجموعة أخرىٰ، وقال لي: «خذ، إذا ذاكرت هذه الكتب فستستطيع اجتياز امتحان القبول، أعطني ما معك، وأحضر باقي النقود فيما بعد»، دهشت من صنيع الرجل ولم أعرف ماذا أفعل!، وعندما رآني ما أزال واقفًا مكاني، صاح قائلًا: «اذهب قبل أن أغير رأيي أيها العبيط الأحمق»، دونما تردد، حملت الكتب، وجريت بأسرع ما يمكن، وعندما ابتعدت بمسافة آمنة تنفست الصعداء وتعجبت من حسن حظي.

بفضل صاحب المكتبة سيئ المزاج سليط اللسان (لكن طيب القلب علىٰ ما يبدو)، أصبحت الكتب الضرورية بحوزتي، لكن لم يكن هناك وقت كافٍ للمذاكرة، إضافة إلىٰ أنه يتعين عليّ مساعدة أبي وأمي كل صباح ومساء، فخصصت وقتي

المتبقي للمذاكرة، وكلما ذاكرت أكثر أدركت كم أنا جاهل، ذاكرت مثل المجنون.

وعندما جاء وقت تقديم الطلبات، تقدمت إلىٰ كلية التجارة في جامعة كوريا، بحثت في كليات التجارة الأخرىٰ، لكن هذه الكلية الوحيدة التي لا تتطلب اجتيازًا بلغة أجنبية، وعليه فقد تصورت أن هذا قد يزيد من فرص نجاحي، وكان الكثيرون يتوقعون أن المنافسة علىٰ الالتحاق بكلية التجارة في جامعة كوريا ستكون منافسة شرسة؛ نظرًا لأن ذاك العام (١٩٦٠) كان هو أول عام دراسي فيها.

اقترب موعد الامتحان وأعباء العمل كما هي، فوالداي لم يقللا من المهام التي يكلفاني بها، عندما وجدت أنه لم يتبق سوىٰ شهر واحد علىٰ الامتحان تناولت منبهًا كان شائعًا بين الطلاب حتىٰ يعينهم علىٰ السهر يسمىٰ «أنّا-بونج» (anna-pong). لكنه أتىٰ بنتيجة عكسية، وانهرت جسديًّا، وأصبحت طريح الفراش ولم يتبق علىٰ الامتحان سوىٰ ثلاثة أيام فقط.

في يوم الامتحان استجمعت قواي، ونهضت من علىٰ السرير وذهبت إلىٰ الامتحان، بعد ذلك شعرت أنني أديت جيدًا في اللغة الإنجليزية والرياضيات، لكنني لم أعرف إن كنت قد اجتزت الامتحان أم لا، قلت لنفسي: إن خوض الامتحان هو أمر قيّم في ذاته، ومهما كانت النتيجة فسوف أرضىٰ بها، ويكفيني شرف المحاولة.

لم أندم وشعرت بالاسترخاء وأنا في انتظار نتيجة الامتحان، وجاء انتظاري بالفائدة التي رجوتها، إذ ظهر اسمي ضمن قائمة الطلاب الذين اجتازوا الامتحان وتحقق حلمي بأن أصبح متسربًا من الجامعة! كنت سعيدًا وشاركني جيراني سعادتي، سألوني جميعهم إن كنت أملك مصاريف الدراسة أم لا؟، ابتسمت وقلت: «لا، لا أحتاج إلىٰ أن يكون لدي مصاريف الدراسة طالما أنني اجتزت الامتحان، أنا متسرب من الجامعة وأنا مكتفٍ بهذا»، لكني كنت مخطئًا، إذ سرعان ما اكتشفت أنه لكي أصبح متسربًا من الجامعة يتعين عليّ أن أسجل أولًا، وأحضر فصلًا دراسيًّا

علىٰ الأقل، لذا رغم خطتي الذكية فقد أغفلت ما كان بديهيًّا، وعليه كنت أحتاج إلىٰ مصاريف التسجيل، أما الآن فأمامي تحدٍّ أكبر وأصعب من اجتياز الامتحان، ورغم سعادة والديّ باجتيازي إلا أنه لم يكن معهما أية نقود لدفع مصاريف الجامعة، والطريقة الوحيدة لتوفير المال هي من خلال العمل، ولكن العمل كان شحيحًا.

في الوقت الذي أوشكت فيه علىٰ الاستسلام، عرض عليّ أصحاب متاجر في إيتايون حلًّا لمشكلتي، قرروا أن يستأجروني كجامع للقمامة، وأعطوني مبلغًا من المال مقدمًا كان كافيًا لتغطية مصاريف التسجيل، نبع كرمهم هذا من احترامهم العظيم لأمي، فأمي كانت دائمًا أول من يقدم العون والمساعدة، فقد كانت آخر من يغادر السوق، لأنها كانت تظل حتىٰ وقت متأخر لمساعدة الآخرين في ترتيب متاجرهم آخر اليوم.

وهكذا، فإن عرض أصحاب المتاجر لتوظيفي والدفع لي مقدمًا، كان بمنزلة رد الجميل لكرم أمي، كنت أجمع القمامة بالليل ثم أقوم برميها في أرض فضاء علىٰ بعد عدة أميال كل صباح عندما يرفع حظر التجول، بدا الأمر سهلًا بالنسبة إلي وشكرتهم علىٰ إتاحة هذه الفرصة لي، لكن بعد ذلك تبين لي أن نقل القمامة إلىٰ حيث يجب أن ألقيها لم يكن بالمهمة اليسيرة، بل كانت في الواقع واحدة من أصعب وأشق المهام التي قمت بها في حياتي، ففي كل صباح، كان يتعين علي ملء عربة اليد بالقمامة ونقلها إلىٰ مسافة تبعد أميالًا عدة، الطريق كان منحدرًا وصعود التل كان خطيرًا، والهبوط منه ربما يودي بحياتي، إضافة إلىٰ أن إكمال مهمتي الصباحية يستغرق مني الذهاب والإياب ست مرات.

بـدأت هذا العمل أمـلًا في الحصول علىٰ ما يكفي من المال لدفع رسوم التسجيل ومصاريف الفصل الدراسي الأول بما يمكنني من أن أصبح متسربًا من الجامعة، لكن عقب ذلك ومهما حاولت فلم أستطع ترك الوظيفة، كنت أخشىٰ إذا

تركتها أن يُقال عني إنني ناكر للجميل، كما أنني لم أرغب في أن أنتقص من قدر أمي بأي شكل من الأشكال، إضافة إلىٰ ذلك أن أصحاب المتاجر كلنوا يريدون مني الاستمرار في العمل لأن الشخص الذي كان يعمل قبلي اشتهر بأنه يترك العمل كلما شعر برغبة في ذلك، فإذا أمطرت عاد إلىٰ منزله مبكرًا، وإذا أثلجت كان يأخذ يومًا إجازة، أما أنا فلم أتغيب يومًا واحدًا؛ لذا فقد استمررت في هذه الوظيفة حتىٰ وصلت للسنة الثانية في الكلية.

بحلول ذلك الوقت اقتنعت بأنني ينبغي أن أكمل دراستي، ولم أكن أدرك إلىٰ أي مدىٰ سيغير هذا القرار حياتي.

ورغم التحاقي بالجامعة، ظلت حياتي كما هي، في كل صباح أجمع القمامة، وفي المساء أساعد والديّ، ولم يكن لدي بالطبع وقت للمذاكرة، كل ما كنت أفعله هو كتابة أبحاث الفصول الدراسية في منتصف الليل، وأنا أقاوم النوم والإرهاق الشديد جراء العمل طوال اليوم.

وفي الكلية كان الوقت الذي أنفرد فيه مع نفسي هو الوقت الفاصل بين المحاضرات، كنت أجلس إلىٰ نفسي وأقرأ أكبر قدر ممكن من الكتب، كنت علىٰ هذه الحال فيما كان الطلاب الجدد منشغلين بالاستمتاع بحريتهم وحياتهم كطلاب في المرحلة الجامعية، كانوا يذهبون لحضور الحفلات والالتقاء بالفتيات، أما أنا فحياتي الجامعية لم يكن فيها أي شيء من هذا.

خلال سنتي الثانية بالكلية حققت أمي أخيرًا ما كانت تحلم به طيلة حياتها، تمكنت من استئجار محل صغير يقع داخل السوق، وكان هذا بالنسبة لنا خطوة ضخمة فعندما كنت صغيرًا، أتذكر أن أمي كانت تتنقل باستمرار ما بين بقعة وأخرىٰ؛ لأن أصحاب المحلات كانوا يطردونها بعيدًا عن محلاتهم مخافة أن تعيق

حركة زبائنهم، كما أن هناك صاحب محل فظ بشكل خاص كان دائمًا ما ينهر أمي، قائلًا لنا: اغربوا عن وجهي، كرهت هذا الرجل بشدة لدرجة أن حلمي الأكبر كان الحصول علىٰ مال كافٍ لشراء المحل الذي يمتلكه، بعد سنوات عندما أصبحت رئيسًا تنفيذيًّا لشركة هيونداي زرت السوق فوجدت محل هذا الرجل قد أُزيل في إطار برنامج التطوير العمراني.

ورغم أن أسرتي حققت حلمها في أن يكون لديها محل دائم، إلا أن حياتنا استمرت علىٰ الحال الشاقة ذاتها.

بالنسبة لي كان استيقاظي في الساعة الرابعة صباحًا للقيام بست جولات لإلقاء القمامة عذابًا خالصًا، كان جسمي ينهار وكنت أعاني حالة إرهاق شديد، عندها قررت أن أبحث عن مخرج من هذا البؤس، فكان المخرج هو الالتحاق بالخدمة العسكرية.

معلوم أن جميع الذكور الكوريين اللائقين بدنيًّا يؤدون الخدمة العسكرية الإلزامية، وجميع الكوريين الذكور يخافون حتىٰ يومنا هذا من الالتحاق بالخدمة العسكرية، وأي شخص لا يشغل كادرًا في الأكاديميات العسكرية أو ينشد وظيفة في الجيش، كان ينظر إلىٰ الخدمة العسكرية علىٰ أنها مكان يتعرض فيه المجند للضرب بشكل دوري (الآن صار ممنوعًا)، وكان التجنيد حدثًا رئيسًا في حياة المرء، فالآباء يقلقون علىٰ سلامة أبنائهم، والأبناء يودعون آباءهم وداعًا حارًّا وطويلًا يصاحبه تناول مشروبات كثيرة وحالة من الحزن، وكأنهم ذاهبون للحرب فعلًا.

يمكن استيعاب هذه المشاعر كون كوريا الجنوبية تقع بجوار جارة مشاكسة، هي كوريا الشمالية التي غزتها من قبل، ولم يكن هناك ما يضمن عدم تكرارها لهذا الأمر ثانية، فتهديد الحرب كان حاضرًا دائمًا، والتدريب العسكري كان شاقًّا حقًّا.

أما بالنسبة لي، فالالتحاق بالخدمة العسكرية بدا وكأنه الحل المثالي، ورغم توقعي بأن الحياة العسكرية ستكون صعبة، إلا أنني لم أفكر في أنها ستكون بالصعوبة التي عليها حياتي المدنية، اعتقدت أن الخدمة العسكرية ستوفر لي الطعام والملابس، ولن أقلق بشأن المال أو مصاريف التعليم، والأهم من ذلك كله هو أنني لن أجمع القمامة، ظننت أنه بمجرد تحملي الشهور التدريب الأولىٰ سأكون قادرًا علىٰ الاستمتاع ببعض وقت الفراغ.

عقب الانتهاء من الفصل الدراسي الأول من العام الثاني في الكلية تطوعت للخدمة، أرسلوني إلىٰ معسكر تدريب أساسي في مدينة «نون-سان»، بعد قضاء ليلة فيها، استدعونا لعمل فحص طبي لمعرفة ما إذا كنا لائقين للخدمة العسكرية أم لا!، وقفنا جميعًا في طابور، ومررنا بالإجراءات المتبعة، كان الفحص الطبي إجراءً إلزاميًّا، ويجتازه الجميع عادة، ما لم يكن هناك مرض يهدد حياة الشخص المتقدم أو إعاقة قوية.

وقفت في الطابور انتظارًا للفحص الطبي، وعندما حان دوري، توقعت أن يتم فحصي بشكل روتيني ويتم قبولي، إلا أن الطبيب العسكري فحصني بسماعته الطبية ببطء، وقال: «يا بني، هل تعرف الحالة التي عليها جسدك الآن؟ العسكرية لا تقبل مجندين مثلك»، ونصحني أن أذهب لإجراء فحوصات طبية إضافية.

كان الطبيب محقًّا، فقد اتضح أن جسدي في حالة مزرية. شعب القصبات الهوائية كانت متمددة، وهذا كان يسبب لي التهابًا في الحنجرة، وهي حالة تعرف بالتمدد الشُّعبي أو توسع القصبات الهوائية (bronchiectasis)، وتذكرت أنني كثيرًا ما كنت أصاب بالسعال، وارتفاع درجة الحرارة، وهي عوارض أخرىٰ لحالتي، وقال الأطباء لي: إنني أعاني من خُرّاج جيبي (empyema)، وأن هذه العوارض مرتبطة ببعضها بعضًا، وليس لها علاج نهائي، وأن التمدد الشعبي يتفاقم مع التعب والإرهاق، وهكذا، عقب الفحص الطبي الرسمي رُفضت من الخدمة العسكرية،

وفي وقت لاحق زارني محقق من الشرطة العسكرية، ظنًّا منهم أنني قمت بأمور غير قانونية للتهرب من التجنيد، لكنهم اكتشفوا بسرعة أن الأمر ليس كذلك.

بعد ذلك وبمساعدة من أصدقائي، دخلت مستشفىٰ لم تتطلب مني أموالًا كثيرة، وفي أحد الأيام جاء الطبيب إلىٰ سريري خلال جولته الروتينية، ونظر في الملف الخاص بي، ثم أمر أحد الأطباء المقيمين أن يعطيني نوعًا محددًا من الأدوية (ذكر الطبيب اسم الدواء باللغة الإنجليزية، لذا أعتقد أنه دواء مرتفع الثمن)، لكن عندما علم أنني مصنف ضمن «الفئة التي لا تستطيع دفع نفقات العلاج»، لم يقل شيئًا وتابع جولته، وبعد قضاء شهر في المستشفىٰ استعدت بعض عافيتي وصرفوني من المستشفىٰ، ومن حسن حظي أن الدواء الرخيص الذي أُعطي لي بدلًا من الغالي الذي وصفه الطبيب قد آتىٰ مفعوله.

وبمجرد خروجي من المستشفىٰ عدت إلىٰ حياتي كطالب جامعة، وللإنفاق علىٰ نفسي من خلال جمع القمامة، ومع ذلك فقد طرأ علىٰ حياتي تغير صغير لكنه مهم، فقد تخرج أخي سانج-دوك من جامعة سيول، وحصل علىٰ وظيفة في شركة «كولون»، وهي شركة كورية عريقة متخصصة في المنسوجات، وفي ظل عمل أخي الدائم بمرتب جيد، بدأ وضعنا المالي يتحسن إلىٰ حد ما[1].

❁ ❁ ❁

لا شك في أن البيت هو المدرسة الأولىٰ، ولا شك أبدًا في أن الأم هي الأستاذ الأول في حياة كل طفل، ثم إن الأعمام والعمات والأخوال والخالات والأجداد والجدات والجيران والزوار والرفاق والأصدقاء، كل هؤلاء يؤلفون المدرسة الكبرىٰ التي يبدأ كل طفل بتلقي دروسه فيها، ثم إن هؤلاء جميعًا (ولو قلّ احتكاك

(١) لي ميونج باك، الطريق الوعر ص٧-٤٤. وإكمال ما تبقىٰ من هذه السيرة المبللة بالدمع في فصل الوظيفة من فصول هذا الكتاب.

الطفل بهم) أشد تأثيرًا في نفس الطفل الغضة (الطرية) من الأساتذة الذين يجلس أمامهم طوعًا أو كرهًا علىٰ مقاعد الغرف في المدرسة المبنية بالحجارة.

لقد كان من حسن حظي أن نشأت في بيت فيه علم وفيه مكتبة (علىٰ قلة مثل هذا البيت في بيروت خاصة - وقديمًا قالوا: بيروت مقبرة العلماء)، كان جدي وأبي وعمّاي وعمتاي يقرأون ويكتبون (علىٰ قلة مثل ذلك بين المسلمين في القرن الماضي)، وكان في بيتنا ثلاث لغات مُتقنة (العربية والتركية والفرنسية) ثم لغتان ملموحتان (الإنكليزية والألمانية).

تعلمت من جدي لأبي الصلاة وقراءة القرآن والسباحة وشراء أغراض البيت من السوق، وتعلمت من والدي السير الصحيح السليم في طريق الحياة، وإن جانبًا من أصدقائي إلىٰ اليوم كانوا من أبناء أولئك الرجال الذين كانوا أصدقاء والدي.

وكان عماي وعمتاي يساعدونني في إعداد دروسي كثيرًا أو قليلًا، ومن عمي حسين (ت ١٩٣٦) رحمه الله، تعلمت -فيما تعلمت منه- هذه القاعدة: الاقتصاد الصحيح أن تنفق فيما تحتاج إليه كل مبلغ مهما يكن كبيرًا، وإياك أن تشتري شيئًا لا تحتاج إليه مهما يكن ثمنه متدنيًا.

ومن عمي حسن (ت ١٩٦٦) رحمه الله، تعلمت -فيما تعلمت منه أيضًا- هذه القاعدة الاجتماعية: كان يودعني وأنا أغادر بيروت (في خريف ١٩٢٨) ذاهبًا إلىٰ نابلس (فلسطين) لأتعلم هناك، فيقول لي: لا تعمل في الغربة عملًا لم تعمل مثله وأنت في بيروت.

ولا أنسىٰ أن أقول: إن الأساس الأول في التربية إنما هو «القدوة الحسنة»، فعلىٰ الأهل أن يسلكوا السلوك الصحيح في حضور الطفل وفي غيابه، فإن كل شيء يفعله الأب في ستر سيعرفه طفله في يوم ما[1].



---

(١) د. عمر فروخ، غبار السنين ص٤٣، ٤٥.

الطفل لا ينسىٰ لا سيما الأيام والسنين القاسية، لكن القسوة تشحذ النفوس وتربي، فالشظف يبني الإنسان ويقوي فيه الإرادة والاعتماد علىٰ النفس بعد الله عز وجل، علىٰ حين أن الترف يدفع إلىٰ الدعة والخمول والتسيب وإلىٰ العبث وعدم المبالاة ودروس الحياة كثيرة، والإنسان البصير يأخذ منها عبرًا وتجارب وخبرة، ويزداد علمًا بها، والعرب تقول: «نعم المؤدب الدهر»، ولا يكون ذلك كذلك في أكثر الأحيان إلا من خلال القسوة، والقسوة عامل للازدجار كما يقول أبو الطيب، ولكن ما يعنيه المتنبي ليس حالي وظروفي وقسوتها، وأحمد الله إليه، فقد علمتني الحياة كثيرًا، ومن هذه الدروس الصبر علىٰ المكاره والتجمل والقناعة، والنظر إلىٰ من هم دوني[1].

۞ ۞ ۞

كان من أول أمره طلعَةً لا يحفل بما يلقىٰ من الأمر في سبيل أن يستكشف ما لا يعلم، فكان ذلك يكلفه كثيرًا من الألم والعناء، ولكن حادثة واحدة حدّت ميله إلىٰ الاستطلاع، وملأت قلبه حياءً لم يفارقه إلىٰ الآن، حيث كان جالسًا إلىٰ العشاء بين إخوته وأبيه، وكانت أمه كعادتها تشرف علىٰ حفلة الطعام، ترشد الخادم وترشد أخواته اللائي كن يشاركن الخادم في القيام بما يحتاج إليه الطاعمون، وكان يأكل كما يأكل الناس، ولكن لأمر ما خطر له خاطر غريب! ما الذي يقع لو أنه أخذ اللقمة بكلتا يديه بدل أن يأخذها كعادته بيد واحدة؟ وما الذي يمنعه من هذه التجربة؟ لا شيء، وإذًا فقد أخذ اللقمة بكلتا يديه وغمسها من الطبق المشترك ثم رفعها إلىٰ فمه، فأما إخوته فأُغرقوا في الضحك، وأما أمه فأجهشت بالبكاء، وأما أبوه فقال في صوت هادئ حزين: ما هكذا تؤخذ اللقمة يا بني .. وأما هو فلم يعرف كيف قضىٰ ليلته!.

---

(١) عبدالفتاح أبو مدين، حكاية الفتىٰ مفتاح ص٣٤، ٣٥.

من ذاك الوقت تقيدت حركاته بشيء من الرزانة والإشفاق والحياء لا حد له، ومن ذلك الوقت عرف لنفسه إرادة قوية، ومن ذلك الوقت حرم علىٰ نفسه ألوانًا من الطعام لم تبح له إلا بعد أن جاوز الخامسة والعشرين، فقد حرم علىٰ نفسه الحساء والأرز، وكل الألوان التي تؤكل بالملاعق، لأنه كان يعرف أنه لا يحسن اصطناع الملعقة، وكان يكره أن يضحك إخوته، أو تبكي أمه، أو يعلمه أبوه في هدوء حزين.

فكم كان يتمنىٰ طفلًا لو استطاع أن يخلو إلىٰ طعامه، ولكنه لم يكن يجرؤ علىٰ أن يعلن إلىٰ أهله هذه الرغبة، علىٰ أنه خلا إلىٰ بعض الطعام أحيانًا كثيرة، ذلك في شهر رمضان وفي أيام المواسم الحافلة، حين كان أهله يتخذون ألوانًا من الطعام حلوة، ولكنها تؤكل بالملاعق؛ فكان يأبىٰ أن يصيب منها علىٰ المائدة، وكانت أمه تكره له هذا الحرمان، فكانت تفرد له طبقًا خاصًّا وتخلي بينه وبينه في حجرة خاصة، يغلقها هو من دونه حتىٰ لا يستطيع أحد أن يشرف عليه وهو يأكل.

علىٰ أنه عندما استطاع أن يملك أمر نفسه اتخذ هذه الخطة له نظامًا، بدأ بذلك حين سافر إلىٰ أوروبا لأول مرة، فتكلف التعب وأبىٰ أن يذهب إلىٰ مائدة السفينة، فكان يُحمل إليه الطعام في غرفته، ثم وصل إلىٰ فرنسا فكانت قاعدته إذا نزل في فندق أو في أسرة أن يحمل إليه الطعام في غرفته دون أن يتكلف الذهاب إلىٰ المائدة العامة، ولم يترك هذه العادة إلا حين خطب قرينته فأخرجته من عادات كثيرة كان قد ألِفها.

هذه الحادثة أخذته بألوان من الشدة في حياته، جعلته مضرب المثل في الأسرة وبين الذين عرفوه حين تجاوز حياة الأسرة إلىٰ الحياة الاجتماعية، كان قليل الأكل لا لأنه كان قليل الميل إلىٰ الطعام، بل لأنه كان يخشىٰ أن يوصف بالشره أو أن يتغامز عليه إخوته.

وقد آلمه ذلك أول الأمر، ولكنه لم يلبث أن تعوده حتىٰ أصبح من العسير عليه أن يأكل كما يأكل الناس، حيث يسرف في تصغير اللقمة، وكان له عم يغيظه منه ذلك كلما رآه فيغضب وينهره ويلح عليه في تكبير اللقمة، فيضحك إخوته، وكان ذلك سببًا في أن كَرِه عمَّه كرهًا شديدًا، كما أنه يستحي أن يشرب علىٰ المائدة مخافة أن يضطرب القدح من يده، أو ألا يحسن تناوله حين يقدم إليه، فكان طعامه جافًّا ما جلس عىٰ المائدة، حتىٰ إذا نهض عنها ليغسل يديه من حنفية كانت هناك شرب من مائها ما شاء الله أن يشرب، ولم يكن هذا الماء نقيًّا دائمًا، ولم يكن هذا النوع من ري الظمأ ملائمًا للصحة، فانتهىٰ به الأمر إلىٰ أن أصبح ممعودًا، وما استطاع أحد أن يعرف لذلك سببًا.

ثم حرم علىٰ نفسه من ألوان اللعب والعبث كل شيء، إلا ما لا يكلفه عناءً ولا يعرضه للضحك أو الإشفاق، فكان أحب اللعب إليه أن يجمع طائفة من الحديد وينتحي بها زاوية من البيت، فيجمعها ويفرقها ويقرع بعضها ببعض، ينفق في ذلك ساعات، حتىٰ إذ سئمه وقف علىٰ إخوته أو أترابه وهم يلعبون، فشاركهم في اللعب بعقله لا بيده.

وكذلك عرف أكثر ألوان اللعب دون أن يأخذ منها بحظ، وانصرافه هذا عن العبث حبب إليه لونًا من ألوان اللهو، وهو الاستماع إلىٰ القصص والأحاديث، فكان أحب شيء إليه أن يسمع إنشاد الشاعر أو حديث الرجال إلىٰ أبيه والنساء إلىٰ أمه، ومن هنا تعلم حسن الاستماع، وكان أبوه وطائفة من أصحابه يحبون القصص حبًّا جمًّا، فإذا صلوا العصر اجتمعوا إلىٰ واحد منهم يتلو عليهم قصص الغزوات والفتوح، وأخبار عنترة والظاهر بيبرس، وأخبار الأنبياء والنساك والصالحين، وكتبًا في الوعظ والسنن، وكان صاحبنا يقعد منهم مزجر الكلب وهم عنه غافلون، ولكنه لم يكن غافلًا عما يسمع، بل لم يكن غافلًا عما يتركه هذا القصص في

نفوس السامعين من الأثر، فإذا غربت الشمس تفرق القوم إلىٰ طعامهم، حتىٰ إذا صلوا العشاء اجتمعوا فتحدثوا طرفًا من الليل، وأقبل الشاعر فأخذ ينشدهم أخبار الهلاليين والزناتيين، وصاحبنا جالس يسمع في أول الليل كما كان يسمع في آخر النهار(١).

لا تعرف حياة الصحراء القاسية الترف، فالطعام قليل والماء شحيح، ولا كهرباء تكسر هجير الصيف أو تقي زمهرير الشتاء، في تلك الصحراء الواقعة شرق المملكة العربية السعودية ولدتُ لأم بدوية عام ١٩٣٥، وظللتُ أرتحل معها وعشيرة كبيرة ثماني سنوات نطلب الماء والكلأ، لم أعرف النعل حتىٰ بلغت التاسعة، إذ لا يحتاجها ابن بادية كان أول عمل يزاوله رعي الغنم في الرابعة من عمره، تلك حياة تشد العود، وتعلم الصبر، عنوانها الكفاح من أجل البقاء(٢).

أعترف أن أحلامي كانت كبيرة بالنسبة إلىٰ صبيّ صغير، وربما سعيت بذلك إلىٰ إخفاء ما يوحي به صغر جسمي، فصرت الطالب الذي يبذل جهدًا أكبر، ويقوم بواجبه أفضل من بقية الطلاب.

في أحد الأيّـام، سألنا مُدرسنا عما نريد أن نكون عندما نكبر، فجاء أغلبنا بإجابات نمطية من أمثال رجل إطفاء، أو أستاذ، أو مشرف علىٰ الحفر، لكني فاجأت الجميع قائلا: «أريد أن أصبح رئيس شركة أرامكو!»(٣).



(١) طه حسين، الأيام ص٢٦، ٣٠.
(٢) د. علي النعيمي، من البادية إلىٰ عالم النفط ص٩.
(٣) د. علي النعيمي، من البادية إلىٰ عالم النفط ص٣٨. وتجد تفاصيل تحقيق هذه الأمنية في فصل الوظيفة من فصول هذا الكتاب.

كانت حياتي منذ الطفولة مزيجًا من أحداث وأفكار وأهواء، يعود ذلك إلىٰ غياب التنميط الأُسري، فلم أعهد بناءً عائليًّا متواصلًا بسبب اختفاء الأب ثم الأم في وقت مبكر من حياتي، فدُفعت إلىٰ ممارسة دور أكبر من أن يقوم به طفل، وأصغر من أن يلبِّي خيالاته، فتنامت فيَّ درجة عالية من الصرامة الذاتية، حتىٰ إن أُبوَّتي أمستْ ثقيلة، إذ شرعتُ أرسم لأبنائي قِيَمًا لدور الأبوَّة المفقود في حياتي، ودفْعُهم للأخذ به، وضمرتْ في أعماقي عاطفة الأبوَّة الليِّنة، والحنان الشفَّاف، وأرجِّح أنهم خاضوا صعابًا في الاقتناع بدوري كأبٍ كرَّس لهم حياته وأظنهم مثلي، وإنْ بطريقة مضادة، صاروا ضحية الأمر الذي طالما افتقدته أنا، ففيما لم يمهِّد لي أحد مسار الحياة، كبروا هم بين أسوار حياةٍ ارتأيتها أنا لهم، وخلق هذا انطباعًا بأنني حرٌّ فيما أريد، متشدِّد فيما يريدونه، وكنت منقسمًا إلىٰ شخصيتين: أولاهما: أنا الفرد المتخفِّي في أفكاري، ورغباتي التي ما انفكَّت عطشي دون ارتواء، وثانيتهما: أنا الجماعي الذي منح كل شيء في حياته لأسرته[1].

۞ ۞ ۞

يقول «فرويد» إن سنوات التكوين في عمر الإنسان هي السنوات السبع الأولىٰ في حياته، لكني أجد أن سنوات التكوين الحقيقية في حياتي والتي شكلت وجداني ومشاعري الأساسية في الحياة، هي سنوات المراهقة، التي اصطدمت فيها بشكل مباشر بحقائق الحياة، وقد كنت في مأمن منها طوال السنوات السبع الأولىٰ التي يتحدث عنها»فرويد».

في سنوات المراهقة تحديت كل شيء، ووصل بي التمرد إلىٰ منتهاه حين اخترت أن أكون ملحدًا ولا أنصاع لعقيدة لم تقنع عقلي المتمرد، لكن تلك القصة لم تدم طويلًا، إذ سرعان ما اكتشفت أن قلبي مؤمن، وإذا كان عقلي قاصرًا عن فهم

(١) عبد الله إبراهيم، أمواج ص ١١، ١٢.

الله، فذلك لأنه من المحال إخضاع ماهية الذات الإلهية للعقل البشري الذي خُلِقَ لتدبر أمور الدنيا، توقفت طويلًا عند الآية الكريمة ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيـلًا ﴾ [الإسراء:٨٥]، فإذا كان العقل البشري قاصرًا عن فهم الروح، فهل يكون قادرًا علىٰ فهم الله الذي خلق الروح؟!(١)

❁ ❁ ❁

لا يخالجني الغرور أو التزيد في إيراد ذكرياتي بأن كثيرًا من مقاطعها وإحداثها ومما عانيته من الضيق والمكاره، أو مما انشرح له الصدر من النشوة والإمتاع قد يعتبر أمورًا متفردة في مسيرتي، وأن قليلًا أو كثيرًا من البشر قد عانوها وصادفوها، ومع ذلك فهي في نوعية سياقها العام وفي صدماتها الحادة أو انطلاقاتها الفسيحة، قد يكون له خصوصياتها.

أحسب أن ملايين المصريين قد تعرضوا لمآسي الفقر، لكن طفولتي وصباي وشبابي كان مما يطلق عليه الفقر (الدكر) الخانق، وهو ما حاولت اجتيازه، كذلك واجه غيري صدمات الحظ والصدف المحبطة لتنبلج بعدها عجائب الفرج، لكنها في تقديري لم تتوافر وتتابع لديهم في كل نقلة أو تحول في حياتهم بوتيرة مطردة مفاجئة بمثل ما تعرضت لها.

ومع ذلك فقد ترسخت تلك الظروف في قاع الذات لتمثل قوىٰ دافقة للدفاع والمقاومة والثقة بالنفس، هيأت لي من الإيمان بأن من (زرع حصد، ومن جد وجد)، وكنت أشعر دائمًا بقوة السند المستمر من رضىٰ الوالدين وإرضائهم وتحقيق أمنياتهم، وأن «عين الحسود» يمكن دائمًا تعطيل مفعولها، وأنه ما أصدق الحق

---

(١) د. محمد سلماوي، يومًا أو بعض يوم ص٩٩.

تبارك وتعالىٰ حين يقول في قرآنه المجيد: ﴿ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النجم:٣٩-٤١] والضروري هو أن يسعىٰ المرء حتىٰ وإن لم يتوقع جزاء أو يتصور نوعه ومداه[١].

كانت جدته لأمه (أم الفرح) هي القابلة التي أخرجته إلىٰ الدنيا، وكان أبوه يرغب في تسميته أحمد فؤاد حيث كان معجبًا بالأسرة العلويّة؛ ولذلك سمىٰ أخاه حلمي نسبة إلىٰ الخديويّ عباس حلمي الثاني الرجل الوطني العظيم، إلا أن جدته أم الفرح عندما ذهبت إلىٰ السجل المدني نسيت الاسم الذي طُلِبَ إليها تسجيله به وتذكرت فقط أنه ولد في شهر شعبان فقررت تسجيله بهذا الاسم تيمنا بشهر شعبان الذي يتشعب فيه الخير[٢].

لا أذكر من أحوال طفولتي إلا اليسير، منها أنني وأخي رشود خُتِنَّا في صباح يوم واحد، تولىٰ ذلك نجار يسكن قرية الفيضة يدعىٰ (دحيم الصانع)، وبينما كنا نصرخ من ألم عمله أخذت أختي بيدنا وذهبت بنا إلىٰ أمنا، وكانت تخبز (ترصع) علىٰ التنور، فأعطت كل واحد رغيفًا بادرنا إلىٰ الأكل وسكتنا، وكان سبب تأخير ختاني أنني منذ ولدت كنت ضعيفًا مصابًا بمرض في بطني، بحيث حُفِرَ قبري مرات، ورقع بطني بالكي وكذا سلسلة ظهري، مما بقي أثره واضحًا[٣].



(١) د. حامد عمار، خطىٰ اجتزناها ص١٧.

(٢) د. شعبان خليفة، نهر العمر ودهره ص٢٨.

(٣) حمد الجاسر، من سوانح الذكريات (١/ ٦٢).

يبدو لصاحبنا من خلال استنطاق ذكرياته واستبطانها أن البطانة الوجدانية التي تؤطر صداقة الأطفال هي من جنس تلك الروابط التي تشد بألف وثاق العشاق بعضهم إلىٰ بعض مع فارق واحد، وهو أن حرارة انشداد الأطفال الأصدقاء بعضهم إلىٰ بعض تقوىٰ مع دوام الاتصال، في حين أن لهيب حب العشاق لا يتوهج إلا في حال الفراق، وغالبًا ما تخبو ناره مع دوام الوصال.

إن عالم الطفل ينحصر أو يكاد في صديقه أو لعبته، تمامًا مثلما ينحصر عالم العاشق في معشوقه، وإذا كان حب العاشقين يتجه دومًا نحو غاية تقع خارجه هي «الوصال» وذوبان الواحد منهما في الآخر، مما يجعل منه سلوكًا «غير» بريء، فإن حب الأطفال بعضهم لبعض في إطار صداقة الصبا يخلو من كل غاية أو غرض يقع خارجهما، إنها المحبة الناشئة عن استمرار الاتصال والاشتراك في عالم من التصورات التي تشكل مجال «الوصال» بينهم، ولذلك فهي محبة بريئة تمامًا[1].

---

(١) د. محمد عابد الجابريّ، حفريات في الذاكرة من بعيد ص٤٢.

في المدرسة

قبل الدراسة المنهجية كنت أَدْرُس في المديرسة «الكتاتيب» لدىٰ الشيخ عبد العزيز بن حنطي رحمه الله وكان رجلًا كأنه من خيار التابعين يكور العمامة ويخضب بالحناء ويقلم أظفارنا بيده، ويخيط شروح ثيابنا وجيوبنا بيده، ويملأ الجيوب من الحبوب وما يُفرح الصغار ويعلمنا الوضوء والصلاة ويحفظنا القرآن، ويتعهدنا في المدرسة والبيت والمجلس، وكان شريف النسب في قومه وجيهًا عند كل مسلم عرفه قائمًا بالحسبة، ليس حقه علي وحدي، بل حقه علىٰ جميع الأجيال التي درّسَها يدعون ويضحون له ويثوّبون له بعض الأعمال، وللمشايخ حق بعد حق الوالدين لأنهم شركاؤهما في التربية[1].

❁ ❁ ❁

كنت أصاحب الصبيان الذين درسوا الابتدائية في مدرسة «النجاة» الأهلية في الزبير، وهي ابتدائية بالاسم فقط، أما المواد التي تُدَرّس فيها فهي تتجاوز أعمار الصبية بسنين كثيرة، ففيها يدرسون أدق قضايا النحو العربي، ويتبحرون في الشعر وأوزانه وتفعيلاته، ويمارسون المحاسبة التجارية ويتعلمون التاريخ الذي كان مستواه يقرب من المستوىٰ الجامعي، إضافة إلىٰ الفقه والشريعة وتفسير القرآن الكريم، أما ابتدائيتي فقد أمضيتها في مدينة البصرة حين كانت أسرتنا هناك، فكانت علىٰ مستوىٰ الدروس التي تقررها وزارة المعارف، فهي تلمس جرف الماء دون العوم فيه، وتقفز في الهواء رمزًا للتحليق.

وحين أعود بالذاكرة الآن إلىٰ أولئك الشبان الذين كانوا في عمري، أي في الحادية عشرة أو الثانية عشرة عند عودة أسرتنا ثانية إلىٰ الزبير، أشرع في تكذيب ما

---

(١) أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري، تباريح التباريح ص٥٩.

يتداوله علماء التربية من ترهات حول ضرورة التعليم المناسب للسن، حينما كانت المعرفة تطلب لذاتها لا من أجل الشهادة، كان الناس يحفظون القرآن الكريم عن ظهر قلب وهم في الثامنة من العمر ولا تغيب عن أفهامهم قضية في النحو والصرف وهم في العاشرة، وفي الغرب أيضًا كانوا قبل حمىٰ الشهادات يحفظون الألياذة والأوديسة باللغة اليونانية وهم في العاشرة، والسِّيَرُ القديمة ملأىٰ بأناس مثل هؤلاء، كنت إذن أسير مع صبية يعرفون كيف يعربون الآيات القرآنية كلها، وكيف يطبقون بحور الشعر علىٰ المعلقات والشعر الأموي والعباسي بسليقة منسابة لا تتعثر أبدًا، ومن جولاتي معهم عرفت بعض ما درسوه وأخذت منهم جانبًا مما تعلموه(١).

۞ ۞ ۞

إنها ذكرىٰ رؤيا بعيدة، ظلت تردني عبر حدود الزمان إلىٰ يوم بذاته، أخذتُ فيه مكاني في الصف، ودخل علينا مفتش وقور فبدأ يمتحننا فيما حفظنا من سور جزئي «عم وتبارك» المقررة علىٰ فرقتنا، وحين بدا ضيقه بتعثر التلميذات في التلاوة، تلطفت حضرة الناظرة «السيدة زينب الحناويّ» فاقترحت عليه أن يسمع تلاوتي للقرآن الكريم الذي حفظت أكثره!

وارتاب المفتش فيما سمع، ثم سألني أن أُسَمع له سورة النور، فلما وصلت منها إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور:٣٥] الآية، دون أن أخطئ أو أتعثر، عاد يسألني أن أتلو ما أحفظ من «سورة الكهف» فمضيت أتلو وهو يصغي بكل سمعه، حتىٰ دق الجرس مؤذنًا بانتهاء الحصة، فتوقف برهة يتحدث إليّ ويدعو

---

(١) نجيب المانع، ذكريات عمر أكلته الحروف٣ ص٩، ١٠. «الذكريات لا تتناول حياتي بل تأثير القراءة والكتابة في هذه الحياة، ولهذا قلت إنه عمر أكلته الحروف، أي الكلمات، سواء المقروءة منها أم المكتوبة». نجيب المانع، ذكريات عمر أكلته الحروف ص٢٣١.

لي، ثم انصرف راضيًا وأنا أعجب في سري لما بدا لي من سذاجته، إذ كنت أعلم علم اليقين ما حسبه امتيازًا لي، يشاركني فيه كل طلاب المعهد الدينيّ بدمياط، بل كل زملائي من صبية القرية في «كُتّاب الشيخ مرسي»!

وعدت إلىٰ البيت وأنا لا أفكر إطلاقًا في أن ما حدث لي بالمدرسة، يستحق أن يروىٰ لأهل البيت، غير أني عندما أويت ليلتها إلىٰ فراشي، رأيتني في المنام جالسة في مقعدي بحجرة الدراسة، وإذا بملاك مجنح يهبط من السماء قرب النافذة المجاورة لمكاني، ويعطيني لفافة خضراء ثم يُحَلّق عاليًا في السماء، ولما فتحت اللفافة، وجدت فيها مصحفًا شريفًا لم تكن عيني قد وقعت من قبل علىٰ مثله فخامة وبهاء! وكنت بحكم نشأتي في بيئة بحرية نهرية تموج بالأساطير وتجسم تهاويل الخيال، ثم بحكم بنوتي لشيخ متصوف يعد الرؤيا الصادقة من علامات صفاء البصيرة وإشراق الوجدان، أقول: كنت بحكم ظروف نشأتي وبيئتي، أنفعل بالأحلام وأتأثر بالرؤىٰ، فلما صحوت من نومي، أدركت عن يقين أن حياتي كلها مرتبطة بهذا المصحف، هدية السماء إليَّ في رؤياي..

ومن يومها لم أعد أتخلف عن مجلس الشيوخ العلماء، وصار مكاني المفضل في خلوة أبي بجامع البحر، أحاول أن أسبق عمري وأتجاوز القدر المدروس لي من علوم الإسلام.

ومن رؤيا الصبا هذه، امتد الخيط غير المرئي، بين ذلك الشوط الأول علىٰ شط النهر، وبين ما انتهىٰ إليه طريقي العلمي من تلمذتي للأستاذ أمين الخولي، وتخصصي في دراسة النص القرآنيّ علىٰ منهجه[1].



---

(١) عائشة بنت الشاطئ، علىٰ الجسر بين الحياة والموت ص٤٩، ٥٠.

كان مدرِّس اللغة العربية شابًّا حديث التخرج من (دار العلوم)، موفور النشاط، محبًّا للتعليم، فكان قبل بدء اليوم الدراسي بساعة يجمع تلامذة الفصلَيْنِ اللذَيْنِ تنقسم السنة إليهما، ويطلب مِن أحسن مَن كتب موضوع إنشائه قراءة موضوعه، ثم يطلب إلىٰ أحسن مَن كتب في الفصل الآخر قراءة موضوعه، ثم يطلب إلىٰ بقية التلاميذ نَقْدَ الموضوعين أو التعليق عليها، وكرَّر هذا كثيرًا، فكشف لنا اللغة ومزاياها فحببنا فيها.

وفي أحد الأيـام طلب أن يتبرع كل واحد بتعريفة، أي: نصف قرش، وهو مصروفنا اليومي، وبعد أن حصَّل التبرعات أتىٰ ببعض الكتب التي تناسب طفولتنا وتمنحنا فائدة، ووضعها علىٰ رفٍّ كان قد أثبته في الحائط، وأشهدُ أني قرأتُ الكتاب الأول بسبب ما دفعته من مصروفي، ثم قرأتُ بقية الكتب، وكرَّر هذا العمل فجعلنا نقرأ -دون أن نحسَّ- عددًا من الكتب، ومنذ هذا التاريخ تعودتُ المطالعة وأحببتُها، وألَّا أضيِّع أي وقت دونها إلىٰ اليوم الذي أعيش فيه الآن[1].

❁ ❁ ❁

كنَّا من حيث المستوىٰ المدرسي في الصف الأول الثانوي، وكان أستاذ اللغة العربية قد نصحنا أن نشترك في مجلة الرسالة المصرية، وكان الاشتراك السنوي يكلف جنيهًا واحدًا، فاشترك كل واحد من طلاب الصف، في هذه المجلة، وكانت تصلنا بالبريد، وعليها اسم كل مشترك وعنوانه، والحق أن مجلة الرسالة أصبحت

---

(١) د. حسين نصار، التحدث بنعمة الله ٣ص٢٢،٢٣. «اخترتُ هذا العنوان، متَّبعًا بلديَّ (بَلَدِيَّاتِي) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)؛ لأنني لم أعتد الكتابة عن نفسي مباشرة، وعن مسيرة حياتي الشخصية. وأهل الصعيد إذا قالوا: «النعمة» دون تحديد، فإنما أرادوا بها الخُبْزَ الذي يعدُّونه هو الحياة (العيش)، ثم يريدون كل ما أعطىٰ الله جل وعلا للبشر، وطبيعي أنني أستخدم الكلمة بالمدلول الأخير، لأن الله حباني بما لم أسع إليه، ولا تمنيتُه ولا فكَّرتُ فيه» د. حسين نصار، التحدث بنعمة الله ص٧.

هي «المعلم الأكبر» لنا، فيها نقرأ ما يكتبه طه حسين وعلي الطنطاوي ومصطفىٰ صادق الرافعيّ وزكي مبارك وأحمد حسن الزيات، وغيرهم من كبار الكتاب ذوي الأساليب المتميزة، وكنت شديد الإعجاب بأسلوب الرافعيّ وتلميذه محمود محمد شاكر، هذا مع تقديري لأكثر من يكتبون فيها وكان يعجبني ما ينشر فيها من شعر أنور العطار (شاعر سوريّ) ومن شعر محمود حسن إسماعيل، نعم .. إن الرسالة قد رفعت مستوىٰ الذائقة الأدبية لدينا[١].

۞ ۞ ۞

درسنا «الأدب» في «البيان والتبيين» للجاحظ و«الكامل» للمبرد و«الأماليّ» للقاليّ و«الحماسة» لأبي تمام، قلت ندرس «في» ولم أقل «ندرس» فقط وهذا هو الطبيعي فيستحيل أن ندرس هذه الكتب كلها، وتقول لِمَ لم تدرسوا كتابًا واحدًا منها؟ وأقول: أين الكتاب الواحد من أربعة والأربعة تعدك للأوسع والأكثر وبين هذه الأربعة ترد شروح الأستاذ وتعليقاته وإضافته وعمله ورأيه ولا تجد روائع للشعر العربي بقدر ما تجد في الحماسة.

وندرس كذلك «كشاف» الزمخشري في التفسير، ولا ندرسه من حيث هو تفسير وإنما ندرسه من حيث هو كتاب أدب، ومن شأن أستاذنا في درسه ألا يشغلنا عن «الأدب» نفسه بكثير مما يضيعه مثل حياة المؤلف وعصره وشيوخه وتأريخ «الأماليّ» أو تاريخ التفسير أو تاريخ الحماسات وحسبك أن كلمة واحدة لم ترد علىٰ لسانه عن جمع الحماسة وشروحها، ولم يَرِد يومًا اسم حماسة البحتريّ -ولم يكن أستاذنا يجهل شيئًا من ذلك؛ ولكنه لا يراه الأساس في العملية التعليمية، والطالب الحقيقي يصل إلىٰ ذلك بسعيه ورغبته- كما كان يحصل فعلًا[٢].

---

(١) إحسان عباس، غربة الراعي ص٩٢، ٩٣.

(٢) د. علي جواد الطاهر، فصول ذاتية من سيرة غير ذاتية ص١٤.

الجامعة

كنَّا علىٰ أعتاب امتحان التوجيهية، ختام المدرسة، وسألني جدي: ماذا ستدرس في الجامعة؟ فقلت له: لا أريد الذهاب إلىٰ الجامعة، قال: لماذا؟ قلت: لأني أريد أن أتعلم، لا أظن جدي فهم مقصدي، وأنا شبه متأكد من أنني لم أقل ذلك الشيء متحذلقًا، قد علمتني المدرسة أنها لا تُعلمك شيئًا، إلا إذا أردت أنت أن تتعلمه، وتعلمت كثيرًا من الكتب وقليلًا جدًا من المعلمين، كنت أتحرق لتطليق المدرسة كي أطالع كتبًا أكثر، وعندما بدأنا نؤدي امتحانات التوجيهية كنت أقضي الصباح في قاعة الامتحان، والعصر في المكتبة العامة أقرأ الكتب، لا بل كنت في تلك الفترة أستعير الكتب لكي أقرأ ليلًا دون اكتراث لهذه الامتحانات التي ترتعد لها فرائص الآخرين، وكانت النتيجة متوسطة ولم أحفل بها، وتهربت من الجامعة نحو سنة، ثم أَجاءني ضغط الأهل إلىٰ الجامعة، ولم يتغير سلوكي؛ لهذا قضيت نحو تسع سنين قبل الحصول علىٰ الشهادة الجامعية الأولىٰ، التي كانت الأخيرة أيضًا، وشهدت سنواتي الجامعية هذه تنقلًا بين بلد وبلد، وجامعة وجامعة، وتخصص وتخصص.

أيقنت -وما زال اليقين يزداد كل سنة من السنوات الأربعين التي انصرمت منذ أن تركت المدرسة - أن خير طريقة لاكتساب المعرفة هي أن يكتسبها المرء بنفسه، وبأقل قدر من الإرشاد، وأيقنت أن الرغبة هي الدافع الأكبر، وأن سياسة العصا والجزرة في المدارس يجب أن تحل محلها سياسة الجزرة والجزرة[1].

۞ ۞ ۞

أما الكلية، فقد كان رجالها من خيرة الأساتذة، ولهم شيخ كبير هو الأستاذ إبراهيم الجباليّ عميد الكلية، وكان من عادته أن يزور الأساتذة في المحاضرات، يجلس مستمعًا، ثم يناقش الطلبة والأستاذ فيما يعنّ له، والرجل رحمه الله طويل

(١) عارف حجاوي، حياتي في الإعلام ص١٠، ١١.

الباع في العلوم وفي دروس الأدب والنحو والبلاغة، وكأنه تخصص في هذه المواد جميعها؛ والجامعات الآن لا ترىٰ من حق العميد أن يزور الأساتذة ويناقشهم في دروسهم، وكان الأَوْلَىٰ أن تصر علىٰ هذا التقليد الأزهري القديم، لأن الأستاذ إذا توقَّع مجيء العميد اجتهد واستعد!! وتلك غنيمة للطلاب!

ولي مع هذا الشيخ قصة طريفة، فقد كان من ابتكاراته ألا يسمح لطالب بإجازة ما دون أن يرىٰ الطالب، ويسأله عن مبررات الإجازة، وقد اعتاد أن يوجه للطالب سؤالًا علميًّا ليجيب عنه فإن أحسن الإجابة شفع له اجتهاده فيما يطلب، وإن أخطأ قوبل بالصدود، وفي ذات يوم جاءني خطاب من والدي يخبرني فيه أنه سيزور القاهرة في الساعة الثانية عشرة من يوم حدده، وقد طلب أن أكون في استقباله بمحطة باب الحديد عند وصوله، فتقدمت بطلب الإجازة لفضيلة الشيخ، فأجلسني ثم قال: أريد أن تعرب قول الشاعر:

وكل رفيقيْ كل رحل وإن هما ... تعاطىٰ القنا قوماهما أخوان

وكنتُ علىٰ ذكر من هذا البيت، أُلم بمعناه، وأعرف مناسبته، وأعرف أن المبتدأ في أوله، والخبر في آخره، فقلت للشيخ مبتسمًا، سأعرب البيت كما تريد، ولكني سأسألك عن قائله، وعن مناسبته، وعمن أخطأ في إعرابه من كبار النحاة! فابتسم الشيخ وقال: جئتَ بآبدة، جئتَ بآبدة! فقلت كل مبتدأ، وأخوان خبر، والجملة الشرطية معترضة، والذي أخطأ في إعرابه هو العلامة ابن هشام في كتاب المغني! وكان بالمجلس أستاذنا الشيخ محمد الطنطاوي أستاذ النحو، فقال للشيخ: هذا الطالب من كتّاب مجلة الرسالة، فأشرق وجه الشيخ، وقال مبتسمًا:

اذهب يا بني لوالدك ولغير والدك، نحن لا نتشدد في الإجازة إلا مع المتعلمين! أما العلماء أمثالك فلهم ما يشاءون!

وحديث الأستاذ الطنطاوي عن الرسالة يجيز لي أن أتحدث عن فضل الرسالة عليّ في هذا العهد، فقد كان الأستاذ الزيات يفسح صدر مجلته الراقية لمقالاتي وبحوثي وأنا طالب بالكلية، إذ نشرتُ بحوثًا شتىٰ عن الغزل في شعر المرأة وإنجلترا في مرآة حافظ والجن في منطق الأساطير، وهيام المتصوفين، والمرأة عند الرصافي، هذا إلىٰ فصول أخرىٰ تتعلق بالأعلام المعاصرين كمحمد عبد المطلب والمنفلوطي وولي الدين يكن والزهاوي مع قصائد اجتماعية وعاطفية، ومما كان له صدىٰ في الكلية ما نشرته تحت عنوان (عمر بن الخطاب الأديب) حيث كان هذا الموضوع مقررًا علىٰ طلاب السنة الثانية في دروس النقد، ولم تكن له حينئذ من المراجع ما يشفي الغلة، وأذكر أن فضيلة الأستاذ الكبير أحمد شفيع كان يخص مقالاتي بالتنويه في محاضراته، ويدعو الطلاب إلىٰ قراءتها ونقدها، وهذا فضل منه لا أنساه، كما أذكر أنه كان ذا مروءة مع الطلاب المعسرين يمدهم من راتبه الشهري ما هو في حاجة إليه، عن سماح فطريّ جُبل عليه، وقد تأكدت بيني وبينه صلة أدبية وثيقة فانتفعت كثيرًا بعلمه ونقده.

أما الذي عجبت له فموقف أستاذي الجليل الشيخ شبل يحيىٰ وكان يُدرّس لنا المنطق بالكلية، وقد اشتُهر بالشاعرية إذ كان يلقي قصائده في ندوات الجمعيات الدينية، وفي يوم من الأيام أعطاني ظرفًا لأقرأ ما فيه ومضىٰ، فطالعته فإذا قصيدة من إنشائه في موضوع ديني، يرجو أن أطالعها وأصلح ما بها من الأخطاء، لأنه نظمها علىٰ عجل استجابة لرغبة المسئولين، ويخشىٰ ألا تحوز القبول، وقد قرأت القصيدة فوجدتها حسنة، وليس بها ما ينتقد معنىٰ ومبنىٰ! ولكني في الوقت نفسه دهشتُ لعالم فاضل يدفعه تواضعه إلىٰ أن يقول لتلميذه الناشئ «أرجو أن تصلح ما بها من الأخطاء» فأعدتُ كتابة القصيدة بخطي، وأضفتُ إليها ما رأيتُ أن الموضوع يحتاج إليه، ثم قدّمت له الظرف مغلقًا كما جاء، وحين استمعت إلىٰ القصيدة في الجمعية

وجدتُ الرجل المتحرّز قد حذف جميع ما أضفته، ولم يسمح لنفسه أن يستعير شيئًا مما اختلف، ثم قابلته فسألتُه! كيف تعتقد أن مثلي يتولىٰ تصحيح شعر رصين لشاعر مطبوع، فصحبني إلىٰ مجلس بنادي الكلية، وطلب لي فنجان القهوة، وقال: يا بني الحق أحق أن يتّبع، وقصائدك في الرسالة والثقافة تثبت براعتك الفائقة، والشعر موهبة، وقد أكون ناظمًا لكني غير موهوب! لقد أسرني الرجل بحديثه المليء بالتواضع، وضرب لي مثلًا في السمو الخلقي الرفيع[1].

❁ ❁ ❁

كنتُ أتتبع باستمرار المحاضرات العامة والندوات الخاصة التي كانت تُعقد أسبوعيًّا في الجامعة، وهي الندوة المفضلة إليّ وكنت أحضر جلساتها الأسبوعية بانتظام، وتسمىٰ ندوة «الفكر الاجتماعي»، والتي يحضرها بين آن وآخر بعض الطلبة العرب، يحضرها الواحد منهم مرة أو مرتين ثم يتوقف عن الحضور، ولم يزد عدد الطلبة العرب في أية جلسة عن اثنين أو ثلاثة، وكانوا في الغالب من طلبة الاقتصاد والعلوم السياسية يجلسون جنبًا إلىٰ جنب، ويتهامسون ويتضاحكون، كلما اشترك أحدهم في النقاش، كنت أتمنىٰ أن تنشق الأرض وتبتلعني، كان الواحد منهم يقدم رأيه بشكل قاطع جازم، بلغة إنكليزية مكسَّرة وبلهجة عاطفية خطابية.

كان د.نيف يتيح لهم دائمًا مجالًا للاشتراك في النقاش ويصغي إليهم بانتباه، مما كان يزيد من غرورهم وتماديهم في التعليق علىٰ كل ما كان يطرح من أفكار أو يتخذ من مواقف.

أتيحت لي الفرصة في تلك الندوة وخارجها أن أراقب عن كثب سلوك زملائي العرب وأقارنه بسلوك زملائي الأميركيين، وكان أول ما لفت نظري في السلوك

---

(١) د. محمد رجب البيومي، ظلال من حياتي ص٤١، ٤٤.

الأميركي روح الالتزام والشعور بالمسؤولية، في حين أن الدراسة والمطالعة والتحضير بالنسبة للطالب الأميركي مهمة أساسية تخضع لها كل الاعتبارات الأخرىٰ، فكان عندما ينفرد في غرفته أو في زاوية من المكتبة، لا يثنيه عن الدرس والمطالعة شيء، فلا يسمح لنفسه بالراحة والترفيه إلا بعد أن ينهي ما يتوجب عليه.

وكان سلوك الطالب العربي علىٰ عكس ذلك تمامًا، فهو دائمًا علىٰ استعداد لأن يضع كتبه جانبًا إذا سنحت الفرصة لتناول فنجان قهوة مع فتاة، كان حسه بالمسؤولية مرتبطًا بما هو خارج عنه، بسلطة تقف فوق رأسه، لا بدافع داخلي يلزمه ذاتيًّا، فإذا غابت عنه السلطة الخارجية (سلطة الأب أو الأستاذ) حلت محلها نزعة فوضوية تدفع به إلىٰ التهرب من المسؤولية والسعي نحو اللذة، وإذا وجد نفسه حرًّا عجز عن استعمال حريته[١].

۞ ۞ ۞

كان الشاب في هذه الأثناء يقصر اهتمامه علىٰ رسالته التي يعدها للحصول علىٰ درجة الدكتوراه بوضع المذاهب الفنيّة للشعر العربي علىٰ مر العصور، وظل يُعنىٰ بجمع مادتها من دواوين الشعراء علىٰ اختلاف بيئاتهم وتفاوت عصورهم، ومن تراجمهم المبسوطة في كتب الشعر العربي وتاريخه عند القدماء والمحدثين ممن العرب والمستشرقين، ومن كتابات نقاد العرب والغرب في النقد الأدبي وما نثروه من ملاحظات كثيرة علىٰ فن الشعر وصناعته... حتىٰ إذا كان العام الدراسي الجامعي الجديد: ١٩٤٠/ ١٩٤١ ذكر لأستاذه طه حسين أنه ماض في كتابة رسالته، وحبذا لو بدأ يقرأ فصولها معه، وسُرَّ أستاذه، وجعل له يومًا معينًا في كل أسبوعين هو يوم الخميس، وساعة معينة هي الساعة التاسعة.

---

(١) هشام شرابي، الجمر والرماد ص١٢٤، ١٢٦.

وكان يذهب إلىٰ أستاذه في الموعد المحدد فيجده دائمًا في انتظاره.

وما إن استمع طه حسين إلىٰ الفصل الأول من فصول الرسالة حتىٰ أخذ يثني علىٰ الشاب وعلىٰ رسالته في اجتماعات قسم اللغة العربية، وكلما مضىٰ الشاب في قراءة فصول رسالته علىٰ أستاذه ازداد ثناؤه، وهو ثناء كان يجعل الشاب يزداد تجويدًا ودأبًا في رسالته باذلًا لها كل ما يستطيع من جهد ومشقة حتىٰ يرضي أستاذه وحتىٰ يكون مستحقًا لثنائه.

وإن الشاب ليذكر -دائمًا - هذا الثناء الكريم، وكيف كان يدفعه دفعًا إلىٰ مضاعفة جهده حتىٰ ينجز رسالته -منذ تسجيلها - في نحو عام ونصف، وطه حسين بذلك كان أستاذًا مشرفًا علىٰ رسالة الشاب بالمعنىٰ الدقيق لإشراف الأساتذة، بحيث يستخرج من تلميذه كل ما عنده من طاقة وقدرة.

ومن طريف ما يذكره الشاب عن أستاذه في هذه الفترة التي كان يعد فيها رسالته أنه غدا عليه ذات يوم لقراءة فصل من فصولها فسأل الأستاذ التلميذ عن محاضرة له كان قد ألقاها في الجامعة الأمريكية فأجابه: «كانت محاضرة طيبة»، فقال له متعجبًا: «طيبة فقط» فقال التلميذ لأستاذه: كل ما تلقيه من محاضرات رائع! فاستغرق طه حسين في الضحك طويلًا، واضعًا إحدىٰ يديه علىٰ الأخرىٰ ثم قال له: ما رأيك في أنني ظللت أعدُّ هذه المحاضرة في نحو شهر أقرأ لها كتبًا مختلفة، حتىٰ استوعبت موضوعها وألقيت فيه المحاضرة التي سمعتها.

وخجل التلميذ من أستاذه لأنه لم يكن يطرأ علىٰ باله أن يعنىٰ بالإعداد لمحاضراته العامة كل هذه العناية، وخاصة أنه كان يمتاز ببراعة فائقة في الأداء، براعة لم تتح لأي محاضر في أيامه، وكان لا يذكر اسمه وأنه سيلقي محاضرة عامة في أي مكان حتىٰ ينطلق إليه الجمهور يريد أن يستمع إلىٰ بيانه المصفىٰ، وما يكاد

صوته يرتفع بهذا البيان حتىٰ تصغي إليه القلوب والألباب.

وكان ذلك درسًا رائعًا للتلميذ ليعلم بل ليستقر في نفسه أنه لا يوجد عمل أدبي -محاضرة أو غير محاضرة- جدير بالتقدير مهما صغر حجمه دون أن يكلف صاحبه مؤنة مجهدة ومشقة متعبة، حتىٰ طه حسين صاحب البيان الساحر الذي كان يخلب به مستمعيه يتحمل جهدًا مضنيًا لا في بحوثه الطويلة وكتبه فحسب، بل -أيضًا- في محاضراته.

وبلغ من تقدير طه حسين لرسالة الشاب أن أذن له بالابتداء في طبعها حين أوشك علىٰ الانتهاء منها وعادة لا يؤذن للتلميذ بطبع رسالته التي يعدها لدرجة الدكتوراه إلا بعد قراءة الأستاذ المشرف لكل فصولها، وكأن طه حسين أراد أن يصور لتلميذه تقديره لما سمع من فصول رسالته وأنه أصبح واثقًا من نفوذه إلىٰ غايته منها في منهج سديد وطريق قويم.

وبدأ الشاب يطبع ما قرأه علىٰ أستاذه من فصول الرسالة من جهة ويكتب ويقرأ ما بقي منها عليه من جهة ثانية، حتىٰ إذا أتم طبعها قدمها إلىٰ الكلية مع خطاب من طه حسين لتكوين لجنة المناقشين، وكانت حينئذ تتكون من خمسة أساتذة منهم الأستاذ العميد(١).

كانت المكتبة العامة تكاد تكون ملاصقة لكلية الآداب، فاتخذتُها مقرًّا لي في كل فراغ، بحيث صرت عارفًا بمقرِّ كل تخصص في القاعة الشرقية التي كنا نسميها (المعهد)، وعنوان كل كتاب فيها وموضعه، ولم يكن يفوقني في هذه المعرفة غير (سيد) فراش المكتبة، الذي اكتشفتُ بعد مدة طويلة أنه أُمِّيٌّ!(٢).



(١) د. شوقي ضيف، معي (١/ ١٦٤، ١٦٦).

(٢) د.حسين نصار، التحدث بنعمة الله ص٣٣.

بذلتُ في إنجاز رسالة الدكتوراه جهودًا كبيرة كان لها أثرها في صحتي، فقد امتلأ جسدي بدمامل صغيرة نسميها (فسافيس)، فاستشرتُ طبيبًا بعد طبيب دون أن أصل إلىٰ دواء ناجع، وأخيرًا نصحني صديق أن ألجأ إلىٰ طبيب نمساوي كبير السن يقيم في (شارع عدلي)، لا شك -بحكم عمره- في وفرة تجاربه، فلعل شيئًا قريبًا من حالتي مرَّ به، ولم أتأخر في المرور به، فنفىٰ أن تكون حالتي نتيجة عدوىٰ، وإنما هي نتيجة إرهاق عضوي ونفسي، وأوصاني بالتغذية الطبية -وخاصة الحِلْبة- وبعض المقويات، وأمرني بعدم الانشغال بأي عمل والترويح عن النفس والتنزه[1].

---

(١) د.حسين نصار، التحدث بنعمة الله ص١٤٥، ١٤٦.

شيوخ وأساتذة

كثيرًا ما سمعت من أستاذي الشيخ طاهر الجزائري أنه في اليوم الذي يجُمِع الناس علىٰ حبه يعتقد نفسه ساقطًا ، ذلك لأن معنىٰ الإجماع أن الممدوح ينافق كل إنسان، لا ينكر منكرًا ، ولا يدعو إلىٰ معروف، وصاحب الإصلاح ، في العادة يمقته فريق، ويرضىٰ عنه آخر، ومن أراد تطبيق ما يعلم ، يتأفف منه السواد الأعظم. ولقد نصحني أستاذي الشيخ طاهر الجزائري نصيحة وَقَتْ أوقاتي من الضياع، وفكري من البلبلة ، وكان ذلك لما بدأت بتحرير جريدة «الشام» قال: إذا أحببت النجاح في هذا البلد فلا تلق بأذنك لما يقال فيك من خير وشر، وارم ببصرك فقط إلىٰ الهدف الذي يعنيك الوصول إليه، ولا تلتفت ذات اليمين ولا ذات الشمال، وإذا وضع لك واضع حجرًا في طريقك فتنحَّ عنه، وعد إلىٰ سلوك محجتك[1].

كان يقول لبعض تلاميذه: تعلَّم كل يوم مسألة واخرج للنزهة ولا تتعب نفسك كثيرًا فلا خير للمرء بإكراهه علىٰ معاطاة أمر تضيق به نفسه. وكان يقول لهم تعلموا كل ما يتيسر لكم تعلّمُه ولو لغة مالطة فقد يجيء زمن تحتاجون إليها وإياكم أن تقولوا إنها لا تدخل في نطاق اختصاصنا فالعلم كله نافع والمرء يتعلم ما حَسُنَت به الحياة[2].

كان العامل الأكبر في توجيه إرادتي نحو الدعوة إلىٰ الإصلاح الاجتماعي والإقدام علىٰ التأليف والنشر، وإشرابي محبة الأجداد والتناغي بآثارهم، والحرص

---

(١) محمد كرد علي المذكرات (١/ ٢١٣).
(٢) محمد كرد علي، المذكرات (٣/ ٧١٩).

علىٰ تراث حضارتهم، أستاذي الأكبر الشيخ طاهر الجزائري، فما زلت ألزمه منذ اتصلت به إلىٰ أن ذهب إلىٰ ربه سنة ١٣٣٨هـ[١].



مصطفى السقا

أستاذي -بل والدي الروحيّ - (مصطفىٰ السقا)، فقد توطدت علاقة الإشراف علىٰ رسالتي إلىٰ أن ظن كثيرون أننا أقارب، وعاملني هو معاملة الأب، وأهم أمثلة هذه العلاقة عندما رأىٰ ما بذلتُ من جهد في إعداد رسالة الدكتوراه، وبدا عليَّ الضعف البدني، لما استشعر ذلك طلب مني أن أعطيه مسوَّدة أحد الفصول لتبييضها لي، وكان ذاك أمرًا ضروريًّا حينذاك، لدفعها إلىٰ مَن يطبعها علىٰ الآلة الكاتبة (التايبريتر)، وفي آخر حياته جمع ابنيه وطلب منهما أن يسمحا لي بأخذ كل ما أريد من مكتبته -ولو كانت كلها - بعد وفاته، وتم ذلك فعلًا[٢].



خليل مردم بك

إن من نعمة الله عليَّ وعلىٰ شعري معًا، أن معلِّم الأدب الأول الذي تتلمذت عليه، كان شاعرًا من أرق وأعذب شعراء الشام، وهو الأستاذ خليل مردم بك، هذا الرجل ربطني بالشعر منذ اللحظة الأولىٰ، حين أملىٰ علينا في أول درس من دروس الأدب مثل هذا الكلام المصقول كسبيكة الذهب:

---

(١) محمد كرد علي، خطط الشام (٦ / ٤١٢). للأستاذ محمد كرد علي ترجمة حافلة لنفسه في نهاية كتابه خطط الشام أحببت أن لاأخلي منها هذا الكتاب.

(٢) د. حسين نصار، التحدث بنعمة الله ص٤٢.

إنَّ التـي زعمـتْ فـؤادك ملَّهـا خُلقَتْ هواكَ كما خُلقتَ هوًىٰ لها

منعتْ تحيّتَها، فقلت لصاحبي: مـا كان أكثرَهـا لنـا.. وأقلَّهـا

واستمر خليل مردم يقطف لنا من شجرة الشعر العربي عشر زهرات جديدة في كل درس من دروسه، حتىٰ صارت ذاكرتنا الشعرية في نهاية العام بستانًا يموج بالأخضر والأصفر والأحمر.

لقد جنَّبنا هذا الشاعر الكبير، بذوقه المترف وإحساسه المرهف، السير علىٰ حجارة أكثر الشعر الجاهلي، ونباتاته الصحراوية الشائكة، ودلَّنا علىٰ طرقات ظليلة، وواحات في الشعر العربي، أنستنا متاعب الرحلة.

ولا بد لي هنا من القول إن مُدرّسي اللغة العربية وآدابها يلعبون دورًا خطيرًا في فتح شهية الطلاب الأدبية، أو سدّها، فمُدرّسٌ يجعل ساعة الأدب ساعة تعذيب واحتضار.. ومُدرّسٌ يجعل المادة التي بين يديه حقل جلّنار ويحوّل النصوص الجامدة إلىٰ نزهة في ضوء القمر.

ومن حسن حظي، أنني كنت من بين التلاميذ الذين تعهدهم هذا الشاعر المفرط في حساسيته الشعرية، وأخذهم معه في نزهاته القمرية، ودلّهم علىٰ الغابات المسحورة التي يسكن فيها الشعر.

إنني أدين لخليل مردم بك بهذا المخزون الشعري الراقي الذي تركه علىٰ طبقات عقلي الباطن، وإذا كان الذوق الشعري عجينة تتشكل بما نراه ونسمعه ونقرؤه في طفولتنا.. فإن خليل مردم كان له الفضل العظيم في زرع وردة الشعر

تحت جلدي وفي تهيئة الخمائر التي كوَّنت خلاياي وأنسجتي الشعرية[١].



حفني ناصف

كان من أساتذتي حفني ناصف، رحمه الله، وكان ابتسامًا كله وفكاهة كله وتواضعًا كله، علىٰ غزارة في العلم، وأصالة في الفقه بما كان يدرّس من الأدب العربي القديم، وكان الطلاب يكلفون به أشد الكلف ويطمعون فيه أعظم الطمع، وكان بعضهم ربما انصرف عن دروسه ليجلس إليه في قهوة كوبري قصر النيل التي كان يجلس فيها ساعة قبل الدرس من يوم الخميس من كل أسبوع.

وكان الطلاب يأبون عليه أن يختم دروسه في آخر العام دون أن يزيدهم علىٰ المقرر درسين أو دروسًا، وكان الفتىٰ لسانهم حين كانوا يرغبون إليه في ذلك، فيطلب إليه المزيد من الدرس نثرًا حينًا وشعرًا حينًا مستعطفًا مرة ومنذرًا مرة أخرىٰ، وكان -رحمه الله- قد شرح كتاب «الكافي في العروض» حين كان طالبًا في الأزهر، ومع ذلك يخجل من هذا الشرح ويكره أشد الكره أن ينسب إليه، فكان هذا الفتىٰ يقسم له في آخر العام لئن لم يضف إلىٰ المقرر دروسًا لينسبن إليه شرح الكافي في مقال ينشره في الجريدة؛ ولهذا -رحمه الله- يستجيب فيضيف درسين، وربما أضاف أربعة دروس.

وكان أروع صورة عرفها الفتىٰ لتواضع الأستاذ أنه لم يتكلف قط ذلك الوقار المصنوع الذي يتكلفه بعض الأساتذة حين يرقون إلىٰ مجلسهم في غرفة الدرس، وإنما كان يخلط نفسه بطلابه كأنه واحد منهم[٢].



(١) نزار قباني، قصتي مع الشعر ص٤٥، ٤٧.

(٢) طه حسين، الأيام ص٣٥٤، ٣٥٥.

كان ينعم بصداقة أساتذته، إذ طالما أسبغوا عليه صداقتهم وفي مقدمتهم طه حسين، وكانت فيه خصلة كريمة، هي الترحيب دائمًا بتلاميذه حين يزورونه في منزله، فكان إذا رأىٰ في أحدهم -ممن يعدون معه رسائلهم العلمية - استعدادًا وقدرة علىٰ متابعة البحث والنفوذ إلىٰ بعض الآراء الطريفة شجّعه وأطراه لزملائه وأساتذته، فيدفع بذلك تلاميذه إلىٰ مضاعفة جهدهم ودأبهم في البحث، وهو جانب مهم في الأساتذة الجامعيين المرموقين الذين يشرفون علىٰ طلاب الدراسات العليا، إذ واجبهم أن يقرِّبوا منهم من يعملون بإشرافهم في بحوثهم، وأن يملئوهم ثقة واعتدادًا بأنفسهم وحماسة متقدة للنهوض بأعمالهم مطرين لها إذا استحقت الإطراء.

ومن المؤكد أنه حين يزري أستاذ جامعي علىٰ عمل طالب يشرف عليه أو علىٰ بعض فصوله دون أخذه بالرفق وبيانه له -بدقة - ما ينبغي أن يسلكه من نهج محكم فإنه يكون حينئذ أداة تعطيل له دون المسيرة السديدة في بحثه، بل قد يحطمه تحطيمًا، وما أشبه الشباب الجامعي في بدء عنايتهم ببحوث الدرجات الجامعية العليا بالأزهار في كمامها الغضة، وكما أن الأزهار تحتاج إلىٰ ندىٰ السَّحَر لتتفتح في كمامها ولتستتم أريجها كذلك شباب البحوث الجامعية العلمية في حاجة إلىٰ إطراء أساتذتهم وتشجيعهم، حتىٰ تتفتح ملكاتهم العقلية، وحتىٰ يقبلوا علىٰ البحث بِنَهَمٍ، بل حتىٰ ينقضّوا علىٰ بحوثهم انقضاضًا نافذين إلىٰ نتائج علمية ذات قيمة[1].



(١) شوقي ضيف، معي (٢/ ٧، ٨).

أحمد الإسكندري

كانت الوزارة قد نقلت إلىٰ قسم اللغة العربية الشيخ أحمد الإسكندري أستاذ الأدب بدار العلوم ليشغل مكان طه حسين فيه، وكان شيخًا جليلًا، وله مؤلفات في الأدب وغيره، فهو حجة لا يبارىٰ في اللغة حيث اشتهر ببحوثه اللغوية الفريدة، وكان يأخذ الفتىٰ ورفاقه بالجد في الدرس ناصحًا لهم مرشدًا ما استطاع من الإرشاد والنصح، وذكر لهم يومًا فيما ذكر من إكبابه علىٰ البحث أنه قرأ القاموس المحيط لفيروزأبادي بمجلداته الأربعة وفي يده قلم ليكتب توًّا كل كلمة يجدها في هذا المعجم صالحة لأداء معنىٰ حضاري جديد أو مصطلح علمي حديث؛ وبذلك ومثله كان يدفع الفتىٰ ورفاقه للعكوف علىٰ القراءة والتحصيل والانتفاع بما يحصلون ويقرءون، وكان الفتىٰ ورفاقه يدرسون الإنجليزية والفرنسية مع طلاب الأقسام المختلفة في الكلية ودرسوا مع اللغتين اللغة السريانية لعام واحد مع ما درسوا من الأدب والنقد والنحو[1].



سيد المرصفي

أنا مدين للشيخ سيد المرصفي بكل شيء في حياتي اللغوية والأدبية، ولا يزاحمه في قلبي إلا إنسان واحد هو فقيد الأدب والبيان محمد المهديّ.

في أحد الأيام قلت لأبي: أنا أحب أن أتعلم في الأزهر فقال: من أين وصل إليك هذا الخاطر؟ فقلت: إنه أمل يساورني منذ أيام ولعل في تحقيقه خيرًا كثيرًا، ذهبت إلىٰ الأزهر وسني سبعة عشرة عامًا، دخلته وجلست أستمع إلىٰ الشيخ سيد

(١) شوقي ضيف، معي (٢/ ١٣٢).

بن علي المرصفي. وكان الدرس إن الله ما عصىٰ بشعر كما عصىٰ بشعر عمر بن أبىٰ ربيعة، قال الشيخ: أهذه مثلبة أم منقبة؟ فأجاب أكثر الطلاب بأنها مثلبة، وأجبت وحدي بأنها منقبة، فقال: وكيف؟

فقلت: يريد ابن عباس أن شعر ابن أبىٰ ربيعة يفعل بالقلوب ما يفعل الشراب فينقلها من الهدىٰ إلىٰ الضلال، فقال الشيخ -رحمه الله - في حماسة شديدة (إيه يا عروس الأدب) وكانت أول كلمة حببت إليَّ دراسة الأدب.

لازمت الشيخ سيد المرصفي سبع سنين، وكنت أكتب جميع ما يقوله في الدرس، ثم أصل جناحه إلىٰ منزله بدرب السماكين، والمسافة لا تحتاج إلىٰ أكثر من عشرين دقيقة ولكننا نقطعها في سبعين دقيقة؛ لأن الشيخ كان يحب أن يسمع شعرًا فأُسمعه بعض ما أحفظ من شعر العرب، وكنت حفظت ثلاثين ألف بيت، حين كان الشيخ يسمع بيتًا جيدًا يقف ويقول: الله.. الله.. الله وحين نصل إلىٰ البيت يدعوني الشيخ إلىٰ فنجان قهوة ويقول لا بد من فائدة جزاء لك يا زكي، فما هي الفائدة؟

سئلت بدوية: كيف تعرفين الصبح؟ فقالت: أعرفه بنهيق الحمار.

وسئلت حضرية: كيف تعرفين الصبح؟ فقالت: حين تبرد القلائد في عنقي أعرف الصبح[1].



شوقي ضيف

• كانت علاقتي بأستاذي الكبير الدكتور شوقي ضيف ممتازة. قلَّ أن وَجدتُ

---

(١) زكي مبارك، زكي مبارك بقلم زكي مبارك، إعداد كريمة زكي مبارك ص٢٦، ٢٧.

بين أساتذتي من هو أكثر تواضعًا ودماثة من الدكتور شوقي، ومن هو في الوقت نفسه أكثر اطلاعًا ومعرفة.كان واسع الأفق يفهم تطور الأدب والبلاغة والنحو، ويحاول في كل هدوء، أن يفهم طلابه هذا التطور. كان صديقًا لي فوق أنه كان أستاذي.

هذه الحادثة الصغيرة - الكبيرة، تدلُّ علىٰ أنه عالم جليل يتمتع بكل أخلاق العلماء الكبار، كنا في الصف ذات يوم، وبدا له أن يسأل الطلاب سؤالًا يتبين منه مدىٰ مطالعتهم للأدب العربي. قال: سأسألكم سؤالًا أرجو أن تجيبوني في صراحة، أرجو أن يسكت الأستاذ عبد المعين فلا يجيب. من منكم قرأ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني؟ وسكت الطلاب جميعًا فلم يجيبوا. والتفت إلي قائلًا: أنت قرأته ولا شك يا عبد المعين. وأجبته في صدق: قرأته مرتين قبل أن أنال شهادة البكالوريا. وهنا برز الدكتور في أروع مظاهر العالم الكبير فقال:

أتعلم أني لم أقرأه كله إلا بعد أن أخذت الدكتوراه. هذه الكلمة الصغيرة كشفت عن عالم كبير. عن إنسان رائع، في صدقه وفي تواضعه. كانت درسًا لنا ولكل إنسان يحاول أن يكون إنسانًا(١).

• قال له يومًا بعد أن أصبح أستاذًا في الكلية: يا دكتور شوقي أنا أتمنىٰ أن أحمل حذاءك وأسير خلفك في الكلية ليعلم الجميع كم يُقدّرك تلاميذك. إنني يا دكتور شوقي لم أكن أقبِّل يد والدي ولكني أقبِّل يدك(٢).



---

(١) عبدالمعين الملوحي، شظايا عمري ٨٣، ٨٤.
(٢) عبدالستار الحلوجي، أقدار ص٦١.

أحببت الأستاذ الجندي حب الولد أباه، وعرفت قدره فكنت لا أكفّ عن سؤاله، أسأله في الصف، وأدخل معه غرفة المدرسين؛ أشرب من معين علمه ولا أرتوي، أتزوَّد من هذا المنهل العذب لسفري الطويل في بيداء الحياة. أسأله عن الغريب فلا تغيب عنه كلمة منه، كأنه وعىٰ المعاجم وغيّبها في صدره. وأسأله عن التصريف والاشتقاق فيجيب علىٰ البديهة بما يُعيي العلماء جوابُه بعد البحث والتنقيب. وأسأله عن النحو فإذا هو إمامه وحجته. وألقي إليه بالبيت اليتيم أجده في كتاب، فإذا هو ينشد القصيدة التي ينتمي إليها (أو أكثرها) ويعرّف بالشاعر الذي قالها.

لقد كان مدرِّسًا للعربية ولكنه كان أكثر من مدرس، وكان عالِمًا من علماء البلد بل كان أكثر من عالِم، ورُبَّ مدرِّس لا يكون عالِمًا، ورب عالِم لا يكون عالِمًا إلا في بلده وبين أقرانه، ورب عالِم لا يكون عالِمًا إلا بالنسبة إلىٰ عصره وزمانه. أما الجندي فكان من أعلم علماء العربية في هذا العصر، وكان واحدًا من علماء العربية الأوَّلين، ولكنه ضلَّ طريقه في بيداء الزمان فجاء في القرن الرابع عشر لا في القرن الرابع!

أقرَّر هذا بعدما مشيتُ في البلاد وجالست العلماء، فما ثَمَّ عالم مشهور في العربية في الشام ومصر والعراق والحجاز والهند وماليزيا وأندونيسيا إلَّا عرفته، لقاءً به أو قراءة له أو سماعًا به. عرفت في مصر علماء الجامع الأزهر والجامعة والأدباء والكُتّاب، أعني الكثير منهم، وأنا أؤكد القول -صادقًا إن شاء الله- أنِّي لم أجد فيهم من يفوق في حفظه وضبطه وأمانته وملكته وإحاطته الأستاذ سليم الجندي.

أذكر أنه لما قَدِم علينا حفّظنا قصيدة المتنبي: «واحرَّ قلباهُ ممَّن قلبُهُ شبِمُ»، فلما كان الدرس التالي قال لنا: المتنبي شاعر مولَّد لا يُحتَّج بعربيته، فأعرِضوا عن هذه القصيدة. وحفّظنا (ولا زلت أحفظ الكثير منه) المنتقَىٰ المختار من شعر الشعراء الجاهليين والإسلاميين ممَّن يُحتَج به في اللغة. وكان ينهانا قراءة الصحف والمجلات خشية أن تفسد ملكاتنا وتُدْخِل اللحن علينا.

وكان الكتاب الذي نقرأه عليه هو «قواعد اللغة العربية»، وهو الجزء الرابع من الدروس النحوية لحفني ناصف وإخوانه، وقد قرأت الأجزاء الثلاثة من قبل. وهذا الكتاب يغني الطالب (بل المدرس، بل الأديب) عن النظر في غيره، وهو أعجوبة في جمعه وترتيبه وإيجاز عبارته واختياره الصحيح من القواعد، وهو أصح وأوسع من شذور الذهب ومن ابن عقيل![1]

۞ ۞ ۞

حفظتُ كثيرًا من الأحاديث النبوية، لا بفضل مدرس الحديث، بل بفضل قريب لي لجهة أمي هو جميل الداعوق، والد صديقي الدكتور بشير الدعواق، فقد كان ذلك الرجل يحب الحديث ويشجعني علىٰ حفظه، وقد كافأني ذات مساء علىٰ حفظي الأربعين النوويّة وإلقائي إياها في حفل عائلي أقامه في مصيف عيناب، وكانت المكافأة قلم حبرٍ مذهبًا أحسستُ إحساسًا غامضًا حيث تناولته أنه ربما كان إرهاصًا بدرب الكتابة الذي سأسلكه كأنه قدري.

والحق أن الشيخ الداعوق الذي علمنا الإنشاء فترة من الزمن، قد تنبأ من بعض فروضي التي صححها أنني سأمتهن الكتابة، كما تنبأ بذلك الشيخ علي الطنطاوي الذي درسنا الأدب في الكلية الشرعية مدة عامين، فجعلنا نتذوقه ونحبه، وكنت

---

(١) علي الطنطاوي، الذكريات (١ / ٢٠٣-٢٠٦).

أتمنىٰ أن تنشر لي مجلة الرسالة المصرية بعض إنتاجي كما كانت تنشر لأستاذي علي الطنطاوي[1].

۞ ۞ ۞

إبراهيم مصطفىٰ أستاذ النحو الذي غرس في قلبي عشق هذا العلم حتىٰ أصبحت أراه (ولا تعجب لما أقول) قمة الفلسفة العربية وقمة الفن العربي، والثاني أمين الخولي الذي علمني الصبر علىٰ البحث حتىٰ في أصغر التفاصيل، والجرأة في طرح الأسئلة ولو لم يكن ثمة جواب، وجعل محبتي للقرآن ممزوجة بكل ما حصلته ووعيته، وأعطاني مفاتيح البلاغة العربية علمًا وعملًا، اتخذته أبًا - كما عرف أبوة الرأس - فما قصر في أبوتي، أخذني بالشدة في بدء مسيرتي معه حتىٰ إذا أنس مني رشدًا انبسط معي وكشف لي من مكنون فكره ما لا يودعه عالم في كتاب. وكانت مفخرة عمري -وما تزال- أني خلفته في تدريس البلاغة والتفسير في كلية الآداب[2].

۞ ۞ ۞

سأل صاحب اللمحات أستاذه في النحو والبلاغة الشيخ إبراهيم الشورىٰ وكان إلىٰ جانب قيامه بالإدارة يعمل أيضًا في حقل التدريس سأله عن الطريقة التي يستطيع بها تركيز المعلومات في ذهنه دون الحفظ فأجابه بقوله: (اقرأ الموضوع صفحة بعد الأخرىٰ وكلما فرغت من القراءة اطوِ الكتاب، ثم استعرض في ذهنك ما قرأته، وكلما غاب عنك شيء افتح الكتاب وعاود القراءة حتىٰ ترسخ المعلومات في ذهنك)، وقد أفاد صاحب اللمحات من هذه الطريقة في المذاكرة وسأل أستاذ

(١) سهيل إدريس، ذكريات الأدب والحب ص٤٢، ٤٣.

(٢) شكري عياد، العيش علىٰ الحافة ص١٣٨، ١٣٩.

الجغرافيا السؤال نفسه فأشار بالاستعانة بالمصورات الجغرافية، وكثرة النظر فيها وتحديد موضع المذاكرة المرة بعد الأخرىٰ.

وسأل أستاذ الجبر والهندسة السؤال نفسه فقال: «ليكن لك أول الأمر عناية بمطالعة المسائل المحلولة، ثم تدرج في حل المسائل علىٰ غرار ما رسخ في ذهنك مما وقفت علىٰ حله، وإذا كَلَّ ذهنك وتعذر عليك حل مسألة من المسائل فاتركها إلىٰ فرصة أخرىٰ، ثم عاود المحاولة تجد أنك أصبحت رياضيًا من الدرجة الأولىٰ»[1].

۞ ۞ ۞

بعد استقراري في مدرسة شوارتز الثانوية في راماناتابورم، أصبحت شابًّا متحمسًا في الخامسة عشرة من عمره، كان أستاذي أيّادوراني سولومون موجّهًا نموذجيًّا لعقل فتي غير متيقّن من الاحتمالات والبدائل القائمة أمامه. إنه متحرّر ومتحمّس وهذا ما أثار إعجاب الطلاب به، وكان يقول: إن طالبًا ذكيًّا يستطيع أن يتعلم من أستاذ غير ماهر أكثر مما يستطيع أن يتعلمه طالب غبي من أستاذ ماهر.

في أثناء إقامتي في راماناتابورم تطورت علاقتنا لتفوق علاقة الطالب بأستاذه وبرفقته تعلمت أن الإنسان يستطيع أن يترك تأثيرًا عظيمًا علىٰ أحداث حياته، كان أيّادوراني سولومون يقول: «لإحراز النجاح وتحقيق الإنجازات في الحياة عليك أن تفهم وتدرك جيدًا ثلاث قوىٰ عظيمة، وهي الرغبة والاعتقاد والتوقعات».

علمني أيّادوراني سولومون أنه قبل أن يحدث الشيء الذي أريد أن يحدث عليّ أن أرغب فيه رغبة شديدة وأتأكد من حدوثه، ويمكن أن أذكر لذلك مثالًا من حياتي: كنت مفتونًا بأسرار السماء وطيران الطيور منذ طفولتي، أشاهد الكراكي ونورس البحر وهي تطير في الفضاء وأتوق علىٰ الطيران مثلها، ومع أنني ولد ساذج وبسيط،

---

(١) عبد الله خياط، لمحات من الماضي ص٣٧.

إلا أنني كنت مقتنعًا بأنني سأطير يومًا ما في عنان السماء، وقد أصبحت أول من طار من أبناء رامشيورام.

كان أيّادوراني سولومون مدرسًا عظيمًا لأنه غرس في أذهان جميع تلاميذه الشعور بأهميتهم ومكانتهم. زاد سولومون من اعتزازي بنفسي بشكل كبير وأقنعني بأنني، رغم حرمان والدي من نعمة العلم ومنافعه، أستطيع أن أطمح إلىٰ ما أتمنىٰ أن أكون في المستقبل[1].

❁ ❁ ❁

زرت الأستاذ البزم في بيته مرارًا وكان في كل مرة يكلفني قراءة شعره، فأقرأه دون خطأ فيدهش ويستعيد القراءة ويستزيد ثم يطلعني علىٰ مشكلات النحو العربي وكانت له فيها آراء سديدة ويدلني علىٰ هذا الكتاب أو ذاك. كان رغم ضعفه الذي بدأ في تلك السنوات، جبارًا في عقله وفي نفسه، حريصًا علىٰ كرامته حرصًا يبلغ حد المرض، كان أستاذًا فذًّا.

ولكن الملاحظة الغريبة التي لاحظتها، هو أنه رغم معرفته الدقيقة بأسرار اللغة وقواعد النحو ورغم أنه شاعر فحل، كان في تدريسه حين يتكلم باللغة الفصحىٰ يقع في أغلاط يتلو بعضها بعضًا.

إن معرفة القواعد غير تطبيقها، وإن القدرة علىٰ الحديث السليم غير القدرة علىٰ معرفة اللغة ومشكلاتها، ولعل هذا الوضع هو الذي أوحىٰ إلي منذ ذلك الحين أن علينا نحن المعلمين والمدرسين، أن نعمل علىٰ تعليم أولادنا القواعد إلىٰ جانب تدريبهم علىٰ الحديث باللغة الفصحىٰ، فالقواعد وحدها لا تكفي، ولا يمكن أن تحل قضية اللغة العربية إلا بالجمع بين التطبيق العملي للقواعد وبين فهم هذه

(١) زين العابدين عبد الكلام، أجنحة من نار ص٢٨، ٢٩.

القواعد فما فائدة أن تحفظ النحو ثم لا تطبقه[1].

❁ ❁ ❁

أذكر المحاضرة الأولىٰ في النظرية الاقتصادية للأستاذ «ليونيل روبنز» (Lionel Robbins) وكان أستاذًا شهيرًا ترجع شهرته في الأساس إلىٰ كتاب صغير نشر في أوائل الثلاثينات عن التعريف بعلم الاقتصاد وطبيعته وحدوده ومنهجه، وقد قَبِلَ الجميع هذا التعريف (وهو يدور حول التوفيق بين الموارد المحدودة والحاجات غير المحدودة)، وأصبح هو أول ما يصادف قارئ أي كتاب في مبادئ الاقتصاد، توقعت في هذه المحاضرة أن يقوم صاحب التعريف الشهير بتقديم تعريفه للطلاب وشرحه، ولكني فوجئت به يقول إنه لا يحب أن يقف علىٰ قدميه ليقول كلامًا سبق له أن نشره في كتاب، ومن ثَمَّ علينا قراءة هذا الكتاب، ثم استطرد علىٰ الفور إلىٰ الحديث في شيء آخر.

تصادف لحسن حظي، أن هذا الأستاذ هو من اختارته الكلية للإشراف عليَّ أثناء السنتين الأوليين من دراستي وحتىٰ حصولي علىٰ الماجستير، فتأكد لدي من ملاحظة عابرة منه بعد أخرىٰ، أن المكتبة هي فعلًا روح هذه الكلية وأهم شيء فيها، كانت تصدر منه، مثلًا، عبارة مؤداها أن «عليّ أن أقرأ جون ستيوارت ميل»، فإذا استفسرت منه: أي كتاب من كتب ميل يقصد؟ رفع حاجبيه مندهشًا ولم يجب، فأفهم من ذلك أن عليَّ أنا أن أكتشف من تقليب كتب ميل الموجودة في المكتبة أي كتاب يقصد.

دخلت هذه المكتبة لأول مرة في أوائل ١٩٥٨، فتىٰ ساذجًا قليل الخبرة بالحياة وبعلم الاقتصاد علىٰ السواء، وخرجت منها في منتصف ١٩٦٤ شابًّا قارب الثلاثين من عمره، أوسع خبرة بكثير، وقادرًا علىٰ تقليب الكتب بسرعة والحكم علىٰ ما يستحق منها القراءة وما لا يستحق، وعلىٰ التقاط الفكرة الأساسية في مقال من

---

(١) عبدالمعين الملوحي، شظايا عمري ص٧٠.

المقالات المنشورة في المجلات الاقتصادية، واتخاذ قرار سريع بما إذا كان المقال يستحق الجلوس لقراءته، أو الأفضل صرف النظر عنه.

كانت الساعات الكثيرة التي قضيتها في مكتبة كلية لندن للاقتصاد أكثر فائدة قطعًا من معظم المحاضرات التي استمعت إليها في تلك الكلية أو غيرها، وإن كان قد استرعىٰ انتباهي أثناء حضوري بعض هذه المحاضرات أستاذ فذ لم يكن هو المحاضر، بل كان يجلس معنا للاستماع كتلميذ وكان لتعرفي إليه وقراءتي لكتبه بعد ذلك، أثر كبير ومستديم علىٰ طريقة تفكيري في موضوع التنمية الاقتصادية.

لاحظت وجود شخص مختلف عنا جميعًا يحضر بانتظام محاضرات التنمية هذه، ويجلس في آخر صف، كان أكبر منا في السن بكثير ويسمع دون أن يدوّن مثلنا شيئًا مما يسمعه، ثم مر عام أو عامان قبل أن أراه من جديد، واكتشفت أنه أحد أساتذة الكلية[١].

❁ ❁ ❁

أذكر أن أستاذ اللغة الفرنسية في المدرسة -كان أستاذًا جيدًا- لكنه ابتُلِي بلعب القمار وشُرْب الكحول، وكان كثيرًا ما يخسر ويسكر، فهو يقامر بكل شيء، ولعله قامر في إحدىٰ المرات علىٰ حذائه فخسره فلم يكن أمامه إلا المجيء إلىٰ المدرسة منتعلًا حذاء زوجته بكعب مرتفع، لأن المدير لم يكن يتسامح مع غياب المعلمين، وعندما جاء من أخبر المدير نسيب جرمانوس بالأمر، دخل إلىٰ القاعة واستدعىٰ الأستاذ وتحدث إليه في الخارج، ولعله أعطاه بعض النقود وصرفه لشراء حذاء بديل ثم عاد إلىٰ القاعة ليأخذ محله إلىٰ أن عاد المعلم إلىٰ المدرسة بحذاء جديد[٢].

---

(١) جلال أمين، رحيق العمر ص١٢٦، ١٣٠.

(٢) معن زيادة، الفصول الأربعة ص٢٣، ٢٤ - أوردتها من باب الدعابة.

مناصب ووظائف

رئاسة الوزراء

لديّ إيمان راسخ بممارسة القيادة من خلال القدوة، لم آخذ طوال السنين الاثنتين والعشرين التي عملت فيها رئيسًا للوزراء الإجازة التي تحق ليّ كاملة، وعندما كنت أعود من زيارات خارجية، أتوجه إلىٰ مكتبي في اليوم نفسه، كانت ساعات عملي أطول من ساعات عمل أغلبية الموظفين الحكوميين والوزراء، لم أمارس لعبة الغولف، ولم أشاهد مباريات مثل مباريات كرة القدم أو البادمنتون إلا نادرًا، ولا أركب الخيل إلا مرة واحدة في الأسبوع، والشيء الذي يحركني هو أنني أجد متعة في العمل بكل بساطة وأكثر ما كنت أتطلع إليه عندما عملت وزيرًا، ومساعدًا لرئيس الوزراء، ورئيسًا للوزراء، هو رؤية ثمرات أفكاري وسياساتي وتوجيهاتي وقد تبلورت، ورؤية ما لمحته في مخيلتي وقد أصبح حقيقة[1].

حاولتُ جاهدًا طوال مدة رئاستي للوزراء وضع معايير معينة؛ أولًا، لم أشجع علىٰ التملق والتمجيد المفرط الذي يلقاه القادة غالبًا، وعزمت علىٰ إبطال عبادة الشخصية البارزة وحتىٰ حين كنت وزير التربية والتعليم، أوقفت ممارسة تسمية المدارس باسم الوزير، وعندما أصبحت رئيس الوزراء، رفضت كذلك السماح بإطلاق اسمي علىٰ المباني والمنشآت أو إطلاق اسم أي شخص حي عدا الحكام الملايويين، وأعطيت تعليمات بعدم تعليق صوري في المباني الحكومية، مع أنه جرىٰ تجاهلها علىٰ نطاق واسع، وإلىٰ اليوم لم يُطلق اسمي علىٰ شيء باستثناء زهرة أوركيد، حتىٰ إني رفضت فكرة إقامة مكتبة تذكارية.

---

(١) د.مهاتير محمد، طبيب في رئاسة الوزراء ص٦١.

عملت بجدّ طوال رئاستي للوزراء علىٰ تقديم نموذج جيد للناس عمومًا، ولجميع قادة (أمنو)خصوصًا، وعليه أردت أن أثبت أن في استطاعتي تسيير الأمور من دون التورط في الفساد وأنه ينبغي للآخرين فعل الشيء نفسه، ويفترض معظم الناس أن من تسنح لهم فرصة للوقوع في الفساد سيقع فيه، فرأيهم هذا وجهة نظر سيئة للغاية في الطبيعة البشرية، ربما كانوا محقين في الحديث عن أنفسهم، لكن ذلك لا يجعلهم محقين في وصف الآخرين، لكن من دون برهان داعم وبالاستناد حصرًا إلىٰ أدلة مشكوك فيها، يفترض هؤلاء الناس غالبًا أنني كنت فاسدًا وأنا رئيس للوزراء، وإقناعهم بأني لم أكن كذلك ليس عملًا سهلًا.

رفعت وأنا رئيس للوزراء شعار «القيادة بالقدوة» وسعيت للعمل بمقتضىٰ ذلك الشعار بالطرق كافة، واستقالتي طوعًا كانت جزءًا من تلك العقيدة، ينبغي للقادة عدم التشبث بمناصبهم، ولكن ينبغي لهم تلمس أمارات ما يشعر به أتباعهم فإذا شعروا أن الوقت قد حان كي يرحل قادتهم، عليهم أن يرحلوا، ومع أنني بتُّ أعرف الآن أن الذين استفادوا من قراري لن يكونوا ممتنين ولا حتىٰ معترفين بالجميل دائمًا، فأنا لم أندم أبدًا علىٰ استقالتي طوعًا، وما زلت أعتقد أنه ينبغي للقادة، مهما بلغت شعبيتهم، أن يصغوا إلىٰ ضمائرهم وعدم الانتظار إلىٰ أن يزاحوا بالقوة.[1]

شكلت استقالتي من أعلىٰ منصب في البلاد بعد اثنتين وعشرين سنة خطوة كبيرة بالنسبة إليّ، لكني لم أقلق بشأن طريقة التعامل معي، فأنا لم أعتبر نفسي يومًا غير شخص عادي، وقد سعيت حين كنت رئيس الوزراء لعيش حياتي بشكل طبيعي بقدر الإمكان - كنت أذهب للتسوق وأقود سيارتي متىٰ أمكنني ذلك، وأخالط الناس من دون قيود، وأحسستُ بعد تقاعدي أنني سأستطيع فعل الشيء نفسه[2].

(١) د.مهاتير محمد، طبيب في رئاسة الوزراء ص٨٩٦، ٨٩٧.
(٢) د.مهاتير محمد، طبيب في رئاسة الوزراء ص٩٣٢.

عرفت منذ اعتزالي أن قلّة قليلة من السياسيين تمكنت من المحافظة علىٰ ولاء الناس لهم، فما إن تخسر موقعك وسلطتك حتىٰ يتجاهلوك وينقلوا ولاءهم إلىٰ أي شخص يحلّ مكانك، حتىٰ إنهم سيدينونك إذا اعتقدوا أن ذلك سيسعد قائدهم الجديد، تقول أغنية قديمة: «لا أحد يعرفك حين تكون منكسرًا ومنبوذًا»[١].

❁ ❁ ❁

كيف يصبح القائد عظيمًا؟ أحسن الطرق لذلك هو مشاركة رفقائه ومرؤوسيه في المشروع وعلاقتهم به كأنهم شركاء في أعماله، وبدا لي أن مشاركتهم في أي تطور متحقق مهما كان ضئيلًا -سواء أكان ذلك بشكل نتائج أم تجارب أو نجاح ولو كان ضئيلًا أو غير ذلك- يستحق أن أبذل فيه الجهد والوقت، ولم يكن ذلك في الواقع سوىٰ ثمن ضئيل مقابل الالتزام وتضافر الجهود والعمل كفريق، وهو ما يمكن أن نسميه الثقة والاعتماد، فمن بين أعضاء فريق العمل وجدت قادة وتعلمت أن القادة يتواجدون في كل منصب من المناصب وهذه هي الناحية الأخرىٰ للإدارة التي تعلمتها[٢].

كل شخص يتحمل مسؤولية قيادة فريق لا يستطيع أن ينجح في ذلك ما لم يكن لديه الاستقلالية الكافية والقوة والتأثير التي يحسب حسابها، ولعل هذا هو السبيل للاقتناع الشخصي في الحياة لأن الحرية مع المسؤولية هي الأساس المتين الوحيد للسعادة في الحياة، ما الذي يستطيع أن يفعله المرء لتعزيز الحرية الشخصية؟ بهذا الصدد، أود أن أشرح لك أسلوبين.

تستطيع ذلك أولًا عن طريق اكتساب العلم والمهارة، المعرفة هي ثروة حقيقية وأهم أدوات عملك في معظم الأحيان، كلما كانت معرفتك أكثر حداثة وتجددًا

(١) د.مهاتير محمد، طبيب في رئاسة الوزراء ص٨٤٨، ٨٤٩.
(٢) الرئيس الهندي أبو بكر زين العابدين، أجنحة من نار ص٨٠.

تزداد حريتك، لا يكون القائد حرًّا في قيادة فريقه إلا إذا اطلع علىٰ كل ما يحدث حوله في وقته المناسب، فالقيادة تعني الاشتغال بالتعلم باستمرار.

ومن المعتاد في كثير من البلاد للمهنيين الذهاب إلىٰ الكلية في بعض ليالي الأسبوع، حيث يجب علىٰ كل شخص في سبيل أن يكون قائدًا ناجحًا أن يعود بعد الأعمال المضنية طوال النهار ويستريح ليكون نشيطًا ومستعدًا لمواجهة يوم جديد.

والطريقة الثانية هي تطوير حماستك تجاه المسؤولية الشخصية، والطريقة الأسمىٰ لتحصيل الحرية الشخصية هي أن تعيّن القوىٰ التي تحدد شخصيتك، كن نشيطًا وتحمّل المسؤولية، اعمل في الأمور التي تؤمن بها، فإن لم تكن تفعل فهذا يعني أنك تضع وتترك مصيرك في أيدي الآخرين[1].

---

(١) الرئيس الهندي أبو بكر زين العابدين، أجنحة من نار ص١٠٠.

وزارة البترول

اكتُشف النفط في المملكة عام ١٩٣٨، فتبدل حال البلاد وأهلها، ما زلت أذكر كيف قادتني الصدفة، وأنا ابن الثانية عشرة، إلىٰ العمل ساعيًا في تلك الشركة الأمريكية الجديدة، لم تكن الصدفة وحدها، بل ربما صرفتني كذلك بعض المحن التي أصابت أهلي إلىٰ طَرْق باب ما كان يُدعي ببساطة أرامكو آنذاك، فبقيتُ داخل أسوارها سبعين عامًا، لفتت سرعة البديهة والاجتهاد، اللذين تفرضهما غلظة عيشنا، نظر رؤسائي في الشركة، فمُنحتُ فرصة التعليم في المملكة، ثم في لبنان، ولقي اجتهادي وحماستي الشديدان تشجيعًا كبيرًا، فدرستُ الجيولوجيا في جامعة ليهاي في بنسلفينيا، ثم أتبعتها بدراسة الماجستير في جامعة ستانفورد في كاليفورنيا، عدت بعد ذلك إلىٰ المملكة في نوفمبر من العام ١٩٦٣ مسلحًا بالعلم، ومؤهلًا لتطبيق ما تعلمته، فتدرجت في عدة وظائف في قطاع النفط، ولعل فيما حصلت عليه من ترقيات متتالية شاهدًا بفضل الله علىٰ الكفاءة وحسن الأداء.

عندما كنت في الثامنة من عمري، أرسلتني أمي للعيش مع والدي، وسرعان ما تعلقتُ بأخي عبد الله، الذي كان طالبًا في مدرسة الجبل بالشركة، يكبرني عبد الله بخمس سنوات، كان طويلًا نحيلًا بالغ الوسامة، لزمتُ أخي كظلّه، فقد كان بعد والدي أول الذين أراهم يتحلون بعاطفة أبوّة، أذكر أني قلت في نفسي: «لقد فقدتُ أهلًا هناك، لكني وجدت هنا أخًا سيعتني بي»، وسرعان ما أدركت أن حياتي علىٰ وشك التغير، فقد أيقظني عبد الله ذات صباح قائلًا: «انهض يا عليّ، أريدك أن ترافقني»، أجبته بأني مرتاح ههنا، لكنّه ألحّ بقوله: «فلنذهب إلىٰ المدرسة»، وعندما سألته ما المدرسة؟ أجابني: «عندما نصل ستجد أولادًا مثلك».

كان عبد الله، شأنه شأن كثير من أترابه، يعمل ساعيًا في أرامكو إلىٰ جانب دراسته، فقد التحق مبكرا بموجة التوظيف الثانية التي بدأت عام ١٩٤٤، تزامنا مع طفرة البناء التي شهدتها منطقة مصفاة رأس تنورة، وذلك لسد احتياج البحرية الأمريكية من النفط في المحيط الهادي، وفي عام ١٩٤٥، وظفت أرامكو ما يزيد علىٰ ٨٠٠٠ سعودي، أي خمسة أضعاف عدد العمّال المقيدين قبل عامين فقط.

كان عبد الله وزملاؤه يقضون في المدرسة أربع ساعات في الصباح، بدءًا من السابعة، ويعملون لدىٰ (أرامكو) أربع ساعات بعد الظهيرة، وهأنذا صرت أحذو حذوهم، من مسكننا كنا نمشي يوميًّا خمسة عشر كيلومترا إلىٰ المدرسة سيرًا علىٰ الأقدام، ومع أني اتخذتُ نعالًا في المدرسة كبقية الطلاب، لكني ظللتُ كأبناء البادية أسير حافيًا حاملًا نعالي علىٰ كتفي حفاظًا عليها من التلف، ومع أنّا جميعًا طلابًا فقراء، إلا أنه خُيّل إليَّ بأني أفقرهم حالًا، وأبلاهم أسمالًا، وأشعثهم شَعرًا، وأرَثّهم هيئةً، وربما أقصرهم قامةً أيضًا[1].

درَّسنا رجل اسكتلنديّ بدينٌ، ضخم البنية، أعفىٰ لحية شقراء وشاربًا كثيفًا، حجبا وجهه المليء بالنمش عنّا، كان يرفع عقيرته بصوت جهوري قائلًا: «هذا ذئب، وهذا ثعلب، وهذا هرّ!»، حاملًا صور تلك الحيوانات، صائحًا بأسمائها باللغة الإنجليزية، كنت أعرف الذئب طبعًا حين أراه، وها قد عرفتُ اسمه بالإنجليزية الآن!

أمضينا معظم وقتنا في دراسة اللغة الإنجليزية واللغة العربية ومبادئ الحساب.، أمّا العلوم، فسندرسها لاحقًا، كان أوّل كتبنا المدرسية كتابًا بريطانيًّا لأوغدن بعنوان (الطريق الأساسية للإنجليزية)، وبما أني درستُ اللغتين العربية والإنجليزية معًا، فلست أجدني حتىٰ اليوم مضطرًا للترجمة بينهما في ذهني.

---

(١) د. علي النعيمي، من البادية إلىٰ عالم النفط ص٩، ١٠.

كانت السنوات الثلاث التي أمضيتها في الذهاب صباحًا إلىٰ المدرسة مع أخي، ومن ثمّ مرافقته في جولاته كساعٍ بعد الظهيرة، من أسعد سنوات حياتي، في فترة لاحقة كنت أقول مازحًا بأني بدأت مسيرتي في قطاع النفط بحمل الأوراق من مكتب إلىٰ آخر، وعندما أصبحت رئيسًا لأرامكو، أمضيت أغلب وقتي أفعل الشيء نفسه!

لم أنس أمي الفخورة بي، فقد زرتها بين الحين والآخر في خيمتها في الصحراء، وأعترف بأني كنت أزهو بنفسي إذ أتحدث الإنجليزية وأجيد القراءة والكتابة باللغة العربية، كما كنت أتقن الحساب، فضلًا عن عملي في شركة أرامكو وإن يكن بالمجان حينها! لم يزعزع ذلك من مكانة إرثي البدوي، وإنْ ابتعدتُ بعض الشيء عن حياة الصحراء الشحيحة الموارد المتقلبة الظروف، ذات الدروس الكثيرة التي لا تُنسىٰ، والتي أهمها التيقظ للبقاء علىٰ قيد الحياة.

لم يُمكِّني صغر سني من تصوّر ما كان ينتظرني، وعلىٰ الرغم من أن حياة البادية علمتني أن أكون دومًا علىٰ أهبة الاستعداد، لم أكن مستعدًا لمواجهة موت أخي عبد الله، لم يتجاوز عبد الله السابعة عشرة من عمره عندما أصيب بالتهاب رئوي قضىٰ عليه، فقد كانت فرصته في النجاة ضئيلة إذ لم تتوفر المضادات الحيوية حينها، وقد كنت معه في المستشفىٰ الأمريكي حين فارق الحياة في منتصف الليل، فدفنّاه في غضون ساعات.

كنت في الحادية عشرة أو الثانية عشرة عندما توفّي عبد الله، (فأنا لا أعرف تاريخ ميلادي بدقة، وهو أمر شائع بين أبناء جيلي المولودين في الصحراء، وعلىٰ أية حال، لم يكن يسهل تحويل التواريخ من التقويم الهجري الذي كنا نتبعه إلىٰ التقويم الميلادي).

دعاني شخص من الشركة بعد دفن أخي وقال: «علي، أنت تحسن القيام بهذا العمل، سنوظّفك»، سألته ما معنىٰ ذلك؟، فأجاب بأنهم سيدفعون لي راتبًا مقابل ما كنت أقوم به خلال السنوات الثلاث الماضية مع أخي، فوافقت، لكني كدت لا أجتاز فحص الشركة الطبي لأني أخشىٰ الحُقَن، فاضطر كلٌّ من أبي وعمي ورجل ثالث لتكتيفي لانتزاع عينة دم مني.

أصبحت موظّفًا رسميًّا في أرامكو، إلىٰ جانب دراستي التي كنت شغوفًا بها، وأصبحت بذلك العائل الرئيسي لأسرتي علىٰ الرغم من صغر سني، فقد كنت أتقاضىٰ تسعين ريالًا في الشهر، وهو مبلغ كبير آنذاك.

كان أبي قد تجاوز الستين حينها، ولم يعد قادرًا علىٰ إعالة أسرة بكاملها بعدما أنهكته سنوات العمل الشاق، فصرت أدفع براتبي إليه شأني شأن كل الأولاد الآخرين الذين عملوا في أرامكو، فكان يعطيني عشرة ريالات، ويعطي أمي عشرين ريالًا، وعشرة ريالات لزوجته، ويبقي خمسين ريالًا لمصروف العائلة.

لكن دوام الحال من المحال، فقد طُرِدتُ من أول وظيفة لي في أرامكو بعد تسعة أشهر دون ذنب، وذلك إثر إصدار الحكومة السعودية لوائح جديدة للعمل، كانت علىٰ الرغم من نفعها لعامة الشعب تحظر علىٰ أرامكو توظيف من هم دون سن الثامنة عشرة، فتركتُ الشركة باحثًا عن عمل أعيل به أسرتي، كان لي قريب يشتغل بالمقاولات، يقوم وقتها بالمشاركة في بناء حظيرة طائرات في القاعدة الجوية الأمريكية التي يجري إنشاؤها في الظهران. قلت له إني أرغب في العمل، وأن بإمكاني القيام بأشياء كثيرة، فوظفني وأرسلني إلىٰ السطح لتفقد التزام العمال، والتأكد من أنهم لا يهدرون الوقت أو ينامون خلال ساعات الدوام.

لم أكن أخطو بثبات كما ظننت، فسقطتُ يومًا عن سطح الحظيرة، لكني نجوت بأعجوبة إذ خفّفت المراتب المفروشة علىٰ الأرض من حدة السقوط، فلم

أصب بأذىٰ، جعلت تلك الحادثة قريبي يخشىٰ نظرة اللوم في عين أبي إن حدث لي مكروه، وهكذا سُرّحت من وظيفتي الثانية بعد أسابيع قليلة.

لم أشعر باليأس، بل قررت البحث عن عمل آخر في القاعدة الجوية الأمريكية، ولا سيما أني أجيد التحدث بالإنجليزية، وجدت ضابطًا أبديت له رغبتي في العمل وكم ينتابني الحرج اليوم كلما تذكرت ذلك الموقف، إذ لم أكن أعرف اسم الضابط ولا رتبته، فدعوته ببساطة «أبي»، إلىٰ هذا الحد كنت صغيرًا، وافق الضابط، فأُدرج اسمي علىٰ جدول رواتب القاعدة الجوية، لم أعرف بالضبط كم كنت أتقاضىٰ، لأني أُعطيتُ راتبي بالدولار الأمريكي الذي لم يسبق لي أن رأيته من قبل، بدا لي أن الضابط قد سعد بوجودي، فضلًا عن تقديره لأدائي في العمل، فقد كان يحضر لي كل أسبوع تفاحة إيطالية حمراء ضخمة كلما عاد من روما، كنتُ أحملها بحرص إلىٰ المنزل لأقتسمها فيما بيننا، فقد كانت طبقًا فريدًا في زادنا، ولكن لم يدم عملي طويلًا مع الأسف ففي أحد الأسابيع تأخّر الضابط في النزول من طائرة روما، فنفد صبري وأنا أترقب التفاحة، فدفع بي الطيش إلىٰ مدرج المطار لملاقاته، واقتربت من مراوح الطائرة إلىٰ حد كادت به أن تقطعني إربًا، فاضطر رئيسي إلىٰ تسريحي من العمل.

انتقلت للعمل لدىٰ مقاول سعودي آخر تعاقدوا معه لطلاء صهاريج معالجة ضخمة استُخدمت لتركيد النفط المستخرج من آبار الدمام بفصل الكبريت عنه، فعينني كاتبًا عنده إكرامًا لأبي، وللمرة الثانية، كانت وظيفتي هي التجسس علىٰ الدهانين، وتدوين أسماء الذين ينامون خلال فترات العمل، ربما يعتقد المقاولون أن فتىٰ ضئيلًا مثلي بإمكانه التحرك بخفة دون لفت الأنظار، ولم يمض أسبوعان حتىٰ فطن العمال لصنيعي بهم، فأوسعوني ضربًا، فذهب المقاول إلىٰ أبي وأثنىٰ علي وامتدح عملي، لكنه اعتذر عن استمراري في العمل خشية أن أُقتل إن بقيت فيه.

لو كان الفشل جزءًا من المنهج الدراسي لحصلت علىٰ امتياز، فقد طُردتُ من أربع وظائف في غضون أربعة أشهر، ولكني في الوقت نفسه تعرفتُ علىٰ ذاتي عن قرب، فأدركت أني كنت فطنًا سريع التكيُّف، وأني كلما اعتمدت علىٰ نفسي زاد احترام الناس لي، فأيقنتُ أن طول القامة وكبر السن ليسا كل شيء، أو هكذا رجوت!

عدت إلىٰ أرامكو أخبرهم بأني قد سبق لي العمل عندهم تسعة أشهر، حاولت أن أمشق عودي وأبسط صدري ما استطعت أمام أحد مسؤوليها، واجتهدتُ في تغليظ صوتي آملًا في إقناعه: «لست في الثانية عشرة ولا نحوها، بل أنا في العشرين من عمري، ولكني من البادية ونحن قوم قصار القامة، كما أن أبي أمرد، فلذلك لم ينبت شاربي ولم تظهر لحيتي. وأنا أحتاج إلىٰ العمل»، أجابني: «يا علي، نحن نعرفك! أنت ولد طيب، ولكن لا بد لك من الحصول علىٰ إذن الحكومة»، رأيت في قوله بصيص أمل، فطلبت منه خطابًا يفيد بأنه سيوظفني إن سمحت الحكومة بذلك، ففعل.

بدأ الحظ يحالفني، إذ وجدت أحد مدرسي اللغة العربية السابقين يعمل لدىٰ أمير المنطقة الشرقية، ويدعىٰ عبد الله ملحوق، الذي سيصبح لاحقًا سفيرنا في السودان ثم في اليونان، أخبرته بحاجتي ممتعضا ممن افتروا علىٰ ابن العشرين فجعلوه في الثانية عشرة، كان يعرف عمري الحقيقي بالطبع، لكنه وافق مشكورًا علىٰ مساعدتي فأرسلني إلىٰ الدكتور حسن، وهو طبيب عيون في الدمام. قال عبد الله ملحوق: «إن قال الدكتور حسن إنك في السابعة عشرة، سأعطيك تصريح عمل». فأجبته: «السابعة عشرة أمرها هيّن، لأن عمري أصلًا عشرين، وسترىٰ ذلك».

عن مسألة «تحديد السن»، كتب فرانك جونكرز في مذكراته، وهو رئيس مجلس الإدارة والرئيس التنفيذي السابق لشركة أرامكو الذي بذل في السنوات اللاحقة الكثير لدعم مسيرتي المهنية أنا وغيري من السعوديين.

كان السعوديون الذين يرغبون في العمل لدىٰ أرامكو -ولا سيما الألمع بينهم أو أولئك الذين يحاول آباؤهم توظيفهم- يزعمون أنهم يبلغون الثامنة عشرة، وهو الحد الأدنىٰ لسن التوظيف، لم يكن معظمهم يعرفون ما تعنيه سن الثامنة عشرة بالفعل في تلك الأيام، لكنهم زعموا مع ذلك أنهم في الثامنة عشرة! وعندما كانوا يُسألون عن سنهم، كانوا يقولون: «يمكن ١٨».

لهذا أُرسلتُ إلىٰ طبيب ليفيد بأني في السابعة عشرة التي كانت في بحر (يمكن ١٨)، ولا سيما في وجود فرصة للتوظيف، حصلت أخيرًا علىٰ موعد مع الدكتور حسن، فقام بفحص عيني نظرًا لانتشار مرض التراخوما حينها الذي يسبب العمىٰ. فحص الطبيب بعد ذلك أسناني، ثم أمرني بخلع ملابسي فاعترضت كي لا يُفتضح أمري، فقال لي: «اسمع، إن كنت تريدني أن أحدد سنك، فعليّ فحصك، رجاء»، وهذا ما كان، فكتب علىٰ النموذج في خانة العمر اثنتا عشرة سنة.

انفجرت باكيًا بدموع القهر وخيبة الأمل، فلمستُ منه تعاطفًا شجعني أن أقول: «صدقني لست في الثانية عشرة، بل أنا في العشرين، ولكني سأقبل بالثامنة عشرة». فما كان منه إلا أن غير السن إلىٰ ستة عشر عامًا، فتماديت في استدرار عطفه: «د. حسن، اسمع، لن أطلب ثمانية عشر، سأقبل بسبعة عشر»، وقد بدأ يلين أمام إلحاحي، فعجلت عليه بقولي: «اتفقنا؟»، وبالفعل اتفقنا.

أسرعت إلىٰ مكتب شؤون الموظفين في أرامكو حاملًا الإفادة بأني في السابعة عشرة، وبما أن السابعة عشرة تصبح (يمكن ١٨)، فقد أُعدتُ علىٰ قيد الوظيفة يوم ٦ ديسمبر ١٩٤٧. لم أعد أعمل ساعيًا، إذ ربما وجدت أرامكو في خبراتي السابقة، أو في مثابرتي في البحث عن عمل، ما أهلني لوظيفة كاتب مبتدئ، فالتحقت مجددًا بالمدرسة لأربع ساعات يوميًّا، بدءًا من السابعة صباحًا، وإلىٰ جانب دروس اللغة والحساب، تلقينا في المدرسة دروسًا في الاختزال، ومسك الدفاتر، والآلة الكاتبة،

فاكتشفت أني ناسخ ممتاز، بل أزعم أني كنت يومًا ما أسرع ناسخ باللغة الإنجليزية علىٰ الآلة الكاتبة في المملكة، فقد كنت أنسخ علىٰ آلة كاتبة من نوع ريمينغتون بمعدل ١٢٠ كلمة في الدقيقة، فعينتُ لذلك في قسم النسخ، كانت لغتي الإنجليزية مقبولة إلىٰ حد ما، ومع ذلك ظللت أطرق بأصابعي علىٰ الآلة الكاتبة بأسرع ما يمكن وإن لم أفهم معنىٰ كل كلمة، كنت أجلس علىٰ كومة من المعاجم لأبلُغ المفاتيح.

بحلول عام ١٩٤٨، تحسنت لغتي الإنجليزية كثيرًا، فرشحتُ ضمن أول دفعة من الموظفين السعوديين للسفر إلىٰ لونغ أيلند في نيويورك لتعليم اللغة العربية لموظفي أرامكو قبل مجيئهم إلىٰ المملكة. فرح أهلي كثيرا بهذا النبأ، وأصرّت زوجة أبي علىٰ أن أرتدي ملابس ملائمة، فاصطحبتني إلىٰ خياط هندي في البحرين علىٰ متن (الدهو)، وهو زورق خشبي ذو قاع مسطحة، فخاط لي بدلتين أو ثلاث بيضاء اللون، شبيهة بتلك التي يرتديها رئيس الوزراء الهندي نهرو، فبدوتُ في غاية الأناقة.

ثم جار عليّ الحظ مرة أخرىٰ، إذ اعتقد رئيس قسم التعليم السيد دون ريتشارد بأني «صغير جدًا علىٰ العمل في الولايات المتحدة»، فما كان منه إلا أن نظر إليَّ ثم رسم خطًّا علىٰ الجدار وأردف بقوله: «عندما تصبح بهذا الطول، سنرسلك»، وحتىٰ يومنا هذا، لم يبلغ طولي ذلك الخط! فشعرت بخيبة الأمل طبعًا، وليست لدي بعدها أدنىٰ فكرة عما حلّ ببِدَل «نهرو»!

سأكبر كثيرًا خلال السنوات القليلة التالية، فمن بين ذكرياتي الأكثر إحراجًا في تلك الفترة حادثة تمس صميم افتخاري، وجوهر اعتزازي، ألا وهو النسخ علىٰ الآلة الكاتبة، لسبب ما، لم أوفق في اختبار النسخ عام ١٩٥١، لا أعرف لِمَ ارتكبت أخطاء كثيرة، فاستشاط غضبي وجن جنوني، فألقيت بالآلة الكاتبة أرضًا لتتحطم، وصرختُ بمدرّستنا هيلين ستانوود، إن الآلة هي التي تخطئ وليس أنا.

في الفترة نفسها تقريبًا، خضعنا لاختبارات تحدد ما إذا كنا مؤهّلين للحصول علىٰ بعثة لدورة صيفية في الجامعة الأمريكية في بيروت، وعندما دخلت قاعة الاختبار، قالت لي الآنسة ستانوود: «عليّ، أنا أعرف أنك ستبلىٰ بلاءً حسنًا، لكن من فضلك لا تؤمل كثيرًا»، فشعرت في تلك اللحظة بالإحباط، وحتىٰ هذا اليوم، لا أعرف أهو صغر سني أم ضآلة حجمي أم نوبة الغضب التي اعترتني أمامها ما حال دون اختياري للبعثة، رغم أني أدّيت الاختبار علىٰ نحو ممتاز.

ضاعف هذا الرفض من إصراري علىٰ النجاح، فأدركت أني لن أتمكن من رسم مستقبلي حتىٰ أكبح جماح غضبي، فعاهدت نفسي بألا تفلت أعصابي مرة أخرىٰ، ومنذ ذلك الحين، لا أذكر أني فقدت السيطرة عليها، وإن كان لبعض الصحفيين المشاكسين -الذين يغطون اجتماعات أوبك- رأي آخر[1].

أُسألُ عن سر نجاحي فأجيب بتوفيق الله ثم بالاجتهاد، وبعض الحظ، وكسب ثقة رؤسائي في العمل، فحين ينال رئيسك ترقية نتيجة نجاح المهام التي أوكلها إليك، فستخلفه في منصبه، وهكذا أصبحت أول رئيس سعودي لشركة أرامكو عام ١٩٨٤، ثم أول رئيس تنفيذي بعد تغيير اسم الشركة إلىٰ أرامكو السعودية عام ١٩٨٨، لم يكن تسلم مناصب كتلك مألوفًا لأبناء البادية، وما كدت أحتفل بهذا النجاح حتىٰ كدر صفوه نشوب حرب الخليج سنة ١٩٩٠ التي شكلت تهديدًا مباشرا للمملكة ولاحتياطيّها الهائل من النفط، وانتهت الحرب وقد كتب الله لنا النصر بفضله، ثم بحكمة قادة المملكة وبسالة جنودها وشعبها، ودعم أشقائها وحلفائها، ولقد سطَّر موظفو أرامكو السعودية في تلك المرحلة ملحمة من العمل الشاق والجهد المتواصل لضمان سلامة النفط واستمرار تدفقه رغم حلكة الظروف.

---

(١) د. علي النعيمي، من البادية إلىٰ عالم النفط ص٣٦، ٤٨.

في تلك الأثناء اتجهت أنظاري نحو الشرق، فقد استشرفتُ مستقبلًا باهرًا لنمو أرامكو السعودية في أرجاء قارة آسيا، ولا سيما الصين التي أخذ اقتصادها بالنهوض، كنت مستمتعا بتلك التجربة، إذ سبرتُ ثقافات جديدة، وتعرفتُ علىٰ أشخاص كثر، وخضتُ مفاوضات شاقة.

وبينما كنت أعدُّ العدة للتقاعد وقد بلغت الستين، إذ بي أتشرف بتلقي اتصال من خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز رحمه الله، يكلفني به تولي وزارة البترول والثروة المعدنية، فنهضتُ بما كُلفته، وهكذا ابتدأ في عام ١٩٩٥ فصل جديد في حياتي امتد أكثر من عِقدين، التقيت بقادة الدول، وشاركتُ في رسم السياسة النفطية في المملكة والعالم، وتجاوزتُ تحديات محلية ودولية كثيرة، فقد انهار سعر برميل النفط سنة ١٩٩٧/١٩٩٨ إلىٰ ما دون ١٠ دولارات، مما جعلنا ننهمك في مفاوضات دبلوماسية شديدة، ثم قفز سعر البرميل عام ٢٠٠٨ إلىٰ ١٤٧ دولارا، وقد جعل ذلك المفاوضات أشد، والقرارات أصعب.

وعلىٰ الرغم من رحلة الحياة الشاقة، لم ألتفت يومًا إلىٰ الوراء، ولو عاد بي الزمن لأعدت الكرّة بلا تردد[1].

---

(١) د. علي النعيمي، من البادية إلىٰ عالم النفط ص٩، ١٠.

القضاء مَركب صعب، لذلك فر منه كثير من كبار السلف وأبَوه واحتملوا في سبيل إبائهم الضرب والسجن والإيذاء، فإذا كان أبو حنيفة وكان سفيان الثوري وكان أمثالهما يهربون منه ويخافون أن يعجزوا عنه، فكيف أُقدم أنا مطمئنًا عليه؟ اقرؤوا سيرة أبي حنيفة لمَّا أُكرِهَ علىٰ القضاء. بل ارجعوا إلىٰ كتاب «قُضاة الأندلس»، فإن فيه أحاديث كثيرة عمَّن أبىٰ دخول القضاء من العلماء.

ثم أرجع فأقول لنفسي: إذا فرَّ الناس جميعًا من القضاء فمن يقوم به؟ إن القضاء أعلىٰ درجة استطاع البشر الارتقاء إليها؛ ارفعوا القضاء من تاريخ الإنسان يهبطْ إلىٰ درك البهائم ويأكل القويُّ من بني آدم الضعيفَ. وإن معنىٰ الإنسانية وحقيقتها إنما تكون في الحياة المستقيمة الهادئة الآمنة، التي لا يطغىٰ فيها أحدٌ علىٰ أحد، والتي تُصان فيها الحَيَوات والحريات وتُحفَظ الدماء والأعراض، ويتحقق فيها التعاون علىٰ جلب المصالح ودرء المفاسد، ولا يكون ذلك كلَّه إلَّا بالقضاء.

والقضاء عند المسلمين أقوىٰ الفرائض بعد الإيمان؛ إنه عبادة من العبادات، ففيه إظهار للعدل، وبالعدل قامت السماوات والأرض. وصف الله به نفسه إذ قال: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [البقرة:١١٣] وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ﴾ [يونس: ٩٣]، وأمر به نبيه فقال: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ [المائدة: ٤٩]، وجعل أنبياءه قُضاة بين خلقه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾ [المائدة:٤٤]، وبه أثبت الله اسم الخلافة لداود حين قال له: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ [ص:٢٦]. وقلت من قديم إن القضاء أول ما تَعقد عليه أمةٌ خناصرَها إذا عَدَّت أمجادها ومفاخرها.

وإذا استُدلَّ بفرد علىٰ خلائق شعب كان القاضي العالِم العادل أكبرَ دليل علىٰ مكارم شعبه ونبل أمته، إذا كان بين الشعوب اليوم من يفخر باستقلال قضائه وعزته ومضائه ففاخروا -يا شبابنا- بقضائكم يكن لكم الفخار وتُعقَد علىٰ جباهكم تيجان الغار، ولكن لا تناموا علىٰ هذا المجد التليد بل انهضوا فصِلُوه بمجد لكم جديد[1].

كنت أحاول في المحكمة أن أتحرىٰ الحقَّ وأسلك طريق العدل، علىٰ مقدار ضعفي وعجزي، وكنت أرجو رضا الله.

لقد حكمتُ في أكثر من خمسين ألف قضية، فإن أخطأتُ في واحد من الألف منها لَتعلَّق خمسون مسلمًا بعنقي يوم القيامة يريدون أن يأخذوا من حسناتي، وما أقلَّ ما أدخرت لذلك اليوم من حسنات!

لذلك تمنيت لو أني ما دخلت القضاء ولا ذبحت نفسي بغير سكين. فاللهمَّ تدارَكْني بعفوك ورحمتك، وإن أكن أخطأت فظلمت أحدًا فأرضِه يا ربي عني بفضلك، فإنك تعلم أني ما تعمَّدت ظلم أحد[2].

❁ ❁ ❁

ليس في حياتي القضائيَّة ما يستحق الذكر إلا نزاهتي وشجاعتي. فما حابيت الوجوه ولا هِبْتُ زعيمًا أو صاحب سلطان، ولا ظلمت أحدًا، إلا أن تكون زلَّة بغير علم، فالعصمة لله وحده. ولكن وجداني -وهو أضيق من صدر البخيل وعين الجار الحسود- لن يحاسبني علىٰ خطيئة مسلكية. وأحسب أن ثمة عملًا يُدوَّن لي في باب الحسنات وهو نهوضي، ما استطعت، باللغة القضائية، إلىٰ مستوىٰ يليق بالشعب اللبناني الذي تصدر باسمه الأحكام. ولا أزعم أني تفردت بهذا الإصلاح الشكلي،

---

(١) علي الطنطاوي، الذكريات (٤ / ٣٥٠ - ٣٥٢).

(٢) علي الطنطاوي، الذكريات (٦ / ٣٣٣ - ٣٣٤).

فما أنا بالمغتر، ولا بالدعيَّ الذي يضع نفسه فوق موضعها. فلقد تقدَّمني وسايرني في هذا الشأو نفرٌ من أجلَّة المحامين والقضاة.

ومعلوم أنه، في تلك الحقبة، كان اللحن فاشيًا، والركاكة متأصلة، حتىٰ أن أحد القضاة كان يؤنث الرجل حينًا فيقول: وبما أن الرجل التي، ثم يعيده إلىٰ التذكير حينًا فيقول: الرجل الذي فلما سئل في ذلك أجاب: أن (التي) للمتزوج و(الذي) للرجل العَزِب[1].

---

(١) بولس سلامة، حكاية عمر ص٩٤، ٩٥.

رجل أعمال

قضيت سبعة وعشرين عامًا من حياتي في شركة هيونداي (Hyundai)، ساعدت في تحويلها من شركة إنشاءات محلية صغيرة إلىٰ مؤسسة عالمية تضم ١٧٠ ألف شخص علىٰ مستوىٰ العالم، وتبلغ عائداتها السنوية أكثر من ٤٠ مليار دولار أمريكي، ولما صرت رئيسًا تنفيذيًّا للشركة وأنا في الخامسة والثلاثين، طفت العالم، من صحراء السعودية إلىٰ غابات تايلاند ثم إلىٰ سهول سيبيريا؛ بحثًا عن فرص جديدة وسعيًا لفتح وجهات جديدة، التقيت بشخصيات حالمة ورجال دولة، شخصيات قوية ودكتاتوريين، وفي الوطن، كان عليّ أن أتعامل مع نظام سلطويّ، لم يكن متحديًا فقط، بل كان في بعض الأوقات خطيرًا أيضًا، وفي أحد الأيام كدت أقتل في منطقة نائية علىٰ يد عصابة حاولت سرقة مكتبنا.

لم يكن تاريخ كوريا سهلًا قط. فأعقب خضوعها للاستعمار اندلاع الحرب الكورية، ثم خضوعها لدكتاتورية عسكرية وصراعات داخلية، ومعارك أيديولوجية وانقسامات إقليمية، وقلاقل اجتماعية،... إلخ.

وفي بعض الأوقات بدت التحديات كاسحة، وفي مثل تلك الأوقات لم يكن دوري كرجل أعمال أن أجني الأموال فقط، بل أن أقوم بتقوية بلدي، سافر آلاف الكوريين إلىٰ الخارج للعمل في المناجم والبناء من أجل توفير حياة أفضل لأبنائهم، وساهمت الأموال التي أرسلوها في إنقاذ كوريا من الإفلاس عقب أول حظر عربي للنفط في عام ١٩٧٣، كما سافرت آلاف النسوة إلىٰ ألمانيا كممرضات حتىٰ يتمكن من توفير الأموال اللازمة لإرسال أطفالهن إلىٰ المدرسة، وهؤلاء الأطفال أصبحوا فيما بعد مدرسين وموسيقيين وعلماء.

التضحية هي ما يجعل مجتمعنا، الذي يشبه الفسيفساء، جميلًا وثريًّا بهذا الشكل. ونادرًا ما كان لدي وقت فراغ أقضيه مع أسرتي، كل ما كان لدينا وقتئذ هو توقٌ وتلهفٌ لحياة أفضل وشعورٌ قاسٍ بالحاجة. وهذا ما مكّننا من إنجاز ما يَعُدُّه الكثيرون مستحيلًا[1].

عندما أصبحت خارج السجن، وجدت أنني أصبحت خريجًا جامعيًّا، فلقد عرضت علي جامعة كوريا أن تعوضني عن الساعات الدراسية التي لم أحضرها بسبب وجودي في السجن؛ والسبب في ذلك هو أنهم أرادوني أن أخرج من الكلية بأسرع وقت ممكن، لم يريدوني أن أسبب مزيدًا من المشكلات أو الإحراج، كان سجلي الجنائي يشير إلىٰ أنني قد سجنت «للتحريض علىٰ تمرد ضد الدولة»، ومن ثم كنت مطالبًا بتقديم تقرير لقسم الشرطة المحلية متىٰ أردت الذهاب أبعد من محيط كيلومترين من المكان الذي أعيش فيه.

ازداد اهتمامي بالتجارة والاقتصاد، وعندما كنت في السجن، قرأت كثيرًا في كلا المجالين، اعتقادًا مني بأن كوريا بحاجة إلىٰ التركيز علىٰ هذين المجالين وتحسينهما.

في تلك الفترة كانت كوريا دولة نامية، وكان يصل دخل الفرد فيها نحو مئة دولار أمريكي، البطالة كانت متفشية، والمجتمع كان يعج بالشباب المستائين المؤهلين جيدًا لكنهم مفلسون، حتىٰ إن خريجي أفضل الكليات كانوا غير قادرين علىٰ إيجاد وظيفة كريمة، دخل كثير من أصدقائي الناشطين في مجال السياسة، وشجعني كثير منهم علىٰ أن أحذو حذوهم، لكنني اعتقدت أنه يمكنني دخول مجال السياسة لاحقًا، في البداية، رغبت في دخول مجال التجارة، اعتقدتُ أنه المجال الذي يمكن أن أنشط فيه، وأُحدث فيه فرقًا.

---

(١) لي ميونج باك، الطريق الوعر ص ٩، ١٠.

قدمت طلبات التحاق بوظائف في شركات متنوعة، لكن الشركات كانت تجري بحثًا عني قبل إجراء مقابلة شخصية معي، وكان سجلي الجنائي يحول دون قبول طلبات توظيفي، كنت أشعر أن يدًا خفية، محرك دُمىٰ، يدقق في كل خطوة أخطوها، الحكومة كانت حاضرة في كل مكان، في كل ركن، تقف حائلًا دون حصولي علىٰ وظيفة، وتحقيق حلمي.

بعدما فشلت حتىٰ في الحصول علىٰ مقابلة شخصية، بدأت قبضة الحكومة علىٰ حياتي تخيفني. في الوقت الذي كنت أصارع فيه للحصول علىٰ وظيفة، تقدمت الجامعة وعرضت عليّ فرصة إجراء مقابلة مع شركة نسيج صغيرة في الجنوب، ورغم أنني كنت أعلم أنها ليست فرصة العمر، لكنها كانت أفضل من لا شيء، كانت ستمكنني من كسب لقمة العيش، والابتعاد عن أعين الشرطة التي تتربص بي علىٰ طول الخط، ولو لفترة علىٰ الأقل فقبلت العرض.

اكتشفت أن الشركة أصغر مما توقعت، وكان مسؤولو الشركة حائرين بشأن أي الوظائف ينبغي أن أشغلها، واتضح أنه لم يتقدم أي شخص من خريجي الجامعات الكورية الكبرىٰ لهذه الشركة.

أدركت لماذا قبلوني في هذه الشركة، ففي أحد الأيام، جاء إلي المدير وسألني إن كنت لا أمانع في أن أُعِدَّ ابنه لامتحان القبول بالجامعة، باختصار، عينوني لكي أكون معلمًا خاصًّا لابن المدير.

فكرت برهة من الوقت، ورفضت بأدب، وربما كنت قبلت بهذا العرض إذا كان هدفي هو مجرد كسب لقمة العيش والحياة الهادئة، لكنني لم أقض شهورًا في السجن، وأذهب إلىٰ الكلية لينتهي بي المطاف معلمًا في مدينة نائية، لقد كانت لدي طموحات ورؤىٰ بشأن التجارة، وكانت هذه الشركة بعيدة تمامًا عما يدور في ذهني، فعدت إلىٰ سيئول عاطلًا عن العمل مرة أخرىٰ.

وفي أحد الأيام كنت أقرأ صحيفة ورأيت إعلانًا صغيرًا، كان الإعلان لشركة إنشاءات صاعدة تسمىٰ هيونداي، ذكر الإعلان أن الشركة تريد موظفين للعمل في الخارج، كانت هيونداي تبحث عن أشخاص للعمل في مواقعها في تايلاند.

لم يكن سبب اهتمامي بالوظيفة هو كون الشركة هي هيونداي، فكل ما كنت أعرفه هو أنها شركة جديدة وأداؤها جيد، بل إن السفر للخارج هو ما جذبني.

خلال فترة الستينيات والسبعينيات وحتىٰ لفترة في الثمانينيات، كان الكوريون الذين يسمح لهم بالسفر إلىٰ الخارج هم فقط طلاب الجامعات الحكومية الذين يدرسون في الخارج علىٰ نفقتها، وكبار المسؤولين الحكوميين والدبلوماسيين، وحفنة من رجال الأعمال، حتىٰ إن تقديم طلب الحصول علىٰ جواز سفر كان حدثًا ضخمًا، وكان يتم توديع من يسافرون للخارج من قبل حشد من المودعين الذين يصطحبونهم إلىٰ المطار بالزهور والحلوىٰ، وفي ظل ارتفاع معدل البطالة، كان الشباب من أمثالي يبحثون عن طريق للخروج من كوريا[1].

في عام ١٩٧٤، تمت ترقيتي لمنصب المدير التنفيذي، وفي عام ١٩٧٥، تمت ترقيتي مرة ثانية لأصبح نائب الرئيس، في عشر سنوات فقط، وصلت لأعلىٰ المستويات، شكك كثير في صعودي الصاروخي، وأصابت الغيرة كثيرًا منهم، وانتشرت الشائعات، من بين تلك الشائعات أنني قريب شونج جو-يونج، وأخرىٰ أنني أمتلك دليلًا جنائيًّا ضد شونج، ومن ثم فليس أمامه خيار سوىٰ أن يرقيني لكي ألتزم الصمت، شائعة أخرىٰ قالت: إنني أحظىٰ بدعم من الرئيس بارك شونج-هي، ولم تقتصر الشائعات علىٰ موظفي هيونداي فقط، بل امتدت للناس العاديين في الخارج.

---

(١) لي ميونج باك، الطريق الوعر ص ٦٢، ٦٣.

دائمًا ما كانت الصحف تخصص قسمًا خاصًّا عندما تتم ترقيتي، وكنت مادة خصبة للحديث في أوساط رجال وسيدات الأعمال وهم يحتسون المشروبات، كان شونج علىٰ دراية بالشائعات، وكان يقول: «انظر لي ميونج-باك! أنا لا أرقيك، أنت ترقي نفسك! كل هؤلاء الذين يتحدثون عنك وينشرون الشائعات لا يعرفون ما يتحدثون عنه؛ لذا، لا تشغل نفسك بما يقولون».

في أحد اللقاءات الصحفية، سألني أحدهم كيف تنجح في الترقي بهذه السرعة؟ قلت له: «إنني معجب للغاية بقدرة شونج جو-يونج علىٰ إيجاد الناس المناسبين، وشجاعته في تعيين هؤلاء الناس في المكان الصحيح في الوقت الصحيح».[١]

لم تكن الحكومة والبيروقراطية الجهتين الوحيدتين اللتين تفتقران إلىٰ المسوِّغ والفطرة السليمة والمنطق. كانت هيونداي أيضًا لها الكثير من الأخطاء التي تحتاج إلىٰ التصحيح، والتقاليد التي يصعب التخلص منها، وحالما أصبحت مسؤولًا تنفيذيًّا شرعت في تغيير هذه الأخطاء والتقاليد.

كان أحد تلك التقاليد الخاطئة يتمثل في منح المسؤول التنفيذي الكثير من الامتيازات، مثل السائق، والسكرتيرة، وأحيانًا الطباخ، في سبعينيات القرن العشرين، قابلت مسؤولًا تنفيذيًّا أجنبيًّا بينما كنت أعمل في تايلاند، قال لي: إنه اندهش عندما رأىٰ المسؤولين التنفيذيين الكوريين يستمتعون بمثل هذه الامتيازات السخية، أحرجني ذلك، وعندما صرت مسؤولًا تنفيذيًّا، تخلصت من هذه التقاليد غير الضرورية، قيل للمسؤولين التنفيذيين إنهم يجب أن يقودوا سياراتهم بأنفسهم من العمل وإليه، وأن يستخدموا السائق فقط عندما يكونون في أعمال رسمية.

---

(١) لي ميونج باك، الطريق الوعر ص ٨٥.

وتمثلت الممارسة الأخرىٰ التي تبنيتها كمسؤول تنفيذي في الرد علىٰ كل المحادثات الهاتفية التي تأتي في ساعة متأخرة من الليل، بصرف النظر عن الوقت، وكان كثير من المسؤولين التنفيذيين يطلبون من موظفيهم أن يتصلوا بهم هاتفيًّا في «أي وقت»، ولكنهم نادرًا ما يردون علىٰ الهاتف، وحتىٰ إذا فعل أحدهم ذلك فسوف يبدو كالمتعب أو نصف النائم مما لا يشجع أي شخص علىٰ الاتصال به أبدًا مرة أخرىٰ في أثناء الليل، ولكنني أعتقد أن الوقت شيء جوهري خاصة بالنسبة إلىٰ مسؤول تنفيذي مشارك في الأعمال الدولية، حيث يجب اتخاذ قرارات حرجة بصرف النظر عن الوقت، فأحيانًا يمكن أن تعني دقائق قليلة الفرق بين إبرام الصفقة والخسارة أمام خصمك، وعندما يتصل أحدهم هاتفيًّا في المنزل في منتصف الليل أو في الصباح الباكر، فإنني أحرص علىٰ الرد عليه بصوت واضح حتىٰ إذا كنت نائمًا قبلها، وأصبحت خبيرًا في هذا الأمر، وسرعان ما أصبح الناس يتعجبون مما إذا كنت أنام أصلًا! وبعد التحدث في الهاتف، أضع السماعة وأنام مرة أخرىٰ، (وكانت هناك عادة أخرىٰ تتمثل في تدوين ملاحظات خلال تلك المحادثات الهاتف خشية أن أنسىٰ ما قيل في نومي).

منذ الأيام التي كانت فيها أمي توقظني في الساعة الخامسة صباحًا كل صباح، فإنني لم أنم إلىٰ ما بعد الخامسة صباحًا، سواء كنت في كوريا أو في الخارج، ولم يكن الفرق يعني شيئًا بما أنني كنت لا أنام قط في أثناء سفراتي الجوية، وبمجرد وصولي إلىٰ وجهتي كنت أذهب مباشرة إلىٰ القاعة الرياضية أو إلىٰ مباراة تنس ثم أمضي إلىٰ عملي، وبعد ذلك أكون قد بلغت قمة الإرهاق في الليل ولا أجد صعوبة في النوم ثم الاستيقاظ في الخامسة صباحًا[1].

---

(١) لي ميونج باك، الطريق الوعر ص١٦٧، ١٦.

هناك ناحية منفّرة في مهنة الطب لا تُذكر علىٰ شدة وضوحها إلا نادرًا، وهي أن أكثر الناس الذين أتواصل معهم كانوا مرضىٰ، بعضهم كان يحتضر، وبعضهم مات أمامي وهو تحت العلاج، وأذكر أن صديقًا مقربًا لي كان رياضيًّا وأرفع مني في سنوات الدراسة، لكنه توفي في أحد الأيام لتعرضه لنوبة قلبية فاستدعيت لتأكيد وفاته، لم يكن في استطاعة الطبيب فعل الكثير لعلاج قصور القلب في تلك الأيام؛ فبلغ تأثري بوفاته حدًّا جعلني أذرف الدموع بصمت، وهذا ما لاحظه بعض أصدقائي وسمعت أحدهم يقول: «إنه يبكي»، لكنّ شخصًا آخر رد عليه بالنفي لأني طبيب، والطبيب معتاد رؤية الناس يموتون، لم أنكر عليه تصوره لأني أردت الظهور في مظهر القويّ، لكنّي وجدت نفسي بمرور الوقت أكثر عرضة لمثل هذه الانفعالات، وكانت أمارة علىٰ شدة الإنهاك وعلىٰ عدم الانعتاق أو التحرر من حياتي كطبيب[1].

۞ ۞ ۞

أرغب إلىٰ أبنائي -أو علىٰ الأصح حفدتي- من أطباء الشباب، أن يأخذوا حذرهم إزاء ما يصادفهم من عوامل الإغراء والإغواء، خشية أن يتورطوا فيما لا يحمدون عقباه من مزالق الأخلاق.

لقد تعرضنا قبلهم لتجارب كثيرة مثيرة، ولكننا أدركنا أن الاستمساك والاستعصام -أول الأمر- يولد المناعة، ويورث القدرة علىٰ المقاومة، ويساعد علىٰ تكوين إرادة قوية، هي العامل الأول في إجبار النفس علىٰ السير في الطريق

(١) مهاتير محمد، طبيب في رئاسة الوزراء ص١٩٧، ١٩٨.

القويم، وكانت نصيحتي إليهم ألا يفرطوا قيد شعرة فيما يفرضه السلوك الأخلاقي الحميد، وأن يملكوا قيادهم، ويأخذوا أنفسهم بالحزم، وأن يضعوا أمام أعينهم بشاعة الجرم الخلقي الذي يقترفه طبيب استؤمن علىٰ الأعـراض، وأخلد إليه الناس بالثقة، ليؤدي واجبًا نحو مريضة، بعث بها ذووها في حمىٰ الرسالة الإنسانية المقدسة، رسالة الطب.

وحقًّا إنها لكبيرة عند الله أن تُخان أمانة الأعـراض، وقد توعد سبحانه من يرتكبها بأشد الوعيد، ولكن من يخون هذه الأمانة لا يسلم كذلك في حياته العملية علىٰ ظهر هذه الدنيا من سوء الجزاء، فإن ضميره لا بد مستيقظ يومًا ليحاسبه ويعذّبه، فينغِّص عليه عيشه، ويصبغ الدنيا في عينيه بالسواد، والطبيب الذي يخون أمانة الأعراض لا بد من أن يفتضح أمره، وتسوء سمعته، ويتحاشاه الناس، فلا خفيّ إلا ويظهر ولا مكنون إلا ويستعلن[1].

❁ ❁ ❁

قبل رحيلي من بوسطن جلست مع معلمي الأستاذ شستر جونز جلسة طويلة زودني فيها بتوجيهاته القيمة، ومما قاله لي: «لا تركض وراء المال، فالمال سوف يركض وراءك، وركز علىٰ حالة مرضاك وانس الشأن المادي، وعندما تصل إلىٰ مفترق حرج في القرار أو العلاج استعن باستشارة غيرك ولو كان أصغر منك سنًّا، ولا تتفرد بالقرار، تعامل مع كل مريض كأنه أقرب الناس إليك، وحين تقرر العلاج اسأل نفسك إن كان هذا المريض أباك أو أمك أو ولدك فهل كنت تصف العلاج نفسه؟ تابع اهتمامك في الأبحاث العلمية والعلوم الطبية الأساسية، فأنت جئت إلىٰ هارفرد لتتعلم كيف تجرىٰ الأبحاث بطريقة علمية، فالفرق بين الطبيب والطبيب

(١) د. نجيب محفوظ، حياة طبيب ص٦٣، ٦٤.

الأستاذ هو مدىٰ اهتمامه بالأبحاث والعلوم الأساسية التي هي ركيزة علم الطب، فركز اهتمامك علىٰ التعليم، فلن تتعلم إذا لم تعلّم وستجد أن لذة التعليم تفوق كل اللذات الأخرىٰ»[1].

---

(١) منير شماعة، إقلاع وهبوط ص٩٣.

الصحافة

أتيح لي أن أكون واحدًا من أبناء هذه المهنة وعاشقًا في بلاط جلالتها اعتقادًا وإصرارا علىٰ أنها أنسب المهن وأرحمها بقدر ما فيها من العذاب.

هي أنسب المهن لمن أدركته حرفة الأدب وجرفه مضض الشعر فآثر أن يصون الحرفة علىٰ ما عداها بأن يمرح في بلاط صاحبة الجلالة الفسيح الرحيب لا سجن الوظيفة الضيِّق الرهيب.

وقد ضاقت به رحاب كل وظيفة وتغرّب في البيداء والثغور والقرىٰ ينفق الأيام والليالي في التجريب والتجوال وانتظار ما يجيء، حتىٰ آن له أن يرسو علىٰ شاطئ تلك الملكة غير المتوجة صاحبة الجلالة الصحافة[1].

۞ ۞ ۞

لما زاولتُ الصحافة خرجتُ من العزلة القديمة -عزلة الفكر والنفس- ونزلت إلىٰ الحَلْبة، أو خضتُ العُباب، فكأني انتقلتُ من عالم إلىٰ عالم، أو هبطتُ من كوكب إلىٰ كوكب في هذا الفلك الدوَّار، فأول ما يفيده الأديب من الصِّحافة هو اتصالُه بالحياة حياة الجماعة وحياة الفرد، وفهمُ هذه الحياة علىٰ قدر ما يتيسَّر له ذلك بحسب استعداده وما رُزِق من المواهب والمَلَكات.

وتفيده الصِّحافة أيضًا أن أسلوبه يصبح حيًّا، وتقول لي تجربتي: إني كنت قبل العمل في الصحافة أشبه بمُومياء محنَّطة، فلما دخلتُ في الصِّحافة أحسستُ

---

(١) فتحي سعيد، في بلاط الصحافة والأدب ص٩.

بالدماء تجري في عروق هذه المُومياء، وأنها أصبحَت قادرةٌ علىٰ مُوَامقة[1] الحياة في أكثر من موضع واحد، وأنها صارت تنظر وتحسُّ وتفكِّر وتنطق كما ينطق الأحياء، ولا تكتفي بأن تتبدَّىٰ للناظرين إليها كما كانت تفعل إذ هي مومياء وتوحي إليهم أو لا توحي شيئًا، وتفيده كذلك مرونةً في الأسلوب، أسلوب الكتابة وأسلوب التناول، فهي مدرسةٌ نافعة، أو قل: لازمةٌ للأديب، وإن كانت مشغلةً شديدة، علىٰ أن ما تأخذه من وقت الأديب ليس شرَّ ما فيها، وإنما شرُّه أنها قد تُغْرِيه بأمرين علىٰ الخصوص:

الأمر الأول: السَّطحيَّة، أو بعبارة أخرىٰ: اجتنابُ الغوص والتعمُّق، والاكتفاء بأوَّل وأسهل ما يَرِد علىٰ الخاطر، ابتغاء التخفيف عن القارئ واتِّقاء الإثقال عليه، ومن هنا يخشي أن يعتاد الأديبُ الكسل العقليَّ.

والأمر الثاني: أن الصِّحافة قد تدفع الأديب إلىٰ توخِّي مرضاة القارئ العاديِّ، فيحرص علىٰ ذلك حرصًا قد يُفْسِد عليه أدبَه ويضيع مزيَّته ويفقده قيمتَه.

وقد كنت وأنا معلِّمٌ أدرِّس الترجمة أخشىٰ علىٰ نفسي أن أهبط إلىٰ مستوىٰ التلاميذ، وأن أتعوَّد التسامح والتسهُّل، فأعالج ذلك بالعكوف علىٰ قراءة الأدب القديم، وعسىٰ أن يكون هذا هو الذي يرجعُ إليه أني كنت أتكلَّف الجزالة والفخامة في صدر حياتي؛ ولكن لا بدَّ من علاج لأثر الصِّحافة السيئ في أدب الأديب، فلا مفرَّ له من دوام الاطلاع علىٰ الآثار الخالدة؛ ليعتدل الميزان، ويستقيم الأمر، ويتَّقي السَّطحية من ناحية، ومصانعة القارئ من ناحية أخرىٰ[2].



(١) موامقة: أحبَّ كلٌّ منهما الآخر لغير ريبة.

(٢) إبراهيم المازني، العمر الذاهب ص٣٠٧، ٣٠٩.

العمل في الصحافة يتطلب منك أن تتقن لغتك العربية، وأن تُحسن لغة أخرىٰ تستقي بها الخبر العاجل؛ ولكنه يتطلب شيئًا آخر أهم: أن تكون راغبًا في المتابعة، أن تكون حِلْسَ أخبار، وهذا الذي يسمونه بالإنجليزية «نيوز أنيمال»، عاشرت بعضًا من مهووسي الأخبار، يسمع الواحد منهم تصريحًا لوزير الخارجية فيقفز عن مقعده قائلًا: «ههنا تطور غير متوقع في موقف الدولة الفلانية، ففي تصريحه السابق قبل خمسة أسابيع كان موقفه كذا، هلمَّ! علينا ملاحقة الأمر بمقابلة مع المحلل الفلاني، وترتيب تقرير يوضح تطور موقف هذه الدولة من القضية الفلانية، إلخ»، الذي يفعل ذلك هو حِلْس الأخبار، هو الصحفي الإخباري الحق.

لم أكن -ولن أكون- حلس أخبار، وحتىٰ يوم الناس هذا فأنا أفضل قراءة جريدة الأمس، أقرأ التاريخ بنهم، ولا أتابع الأخبار، هذا أنا، هكذا خُلقت.

ولتطمئن بالًا إلىٰ أنني لا أُورد عليك نقائصي كي أفاجئك في منتصف الطريق بشيء كنتُ فيه عبقريًّا؛ فقد كُتِبَ عليّ ألاَّ أكون مبدعًا في أي شيء، غير أن ما مررتُ به قد يرشدك إلىٰ طريقة تتجنب كما التشتت، ما أصعب أن تكون في الوسط، لا أنت جاهل أخرق تؤدي ما يُطلب منك من عمل كيفما اتفق لك، وتعيش عيشة مخلوقات الله التي رِزْقها علىٰ الله، ولا أنت مبدع خلاَّق تعيش حياتك صاعدًا درجة بعد درجة وعيناك إلىٰ الأعلىٰ، في الوسط تُجَرّبُ هذا وذاك وتنجح في شيء، لكن بعضَ نجاح، وتفشل في شيء؛ لكن بعضَ فشل.

فهل انقطع طموحي وانتكست همتي، وقعدت بي الحال إلىٰ أنني كالهباءة العالقة في الهواء، لا هي تصعد إلىٰ الأعالي ولا هي تحطُّ علىٰ الأرض؟ لا، أتحرَّق إلىٰ أن أصنع شيئًا، نعم، حتىٰ وأنا أعالج باب الستين؛ ولعله مجرد احتراق داخلي يجعل المرء يتوهج، لكنه لا يسير به نحو شيء ذي بال.

لكن رويدك عزيزي القارئ المتطلع إلىٰ سيرة إعلامية لرجل خنق أربعين سنة في المهن الإعلامية، لا تنصرف عني، فالإعلام ليس كله أخبارًا، والذي لم يحقق النجاح الاختراقيّ في مسار معين قد يكون حقق نجاحات متوسطة، وقد يكون تعلَّم الكثير من الفشل ومن نصف النجاح[1].

۞ ۞ ۞

كثير منَّا نحن معشر الصحافيين، يعزّون أنفسهم -ويخدعونها في الوقت نفسه- بإيهامها أنهم أدباء، وأن ما يكتبونه من مادة صحافية هو أدب، إن الأدب الحقيقي لا يعترف بالصحافة، وليس من مهمة الصحافة أن تؤدي مهمة الأدب، وعلينا الاعتراف بذلك.

إن ما يتمايز به صحافي عن آخر، هو الأسلوب والمعلومة، والأسلوب وحده لا يخلق أديبًا والمعلومة وحدها لا تخلق صحافيًّا، لأن المادة التي بين يديه وطبيعة صياغتها لا تحتمل أن تصبح جنسًا أدبيًّا، كالقصة أو الشعر أو الرواية أو المسرحية، إنها جنس آخر، هو صحافة في أرقىٰ مستوياتها، وفي أهمية ورفعة ما يسمىٰ بالأدب، ولعل في مقولة ماثيو آرلوند -الشاعر والناقد الإنكليزي في القرن التاسع عشر -، إن: «الصحافة هي أدب مستعجل» شيئًا من الصحة[2].

---

(١) عارف حجاوي، حياتي في الإعلام ص١٢، ١٣.

(٢) رياض نجيب الريس، آخر الخوارج٣ ص١٩ - أعترف أن كلمة الخوارج هي ترجمتي لكلمة Outsiders، أي الذين هم خارج السياق العام والنمط المتعارف عليه في الحياة. أو ربما الخارج عن السائد والمألوف. رياض الريس، آخر الخوارج ص١٤.

مُعلِّم

أحمد الله علىٰ أني كنت معلمًا ناجحًا، لا أقول ذلك عن نفسي وحدي، بل يشهد به تلاميذي علىٰ مدىٰ إحدىٰ وستين سنة، منذ بدأت التعليم علّمت في المدارس الأولية في القرىٰ والابتدائية في المدن، والمتوسطة والثانوية، وعلّمت في الجامعات وفي أقسام الدراسات العليا فيها، وعلّمت شبانًا وعلمت في مدارس البنات (وإن كنت أستغفر الله مما فعلت ولا أجيز مثله)، وعلّمت في مدارس المشايخ كما علّمت في مدارس الشباب، وكان من أسباب توفيقي ثلاث، أوصي بها من أراد أن يكون معلمًا ناجحًا:

أولها: استيعاب المادة التي يدرّسها والإحاطة بها، والرجوع إلىٰ كل كتاب يصل إليه من كتبها، لا يقتصر علىٰ الكتاب المقرر، أما في الجامعة فلا يجوز أبدًا أن يقرر للطلاب كتاب بعينه لا يرجعون إلا إليه ولا يأخذون إلا منه، ومن يفعل ذلك من الأساتذة يكن معلم مدرسة ابتدائية لا أستاذًا في جامعة.

الثاني: أن يسلك إلىٰ إفهام الطلاب كل سبيل، فإن ساق المسألة بعبارة لم يفهموها بدّل العبارات حتىٰ يصل إلىٰ العبارة التي يستطيعون أن يفهموها، وما دامت مسائل العلم في ذهنه وكلمات اللغة بين يديه سَهُل ذلك عليه.

أما الشرط الثالث فهو أن يكون طبيعيًّا، فإن لم يعرف المسألة قال للطلاب: إني لا أعرفها، وإن أخطأ قال لهم: إني أخطأت فيها.

لما جئت مكة أدرّس في كلية التربية سنة ١٣٨٤هـ جاء ذكر مسألة فقهية ذكرتُ فيها الحكم في مذهب الإمام أحمد، فقام أحد الطلاب يرد علي بأدب بأن المذهب

ليس علىٰ هذا وأن المسألة ليست كما ذكرتُ، فأطَلتُ لساني عليه وقلت له: لقد درستَ اثنتي عشرة سنة حتىٰ وصلت الجامعة وأنت لا تعرف الحكم في المذهب الذي يمشي عليه أكثر الناس في هذه البلاد.. وكلامًا من أمثال هذا، ما كان لي حق فيه وما كان بيدي مسوّغ له، وهو ساكت لا يجيب.

فلما رجعت إلىٰ الدار فتحت كتب الفقه الحنبليّ، فإذا المسألة كما قال الطالب لا كما قلت أنا. أفتدرون ماذا صنعت؟ جئت في الغد، فقلت للطالب: أنا أعتذر إليك، لقد كنت أنا المخطئ وأنت المصيب، وأعتذر إليك مرة أخرىٰ لأنك كنت مهذّبًا؛ ولأنني لم أكن في التهذيب علىٰ ما يُطلَب من العلماء، فسامحني.

هل تظنون أن هذا الموقف نقص احترام الطلاب لي أو تقديرهم إياي؟ لا، بل أؤكد لكم أنهم زادوني تقديرًا وأنهم استفادوا منه درسًا لعله أكبر من الدروس التي تستفاد من الكتب[١].

❁ ❁ ❁

أتاحت لي وظيفة التدريس مزايا كانت ذات أهمية كبيرة لي. فقد وجدت أن أفضل طريقة لفهم المشكلة المعقدة أن يضطر المرء إلىٰ تدريسها؛ إذ إن الطلبة رقباء ممتازون علىٰ درجة فهم الأستاذ لما يقول، وهذا يجبر الأستاذ، مالم يكن نصّابًا، علىٰ فعل المستحيل حتىٰ يصبح قادرًا علىٰ مواجهة أي سؤال لتوضيح ما يقوم بشرحه، والأساتذة الذين يتجرأون علىٰ أن يتكلموا عن أشياء لا يحسنون فهمها صنف نادر، والعادة أن ينفضح أمرهم، تتصل بذلك ميزة أخرىٰ هي الابتكار، والاهتداء إلىٰ أفكار جديدة، فالمحاولة المستمرة للتعمق في الفهم استعدادًا لمواجهة التلاميذ كثيرًا ما تقود الأستاذ إلىٰ أفكار جديدة قد يكون بعضها ذات قيمة، والحقيقة أنني

---

(١) علي الطنطاوي، الذكريات (٦/ ٢٨٨، ٢٩٠).

مدين للتدريس بكثير من مقالاتي وكتبي، فإذا كان لبعضها بعض النفع فهو بلا شك نابع في الأصل من خوفي من أن أقول كلامًا غير مفهوم.

لكل هذا أعتبر نفسي سعيد الحظ، إذ كانت الوظيفة التي أكسب منها رزقي تجلب لي كل هذا القدر من السرور والرضا عن النفس؛ ولهذه الأسباب أيضًا -أكثر من أي سبب مالي - لم أفكر قط في أن أستبدل بمهنتي مهنة أخرىٰ.

ظل التدريس مصدرًا لسروري وتجديد رضاي عن نفسي عامًا بعد عام، ولا يصيبني من السأم، ولكني لاحظت أنني في محاضراتي أميل أكثر فأكثر، مع تقدمي في السن، إلىٰ النفور من الخوض في التفاصيل، ومن شرح نظريات وموضوعات كنت أعتبرها مهمة في الماضي، فأصبحت أعتبرها قليلة أو عديمة القيمة، وإذا بي أشك في قيمة تدريس كثير من النظريات المشهورة، التي ربما استمدت فتنتها من أناقتها ودقتها دون أن يكون لها أي قيمة عملية، فدراستها ليست إذن أكثر من تمرين عقلي يمكن أن يحصل الطالب علىٰ نفس منفعته من أشياء أخرىٰ قد لا تكون لها صلة بالعلم، لاحظت أيضًا زيادة اهتمامي بأن أذكر في محاضراتي، أكثر فأكثر، الجوانب الشخصية للاقتصاديين الكبار الذين ندرس أفكارهم، كبعض المعلومات المدهشة عن تعليم جون ستيوارت ميل وشخصية أبيه، وحرص فرجينيا وولف علىٰ معرفة رأيه في رواياتها، أو عن علاقة والد مالثس بجان جاك روسو.. إلخ، والطلاب يحبون دائمًا -بالطبع - أن يتطرق المحاضر إلىٰ مثل هذه الأمور، ولكني أصبحت أميل مع تقدمي في السن إلىٰ إعطائها أهمية أكثر من ذي قبل، بل وبدأت أشعر أن تأثير مثل هذه المعلومات في النفس قد يكون أعمق وأكثر دوامًا، وربما أيضًا أفضل وأجمل، من تأثير المعرفة بالنظريات العلمية نفسها.

قد يؤيد هذا أنني لا زلت أتذكر حتىٰ الآن ما قد يكون قد قاله أستاذ قديم لي، في إحدىٰ محاضراته، عن شيء لا علاقة له بالعلم الذي كان يُدَرّسه، ولكنه يتعلق بجانب إنساني أو أخلاقي عام، ومنذ وقت قريب وقع بيدي كتاب أستاذي القديم ليونيل روبنز، الذي أشرف علىٰ دراستي للماجستير في إنجلترا، عن تاريخ الفكر الاقتصادي، وهو كتاب استخرجه تلاميذه مباشرة من محاضراته التي ألقاها بعد أن تجاوز سن الثمانين، وتعتمد اعتمادا كليًّا تقريبًا علىٰ تسجيلات هذه المحاضرات، مع الحرص علىٰ عدم إجراء أي تعديل مهم عليها، إلا ما كان منها ضروريًّا تمامًا لاستقامة المعنىٰ أو استكمال الجملة.

لفت نظري أن هذا الكتاب (أو هذه المحاضرات) كان مليئا بمثل هذه القصص والأخبار عن جوانب شخصية بحتة للاقتصاديين الذين يتكلم عنه، والتي تكشف عن جوانبهم الإنسانية، الصالح منها والطالح، أكثر مما تكشف عن مساهماتهم الفكرية. قلت لنفسي: «وما الذي نتوقعه غير ذلك؟ رجل يلقي محاضراته بعد أن تجاوز الثمانين، أي بعد أن اكتشف ما هو المهم في الحقيقة وما هو غير المهم، فاتجه أكثر فأكثر إلىٰ الحديث فقط عما ينفع الناس، ويمكث في الأرض»[1].

سألني مرة أستاذي الإنجليزي «ليونيل روبنز»، الذي كان يشرف علىٰ دراستي للماجستير، عما أنوي عمله بعد عودتي إلىٰ مصر، فقلت له إن الحكومة المصرية أرسلتني في بعثة لكي أعود بعدها للتدريس في الجامعة، فقال لي ما معناه إن التدريس مهنة عظيمة، ثم وصفها بأنها تشبه الزواج من امرأة دائمة الشباب.

---

(١) جلال أمين، ماذا علمتني الحياة ص٢٨٨، ٢٩١.

ظللت أذكر هذا التشبيه مع مرور الزمن عليَّ وأنا أشتغل بالتدريس، في جامعة مصرية أولًا ثم في الجامعة الأمريكية، ووجدت أنني فعلًا بينما تتقدم بي السن يظل تلاميذي في الثامنة عشرة من العمر أو أكثر قليلًا[1].

۞ ۞ ۞

اشتغلتُ بتدريس اللغة العربية والعلوم والخط العربي للمرحلة الابتدائية والإعدادية والثانوية أربع سنوات، لم أكن معلمًا ناجحًا، وإن كنت أعرف أني مولود معلمًا، فالمعلم الناجح هو الذي يستطيع أن يختار الطريق الصعب لا الطريق السهل، الطريق الصعب هو أن تضع كل جهدك في دفع الطلبة للتفكير، وفي فتح الآفاق أمامهم، وفي جعلهم يتعلمون، والطريق السهل هو أن يغلب علىٰ ذهنك أن تثبت لهم أنك عبقري زمانك، والطريق السهل هو أن يكون هدفك نفسك، والصعب أن يكون هدفك طلبتك[2].

۞ ۞ ۞

«اثنان لا يشبعان، طالب علم وطالب مال»، وقد سألت نفسي يومئذ أي الاثنين أنا؟ وقررت في الحال أنني طالب علم! فالمال بالنسبة لي شيء مجهول لا يعنيني، أما العلم فها هو بين يدي في هذه الكتب بكل روعته! ولما طلب إلينا المعلم جبور أن نكتب قطعة إنشاء عنوانها: «ماذا أريد أن أكون في المستقبل»، قلت في إنشائي: «أريد أن أكون معلمًا؛ لأنني حينئذ سأبقىٰ دومًا مع الكتب، أتعلم منها لنفسي وللآخرين معًا»، وهذا بالضبط ما اخترت من مهنة بعد ذلك بسنوات، بتصميم وهوس[3].

۞ ۞ ۞

(١) جلال أمين، المكتوب علىٰ الجبين ص١١٧.
(٢) عارف حجاوي، حياتي مع الإعلام ص٣٧.
(٣) جبرا إبراهيم جبرا، البئر الأولىٰ ص١٤٨.

آليتُ ألا أقرأ من الكتب إلا ما هو مكتوب بلغة جيِّدة، وأمضيتُ العزم علىٰ ذلك صارمًا. وعلة ذلك أني كنت مدرِّس ترجمة، ولغة التلاميذ ركيكةٌ ضعيفةٌ محشوَّة بالأغلاط، وكان عملي يضطرُّني أن أراجع وأصحِّح أكثر من مئتين من كرَّاسات هؤلاء التلاميذ، فخفتُ أن آلف الرَّكاكة والضعفَ علىٰ الأيام، وأن يجرَّ ما لابدَّ منه من التسامح معهم إلىٰ التسامح مع نفسي، فيهبط مستوىٰ كتابتي، وينحطَّ أسلوبي، ويعتوره الوهنُ من بعض جهاته، فيفقد الاستواء، ويعود كالطريق الذي لم يعبَّد بعضُه سهلٌ وبعضه حَزْن، ولا تكاد القدم تطمئنُّ إلىٰ انتظامه مسافةً حتىٰ تعترضها الحُفَر والنُّقَر.

وتلك آفة التدريس؛ فإن المدرِّس من طول تحرِّيه أن ينزل إلىٰ مستوىٰ العقول التي يلقِّنها قد يهوي هو نفسُه إلىٰ هذا المستوىٰ بعد أعوام إذا قصَّر في الاطلاع أو كَسِل عنه.

ومن أجل هذا أقسمتُ ألا أقرأ من الكتب إلا أقواها وأسماها وأمتنَها. ومن هنا تشدُّدي في النقد تلك الأيام، وما يزال تلاميذي يذكرون لي ما كانوا يكرهونه من صرامة أحكامي عليهم، وقسوتي في تقدير الدَّرجات لهم[١].

۞ ۞ ۞

أول درس ألقيته

أبدًا لا أنسىٰ تلك الساعة الرهيبة العصيبة التي ألقيتُ فيها أول درس في أول فصل! كان ذلك منذ سبعة عشر عامًا والسن حديثة والنفس غريرة والنظر قصير، وكانت المدرسة ثانوية أجنبية، تجمع أخلاطًا من الأجناس والأديان، وأنماطًا من الأخلاق والتربية، وكنتُ قد أدركتُ قسطًا من العلم النظري علىٰ الطريقة الأزهرية،

(١) إبراهيم المازني، العمر الذاهب ص٩٧، ٩٨.

وشدوتُ طرفًا من التعليم الفني علىٰ الطريقة اللاتينية؛ إلا أن ما حصلت منهما كان ما يزال طافيًا في ذهني، متحيرًا في فكري، لا يطمئن إلىٰ ثقة ولا يستقر علىٰ تجربة!، أضف ذلك إلىٰ طبعٍ حييٍّ، ولسان من الخجل عييٍّ، ووجه للقاء الناس هَيُوب.

قضيتُ موهنًا من الليل في إعداد الدرس، أراجع مادَّته وأرسم خطَّته وأسدِّد خُطاه، ثم احتفلتُ لكلام أقابل به التلاميذ قبل التمهيد للدَّرس، وغدوتُ إلىٰ المدرسة أقرع باب الأمل المرجو، وأستطلع ضمير الغيب المحجَّب.

دق الجرس فجاوبه قلبي بدقات عنيفة كادت تقطع نياطه وتشقُّ لفائفه، وقمت أجرُّ رجلي وبجانبي مفتش الكلّية جاء يقدِّمني إلىٰ الطلبة، دخلنا الفصل فحيَّانا التلاميذ بالوقوف، وقال المفتش فأطال القول وأجزل الثناء، ثم خرج وبقيتُ!.

أقسم لك أني أقول الحقَّ، وإن كنتُ أجد بشاعة طعمه ومرارة مذاقه علىٰ لساني! لقد نظرتُ إلىٰ التلاميذ نظرة حائرة، ثم رجعت إلىٰ نفسي أحاول إخراج ما فيها من الكلام المهيأ المحفوظ، فكأن ذاكرتي صحيفةٌ بيضاء، وكأن لساني مضغةٌ جامدةٌ لا تحسُّ!.

السكون شاملٌ رهيب، والأبصار شاخصةٌ ما تكاد تطرِف، ووجوه الشباب ترتسم عليها ألوانٌ مختلفةٌ متعاقبةٌ من خطرات النفوس ونزوات الرؤوس، وأنا واقفٌ منهم موقف المحكوم عليه، أعالج في نفسي الخوَر والحصَر، وأجهد في لمِّ ما تشعَّث من ذهني وتبدَّد من قواي، حتىٰ هداني الله إلىٰ طريق الدرس، فاعتسفته اعتسافًا دون مقدمة ولا تمهيد ولا عرض!.

أتريد أن تعفيني يا صديقي من وصف هذا الدرس إبقاء عليَّ وصونا لسرِّ المهنة؟ ولكن لماذا نتدافن الأسرار ونتكاتم العيوب؟! إن في الدلالة علىٰ أوعار الطريق ومضايقها ومزالقها تحذيرًا للسالك البادئ، وتبصرةً للناشئ الغرير.

بدأتُ الدرس بصوتٍ خافض، وطرف خاشع، ولسان مبلبَل، وسرت فيه وأنا واقفٌ لا أدنو من السبُّورة مخافة أن أحرك سكون الفصل، ولا ألمس الطباشير خشاة أن أسيء الكتابة!

كان من المعقول أن يعاودني الهدوء ويراجعني الثبات بعد زوال دهشة الدخول وربكة البدء لو كنتُ واثقًا من نفسي، متمكنًا من درسي، ولكن نظام الموضوع كان قد انقطع فتبعثرت حبَّاته، وتعثَّرت خطواته، ورحتُ أسرد ما تذكرته منه وأنا أشعر بكلماتي تحتضر علىٰ شفتي، وبريقي يجمد في فمي، وبعرقي يتصبَّب علىٰ جبيني، حتىٰ فرغتُ، ثم جلست أبلع ما بقي من ريقي، ونظرتُ فإذا الساعة لم يمض نصفها وإذا التلاميذ يتلاحظون ويتهامسون وعلىٰ كل شفة بسمةٌ خبيثة لولا تعوُّد النظام وقوة التهذيب لعادت قهقهة صاخبة!

ماذا أقول بعد أن نفد القول؟ وبماذا أملأ الفراغ الباقي من الوقت؟ وكيف أؤخر انفجار هذه الضحكات المكظومة؟، أسئلة كانت تضطرب في خاطري القَلِق فلا أجد لها جوابًا غير الحيرة! حتىٰ تطوَّع تلميذٌ جريء «الإنقاذ الموقف»، فقال: «احكِ لنا حكاية يا أفندي بأىٰ!».

ولم تكد شفتاي تنفرجان عن مشروع الرد حتىٰ ابتدرني آخر: «لأ يا أفندي، أتكلم لنا شوية إنشا شفهي»أ وآخر: «اسم حضرتك إيه يا أفندي؟ والله أنت راجل طيب!».

فقطعتُ سيل هذه الأسئلة المتجنية الساخرة بهذه الجملة الحيية المتواضعة: علىٰ كل حال كاد الوقت ينتهي، فلا يتسع لشيء من هذا. ولكنَّ صوتًا أشبه بصوت القَدَر قد انبعث من أقصىٰ الحجرة يقول: «أوه! دا لسه ساعة وربع! حصة العربي ساعتين كل يوم!».

ساعة وربع؟! نعم ساعة وربع! أقضيها علىٰ هذه الحال الأليمة كما شاء نظام «الفرير»، أو كما قضىٰ الجَدُّ العاثر! وإذن لا مناص من انفجار البركان ووقوع الكارثة.

كأنك تريدني علىٰ أن أسوق إليك بقية القصة! حنانيك، ولا تكلِّفني هذه الخطَّة، واعتمد علىٰ نفسك وحدسك في التخبُّر والاستنتاج! لقد انحل النظام فتشعَّث الأمر وانتشر، وأذكر أني حاولت الكلام مرارًا فلم أسمع صوتي من اللَّغط! فجعلت قيادي في يد أولادي، ثم سكتُّ حتىٰ نطق الجرس!

خرجت من الفصل أميدُ من الهمِّ، وأجر ذيل الفشل السَّابغ الضافي، وفي نفسي أن أترك التعليم وهو حديث صباي ومنتجع هواي إلىٰ عمل آخر يصلح لي وأصلح له!، ولكني عدتُ إلىٰ الفصل، ومضيتُ في التعليم، وكنت بعد شهرين اثنين مدرس الفصل الأخير وأستاذ الكلية الأول! فما الذي جعل من اليأس أملًا، ومن الفشل فوزًا ومن الضعف قوة؟ اسمح لي أن أكون صريحًا فيما كان لي، كما كنتُ صريحًا فيما كان عليّ؟.

لقد التمست الوصلة إلىٰ النجاح في أسباب خمسة كلُّها معلومٌ بالضرورة، مؤيد بالطبع، ولكن العلم غير العمل، والرأي خلاف العزيمة، والتجربة وجود الفكرة وواقع الحقيقة:

١- **مواصلة وإدمان النظر**: فلم أترك كتابًا في الموادِّ التي أدرِّسها حتىٰ تقصَّيتُه أو ألممت به واستفدت منه، وكان جدوىٰ ذلك عليَّ وثوق الطلبة بما أقول، وظهور التجديد فيما أعمل، وتصريف الدرس وتنويعه علىٰ ما أحِبُّ، ولن تجد أشفع للمدرس من سعة اطلاعه وغزارة مادته.

٢- **إعداد الدرس وأداؤه**: وكان يعنيني علىٰ الأخصِّ ربطُه بالدروس السابقة، والسَّير فيه مع الطلاب خطوة خطوةً علىٰ الطريقة الاستنتاجية inductive، ثم

تلخيصه بطريق الأسئلة، فكان من حسن إعداده أن ملأتُ الوقت كلَّه به، فلم يعد فيه فراغٌ لعبث عابث ولا تجنِّي سفيه، وجررت إليه أذهان الطلاب بالتشويق والتطبيق والسؤال فلم يصبهم سأمٌ ولا ضيق، وشَغَلْتُهم عن أنفسهم وعنّي فلم يفرغوا لاصطياد نكتة ولا لالتماس غميزة، وليس أعون علىٰ حفظ نظام الفصل من ملء الوقت بالمفيد الممتع، ولا أضمن لجودة شرح المعلم وحسن استماع التلميذ من فهم الموضوع.

٣- **مسايرة الترقي**: فلم أتشبَّث بالقديم، ولم أتعصَّب للكتاب، ولم أُعْنَ إلا بما له قيمةٌ عملية، فالموضوعات منتزعةٌ من حياة التلميذ وحال المجتمع، والأمثلة مستنبطة من أساليب العصر ومواضعات أهله، والبحث حرٌّ في حدود المنطق، يقوم علىٰ أساس التحليل والنقد والموازنة. وفي تشابه الفكرة والنزعة والغاية توثيق الصلة بين المعلم والمتعلم.

٤- **حسن الخلق**: ولعمري ما يؤتىٰ المعلم إلا من إغفاله هذه الجهة، فالادِّعاء والتظاهر، والكبرياء والتفاخر، والبَذاء والتنادر، والكذب والتحيُّز، والكسل والتدليس، آفات العلم وبلايا المعلِّم. وما استعبد النفس الشابة الحرَّة كالخلق الكريم، ولا يسَّر تعليمها وتقويمها كالقدوة الحسنة. ناهيك بما يتبع ذلك من جمال الأحدوثة واستفاضة الذكر، وهما يزيدان في قدر المعلِّم واعتباره، ويغنيان التلاميذ الجُدُد عن اختباره.

٥- **قوة الحزم**: فكنتُ ألِين في غير ضعف، وأشتدُّ في غير عسف، وأسير بالطالب إلىٰ الواجب عن طريق ضميره وحسِّه، لا عن طريق تأنيبه وحبسه، وأجعل رضائي عنه غاية ثوابه، وسخطي عليه غاية عقابه، وأعِدُه الوعد فلا أذهل عن تنجيزه، وأحكم عليه الحكم فلا أنكل عن تنفيذه، وأستعين علىٰ فهم عقليته ودرس نفسيته بإنشائه، فأعامله بما يوائمه وأعالجه بالدواء الذي يلائمه.

كل ذلك يُسْعِدُه طبعٌ غالب، ورغبةٌ حافزة، ومِرَانةٌ طويلة، وقدرٌ من الله جعلني أجد سعادتي وراحتي في الفصل وبين الطلاب، أكثر مما أجدهما في البيت وبين الأصحاب، ولكن المعلمين وآسفاه كما بدأهم الله يعودون!، فليت شعري هل يكون الدرس الأخير في مبدأ مماتي، كما كان الدرس الأول في مبدأ حياتي؟![1]

---

(١) أحمد حسن الزيّات، ذكرىٰ عهود ص ١٥٥، ١٥٩.

مترجم

الترجمة هي جسري الخاص الذي أعبره نحو الآخر، الترجمة هي انفتاح علىٰ الآخر وحوار مع الآخر، إنك تقرأ الآخر وتطّلِع علىٰ ثقافته وفكره وعاداته ومعتقداته وطقوسه، فتعرف كيف يعيش هو، وبماذا يفكر، وبماذا يحلم، وما هي عذاباته وآلامه وهواجسه؟.

الترجمة هي بمنزلة الإبحار في عوالم الآخرين، إنها اكتشاف عوالم جديدة، والتعرف علىٰ ثقافات مختلفة، وأناس يحملون فلسفات وأفكارًا وهويات مختلفة، فالمترجم في مجال الفكر والثقافة والأدب مثقف آخر، ومبدع آخر يضيف إلىٰ ما يترجم من روحه من دون أن يخرج بالطبع عن النص الأصلي، هو ليس قرد المؤلف كما يصفه ماركيز، بل صانعٌ جديد للنص وليس ناقله، مبدعًا كما مبدعه الأصلي[1].

❁ ❁ ❁

أهم مصدر من مصادر معرفتي باللغة الإنجليزية هو اهتمامي بلغتي، باللغة العربية، فالراسخ في لغته الأم ينطلق إلىٰ غيرها بقلب واثق، والمترجم الذي يتقن لغته التي يترجم إليها إتقانًا جيدًا لا يضيره أن يكون غير متقن اللغة الأخرىٰ كل الإتقان، فإن سمعتهم يقولون، وما أكثر ما يقولون: إن شرط المترجم أن يتقن اللغتين بالقدر نفسه، فاعلم أنهم كذبوك، لا، ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، ثم نعم، صدق الجاحظ عندما قال ما معناه: إن اللغتين علىٰ لسان تُدْخِل إحداهما الضيم علىٰ الأخرىٰ، ولا بأس أن تكون اللغة التي تقرأ بها أيها المترجم مضيمة بعض

---

(١) علي صالح، العوالم الثلاثة ص٨٨، ٨٩.

الضيم، فأما اللغة التي تكتب بها فلا بدَّ أن تكون متينة، والمترجم ينتفع -علاوة علىٰ ضرورة امتلاكه ناصية لغته الأم- بالثقافة الواسعة.

وقد ترجمتُ كثيرًا وأنا أعمل معلمًا للغة العربية، ترجمت بحوثًا أكاديمية أزعم أنها شديدة التخصص وبالغة الصعوبة، كنت أقرأ البحث وأفحص معاني المفردات الصعبة في المعجم، ثم أستحضر ما أعرفه عن موضوع البحث وتمثل أمامي العبارات العربية، وكان خير معين لي علىٰ الترجمة قدرتي علىٰ الشعور بجهلي؛ فقد أقف أمام عبارة من العبارات وقفة طويلة، وأقول لنفسي: جميل أن أزعم أني أفهم العبارة، هي واضحة من سياق الكلام؛ لكن في الواقع أحس أن فيها شيئًا غريبًا، وأطرح من يدي المعجم الإنجليزي العربي، وأفحص في المعجم الإنجليزي الإنجليزي، وأطيل الوقوف علىٰ الأمثلة حتىٰ أدرك ما يسمونه بظلال المعاني، تلك الفروق الدقيقة بين تعبير وتعبير.

أحيانا أضع لنفسي هدفًا: أن تصبح إنجليزيتي في متانة عربيتي وهأنذا الآن أقرع باب الستين وأضحك من نفسي، لم أحقق ذلك ولا بعضه، هل سمعت برجل له أُمَّان؟ للمرء أمٌ واحدة، ولغةٌ أمٌ واحدة، ولغتك الأم تكتسبها ليس بالتعلم وليس بالعقل، بل تأتيك معجونة بالمواقف التي تعيشها، تأتي الكلمة والعبارة ملتصقتين بالشعور الذي يهزك وينغرس في أعماقك، وقد يحدث في حياتك تشتت لغوي، فتنحرف عن لهجتك الأصلية إلىٰ غيرها بفعل معاشرة قوم من مدينة أخرىٰ، ثم تنحرف عن اللهجة إلىٰ اللغة الفصحىٰ، وتظل لهجتك الأولىٰ منغرسة في أعماقك، وتنغرس فيك اللهجات المتعاقبة، والفصحىٰ أيضا بدرجات، وهي كلها متقاربة[1].

---

(١) عارف حجاوي، حياتي في الإعلام ص٤٢، ٤٣.

عندما تركت المنصب

لا يُهوِّن عليك الرحيل من المنصب، أكثر من كونه جاءك دون سعي منك أو طلب، فعلىٰ قدر تجافيك عن التهافت علىٰ المناصب، يكون ترجلك عنها يسيرًا مثل سحب إبرة من وريدك، في حين يكون الرحيل عن المنصب أشبه بالموت الإكلينيكي علىٰ من لهث من أجله وانبطح وربما صارع![1]

قد يكون الفرق مذهلًا بين عدد المهنئين علىٰ التعيين وعدد المودعين، فاحرص أن تكون الرابح في الحالين، بالعدل والإحسان، وألا تركن لكلمات الثناء في البداية، ولا تهتم بعبارات التشفي إذا أزف الرحيل، وودعت المكان صامتًا[2].

ولعلي أختلف مع بعض الوزراء الذين يتلقون أنباء إنهاء مدة الوزارة بصدمة واندهاش كمن حانت نهاية حياته كلها، وليس مرحلة واحدة فقط من مراحلها! ووجهة نظري الخاصة التي أقتنع بها تمامًا ، وأجني ثمارها الآن، أنه لا بد لهؤلاء الذين يتشبثون بالمناصب وكأنها أنفاسهم التي يحيون بها؛ أن يمنحوا أنفسهم فرصة لالتقاط شيء من ثمار الأعمار الطويلة التي قضوها علىٰ كراسي الوزارات ، حتىٰ إن أحدهم لا يهنأ بنجاح، ولا يشعر بقيمة إنجاز ، لأنه منغمس في دوامة العمل اليومي. فمن حق كل واحد منا أن يُمضي شطرًا من حياته يتأمل هذه الصروح والمشروعات والبرامج والسياسات التي تركها من خلفه شاهدة علىٰ عطائه وجدّه واجتهاده،

---

(١) حمد المانع (وزير الصحة السعودي السابق)، لكم وللتاريخ ص ٢٥.
(٢) حمد المانع، لكم وللتاريخ ص٤٠.

تجني ثمارها الأجيال، ويتفيأ مواطنوه ظلالها، ولعله أن يخرج برؤية واقعية تطويرية يجتمع فيها خبرة المجرِّب مع طموح المراقب.

ليت الوزراء الذين لهم إنجازات حقيقية، تمثل إضافات تستحق الذكر والإضافة إلىٰ تاريخ التنمية في هذا الوطن، يدركون أنهم بحاجة حقيقية إلىٰ استراحة محارب أرهق جواده من الركض المتواصل، يتأملون فيها بنفس راضية وضمائر مستريحة تلك الأحلام الجميلة التي كحلوا بتحقيقها عيون وطنهم ، وجعلوها واقعًا ملموسًا . إنه شعور عظيم ذلك الذي يغمرك وأنت تتفقد من نافذة سيارتك صرحًا وقفت يومًا وراء تشييده، وأنت تستحضر تلك الذكرىٰ بمعاناتها وأرقها ومكابدتها، وترىٰ في هذا كله ذكرىٰ جميلة لساعات قلقة، أصبحت من الزمن من أغلىٰ الذكريات وأكثرها تعلقًا بالذهن.

إنه لمن طبيعة الحياة وسنتها؛ ألَّا يبقىٰ إنسان في مكانه فقد تخترمه المنون، أو تتخطفه حوادث الزمان، والوزراء كباقي الناس يجري عليهم ما يجري علىٰ غيرهم، بيد أن تركهم للمنصب أو إعفاءهم منه أمر قد جُلبت كثير من النفوس علىٰ الإزورار عن التفكير فيه ولو لبرهة، إلا مَن رحم ربك وقليل ما هم![1]

۞ ۞ ۞

تركت العمادة وعدت أستاذًا وخَلَت يدي من كل سلطة إدارية، وأتت وزارة لا تعدّني من رجالها، فلم يكن لي شأن في علاوات وترقيات، وليس لي قبول في شفاعات، وإذ ذلك سفرت لي وجوه قبيحة من إنكار الجميل وقلة الوفاء.

هذا كان صديقي يوم كنت أستطيع نفعه، فلما سلبت مني هذه القدرة تلمس الوسائل ليكون عدوي، فإن لم يجد أسبابًا اختلقها، وإن لم يجد فرصة لإظهار هذه

---

(١) حمد المانع، لكم وللتاريخ ص٤٧، ٤٨.

الخصومة تعمد إيجادها، وهؤلاء الذين كانوا يتهافتون علىٰ إقامة حفلات تكريم لي يوم انتخبت عميدًا، فأرفضها وأرفضها، لم يفكروا في إقامة حفلة وداع يوم تركت العمادة.

وهذه التليفونات التي كانت تدق كل حين للسؤال عن صحتي، وطلب موعد لزيارتي؛ لإظهار الشوق أولًا، والاطمئنان علىٰ صحتي ثانيًا، والرجاء في قضاء مسألة ثالثًا، لم تعد تدق إلا للأعمال الضرورية التي ليس منها سؤال عن صحة، ولا إعلان أشواق.

وهذا صندوق البريد الذي كان يمتلئ بالخطابات المملوءة بالطلبات والرجاوات أصبح فارغًا إلا من خطابات عائلية أو مسائل مصلحية.

وهذه أيام الأعياد التي كان يموج فيها البيت بالزائرين من الصباح إلىٰ المساء يهنئون بالعيد، أصبحت كسائر الأيام، أجلس فيها علىٰ المكتب فأقرأ وأكتب، ولا سائل ولا مجيب، وهذه صورة للناس لم تكن جديدة علي، فقد قرأت مثلها في الكتب كثيرًا، وسمعت عنها في الأحاديث كثيرًا، وشاهدتها في غيري كثيرًا، ولكن لعل أسوأها أثرًا في نفسي ما شاهدته من قلة الوفاء في بعض طلبتي، فقد كنت أعتقد أن الرابطة العلمية فوق كل الروابط، وأن حق الأستاذية فوق كل الحقوق، لم أكن رأيته، فلما رأيته استعظمته وحزّ في نفسي وبلغ أثره أعماق قلبي.

لم أعد بعد ذلك أثق بالناس كما كنت أثق، ولا أركن إليهم كما كنت أركن، فكانت إذا حدثت فصول من هذا القبيل تكسرت النصال علىٰ النصال[1].



(١) أحمد أمين، حياتي ص٢٦١، ٢٦٢.

علمتني الحياة أن الناس أصحاب الموظف بقدر حاجتهم إليه، فهم أصدقاء المنصب لا أصحاب شخص بعينه، فإذا انقطعت الأسباب بمن يصانعونه، وهوت سدته، وانطوىٰ بساط نعمته، رأيت ألصق الناس به أول من يزْورَّ عنه ويهتك سِتْره، ويثير عليه الشامتين، فعلة الذئب برفيقه الجريح[1].

❁ ❁ ❁

وطَّنت نفسي علىٰ التعايش مع حياة التقاعد. أحسست أنني أصبحت سيد نفسي تمامًا. وكان من حسن الحظ أن «الحرفة» التي اتخذتها مهنة العمر، لا تقاعد فيها. عشت حياتي مع الكتب والورق والأقلام، وسوف استمر في ذلك فيما بقي من سنوات العمر. هل قال أحد فيما مضىٰ أن الكتَّاب يتقاعدون؟

كانت طموحاتي تتركز في دنيا الكتابة. وعندما أؤلف كتابًا وأنجح في نشره، أشعر أني حققت إنجازًا أعظم من كل المناصب والدرجات. الكتاب الأصيل يبقىٰ، أما المنصب والدرجة فيذهبان مع الريح، كالرداء الذي نلبسه حتىٰ نعافه أو يبهت لونه، أو يهترئ[2].

---

(١) بولس سلامة، حكاية عمر ص٢٢٥.

(٢) سليمان موسىٰ، خطوات علىٰ الطريق ص٤٧، ٥٠.

في مدارج التعلّم

بداية لا مفر من تقرير أنه لا خير في تعليم لا يولّد عشق القراءة لدىٰ المتعلم في عديد من مجالات المعرفة، ومواصلة هذا العشق في مختلف مراحل حياته. كذلك لا خير في معلم أو أستاذ جامعي أو باحث يتقاعس من مواصلة القراءة والتنقيب في مصادر المعرفة سواء في مجالات تخصصه أو اهتماماته علىٰ امتداد ممارسته لعملية التعليم والتثقيف ومتابعته للتغيرات فيما يعرف بمجتمع المعرفة. ويبدأ هذا من ارتياده للمكتبة المدرسية أو الجامعية إلىٰ قراءة الصحف والمجلات الصحفية والعلمية، إلىٰ جانب صحائف الكمبيوتر والوسائط التكنولوجية وآلياتها متعلمًا ومعلمًا وباحثًا[1].

لطالما كنت فضوليًّا في تعلم كيفية عمل الأشياء، ففككت الساعات وأنا صغير لأعرف سبب النقر الصادر عنها، لكني لم أنجح في إعادة جمعها، وكنت أقف طوال ساعات أمام نافذة محل طباعة قريب من منزلنا وأراقب العاملين فيه، وفي أثناء جولاتي علىٰ مصانع السيارات في زياراتي الرسمية إلىٰ اليابان، كنت أتمنىٰ عليهم دائمًا أن يروني كيفية صنع السيارات من بداية خط التجميع إلىٰ نهايته وليس بدءًا بنهايته كما يفعلون عادة، فأنت لن تستطيع تعلم الأشياء بترتيب عكسي، وأتمنىٰ أن يكون لدىٰ مزيد من الناس هذا النوع من الفضول لأني وجدته كثير النفع[2].

❁ ❁ ❁

إذا طلب أحد نصيحة حول تعلم أية لغة فنصيحتي هي دائمًا: اقرأ أعظم ما فيها، ولا تشغل نفسك طويلًا بجمل مثل «أين الطريق إلىٰ المطار؟» و«موقع مطر غزير

---

(١) حامد عمار، مع سيرتي الذاتية ص٩٩.

(٢) د. مهاتير محمد، طبيب في رئاسة الوزراء ص٢٦٧.

ليلة البارحة» أو «ما هي أقرب صيدلية؟»، وشعاري مع اللغات هو: اقتحم أمنع قلاعها، اقرأ أعظم كتّابها ولا تخف من قلة الفهم فالإعادة (وأنا مجنون بالإعادة) تزيح المجهول وتكشف عن أسرار النص المغلقة، اقرأ قصيدة لبودلير عشرين مرة فتفهم بعدها لا أسرار شعره وحده بل كذلك أسرار اللغة الفرنسية، لا تخش مسرحيات راسين الشعرية فهي لا تعض: اقرأ «فيدر» و«أندروماك» و«بيرينيس» ثلاثين مرة وإذا بك تجد راسين يصير صديقًا تعرف ملامح وجهه وتتعرف علىٰ نبرة صوته تعرّفًا يكاد يكون تامًّا، وذاك بطبيعة الحال مع مواكبة شيء من النقد الراسيني الذي يمتد إلىٰ هذا اليوم.

اللغة جسارة كما أن الكتابة جسارة، والحديث جسارة، فمن يرغب في تعلم السباحة لا يتعلمها بالبانيو، ولا يمكن تعلم سياقة السيارة وهي ثابتة في الجراج[1].

۞ ۞ ۞

بين حين وآخر التقي من الأدباء من يسألني: كيف وأين تعلمت اللغة العربية؟ وبين آونة وأخرىٰ اقرأ أو اسمع من يقول: فرحات درس العربية علىٰ نفسه! والحق يقال أنىٰ لا اعرف كيف ولا أين تعلمت هذه اللغة؟ فإنني لم أدرسها علىٰ نفسي ولا علىٰ غيري، فقد تركت مدرسة الضيعة ولي من العمر عشر سنوات، ولم أتصفح في حياتي كلها كتابًا في الصرف والنحو، وفي المدرسة لم يكن لهذا العلم أو لهذين العلمين من أثر، ولا أظن أن الراهب المعلم كان يعرفها أو يعرف منها شيئًا، وبعد تركي المدرسة لم أدرس قط، وإن أكن قرأت كثيرًا، فإن القراءة شيء والدرس شيء آخر، وحتىٰ سنة ١٩٢١ لم تكن مكتبتي تحوي من الكتب غير «جوغرافية فانديك».

وفي تلك السن كنت أنظم الشعر الفصيح، ولا أزعم الآن أنىٰ ملكت ناصية

---

(١) نجيب المانع، ذكريات عمر أكلته الحروف ص٢٠٨.

اللغة، ولكنني أقدّر أن لغتي على الغالب سليمة، فلم أدرس الصرف ولا النحو ولا العروض، والدرس الوحيد الذي استفدت منه هو الانتقاد الذي وجهه إلي ذلك الأديب في جويز دي فورا. فصرت أميز بين الفاعل والمفعول.

وأنا من طبعي لا جلد لي على الدرس ولا أحب التعمق في المعنى ولا التعقيد في اللفظ، فإذا لم أفهم الشيء المكتوب بسهولة تركته وشأنه، وإذا كان يظهر في شعري شيء يشبه التعمق فما هو إلا عفو الخاطر، ولست مفتخرًا في هذا وإنما أسجل حقيقة، ولا أنظم حين أنظم الشعر إلا ما يرد علي من الخواطر السانحة، وإني لأعجب لزميلي وصديقي «الشاعر القروي» الذي لا يخلو جيبه من دفتر صغير يسجل فيه خواطره نثرًا حتى إذا جلس ينظم أدخلها في شعره مدخلًا كريمًا، وأنا لا أجلس إلى مكتبة لأنظم ولكنني أنظم شعري ماشيًا في السوق أو مسافرًا في الحافلة أو في القطار أو نائمًا في الفراش، فكنت أنظم أبياتًا قد تبلغ العشرة أو العشرين وأخزنها في ذاكرتي حتى تتسنى لي كتابتها.

بعد سنة ١٩٢١ أي بعد أن تزوجت وصار لي بيت خاص آوي إليه، اشتريت «البيان والتبين» للجاحظ وقرأته ثم قرأت «المتنبي» ثم «القرآن»[1]، ثم رحت اقتني بعض الكتب الحديثة وأقرأها، فالعقاد مثلا محتل الصدر من مكتبتي الحديثة يجيء بعده طه حسين، وعندي الآن من الكتب النفيسة ما لا يزيد بالعدد عن العشرة؛ منها كتابان أو ثلاثة كتب للعقاد ومثلها أو اقل منها لطه حسين وعندي «ملوك العرب» للريحاني وعندي من الدواوين ديوان المتنبي وابن الرومي وحافظ إبراهيم والمطران والملاط ودواوين «القروي» وديوانا أبي ماضي وغيرها.

---

(١) إلياس فرحات شاعر نصراني وله قصيدة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم جاء في مطلعها:

غَـمَرَ الأرضَ بأنوارِ النبّــوَّة　　كوكبٌ لم تدركِ الشمسُ عُلُوَّه
لم يكدْ يلْمَعُ حتى أصبحت　　ترقب الدنيا ومــن فيها دُنُوَّه

ولقد استفدت من قراءة المجلات والجرائد ولا سيما ما كان يجيء فيها أحيانًا من النقد اللغوي لأساتذة معروفين، وتتألف مكتبتي من بعض المجلات المحلية وبعضها الآخر دون تجليد[1].

---

(1) إلياس فرحات، قال الراوي ص٤٢، ٤٣.

في رحاب القرآن

لولا انفرادي عن الآخرين ووجودي في مكتبتي، مع القرآن الكريم، عندما ماتت ابنتي الكبرىٰ الدكتورة سهير، وكانت وما تزال قرة عيني ونور قلبي، لكنت أصبت بالجنون، وكانت كارثة ما تزال لها آثارها الغائرة في قلبي[1].

۞ ۞ ۞

حين التحقت بالمعهد الديني قال لي والدي وصية هامة، وكررها مرارًا، قال يا بني، إذا أردت أن تذاكر دروسك في أي علم من العلوم فابدأ بقراءة سورة من القرآن، فإن تلاوة الكتاب تفتح عليك وتُسهّل ما يتعسر من المسائل العلمية، كما قال لي: اِنْوِ حين تبدأ المذاكرة أنك تستجيب لأمر الله إذ تذاكر مادة الدرس، فهذه النية الصادقة لها أجرها عند الله، وستكسب ثوابها، وكنتُ في أثناء الطلب أحرص علىٰ تنفيذ هذه الوصية ما استطعت![2]

۞ ۞ ۞

أخي المؤمن:

نُصْحِي إليك أن تضع مصحفًا فوق وِسادك، لا تتخذُه تميمةً من التمائم، ولا تعويذة من التعاويذ، وإنما تتخذه نَبْعًا فياضًا تستقي منه لروحك صفاء، ولنفسك شفاء!

ليكن من دأبك في إصباحك ألا تقع عينك أول ما تقع إلا علىٰ هذا الكتاب الخالد، فرتِّل منه ما تيسر، واملأ سمعك بتلك الآيات البينات، تُمتْعك بسحر البيان، واترك حكمتها البالغة تسري في وليجة نفسك، فتضيء من جوانبها ما أظلم، وتجلو

---

(١) جابر عصفور، زمن جميل مضىٰ ص١٠٦.

(٢) د. محمد رجب البيومي، ظلال من حياتي ص١١.

منها ما صَدِئ، فإنك لا تلبث أن تحسَّ روحَك قد انسكب عليها فيض يكفل لها الطهر، ويثير فيها الانتعاش.

أَنعِم بذلك بدءًا لنهارك الوضاح! لَتُصبحنَّ وقد شاع في أساريرك بِشر، وامتلأت نفسك بالثقة. ولَتُقبِلنَّ علىٰ عملك ناشطًا في تَيمُّن وانشراح.

وليكن كذلك من دأبك في ليلك أن يكون ذلك المصحف آخر ما تقع عليه عيناك، قبل أن تسلم أجفانهما للمنام، فرتِّل من آي القرآن ما وسعك أن ترتل، تطهيرًا لنفسك مما علق بها من غبار يومك. اعمل بتلك السنة لا تنحرف عنها يومًا، واتخذها لك منهجًا وإمامًا، وانظر كيف تصير من حال إلىٰ حال، وكيف يتكامل لك حظك من سعادة النفس ونعيم الروح.

ولا تنس هذا القرآن العظيم في غدوٍّ ولا رواح فإن أَلَمَّتْ نازلة، أو حَزَب أمر، فاجعل من آيه لك مفزعًا تستظل فيه من حَر ما تجد، وإنك لشاعر من ساعتك بأن الغُمَّة لا سلطان لها عليك، وأن لك جَلدًا لا يَهِن وعزيمةً لا تخور[1].

اكتشفت خلال مراحل الدراسة الابتدائية والثانوية أن علاقتي المبكرة بالكلمة القرآنية والنسيج القرآني علىٰ مستوىٰ التجربتين: الدينية واللغوية، قد أكسبتني رصيدًا هائلًا من القدرات والمهارات والوعي المبكر يفوق ما لدىٰ رفاقي وأقراني بكثير، وأصبحت حصة اللغة العربية ودرس الأدب العربي بفضل هذا الرصيد أقرب الدروس إلىٰ نفسي وعقلي، بقدر ما كانت عذابًا ومحنة للآخرين[2].



(١) محمود تيمور، شفاء الروح ص ٢٥، ٢٦.

(٢) فاروق شوشة، عذابات العمر الجميل ص٤٥.

أشعر من أعماقي، كم كان لما حفظت في أيام صباي من القرآن والشعر من فضل علىٰ تكويني الأدبي واللغوي، كنت دائمًا في جو عابق بالفصاحة والبلاغة يلفُّني، ويسدد خطاي في تطلعي إليه، لقد نسيت الآن الكثير الكثير مما حفظت، ولكني أشعر أنه في أعماقي، كالخميرة لا أُخرج شيئًا قبل أن يمسحه بمسحة منه[1].

❁ ❁ ❁

لقد كنت محبًا للقرآن وقراءته منذ المرحلة المتوسطة، ولكن لم أحفظه؛ إذ لم تكن في مساجد بغداد علىٰ عهدنا حلقات لتحفيظ القرآن، والدولة لا تشجّعها، لذلك كنتُ متلهفًا لتعويض ما فاتني من فضل، فوجدتُ في مدينة الرياض في مسجد الحي الذي أرتاده حلقة للقرآن بعد صلاة الفجر، فكنت أجلس فيها يوميًّا مع مؤذن المسجد (حسني قزمار) الذي يجلس محتسبًا لإقراء القرآن يوميًّا بعد صلاة الفجر، فختمت عليه القرآن نظرًا، وكان الشيخ (حسنىٰ) وقتها يذهب إلىٰ الشيخ د. (سيد محمد بن ساداتي الشنقيطي) الأستاذ في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ليحفظ القرآن عنده من أجل أخذ الإجازة العلمية، فشجعني للذهاب معه لحفظ القرآن غيبًا، فذهبت إلىٰ حلقة الشيخ «الشنقيطي» في حي الملك فيصل، فوجدت الحاضرين فيها كثيرين، يربو عددهم علىٰ ثلاثين طالبًا، ومنهم الصغير والكبير حتىٰ أني كنت أصطحب معي ولدي محمودًا، وكانت حلقة الشيخ تبدأ بعد صلاة الفجر مباشرة يوميًّا، ولا تنقطع إلا عندما يسافر الشيخ إلىٰ المدينة المنورة لزيارة والدته هناك.

بدأت الحفظ من سورة الفاتحة فكان الشيخ يهتم بضبط أدائها؛ لأن قراءة أم الكتاب ركن من أركان الصلاة، بعدها بدأت بسورة البقرة، والحقيقة أنني عندما

---

(١) صلاح الدين المنجد، لمحات عن تجاربي الفكرية ص٦٠، ٦١.

بدأت في حفظها، ورأيت أن عدد آياتها ٢٨٦ آية كنت أقول في نفسي: «هل من المعقول أن أحفظ هذا العدد من الآيات وأنا في هذا العمر، وقد تجاوزت سبعًا وثلاثين عامًا»، غير أن الشيخ جزاه الله خيرًا كان يشجعني ويمتدح قراءتي، وأرىٰ في الحلقة من هو أكبر مني سنا فأتشجع أكثر، وكنت أجلس في الحلقة منذ بدئها إلىٰ نهايتها لا سيما أيام الإجازات والعطل، وأستمع إلىٰ جميع من يقرأ، وأصغي لتصحيح الشيخ لهم وملاحظاته حول مخارج الحروف ومواطن الوقف والابتداء، مما أعانني علىٰ الحفظ والضبط.

كان مسجد الشيخ «الشنقيطي» يبعد عن محل سكني حوالي ١٥ كم؛ ولكثرة طلابه فكانت هناك أرقام توزع قبل صلاة الفجر عند فتح المسجد الساعة الثالثة والنصف فجرًا حيث كان مؤذن المسجد «أبو ناصر الحربي» رجلًا كبير السن يفتح المسجد مبكرًا، وقد كنت أخرج من البيت الساعة الثالثة فجرًا لأصل مسجد الشيخ قبيل فتحه لكي أحصل علىٰ أوائل الأرقام، وكنت أصل بعض الأحيان ولم يفتح المسجد، وأرىٰ عددًا من الطلاب قد وصلوا قبلي، وعندما يفتح المؤذن المسجد كنا نتسابق لدخوله للحصول علىٰ أوائل الأرقام، وقد كنت دائمًا أفوز برقم ٢ أو ٣، والحصول علىٰ أوائل الأرقام يتيح لي القراءة مبكرًا بعد صلاة الفجر، والخروج بعدها لإيصال الأولاد إلىٰ مدارسهم.

كان الشيخ شديدًا في قبول ما يعرض عليه من الحفظ، فإن زادت الأخطاء في الحفظ في نصف الثمن عن ثلاثة أخطاء يوقف الطالب عن القراءة، ويقول له: «أعانك الله علىٰ الإعادة»، ولا يقبل الإعادة في نفس اليوم وإنما في اليوم التالي، وكنت أرجع حزينًا لفوات ذلك اليوم من غير إنجاز في الحفظ إذا قال لي الشيخ تلك العبارة.

وعندما أكملت سورتي البقرة وآل عمران ذهبت اليوم التالي وقد فتحت المصحف لأقرأ نظرًا فسألني الشيخ: «لماذا تقرأ نظرًا هذا اليوم»، قلت له: «الحمد لله أنهيت الزهراوين، وهذا يكفي، فقد لا أستطيع إنجاز أكثر من ذلك».

قال لي الشيخ -جزاه الله خيرًا-: «عليك بمواصلة الحفظ غيبًا فقراءتك جيدة وحفظك جيد؛ فإن كنت ترىٰ أن الحفظ غيبًا يشق عليك يوميًّا، فاقرأ يومًا نظرًا ثم احفظه غيبًا في اليوم الذي يليه».

كانت الحلقة مليئة بالطلاب صغارًا وكبارًا فحياء من الشيخ استجبت لمقترحه، إلا أنني بعد ذلك قلت في نفسي: «علام هذا التأخير سوف أحفظ غيبًا يوميًّا»، واستمر بي الحال علىٰ هذا النهج، ولقد كنت أدعو الله يوميًا وأنا في السيارة متوجهًا إلىٰ مسجد الشيخ بأن يعينني علىٰ ختم القرآن، فقد كانت أمنية عظيمة بالنسبة لي.

وبعد ثلاث سنوات من الحضور المبكر والتردد علىٰ حلقة الشيخ مَنَّ الله عليَّ بإنجاز ذلك الحلم الكبير بتاريخ: ٠٤/ ٠٦/ ١٤١٧هـ، الموافق: ١٧/ ١٠/ ١٩٩٦م، وقد أولمت في داري للشيخ «الشنقيطي» بهذه المناسبة، ودعوت لفيفًا من أهل القرآن وإمام المسجد وبعض أهل الحي الذي أسكن فيه.

بعد أن عرضت القرآن كاملًا علىٰ شيخي «الشنقيطيّ» أحالني علىٰ أحد الحفاظ لاختباري في الحفظ وإجادة أحكام التجويد، وبحمد الله اجتزت الاختبار، ومنحني الشيخ الإجازة بتاريخ: ٢٣/ ٨/ ١٤١٧هـ، الموافق: ٠٣/ ٠١/ ١٩٩٧م، إلا أنه اشترط علي أن أجلس في المسجد وأُقرئ القرآن، وأعلمه كما تعلمته، فقد كان الشيخ يقول: «زكاة العلم تعليمه»، ويذكرنا بحديث الرسول صلىٰ الله عليه وسلم الذي رواه عثمان -رضي الله عنه-: «خيركم من تعلم القران وعلمه».

فجلست في مسجد الحي في حي النزهة للإقراء، وكانت الحلقة بادئ الأمر صغيرة مقتصرة علىٰ أبناء الحي، ثم توسعت وأصبحت المساجد القريبة من سكني تطلبني لإقراء القرآن.

لم أتوقف عن طلب تعلم القرآن، فقد انتظمت في المركز الخيري لدراسة القرآن وعلومه، وهو مركز خيري، والدراسة فيه أمدها أربع سنوات، يتعلم الدارس فيه العديد من العلوم الشرعية، منها: الفقه، وأصول الفقه، والحديث ومصطلحه، وعلوم القرآن، وفن التجويد إلىٰ غير ذلك من العلوم الشرعية، والحمد لله أكملت الدراسة في المركز بتاريخ: ٠٨/٠٢/١٤١٩هـ، الموافق: ٠٤/٠٦/١٩٩٨م وبتقدير جيد جدًا.

لقد أصبح تعليم القرآن الكريم الشغل الشاغل لي فبعد صلاة الفجر لي حلقة في المسجد القريب من سكني تستمر إلىٰ شروق الشمس يوميًّا، وبعد صلاة العصر لي حلقة في أحد جوامع شمال الرياض، وهو جامع «ابن عثيمين» في حي الواحة، ثم تحولت إلىٰ جامع «ابن جبرين» في حي النزهة، ثم انتقلنا إلىٰ جامع «القاضي» في حي التعاون.

وبعد صلاة المغرب كانت لي حلقة في مسجد «النور» في حي الازدهار؛ ولكن توقفت عنها لعارض صحي أصابني، ولي حلقة بعد صلاة العشاء في جامع «عثمان بن عفان رضي الله عنه» في حي الوادي، وأغلب طلاب حلقاتي من طلاب الجامعات والموظفين.

وقد قرأ علي الكثيرون وأجزت أكثر من خمسة وثلاثين قارئًا، وكثير منهم أصبحوا أئمة مساجد أو مؤذنين أو مسؤولي حلقات تعليم القرآن، وعندما أزورهم في مساجدهم وأصلي خلفهم أشكر الله أن وفقهم لذلك الفضل الكبير، وأشعر

بغبطة كبيرة، وأدعو الله -جلت قدرته- أن يجعل عملي خالصًا لوجهه الكريم، وأن يكتب لي أجر الأوقات التي بذلتها معهم في تعليمهم كتابه العزيز.

لقد أصبح يومي مرتبطًا بالقرآن، واليوم الذي يقل فيه عدد الطلاب بسبب الإجازات أو ما شابه ذلك أشعر بضيق في النّفس وبفقدان شيء كبير، وطلاب الحلقات أعتبرهم أولادي وأدعو لهم في صلاتي، وأتمنىٰ لهم التوفيق في حفظ كتاب الله، وأن يجعلهم لبنات خير في بناء مجتمعهم.

قبيل شهر رمضان من عام ١٤٢٩هـ اتصل بي أخ كريم عقب انتهاء حلقتي بعد صلاة العصر، وعرف نفسه بأنه الأستاذ «عبد الله الدوسري» مدير إذاعة القرآن الكريم، فرحبت به لأني أحب هذه الإذاعة التي طالما ساهمت في نشر الخير من قراءات للقرآن الكريم ودروس وفتاوىٰ، استفاد منها أناس كثيرون في العالم الإسلامي، ثم قال الأستاذ عبد الله الدوسري: «بأنه سمع عني خيرًا والإذاعة في نهجها الجديد تسعىٰ إلىٰ تسجيل قراءات مختلفة وبأصوات القراء».

وقال في معرض حديثه معي عبارة بقيت محفورة في ذاكرتي: «ألا تريد أن يجعل الله لك ذكرًا جاريًا من باب: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡ﴾ [يس:١٢] فهلاَّ تفضلت إلىٰ دار الإذاعة لنسجل لك بعض التلاوات، فشكرته علىٰ حسن ظنه بي، وبالفعل ذهبت إليه بعد أسبوع، واستقبلني الرجل استقبالا حارًا وكأنه يعرفني منذ زمن، وجلست معه، وتحدث لي عن نشاط الإذاعة، ثم توجهت إلىٰ غرفة التسجيل، وكان الشيخان «محمود سكر» و«أحمد الطويل» موجودين خارج غرفة التسجيل، ويقومان بمهمة مراقبة التسجيل من حيث الأداء، فسجلت ثلاثة تلاوات سورة «ق»، وسورتي: «الذاريات» و«الطور»، وسورة «الحديد»، وبدأت الإذاعة من ذلك الحين في بثها بين الحين والآخر.

وانتهىٰ الأمر، ولكن بقيت في ذاكرتي كلمات الأستاذ عبد الله الدوسري: «ألا تريد الأجر الدائم، ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ [يس:١٢]»، وأي أثر أعظم من تسجيل القرآن الكريم. فعقدت العزم علىٰ شحذ الهمة لتسجيل القرآن كاملًا، نعم لقد جاءت الفكرة متأخرة، ولم يعد صوتي رخيمًا كما كنت في مرحلة الشباب، وهأنا اليوم قد تجاوزت الثالثة والخمسين، ولكن أحببت أن أترك أثرًا عسىٰ الله أن يتقبله مني، فعزمت علىٰ البدء في المشروع مع الاهتمام بأحكام التجويد قدر المستطاع، وأن أعطي موضوع الوقف والابتداء حقه كما تلقيته من شيخي «سيد محمد الشنقيطيّ».

أخذ مني هذا المشروع أكثر من سبعة أشهر، وقد تم طبع التلاوة علىٰ أقراص، ولم أفكر في الموضوع تجاريًّا، وكنت أطبع نسخًا من الأقراص بين الحين والآخر وأوزعها هدية علىٰ طلاب الحلقة أو من يطلبها مني، وقد وصلت هذه التسجيلات إلىٰ اليابان وبنغلاديش وكمبوديا وفرنسا مع الطلاب، فأسأل الله عز وجل أن يتقبله مني، ويكتبه في صحيفة أعمالي، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم(١).

❁ ❁ ❁

لَمَّا كنت قد استقررتُ علىٰ اتخاذ الفن والثقافة والكتابة حياةً لي، فقد سألت يومًا محمد عناني عن السبيل إلىٰ إتقان اللغة العربية اتقانًا تامًّا، حيث إنها ستكون الوسيط الذي نستخدمه دومًا سواء في الكتابة أو الترجمة أو في المقارنات الأدبية، وكان جواب عناني قاطعًا: القرآن الكريم.

ووعيتُ هذا النصيحة جيدًا، فقد كنت أعرف مدىٰ تضلعه في اللغة العربية واستشهاده دائمًا بآيات من القرآن الكريم(٢).

---

(١) باسل الراوي، من ذاكرتي (قراءة في أوراق دبلوماسي عراقي) ص٣٠١، ٣١٤.
(٢) ماهر البطوطيّ، الجيل الرائع (وقائع حياة بين الكتب والفن) ص١٢٧.

كنت في المنزل أقرأ القرآن الكريم قراءة متأنية فاحصة متفهمة، بعد أن أكملت قراءته من قبل عدة مرات، كنت أبدأ القراءة في المساء، وأكشف عن معنىٰ أي كلمة لا تكون واضحة في ذهني، وأحفظها وأقرأ أسباب نزول الآية، وكانت عندي في كتاب مستقل، ثم أطالع التفسير العام لفريد وجدي، وشيئًا فشيئًا، شعرت أن كلمات القرآن ومعانيه قد أخذت تتخلل مسامي العقلية والروحية.

وأحسست أن لغة القرآن لا يمكن أن تكون صادرة عن بشر، ما هذا قول البشر!، ودلفتُ مع منظومة تركيبات لغة القرآن المسبوكة علىٰ نحو معجز، منطلقًا من سورة إلىٰ أخرىٰ، وفي كل مرة أفهم شيئًا لم أكن قد أدركته من قبل في القراءة السابقة، ثم عمدت بعض الآيات إلىٰ الأخذ بمجامعي كليةً، وكنت أحيانًا أصحو فأجد نفسي أردد آيات بعينها[1].

❁ ❁ ❁

عندما ختمت القرآن أول مرة سنة ١٩٤٥ اعتُبِر حادثًا مهمًّا في العائلة كلها وفي البدوع نفسها حيث الجيران يعرف كل منهم عن الآخر كل شيء. فقد ظهر الرضا والحبور علىٰ وجه الوالد فأصبح فخورًا بي وكان يقول لي دائمًا لقد سبّلْتُك (أي وقفتك أو حبستك) في سبيل العلم، وكان يعيد عليَّ ما يسمعه عني من الناس كلما لقي أحدًا من الجيران أو في السوق من أنني أحسن الأولاد الذين لصقوا (ثبتوا) في القراءة، بخلاف ابن فلان وابن فلان الذين لا أمل فيهم.

أما الوالدة فلها أسلوبها أيضًا في تشجيعي علىٰ المضي في القراءة. فقد كانت توفر لي الوقت للقراءة إذ تقوم هي بما يجب أن أقوم به أنا من عمل، وكانت دائمًا تروي لي قصة عاشتها بشأني، وهي أنها رأت (القدر) ليلة السابع والعشرين من

---

(١) ماهر البطوطي، الجيل الرائع (وقائع حياة بين الكتب والفن) ص١٥٥.

رمضان(ليلة القدر). وهذه هي روايتها بلغتها البسيطة، فقد رأت في عمق الليل أضواء باهرة تغطي حوشنا وتمتد حيث يمتد البصر، فأسرعت، وهي مندهشة طامعة، لتتضرع إلىٰ الله أن يفتح علي ابنها «بالعلم الشريف» (أي القرآن العظيم). وكانت تقول في دعائها: اللهم لا أسألك شيئًا غير العلم الشريف لأولادي. ثم قرأت سورة الإخلاص، وعادت إلىٰ فراشها بعد انحسار الضوء وعودة الظلام. وقد بقيت الوالدة تعيد عليَّ هذه القصة كلما تقدمت في دراستي حتىٰ بعد ذهابي إلىٰ تونس وغيرها من أجل «العلم الشريف». وبغموض داخلي كنت أصدق حكايات والدتي وأزداد تعلقي بالحفظ والنجاح حتىٰ أصبحت أحس كأن (القدر) فعلًا قد سخرني للدراسة وأن هناك يدًا خفيةً تدفعني للمستقبل[١].

❁ ❁ ❁

أذكر يومًا أني سألت الأستاذ هيكل عن سر رصانة أسلوبه الأدبي، رغم تأثره بالتراكيب اللغوية الإنجليزية في الكتابة، وقلت له: إنه يندر أن يمتلك كاتب مثل هذا الأسلوب الرصين، بغير أن يكون قد تربىٰ في مدرسة القرآن اللغوية، ففاجأني بأنه قد حفظ القرآن في طفولته وصباه، وأن هذه الرصانة لا بد أن تكون من آثاره، ففهمت سر المعادلة ولم أعجب لها![٢]

❁ ❁ ❁

حفظتُ معظم القرآن، وما أزال أصغي كل صباح إلىٰ تلاوات منه، لا سيما التي يؤديها الشيخ محمد رفعت والشيخ مصطفىٰ إسماعيل والشيخ محمد سليمان السعدني، وإذا كان في الدارسين من يجد في أسلوبي بعض تماسك، وفي لغتي

(١) أبو القاسم سعد الله، حياتي ص٥٩، ٦٠.
(٢) عبد الوهاب مطاوع، ساعات من العمر ص١٥٦.

بعض إشراق، فالفضل في ذلك يعود إلىٰ القرآن الكريم[١].

۞ ۞ ۞

الغريب أن دار العلوم كانت تدقق وتشدد في حفظ القرآن أكثر من الأزهر، رامية بذلك إلىٰ أن يستفيد الطلاب من بلاغته العربية العالية، وهذه حقيقة لا شك فيها، ومما يلاحظ أن صاحب الموهبة الأدبية يغذي موهبته بالقرآن أما غير الموهوبين فيتشدقون في غلظة وفقهنة[٢].

۞ ۞ ۞

لقد قرأ «القرآن الكريم في الكُتَّاب و«ختمه»، صحيح أنه كان يقرأ فقط ويحفظ فقط دون علم بمعاني المفردات أو إدراك التركيبات، ولكن الذي لا شك فيه أن «المادة» تبقىٰ علىٰ الزمن تذكرًا واستشهادًا وفهمًا متأخرًا لآيات متقدمة[٣].

۞ ۞ ۞

أنا لست حجة في علم النحو لأني كنت دائمًا أمقت هذا العلم، وقد بنيتُ إدراكي للصرف وللنحو لا علىٰ قواعد سيبويه والكسائي والفراء، وإنما علىٰ القياس والاستشعار لكثرة إدماني قراءة القرآن[٤] والشعر القديم والحديث؛ ولكثرة إدماني قراءة أصحاب الأساليب من القدماء والمحدثين حتىٰ غدا النحو عندي سليقة كما كان الحال عند العرب القدماء الذين لم يدخلوا المدارس[٥].

۞ ۞ ۞

---

(١) سهيل إدريس، ذكريات الحب والأدب ص٤١، ٤٢.
(٢) عباس خضر، مشيناها خطىٰ ص٢١٠.
(٣) د. علي جواد الطاهر، فصول ذاتية من سيرة غير ذاتية ص١٢٥.
(٤) من الكتب اللطيفة في هذا الباب كتاب الأستاذ أحمد العلاونة (أثر القرآن الكريم في لغة النصارىٰ العرب في العصر الحديث).
(٥) لويس عوض، أوراق العمر ص٥٩٤.

إن أفضل أساليب تعليم العربية هو منهج البدء بالقرآن علىٰ نحو الذي كانت تصنعه عندنا خلوات القرآن، وما ذكره ابن خلدون في مقدمة تأريخه في الفصل الذي تكلم فيه عن تعليم الولدان، واختلاف مذاهب أمصار الإسلام وبلادهم في ذلك. والحق أن أوجه الشبه أكثر من أوجه الخلاف. والبدء بالقرآن أصل جامع[1].

(١) عبدالله الطيب، من حقيبة الذكريات ص٢٠٨.

القراءة

منذ أن عرفت كلمة كتاب وأنا أرغب في الانتماء إليه بوصفه وطنًا، إما عن طريق إضافة كتب إليه من جانبي الشخصي، وإما عن طريق العمل علىٰ إشاعة الكتاب الذي يكتبه غيري أي أن أكون مساهمًا في عملية نشر الكتاب(١).

۞ ۞ ۞

ليست القراءة مجرد اطلاع عابر، ولكنها جهد يبذله القارئ في تَفهم المراد، والغوص إلىٰ ما بين السطور من أعماق لا يدركها غير الناقد الحصيف، وأنا قد عرفت من التجربة أن قراءة الكتاب الجيد مرة واحدة لا تكفي، فلا بد من العودة إليه مرة ومرة حتىٰ أستشف كل ما أستطيع امتصاصه من خوافيه، كما عرفت أن القراءة المتصلة دون مهلة مما يضيع معها الكثير، والأفضل أن يقرأ الإنسان فصلًا واحدًا ثم يطوي الكتاب ليخلو إلىٰ نفسه مفكرًا فيما قرأ، محاولًا تلخيص أهم ما حصّله بينه وبين نفسه وإذ ذاك ينعم بجني ما في الكتاب من ثمار علىٰ مهل والتذاذ، وبهذه الطريقة تكون قراءة الكتاب الواحد من الكتب الجيدة، أفضل من قراءة عشرة كتب قراءة طائرة لا تميل إلىٰ التبصر، فإذا عُلِم أن القارئ الجدير بهذا الوصف قارئ وناقد معًا، لأنه أثناء القراءة، يوافق ويخالف، وينكر ويعرف، إذا أعلم ذلك كانت العودة الثانية إلىٰ الكتاب من ألزم الضرورات، هكذا أفعل، وبهذا أنصح!(٢)

۞ ۞ ۞

إن قراءة كتاب تضيف إلىٰ حياتك حياة أخرىٰ (الفكرة قالها العقاد)، الآن أقرأ الكتاب وأنسىٰ بعد حين كل ما فيه، بل لقد أنسىٰ أني قرأته أصلًا؛ لكن لا بأس

---

(١) نجيب المانع، ذكريات عمر أكلته الحروف ص١٩٩.

(٢) د. محمد رجب البيومي، ظلال من حياتي ص١٨٤.

فأنا أزيد المعلومات التي في رأسي ترتيبًا، ثم إن متعة المطالعة لا تساويها متعة في الدنيا، ففي هذا وحده مقنع ومغنم[1].

---

(١) عارف حجاوي، حياتي في الإعلام ص٧١.

شغف القراءة

أنا اليوم وأنا بالأمس، كما كنت في الصغر، أمضي يومي أكثره في الدار أقرأ، وربما مر عليّ يوم أقرأ فيه ثلاثمئة صفحة، ومعدل قراءتي مئة صفحة، من سنة ١٣٤٠ إلىٰ هذه السنة ١٤٠٢هـ. اثنتان وستون سنة، احسبوا كم يومًا فيها واضربوها بمئة تعرفوا كم صفحة قرأت[1].

۞ ۞ ۞

كان حديثنا إذ نجتمعُ في الأدب والكتب، وكانت رسائلنا التي نتبادلها في الصَّيف حين نتفرَّق لا تدور إلا علىٰ ما نقرأ، وكان أحدنا يلقىٰ صاحبه في الطريق اتفاقًا فيقول له: لقد عثرتُ علىٰ كتاب نفيس بغلافٍ، فتعالَ نقرأه، لا يدعوه إلىٰ طعام أو شراب أو سينما أو لهو، بل إلىٰ قراءة كتاب، وكان كلُّ من يقع علىٰ كتاب قيِّم يخفُّ به إلىٰ صاحبه فينبئه به ويلخِّصه له ويحضُّه علىٰ اقتنائه. وكان أساتذتنا في مدرسة المعلِّمين يحثُّوننا علىٰ التحصيل وييسِّرون لنا أسبابه ما وسعهم ذلك، فلما تركنا المدرسة وفرغنا من الطلب «الرسمي» كنَّا قد عرفنا أمَّهات الكتب في الأدبين العربي والإنجليزي وغيرهما أيضًا من الآداب، ودَرَسنا أكثر شعراء العرب والغرب، وكان لكلٍّ منَّا مكتبته الخاصَّة المُتَخيَّرة.

وتزوَّجتُ، وفي صباح ليلة الجَلْوة دخلتُ مكتبتي ورددتُ الباب، وأدرتُ عيني في رفوف الكتب، فراقني منها ديوان «شيلِّي»، فتناولته وانحططت علىٰ كرسيٍّ وشرعتُ أقرأ، ونسيتُ الزوجة التي ما مضىٰ عليها في بيتي إلا سواد ليلة واحدة،

---

(١) علي الطنطاوي، الذكريات (١/ ٢١١).

وكانوا يبحثون عنِّي في حيث يظنُّون أن يجدوني، في الحمَّام وفي غرفة الاستقبال وفي المَنْظَرة، حتىٰ تحت السَّرير بحثوا، ولم يخطر لهم قطُّ أني في المكتبة؛ لأني «عريسٌ» جديدٌ لا يُعْقَل في رأيهم أن يهجر عروسَه هذا الهجر القبيح الفاضح.

وكانت أمي في المخزن تُعِدُّ ما لا أدري لهذا الصَّباح السَّعيد، فأنبأوها أني اختفيتُ كأنما انشقَّت الأرض فابتلعتني، وأنهم بحثوا ونقَّبوا في كلِّ مكانٍ فلم يعثروا لي علىٰ أثر، فما العمل؟، فضحكت أمي، وقالت: ليس في كلِّ مكان! اذهبوا إلىٰ المكتبة فإنه لا شكَّ فيها، فقالت حماتي وضرَبت علىٰ صدرها بكفِّها: في المكتبة؟! يا نهار أسود! هل هذا وقتُ كتب وكلام فارغ؟!، ثم قالت أمي بجزع: اسمعي، كلُّ ساعة من ساعات الليل والنهار وقتُ كتب، افهمي هذا وأريحي نفسك؛ فإن كلَّ محاولةٍ لصرفه عن الكتب عبث[1].

❁ ❁ ❁

منذ أول قصيدة حتىٰ العام ١٩٢٠، مررت بفترة يحق لي أن اسمها بميسم التطور والتبدل في أسلوب الحرف عندي، كان أهم انشغالاتي في الكتب والدواوين ونسخ ما صغر منها وإرجاعها إلىٰ مكتبة (الشيخ آل كاشف الغطاء) والد الشيخ (محمد حسين) العلامة المشهور، وكنت أسميه «جدي»، فجدتي (صيته) أم والدي، هي بنت عمه، كنت في هذه الفترة أقرب بكثير إلىٰ الهوس مني إلىٰ الهواية، فهي فترة انطلاقة في تناول هذا الكتاب وهذا المؤلف وهذه الدراسة أو المخطوطة وهذا المطبوع وغيره، وقد ترك ذلك تأثيره علىٰ تقويم الحرف العربي عندي.

كنت اقرأ بسرعة ونهم كي استطيع إرجاع الكتاب طبقًا لقانون الشيخ الكبير، فقد كان متشددًا كل التشدد في إعارة الكتب وفي سرعة إرجاعها وفي عدم جواز

---

(١) إبراهيم المازني، العمر الذاهب ص٦٥، ٦٦.

الكتابة أو التهميش عليها. ولازمني هوس القراءة هذا طيلة حياتي وإلىٰ ما قبل عامين، يوم فوجئت بفقدان القدرة علىٰ القراءة وحِرْمَاني منها ومن المتعة الأولىٰ في الحياة أن لم أقل الوحيدة عندي ولا أتذكر أني تركت ديوانًا واحدًا مما يقع تحت أيدي الناس لم أقرأه، ولم أحفظ منه ولم أنسخ عنه.

لقد كان ذلك هوسًا أتمنىٰ، عبثًا، أن أعود إليه اليوم وأنا في العقد التاسع من عمري. كنت أتناهب هذه الدواوين وإلىٰ جانبها فكل ما يتعلق بها من حياة هؤلاء الشعراء وتواريخهم والنسخ النادرة منها: دمية القصر للباخرزيّ علىٰ سبيل المثال، موجز دمية القصر وبقلم مؤلفه أيضًا، والأيك والغصون لأبي العلاء المعري، هذا إلىٰ جانب كل ما طُبِعَ من ذلك ونزل إلىٰ الأسواق ومن أمثالها مما لم يطبع حتىٰ الآن.

لقد كنت في حرصي وأمانتي علىٰ ما استودعني إياه «جدي» هذا، من الكتب، أقضي النهار كله وأشطارًا من الليالي بعد ذلك وعلىٰ الأسرجة التي كانت تنار ببقايا الشموع تارة وبالزيت تارة أخرىٰ وتطال أو تقصر فتائلها بين الحين والآخر[1].

---

(١) محمد مهدي الجواهري، ذكرياتي (١ / ٨٩، ٩١).

المكتبة

لم تكن مكتبتي رفوفًا من خشب الزان رُصِفَت عليها المجلدات الثمينة خلف زجاج يقيها من الغبار، فحسب، إنما كانت نعيمًا أنزلق إليه راغبًا ومتلهفًا وباحثًا. وكلَّما خطوت فيها خطوة رغبت في خطوة أخرىٰ، فلا سبيل لانتشالي من نعيم عجيب تآلفتُ معه، ورغبتُ فيه، وما عثرتُ علىٰ نفسي في أي مكان في العالم، كما أرغب أن تكون، إلا في المكتبة، وطوال أربعة عقود رفدتها بأنْفَس ما اقتنيت، فكانت حقائب الكتب ترسل إليها حيثما أكون، فيزدهر خيالي بها، وهي تستوطن المكتبة، وتأخذ لها مكانًا في رفوفها، مُقِيمة بأُلْفَةٍ إلىٰ جوار الآثار الخالدة التي حجَزَت لها مكانًا في التاريخ[1].

❁ ❁ ❁

كان الكتاب زينة البيت وثروته الأساسية وملء الخزائن والرفوف، كان أثاث المنزل بسيطًا وقليلًا إلا من الكتب الكثيرة العدد والغالية الثمن، وقد اعتدنا أن يكون لكل فرد في الأسرة مكتبته الخاصة به، من الوالد إلىٰ أصغر الأبناء، وأذكر أن مكتبة الوالد كانت تحفل بالموسوعات والمعاجم، وكانت مكتبات يوسف وفايز وتوفيق هي الأكثر كتبًا[2].

---

(١) عبد الله إبراهيم، أمواج، ص٣٨.

(٢) استطاع الوالدان أن يكوِّنا أسرة من حوالي ثلاثين فردًا (الأبناء والأحفاد والأصهار دون ذكر أبناء الأحفاد) يحمل أكثر من ثمانين في المئة منهم شهادات عليا، وإن لعشرة منهم أكثر من مئة كتاب منشور ومعظمها مشهور! وقد ترأس ثلاثة منهم تحرير أكثر من عشر صحف (يومية أو شهرية) في مدىٰ خمسين سنة. أنيس صايغ عن أنيس صايغ ص٥٠.

كانت مكتبتي تضم آلاف الأعداد المجلات الفلسطينية واللبنانية والمصرية، وكنت أحرص علىٰ شرائها وأحرص علىٰ مطالعتها، وأعترف أن شطرًا كبيرًا من المعلومات التي كانت تتوافر لي وأنا بَعْد في سن مبكرة إنما أدين به إلىٰ مطالعة هذه المجلات، السياسية والثقافية، ومعظمها مصور، والواقع أني كنت «أقرأ» المجلات قبل أن أتعلم القراءة، كنت أحفظ الصور عن ظهر قلب، صور الشخصيات والأماكن والمعارك وأعلام الدول وشعارات الأحزاب والمؤسسات.

احتوت غرفة المكتبة الرئيسية علىٰ ثلاث أو أربع طاولات للمطالعة والكتابة، وكانت إحداها خاصة بالوالد، ولا يسمح لأي منا أن يستعملها ولا أن يقترب منها حين يكون جالسًا للمطالعة أو الكتابة، وكنا لا نتكلم في الغرفة إلا بصوت خافت، أتذكر أن جدران البيت كله تقريبًا، بغرفه وممراته، وجدران قاعة المكتبة خصوصًا، كانت مغطاة برفوف الكتب وخزائنها؛ لذلك لم يكن يظهر للعيان من الجدران إلا القليل فقط، حتىٰ إني لا أذكر لونها.

أثر المكتبة فيَّ، منظرًا وكثافة وتنظيمًا، يتجاوز ما طالعت من محتوياتها وما استمديت من معارفها ومعلوماتها، لقد أوْجَدَت حالًا ثقافيًّا يتعدىٰ حب المطالعة وممارسة الكتابة والتأليف إلىٰ خَلْق إيمان بأهمية الكلمة وحرية الرأي وضرورة الحوار والنقاش.

ومنذ حوالي سبعين عامًا والكتاب هو الأكثر أهمية وجمالًا من أي شيء في العالم، وهو الرفيق الأمين في كل مراحل حياتي، وهو الذي أُقْبِل عليه بنهم ولا يضاهيه أمر في الدنيا، حتىٰ بعد أن فقدت معظم النظر ولم أعد أقوىٰ علىٰ القراءة وأصبحت أعتمد علىٰ عَيْنَي زوجتي لتقرأ لي يظل الكتاب رفيقي الأول الدائم.

أقول وأكرر أن المكتبة وُلّدت فيَّ، في وجداني وفي حياتي العَملِّية، حبًا دائمًا ثلاثيًّا للكتاب وتداعياته: حب المطالعة وحب التأليف وحب اقتناء الكتاب والحرص عليه في مكتبة خاصة، وأستطرد فأقول: إن أكثر ما يؤسفني ويؤلمني أن أجد أصحاب شهادات ومتعلمين كثيرين من العرب ممن لا يوجد للكتاب مكان في اهتماماتهم وبين أولوياتهم، لا في المطالعة ولا في الاقتناء، وإن كنت لا أتوقع من كل إنسان أن يكون كاتبًا بالضرورة فأنا أستغرب وأستنكر ألا يكون المتعلم معنيًّا بالكتاب طيلة حياته، قراءة واقتناء، وأنا أستعمل هنا كلمة المتعلم لا المثقف لأن المثقف الذي لا يطالع ولا يهتم باقتناء الكتب ليس مثقفًا أساسًا، وأكثر ما يستفزني بين المتعلمين غير المكترثين بالكتاب أولئك الذين يغطون «أميَّتهم» الكتابية بشراء مجموعة دائرة معارف ما، كالبريطانية أو الأميركية أو لاروس، ويضعونها في الصالون كجزء من الديكور والأثاث الغالي الثمن، أولئك لا يستحقون لقب الثقافة بالرغم من شهادات يعلقونها علىٰ جدران المنزل إلىٰ جانب صورهم بالروب والقبعة الجامعيتين[1].



أعتقد أن أهم ما تركته المحلة الكبرىٰ في تكويني الوجداني هو المعرفة التي اكتسبتها من مكتباتها وباعة الكتب فيها، فقد عرفت فيها ما كان زادًا لشهوة المعرفة التي لم ينطفئ أوارها بعد في نفسي، وذلك إلىٰ الدرجة التي يمكن أن أقيس سني عمري فيها بعدد المكتبات التي عرفتها والتي ما أزال أعرفها والتي أحلم بمعرفتها، لقد علمتني هذه المكتبات، وما تزال، محبة «الكتاب» الذي جعلني ما وصفه به الجاحظ أقرأ جميع ما وصل إلىٰ يدي من كتب هذا الكاتب العظيم الذي علَّم الآتين بعده الجمع بين الهزل والجد، والمنفعة والمتعة، المدىٰ اللانهائي للفن والعقل.

---

(١) أنيس صايغ عن أنيس صايغ ص٤٣، ٤٦.

كان الجاحظ عاشقًا عظيمًا للمعرفة، يدرك من يغوص في قارات المعرفة التي قادنا إليها أنه كان عاشقا عظيما للمعرفة، ومحبًا عظيمًا للكتب التي كانت تقوده إلىٰ الحياة، وتعود به منها إلىٰ المكتبة التي تعلمتُ محبتها من مكتبات المحلة التي قادتني إلىٰ محبة غيره وآلاف من أمثاله[1].

كانت مكتبة المدرسة بمنزلة المسجد لي، أهرع إليها كلما وجدت فسحة من الدروس، وأذهب إليها في الإجازات، حين كان أمين المكتبة الشاب يفتحها لنا في أيام الإجازات، وألتقي ورفاق الكتاب في المكتبة، نتبادل الآراء في قيمة الكتب ونثرثر حول الأسماء التي قرأنا لبعضها والأسماء التي لم نقرأ لها، وخصصنا ركنًا في قاعة المكتبة نلتقي فيه، خصوصًا جماعة أصدقاء المكتبة التي ظلت الأقرب إلىٰ نفسي.

عقدنا ندوات في المكتبة، حول موضوعات أعجب من سذاجتها عندما أذكرها، لكننا مع ذلك خصصنا جلسات لمناقشة الكتب الصعبة التي كان يختارها لنا سعد السياجي، وكنا نجتهد في قراءة هذه الكتب لكي يظهر كل منا لأقرانه أنه فهم أكثر منهم، عندما نجتمع في المكتبة لمناقشة هذه الكتب، وأذكر أنني كنت أسهر الليل بطوله لأفتش في الصفحات عن مواطن صعبة، معلومات غير معروفة، أسماء مجهولة، أستخدمها لإحراج زميلي المكلف بقراءة الكتاب وعرضه علينا، ولم أكن وحدي الذي يفعل ذلك، كان زملائي جميعا يفعلون مثلي في الأغلب الأعم.

كانت مكتبة المدرسة بحق المعلّم الذي تعلمت منه أكثر من أي معلم في حياتي، ولحسن الحظ كانت الكتب المختارة ممتازة، وكنا نجد كل ما نريد في أي مجال، وكانت أعداد الطلاب صغيرة تسمح بالقراءة، وكان أمناء المكتبة الذين

(١) جابر عصفور، زمن جميل مضىٰ ص٦٤، ٦٥.

عرفتهم في السنوات اللاحقة -لحسن حظي - لا يقلّون لطفًا وميلا للمساعدة عن أمين أول مكتبة مدرسة عرفتها وما زلت أحمل لها ذكريات طيبة إلىٰ اليوم، فقد كانت نعم المكتبة في المدرسة الثانوية التي لم أحب فيها شيئًا مثل قاعة المكتبة[1].



كانت للمكتبة قصة، وهي أن والدتي زُفَّت إلىٰ والدي في أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين، حاملة معها مكتبة قوامها: إحياء علوم الدين للإمام الغزالي (في مكتبتي)، ودعوة الرسل، وجواهر الأدب، والسعادة الزوجية لمؤلفها عبد الله باشا فكري، ورياض الصالحين. بالله كيف تكون أُمٌّ جاءت بهذا الرصيد معها؟ من هنا جاءت قيمة المكتبة عندي.

وكتاب (جواهر الأدب)، الذي اهترأ من كثرة الرجوع إليه، والاقتباس منه بشدة، ما زال قابعًا يشكو التمزق في مكتبتي، وقد كان المرجع المهم لي ولإخوتي في الإنشاء، حيث كنا نقتبس أو نزيد علىٰ الاقتباس منه (أي: نختلس، مثلما يفعل الباحثون وأعضاء هيئة التدريس بالجامعات هذه الأيام الذين يختلون ما يقدمونه للترقي)؛ تطعيمًا لموضوعات الإنشاء. وسأحتفظ به حتىٰ ألقىٰ الله[2].

(١) جابر عصفور، زمن جميل مضىٰ ص٨٨، ٩٠.
(٢) كمال الدين البتانوني، حكاية مكتبة ص٣٨، ٣٩.

بداياتهم مع القراءة

ما أجمل الكتب التي قرأتها بين سنيّ العاشرة والعشرين، كانت هذه هي السنوات العشر التالية للحرب العالمية (١٩٤٥-١٩٥٥)، وعندما أسترجع في ذهني ما كنت أقرأه في تلك الفترة لا تدهشني كميته بقدر ما تدهشني جودته، وأتساءل بأسف: كم هو صعب في أيامنا الحالية أن يصادف صبي في مثل هذه السن، لا في مصر وحدها بل وفي غيرها أيضًا، هذه الفرصة الرائعة التي أتيحت لي منذ خمسين عامًا.

كان الفضل الأكبر في هذا يعود بلا شك إلىٰ طبيعة البيت الذي نشأت فيه، كان أبي يتلقىٰ سيلًا لا ينقطع من الكتب المهداة إليه من مختلف الأنواع، وكان بعضها من قصص الأطفال التي كتبها بعض أصدقائه أو تلاميذه، فكان يلقي إلينا بهذه الكتب لنقرأ منها ما نشاء دون أي توجيه منه أو متابعة لما نقرأ. هكذا قرأت في سنواتي الأولىٰ كتب كامل كيلاني ذات الطباعة الأنيقة والصور الملوّنة، وما كان يؤلفه أو يترجمه أحمد عطية الإبراشي وجودة السحّار، فما تزال منطبعة في ذهني حتىٰ الآن صورة الحصان المسحور ذي الجناحين التي كانت مرسومة علىٰ غلاف قصة مفضلة لي، والتي لا بد أنّي كنت أطيل النظر إليها لشدة التصاقها بذاكرتي، وقصة العرندس الذي ابتلع سمكة فاستقرت في حلقه. لعلني قرأت كل قصص كامل كيلاني الذي يدين له جيل بأكمله من المصريين بإجادة العربية، وبخيال أكثر اتساعًا، وبطفولة أكثر سعادة وأقل بؤسًا.

كذلك فتنت لفترة قصيرة في تلك الأيام بأسلوب طه حسين، ولكن لم تمض سنوات كثيرة قبل أن أجده مملًا ومصطنعًا، كنت في تلك السن أصغر من أن أقدر

كتب العقاد حق قدرها أو مقالات وكتب النقد الأدبي للويس عوض أو مندور أو أنور المعداوي، فكان أسلوب العقاد سرعان ما يصيبني بالإعياء فيما عدا قصة سارة التي أحببتها، ولم يلفت نظري أحد في ذلك الوقت إلىٰ سلامة موسىٰ الذي كان يكتب علىٰ أي حال في موضوعات لم تكن تثير اهتمامًا لديّ في تلك السن[1].

❁ ❁ ❁

منذ طفولتي أحب القراءة. ولعت بالقصص في روضة الأطفال عند مس باين في يافا، ثم في مدرسة الفرندز علىٰ يد الأستاذ فرج وكان من غزة، وفي المدرسة الاستعدادية في بيروت أصبحت قراءة الكتب واقتناؤها هوايتي الكبرىٰ.

كنت كل يوم اثنين، في صف أستاذ اللغة العربية موسىٰ سليمان، أقدم بمبادرة مني مراجعة لكتاب قرأته في عطلة الأسبوع، كنت أكتب المراجعة في دفتر خاص، أتناول فيها محتوىٰ الكتاب وأقيِّمه وأنقده، أحيانًا كان موسىٰ سليمان يقرأ ما كتبته ويثني علي، بعد سنوات قليلة أصبح لدي مجموعة من الكتب تُشكِّل مكتبة صغيرة حفظت قسمًا منها في يافا والقسم الآخر أبقيته في عكا، وكانت أعزّ ما أملك[2].

❁ ❁ ❁

كانت الكتب جدران قبري العميق ولا ريب، قد تستهويني قراءتها من جديد: «الزنبقة السوداء»، «غادة الكاميليا»، «الأرض الطيبة»، و«البؤساء» الذين هربت معهم إلىٰ دهاليز ومجاري باريس بنكران ذات تعلمته منهم، و«روايات الهلال» ومجلة «المختار».

---

(١) جلال أمين، ماذا علمتني الحياة ص٧٧، ٧٩.

(٢) هشام شرابي، صور الماضي ص٢٤.

بين كتاب وآخر كنت أعبث مع «أجاثا كريستي» في اكتشاف المجرم المختبئ بشخصية الخادم أو طبيب العائلة أو زوج الأم، قبل أن تكتشفه الشرطة، ألهث وراءه مسلوب العقل والشهية، كنت أحبط لعبتها، أغشها، وأقرأ نهاية القصة أولًا، أخذت بهذا التحايل على نفسي، أقرأ بروية وأستمتع بصياغات لعبتها ولغتها اليقينية السلسة، ألعب بأبطالها وكأنهم بيادق، أستبدل البريء بالمجرم حتى تثبت براءته، كنت مأخوذًا بالمسعى لا بالنتائج، في سيرورة الكتابة لا بخاتمتها[1].

❁ ❁ ❁

قرأنا المنفلوطي وبكينا معه في (العبرات) أذكر أن هذا الرجل المعمم، كان قد سيطر على مجسات عواطفنا وصار فيما بعد سيدنا، فقد فرضناه على مشاعرنا بإرادتنا، ولم نكن يومها نعرف الفرق بين التأليف والترجمة، ذلك أن رواية (الشاعر) التي أَخَذَت معها نصف آهاتنا ونصف مراهقتنا جاءت وتسربت إلى بيوتنا تحت اسم (مصطفى لطفي المنفلوطيّ) ولم نسأل عن المؤلف الحقيقي.

وبالنسبة لنا كان المنفلوطي هو المبدع، ومن العيب أن نقول إنَّ (المنفلوطيّ) كان مجرد مترجم في هذا العمل الذي هزَّ أجسادنا وضمائرنا وأبكانا بين سطرٍ وآخر كأننا نبكي أقرب الناس إلينا[2].

❁ ❁ ❁

كنت كثير المطالعة في كتب الأدب الحديث والقديم، دون انتقاء ولا خطة. وليس عندي طريقة خاصة لفهم النص ومعرفة الأساسي منه. كنت أطالع وكفى، فإذا تعبت عيناي من الضوء الخافت أو أصابني صداع في رأسي وضعت الكتاب

---

(١) يحيى الشيخ، سيرة الرماد ص٥٧، ٥٨.

(٢) عبد الستار ناصر، حياتي في قصصي ص١١٧.

جانبًا وانشغلت بشيء آخر أو نمت إذا كان الليل قد تقدم. طالعت كتب علي الجارم وأحمد الزيات وأحمد أمين وروايات جورجي زيدان ومؤلفات مارون عبود ولويس شيخو وجبران خليل جبران وميخائيل نعيمه ودواوين أبي ماضي، وتأثرت كثيرًا بكتب مصطفىٰ صادق الرافعي رغم صعوبتها بالنسبة لسني فقد طالعتها جميعًا عدة مرات عدا كتابه تاريخ آداب اللغة العربية وديوانه. وقرأت في الدواوين القديمة كالمتنبي وابن الرومي وابن أبي ربيعة.. وحفظت أجزاء من المعلقات وبعض عيون الشعر العربي، ومن الشعراء الحديثين قرأت للشابي، وأحمد زكي أبي شادي، والرصافي وشوقي وحافظ إبراهيم ومحمد العيد ومصطفىٰ خريف. أما أدب المهجر فقد جذبني كثيرًا لما فيه من تجديد وحداثة وملامسة الواقع ولو كان في صيغ رومانتيكية. فحفظت جزءًا من الطلاسم والجداول لإيليا أبي ماضي ولم أترك كتابًا من كتب جبران إلا قرأته، وهي كتب صغيرة الحجم. وكان شعر علي محمود طه محببًا إلىٰ نفسي، ربما لجمعه بين العاطفة والوطنية. وفي النقد الأدبي تأثرت بدراسة العقاد لشعر ابن الرومي، كما تأثرت بالمدرسة النفسية في الأدب التي ظهرت عندئذ، ومنها مؤلفات مصطفىٰ سويف.

وكان أدب الإبراهيمي يجد صدىٰ قويًا في نفسي رغم صعوبته. فمقالته المؤثرة عن إضراب الطلبة الزيتونيين كدت أحفظها كلها وعنوانها (إضراب أم إطراب). وكانت مقالاته القصيرة التي اختار لها عنوانًا قديمًا جديدًا وهو (سجع الكهان) قد أثرت فيَّ أيضًا لأنه تناول فيها مواضيع حية وواقعية ولكنه عالجها بأسلوب قديم[1].

❁ ❁ ❁

إبَّان السنة الثانية في مدرسة فارسكو الابتدائية انبعثت في نفسي نزعة حادة إلىٰ الأدب بل وإلىٰ التأليف! فأرسلت إلىٰ شقيقي الأكبر الذي كان طالبًا في السنة النهائية

---

(١) أبو القاسم سعد الله، حياتي ص١٤٨، ١٤٩.

بالمدرسة الشعبية الثانوية في القاهرة (الجيزة) كي يوافيني بكتاب «ماجدولين» للمنفلوطي؛ لأنِّي كنت معجبًا بأسلوبه. فوافاني به ورحت ألتهمه التهامًا، وأستظهر الكثير من صفحاته ذات النفحة الشعرية، واستعدت قراءته عدة مرات خلال ذلك العام (سنة ١٩٢٧) وأنا في سن العاشرة. وكان له تأثير بالغ في أسلوبي وفي مشاعري. وظلَّ هذا التأثير مدىٰ طويلًا، حتي بعد أن عرفت أساليب أخرىٰ واطلعت علىٰ روائع الأدب العالمي. ولا أزال أحنَّ، حتي اليوم، إلىٰ معاودة قراءة هذا الكتاب. ولم تنقص قراءتي لأصله الفرنسي من إعجابي بتلخيص المنفلوطي هذا لرواية «تحت الزيزفون» (سنة ١٨٣٢) تأليف ألفونس كار (١٨٠٨-١٨٩٠). صحيح أن الفارق كبير بين الأصل والتلخيص، وإن العديد من الصفحات الموجودة في تلخيص المنفلوطي لا مناظر لها في الأصل الفرنسي، والعكس بالعكس. ولكن المنفلوطي بنزعته الرومنتيكية المثالية لم يشأ أن يبقىٰ علىٰ ما في الأصل الفرنسي من أعمال شائنة منسوبة إلىٰ بطل الرواية: استيفن حتىٰ تظل صورته مثالية رفيعة، زاهية الألوان جامعة لأجمل الشمائل. إنَّ المنفلوطي لم يكن يترجم -وما كان له أن يفعل ذلك، لأنَّه لم يكن يعرف أية لغة أجنبية- وإنَّما كان يشارك المؤلف الأجنبي- الذي يُلخِّص له كتابه، في التأليف والصياغة. إنَّ لأسلوب المنفلوطي سحرًا لا يعرفه إلَّا الشباب المرهف الحساسة.

وكنت أقرأ مقالات لمحمد حسين هيكل، وطه حسين، وعباس العقاد، وعبدالقادر المازني. لكن ومنذ اللحظة الأول انصب معظم إعجابي علىٰ طه حسين، ثم محمد حسين هيكل. أمَّا العقاد فلم يثر في نفسي أي إعجاب، وقد لازمني هذا الشعور نحوه طوال حياتي. لقد كنت بعد قراءة فصل أو كتاب لطه حسين أشعر بحرارة تسري في مشاعري، وحماسة للخلق الفنِّي المبكر تزداد كل يوم أوارًا، وتعاطف وجداني وفكري يخيل إليَّ أن طريقه هو طريقي المقبل. أما العقاد فلم

أكن أشعر بعد قراءته إلَّا بالبرود والسأم. ومهما غالبت نفسي علىٰ قراءة مقالاته، فإنَّ شعوري بالنفور كان يزداد تمكُّنًا من نفسي. كان أسلوب طه حسين كالنهر المنساب في ايقاع عذب رقيق؛ بينما كان أسلوب العقاد كالسيل المتشنج في انحداره من جبل أجرد[1].



جريت منذ نشأت علىٰ قاعدة مطردة لم أتخلف عنها قيد شبر، وهي أن أقرأ أكثر مما أكتب، وقلّما دوّنت موضوعًا لم أدرسه في الجملة ولم تتشربه نفسي[2].

(١) عبدالرحمن بدوي، سيرة حياتي (ص٢٧ - ٢٩).
(٢) محمد كرد علي ـ خطط الشام (٦ / ٤١٣).

عادات القراءة

أمَّا في غير أوقات التأليف فإني أصارح القارئ -وقد يكون هذا عيبًا- أني لا أتبع طريقة منظمة في القراءة، بل قد أجد كتابًا في يد صديق ولم أفكر في موضوعه من قبل، فأستعيره إذا راقني محتواه، وأبدأ في قراءته، وقد عاهدتُ نفسي أن أسارع إلىٰ قراءة كل كتاب أستعيره، وأن أعدُّه ضيفًا يجب تكريمه الحافز، بقراءته دون إبطاء، وكذلك ما أشتريه من الكتب التي أضمّها إلىٰ مكتبتي فقد يغريني كتاب ما بشرائه، فإذا ملكتُه فسحتُ له مكانًا في المكتبة، وقد يظل أمدًا طويلًا دون قراءة، بل قد يُهمَل فلا يُقرأ، لأني أعتقد أنه طوع يدي في أي وقت! وإذا شاقني كتاب جيد مما استعرته فإني أسارع باقتنائه الفوري، وأضع من الملاحظات في هوامشه ما يدفعني إلىٰ استعادة قراءته وقد يكون الكتاب موضع نقد لي أنشره في بعض المجلات، تعبيرًا عن أفكار راودتني أثناء القراءة فأكثرت من هذه النقدات حتىٰ لو جمعت ما كتبت عن المؤلفات الحديثة لبلغ عدة أجزاء، وأذكر أن مجلة المنهل التي تصدر في جدة رأت أن أحرر علىٰ صفحاتها بابًا تحت عنوان (رحلة في المكتبة) بعد أن أرسلتُ إليها عدة نقود حازت القبول فنُشرَت سريعًا، واطمأننتُ إلىٰ أن أحرر الباب بصفة دائمة قدر المستطاع[1].

۞ ۞ ۞

أقرأ في ساعات الصبح الأولىٰ، غالبًا قبل طلوع الشمس، وخلال ساعات النهار كلما وجدتُ وقتًا لذلك، فهي أفضل بكثير من سماع الأحاديث المكررة التي تلوكها الألسن باستمرار.

---

(١) د. محمد رجب البيوميّ، ظلال من حياتي ص١٧٦.

القراءة بالنسبة لي هي ألذ عمل أقوم به خلال ساعات النهار، هي أجمل وأمتع من ممارسة الطب وحتىٰ الكتابة. فالكتابة نزيف موجع، مع أنني بدأت ممارستها في عمر مبكر، لكن القراءة تنسيني أنني أشيخ وتجعلني أحلق مع الأفكار والتجارب الإنسانية. أُفَضِّل أن أقضي بقية سنوات عمري في القراءة بدلًا من تحمل مسؤولية تخفيف الوجع لدىٰ الآخرين، فوجعي أشد إيلامًا من أوجاع الآخرين؛ عذاب الآخرين وقنوطهم هو الذي يستوطنني منذ أن أمسكتُ بالقلم وأنا في العشرين من عمري، أقرأ في البيت وفي عيادتي الخاصة وفي المستشفىٰ وفي الفندق الذي أقيم فيه خلال أسفاري[1].

---

(١) علي صالح، العوالم الثلاثة ص٣١.

آفات القراءة

مرّت عليّ عقود أواصل فيها الجلوس علىٰ الأرض -أو الجلوس علىٰ الكرسي- الساعات الطوال، فأما حقوق الأهل والولد المعنوية والتربوية فأكاد أضيعها، وأما الحقوق المادية فقد وكلتها لغيري من سائق وشبهه، ولا أباشر الشراء إلا في الكتب، ثم كان أخيرًا شرائي بالمراسلة والمهاتفة وإن كانت المكتبة داخل الرياض، وحِفت علىٰ حقي في النوم والراحة، والتمتع بلثغة الطفل ولكنته، حتىٰ الأكل أقوم إلىٰ الوجبة فآكل بسرعة وأقوم بسرعة، ولا أشعر بمتعة الطعم أو أنني أجدت المضغ.

وبَكّرَت عليّ الشيخوخة وشكوت أعراضها من الروماتيزم في الظهر والمفاصل التي يسمونها أرياحًا، ومن عسر الهضم وكثرة الأملاح لانعدام المشي، وكثرة الزكام «الانفلونزا»، وحساسية الجيوب الأنفية بسبب غبار الكتب وعدم الاستمتاع بنعيم الهواء الطلق في البكور والأصيل.

وولَّد عليَّ كل ذلك نزقًا وسرعة غضب لأدنىٰ شيء وكنت فيما سلف أحسد نفسي لرحابة صدري وسبب هذا النزق أنني ألغيت من حياتي أي برنامج للنزهة والاستجمام إلا دقائق في اليوم والليلة وإلا يومًا في الأسبوع.

بل ما فضل من طلب العلم فلطلب الرزق، بل كنت أعمل لطلب الرزق بعد ظهر الجمعة وهو عيد المسلمين. وكنت أنام إذا عجزت عن مقاومة النوم وأكثر ما يكون ذلك عند حرارة الشمس صبحًا وأحيانًا أواصل إلىٰ الظهر، وأصحو من النوم دون أن أكتفي.

وما كنت أيام عقود الغفوة أحس بطعم العبادة والمناجاة والتلاوة والعمل، بل حَسَّن لي إبليس بوساوسه هذه الغفلة وأقنعني بأن عملي جهاد، وأن خلوة طالب العلم في طلب العلم كخلوة العابد في عبادته فسولت لي نفسي أنني في عبادة، وثقلت علي صلاة الجماعة فكانت صلاتي في المسجد لمامًا مع أنها شرط عندنا معشر الظاهريين، لأن أمر الله بالركوع مع الراكعين يقتضي معيتي زمان ومكان فكانت تنشب أشغالي قبيل صلاة الجماعة وبعيدها.

وما كان عكوفي في البيت للعلم الشرعي خالصًا، وإنما كان العلم الشرعي أكثر حرفتي وإن كنت أتعنىٰ لمعارف بشرية أخرىٰ من لغة وأدب (وما أحبهما إلىٰ نفسي!) وفلسفة وتاريخ.

وكانت تأخذني لمة الرحمن كثيرًا وتلجئني إلىٰ الله وحزبه وترق نفسي شهورًا، وأهم بمحاسبة نفسي قبيل النوم كل ليلة كما نصح بذلك ابن قيم الجوزية في كتاب الروح، ولكنني أنسىٰ ولا أنفذ.

وأراد الله بي خيرًا وقد علم صدق نيتي وله الفضل كثيرًا، ولولا الله ما اهتدينا فرأيت أن استهلاك الوقت في هذه الغفلة العلمية من وساوس إبليس التي ذكرها ابن الجوزي في تلبيس إبليس.

ورأيت العلماء علىٰ الحقيقة وهم من عبر عنهم ابن حزم في الفصل بأصحاب شاهد الحال كالإمام أحمد بن حنبل يعملون بقدر ما يعلمون، وأن لله منهم علنًا مشهودًا تعرف أماكنهم في رياض المساجد، كما أن لله منهم إخباتًا لا يراه إلا هو جل جلاله في سويعات من جوف الليل، وأن مهمة الأئمة العمل لله بتبلغ العلم وتبليغه عملًا وحسبة ومدارسة، فخرجت من نصابي سيفًا مرهفًا، وشباتًا مصلتة، وذراعًا جلدًا[1].



(١) أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري، تباريح التباريح ص١٩، ٢٢.

لم أتخفف من مسئوليتي تجاه الكتاب ولم تفتر علاقتي بالثقافة ولا ضَعُفَت بل علىٰ العكس (مع الأسف الشديد) فلقد ازدادت رغبتي في المطالعة، وتفتحت شهيتي للقراءة بشكل مَرَضِي يدعو إلىٰ القلق، وأقول: مع الأسف؛ لأن حبي للكتب أصبح نوعًا من الهوس أو الجنون، فقد حرمني هذا الحب كثيرًا من متع الحياة وطيباتها فأوقات فراغي في داخل بلادي أو خارجها مقصورة علىٰ زيارة المكتبات، وهذه الزيارة تلتهم الوقت والمال، وتتسبب في فقدان الأصدقاء ومضايقة الأهل، ثم إن هذه المحبة تسبب لي إزعاجًا متصلًا، فالكتب تريد لها مكانًا وليس من الميسور دائمًا إيجاد هذا المكان وخاصة بالنسبة لمن يسكنون بيوتًا بالإيجار أو بالكراء كما كانوا يعبرون قديمًا وتأتي الكارثة حين يضطر المرء إلىٰ الانتقال إلىٰ مسكن آخر[1].

❁ ❁ ❁

بمقدار ما يحفظ طالب العلم من شعر ومتون علمية ينقص حظه من القراءة، وهكذا إذا أسهب في الكتابة والتأليف حرم نفسه من الازدياد في القراءة، وهكذا إذا تفرغ للعمل الإبداعي شعرًا وقصة ورواية ومسرحية سيقل حظه من القراءة أيضًا، ولقد حال بيني وبين الحفظ الحرص علىٰ عرض القراءة وطولها، إلا أن من أدمن القراءة المتنوعة تختلط عليه العلوم ويستطرد كثيرًا من حيث لا يدري، وادخرت ما أقدر عليه من عمل إبداعي لسويعات التجلي والفراغ لمناجاة النفس ومداعبة العقل والخيال بالتأمل والتخيل فإذا عاودني الحنين للقراءة عدت أدراجي[2].

---

(١) عبد العزيز الربيع، ذكريات طفل وديع ص١٤، ١٥.

(٢) أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري، تباريح التباريح ص١٣.

هل قرأت هذه الكتب كلها؟

كثيرًا ما يبادرني زائر يراني في داري محاطًا بالكتب، فيسألني بشيء من الدهشة: «هل قرأت هذه الكتب كلها؟!» وقد تعلمت مع الزمن أن أجيب: «لقد اطلعت عليها كلها»، فالكتاب ضرب من العشق، والعشق الواحد هنا ينافس العشق الآخر، مطالبًا بوقتك وعنايتك، ولكن رد فعل العاشق مع الكتاب يتخذ أشكالًا متفاوتة، والمرء يتذكر مقولة فرنسيس بيكون المشهورة: بعض الكتب وُجد لكيما يذاق، وبعضها لكيما يُبتلع، والبعض القليل لكيما يُمضغ ويُهضم - ليتمثله المرء في كيانه إلىٰ الأبد.

وأذكر ما قاله تي. إي. لورنس عن أيام تلمذته وهو طالب في أكسفورد، من أن مكتبة كليته كانت تحوي قرابة مئة ألف كتاب، وفي ثلاث سنوات من الدراسة «تعرَّف عليها جميعًا». هذا «التعرف» علىٰ الكتاب هو أساس الكثير من المعرفة، وهو الذي يدلنا علىٰ الاتجاه الذي علينا أن نسير فيه كلما طلبنا المزيد من أي علم أو فكر أو أدب، لنا أن نذوق الكتاب أو نبتلع بعضه أو نمضغه ونهضمه علىٰ رِسلنا، وفي كل الأحوال نحن إنما نعيش عشقًا لعله هو وحده، من دون ضروب العشق، لا تكتفي منه النفس، ولا يمله العقل أو الحس.

لربما كان من حسن حظي أنني نشأت في بيت ليس فيه إلا بضعة كتب حصلنا عليها ونحن صغار بشق النفس والادخار الصعب، فلما دخلت الحياة الجامعية في إنكلترا، وأنا مبتلىٰ بعشق الكتاب، كان عليَّ أن أشتري الكتب بالجملة، وبالعشرات، فأقع من أجلها في مآزق مالية، تمامًا كمن ينفق «حاله وماله» علىٰ امرأة استبدت بعقله وعواطفه دون رحمة، مع الفارق: وهو أن هذا المعشوق قد يحرمك الطعام

لبضعة أيام وليالٍ كل مرة، ولكنه يغذيك عقلًا وعاطفة طوال عمرك، ويبقىٰ رصيدًا لك أن تعتمد عليه دائمًا ولا تخيب، وفي بحر سنوات قلائل، وجدتني محاطًا بكتب اخترتها جميعًا بنفسي واحدًا واحدًا، أنقلها قبل ثيابي أينما ذهبت برضا وحماس، مع أنها أثقل متاع ينقله الإنسان في ترحاله، ولها الحق في أن تكون كذلك: أليست هي التي تحمل خلاصة حكمة الإنسان، تاريخه، تطلعاته، تباريحه، وجوهر كينونته؟[1]

(١) جبرا إبراهيم جبرا، معايشة النمرة ص٤٥، ٤٦.

الحرمان من القراءة

منعني طبيب العيون من القراءة والكتابة وكانت حياتي كلها قراءة وكتابة، فلما حُرِمْتها أحاطني فراغ رهيب مخيف، والفراغ أدهىٰ ما يمنىٰ به الإنسان، فليس في الحياة سعادة إلا إذا ملئت بأي نوع من أنواع الامتلاء، جد أو هزل، وعمل أيًّا كان نوعه، فإذا طال الفراغ فالوبال كل الوبال.

إن فارغي العقل معذورون في أن يملؤوا فراغهم بنرد وشطرنج أو أي حديث ولو كان تافهًا لأنهم يشعرون بثقل الفراغ، والحياة لا تلذ إلا بنسيانها، وخير لذة ما نسي الإنسان فيها نفسه واستغرق فيها حتىٰ نسي التلذذ بها؛ فلو فكر لاعب النرد والشطرنج في أنه يتلذذ بهما لفقد لذته، وخير أنواع اللذائذ العقلية ما استغرق فيها الإنسان بتأمله وتفكيره حتىٰ مر عليه الوقت الطويل دون أن يشعر، ففراغي هو أهم أسباب ضيقي وهو أهم أسباب أزمتي النفسية.

ولقد اعتدت أن أعتمد علىٰ الكتب أتخير مؤلفيها، وأصغي إلىٰ حديثهم، وأستلهم ما يقولون، وأفكر فيما يعرضون، فلما عدمت هذا عدمت الركن الذي أرتكن عليه واحتجت إلىٰ دعامة أخرىٰ أستند عليها، وتلمستها فيمن يقرأ لي ويكتب لي، ولكن لا بد من زمن حتىٰ آنس بهذا الاعتياد الجديد. ثم هذا كله لا يغني غناء الاعتماد علىٰ النفس، فقد أحتاج إلىٰ قارئ في وقت فألتمسه فلا أجده، وقد يكون القارئ الكاتب ولا رغبة لي في قراءة ولا كتابة، وقد أحتاج إلىٰ قارئ من نوع معين ولا أجده؛ علىٰ كل حال ارتبكت النفس وطال اضطرابها.

وأدخل المكتبة لذكرىٰ الماضي فيزيد ألمي، غذاء شهي وجوع مفرط، وقد حيل بين الجائع وغذائه، وأتساءل: هل يعود نظري كما كان فأستفيد منها كما كنت أستفيد؟ وهذه الآلاف من الكتب آلاف من الأصدقاء، لكل صديق طعمه ولونه وطرافة حديثه، وقد كان كلٌّ يمدني بالحديث الذي يحسن حين أشير إليه، فاليوم أراهم ولا أسمع حديثهم، ويمدون إليّ أيديهم ولا أستطيع أن أمد إليهم يدي[1].

❁ ❁ ❁

قد لا يدرك المرء قيمة الشيء اللصيق بحياته، إلا إذا حُرم منه. ولا يعرف المرء عمق المتعة بالقراءة، إلا إذا حُرِمَ منها لمدة طويلة، بحيث يجد نفسه يتحرّق إلىٰ كتاب يعاقره، ولو لساعة أو بعض ساعة، كمن يتضور جوعًا فيتحرق إلىٰ أي طعام، مهما يكن.

ولكن من الظلم أن نعمم أمر القراءة هذا، هناك الكثيرون ممن ليس للكتاب دور في حياتهم، فلا يخشون الحرمان منه، لأن القراءة لا تعطيهم تلك المتعة التي تشفي الغليل وتثيره معًا، أشبه بمتعة إدمان هو حقًّا إدمان حلال.

هؤلاء أناس قد يكونون راضين عن أنفسهم وعن غفلتهم الفكرية، غير أنني أعجب لأمرهم، وأحزن لهم: أعجب لأمرهم حين أجد أن سنوات الدراسة الطويلة لم تفلح في زرع هذه الشهوة النبيلة في أنفسهم، وأحزن لهم لأنهم يعيشون وهم في عَوَز ذهني وعاطفي قد لا يعونه، ولكنه يُفقر حياتهم ويجردهم من لذة أساسية من لذات البقاء، كمن حُرم من معرفة الحب، وعميت عيناه عن مرأىٰ الجمال.

ولأعترف قبل المضي إلىٰ أبعد: إنني أتحدث هنا عن شيء شخصي صرف، فأنا عندما أحرم من القراءة لانشغالي بواجب متواصل، أو بسفر لا يتيح لي ساعتين

---

(١) أحمد أمين، حياتي ص٢٨٩، ٢٩٠.

معًا من الانفراد بنفسي في أثناء يقظتي، أبقىٰ في شوق لجوج يغالبني، منتظرًا ساعة اللقاء التي لا تجيء.

وأجدني أخاتل، وأتحايل علىٰ الشغل والواجب، لعلني أختلس المتعة ولو لحظاتٍ مع هذه الصفحات التي تتحرق إلىٰ أصابعي كما تتحرق أصابعي إليها.

وهكذا فإنني كلما حرمت من القراءة لأيما سبب، أدركت كم عظيمة وملحاحة هي هذه المتعة التي سأنصرف إليها بملء جوارحي حالما يكون وقتي مُلكي أنا، فأستطيع الانغمار فيالكتاب وقد تغافلت أخيرًا عن كل قلق، وتناسيت كل جهد آخر تطالبني به شؤون العيش[1].

(١) جبرا إبراهيم جبرا، معايشة النمرة ص٧، ٩.

نوادر القراء

كانت سوق المكتبات محطًّا لكثير من العلماء والأدباء والساسة، فكان بعضهم يختص بمكتبة يجلس فيها دون غيرها في الغالب، فعلىٰ مكتبة نعمان كان يتردد محمد سعيد الجركجي (محمد سعيد الحاج خلف) يرتدي الجِزِّية أو اليَشماغ أحيانًا مع الصاية والعباءة، وهو مداوم لا ينقطع، يطالع كتب الحديث والفقه وتراجم الرجال في الجرح والتعديل ومصطلح الحديث وكتب الخلاف والجدل وغير ذلك؛ وبالرغم من كثرة ما يطالعه وما يقتنيه من كتب لا أظنه قد جنىٰ شيئًا من مطالعاته، بل لم يكن يحسن قراءة سطر واحد علىٰ الوجه الصحيح.

ويذكرني هذا بكثير ممن رأيتهم من هذا القبيل، وأشهرهم رضا النقاش أو رضا الأعرج كما يعرف بيننا، فهذا لا يدع كتابًا إلا اقتناه، لا سيما الكتب الحديثة، ومن شدة اهتمامه بالكتب وحرصه علىٰ اقتنائها فإنه يمر يوميًّا بالمكتبات كافة كبيرها وصغيرها، وحتىٰ باعة الصحف في الأكشاك، وإذا بلغه أن إرسالية ستصل إلىٰ واحدٍ منهم فإنه لا يذهب في ذلك اليوم إلىٰ بيته بل يبقىٰ ملازمًا له ولو إلىٰ نصف الليل، فيفتح الصناديق بنفسه ويحملها كلها وينظمها فيساعدنا جميعًا لكي يخرج بكتاب من تلك الكتب يشتريه بتخفيض بسيط، ويذهب به مسرورًا، وأنا واثق -بل أجزم - بأنه لم يفتح كتابًا من كتبه أو طالعه منذ عرفناه، وتراه يمزح مع كل صاحب مكتبة فيؤول به الحال إلىٰ (الشتُّومة) وبذيء الكلام والتندر من أهل المكتبات كافة، والكل يعرفونه فلا يزعلون منه، ومع مجالسته أرباب المكتبات وأكثر الأدباء والعلماء فإنه ما زال عاميًّا لم يستفد شيئًا مما اقتنىٰ، وقد لاحظنا أنه قد خفف من هوايته هذه فلم يعد كما كان في البداية، وهو الآن في سبيل تأليف كتاب بالاستعانة ببعض أصدقائه.

ومن عملاء السوق الفضلاء العلامة الجليل والفقيه الكبير الشيخ أمجد الزهاوي، وهو يقتني كتب الحديث والفقه والتفسير وقليلًا من كتب التاريخ والأدب، وعندما يختار الكتب ويريد شراءها فإنه لا يساوم علىٰ أثمانها علىٰ الرغم من أن أصحاب المكتبات لا يقرّ لأسعارهم قرار.

وعند تمام موافقته علىٰ شراء صفقة الكتب فإنه لا يدفع ثمنها حتىٰ يُلَقِّن البائع صيغة البيع الشرعية، كأن يقول له: (إنني اشتريت منك كذا وكذا بمبلغ قدره كذا فهل وافقتَ؟) فيقول البائع: (وافقتُ)، فيدفع إليه الثمن ويقول له: (هل قبضتَ؟) فيقول البائع: (نعم، قبضتُ)، فيتسلَّم الكتب.

وإذا أراد الشيخ أمجد الدخول إلىٰ المكتبة، فإنه لا يدخلها قبل أن يخلع نعليه ويضعهما تحت أُبطه، وهو بهذا يتحاشىٰ أن يدوس ورقة، إذ ربما كان في تلك الورقة لفظة الجلالة، أو أي اسم مقدس آخر، أو أي حرف يمكن أن يكون اسمًا مقدسًا، وقد سُرِقَت مكتبته مرارًا من بيته، فبيعت بعض أجزاء من مجموعاته القيمة النادرة مثل المجلد الثالث من خزانة الأدب للبغدادي، وطالما سأل عنه باستمرار دون أن يعثر عليه.

ومن أصدقاء السوق وزبائنه الذين كانوا لا ينقطعون يومًا عن التردد إلىٰ المكتبات، الشيخ جواد الدجيلي المحامي، وكان لا يشتري كتابًا إلا إذا كان مطبوعًا في بولاق فهو يفضله علىٰ غيره حتىٰ ولو فاقه تحقيقًا وحسن إخراج، وكان يساوم حتىٰ يعرق الجبين، وربما كان لجوجًا في طلبه الكتب، فإذا اشترىٰ يطول الكلام علىٰ السعر شهرًا أو أكثر حتىٰ يُعجِزك فتضطر إلىٰ بيعه، وبعد كل هذا فإنه سوف يقرأ لك نبذًا من المقامات مبتدئًا بإذا خُيِّرتَ بين دُرة مفقوطة ودرة منقودة فمل إلىٰ النقد، أي أنه سوف يدفع إليك نقدًا فلا يشتري بالنسيئة.

وقد مرّ عليه وقت طويل وهو يُلحِف في طلب المجلد الثاني من كتاب الجُمَل لابن فارس الذي لم يكن قد طبع، وعبثًا تُقنعه أن هذا لم يطبع، فهو لا ينقطع عن السؤال عنه، وأذكر أنه ضايقني في طلبه فأخذت نسخة من المجلد الأول وطمست نقطه (الأول) وكتبتُ بدلها (الثاني) تخلصًا من إلحاحه، فلما عاد من المحكمة ذات مرة وسأل كعادته عن الكتاب بعنا له ذلك المجلد، إلا أنه بعد أربعة أيام أحس بالأمر فعاد بالكتاب، فأرجعناه بعد مزاح طويل[1].

كان ساطع الحصري يفاصل عند شراء الكتب من أي كان، فأذكر مرة أنني عرضت عليه كتابًا اسمه: (نزهة الزمن في تاريخ اليمن) للحجة الحسن طبعة هامبورغ، وكان قليل الصفحات فلا تزيد صفحاته عن ٧٠ وثمنه مرتفع جدًّا، فطلب مني تنزيل ثمنه وأرسل لي مذكرة كتب عليه بخطة (موا....) ولم يتم الكلمة، فإن وافقت علىٰ تخفيض سعره، فسوف يكتب بقية الكلمة (... فق)، وبما أنني أعرف بأنه إذا لم يشتر هذا الكتاب من قبل مكتبة المتحف فإنه سوف (يبور) ولا يباع، تنازلت عن ذلك السعر، فأكمل كلمة (موافق)[2].

أما الكردي فلا يشتري كتابًا ما لم يكن ورقه أصفر من النوع النباتي، فإذا قُدم له كتاب طُبع علىٰ ورق أبيض فقد يتحرَّج ويتلكأ في شرائه، فإذا لم تتوفر الكتب المطبوعة علىٰ الورق النباتي فإنه يعمد إلىٰ شراء شيء من الزعفران يصبغ به صفحات الكتاب كافة، والناس أذواق[3].

ومن أظرف عملاء المكتبة الشيخ عبد الحليم الحافاتي، فقد كان يتردد إلىٰ مكتبتي كثيرًا فيقتني منها بعض الكتب، ولن أنسىٰ حين أخبرته بأن كتابًا لابن الفرات

---

(١) قاسم الرجب، المذكرات ص٥٠، ٥٣.

(٢) قاسم الرجب، المذكرات ص٩٥.

(٣) قاسم الرجب، المذكرات ص٦٣.

قد طبع ببيروت وسيصل قريبًا، فأخذ يسأل كل يوم عن موعد وصول هذا الكتاب، ولما وصل جاء فاشترىٰ نسخة منه، ولشد ما استغرب حينما رأىٰ أن ابن الفرات هذا لم يكن ذاك الذي كان يتصوره، وهو الوزير العباسي وزير المقتدر، وجاء في اليوم الثاني وإذا به يرمي إليَّ بالكتاب من بعيد متأثرًا مما وقع فيه، ولم يقبل حتىٰ أن يستعيد ثمنه مع غلائه[1].

كنتُ قد نشرتُ كتابًا اسمه (كيف تتعلم الإنكليزية في سبعة أيام) بعد أن رأيت أحد الكتب قد طبع في مصر باسم (كيف تتعلم الإنكليزية في ثلاثة أشهر)، فأردت أن أريح المتعلم في أن يتعلم الإنكليزية في سبعة أيام لا بثلاثة أشهر، فظهر بعد ذلك كتاب آخر ارتأىٰ صاحبه أن يختصر المدة في تعليم الطالب فنشر كتابه باسم (كيف تتعلم الإنكليزية في أربعة أيام)، ولن أنسىٰ واحدًا ممن تخرج من المدارس العالمية فحصل علىٰ شهادة الدكتوراه في الأدب من جامعة بلاد شرقية حين دُعي ليلقي محاضرات في إحدىٰ الجامعات الأمريكية، ولما لم يكن متمكنًا من اللغة الإنكليزية، جاء ليشتري نسخة من هذا الكتاب علىٰ الرغم من أنني أكدت له بأن هذا الكتاب وغيره من كتب الترجمة لا فائدة ترجىٰ منها، وإن أحدًا لا يتعلم منها شيئًا، إلا أنه أصر علىٰ اقتناء نسخة منه.

ولما كنا نطبع وننشر هذا الكتاب بعنوان آخر هو (الهدية السنيّة لتعلم الإنكليزية) فإنه احتار في أي الكتابين يقتني ليكون له عونًا عند إلقاء محاضراته في الديار الأمريكية، فأخرج من جيبه مسبحة سوداء من الخزف تصنع محليًّا، ثم انزوىٰ ناحية وأخذ يستخير أي الكتابين يأخذ![2]



(١) قاسم الرجب، المذكرات ص١٤٨.
(٢) قاسم الرجب، المذكرات ص١٦٤، ١٦٥.

أذكر أنه كان عندي بشقراء -ولم يطر شاربي بعد - دويليبان عرض الواحد منهما متر، وطوله دون طولي، وكان فيه أول وأفخر طبعة من فتح القدير للشوكاني ذات ورق أصفر يسر الناظرين، وأول طبعة من تاريخ ابن جرير، وأول طبعة من شرح الأعلم الشنتمري للمعلقات، فكانت تفرُّ مني الساعات الطوال بلا قراءة، وإنما كنت أقلِّب كل مجلد وأقبِّله، وأمسح الكتب وأعيد ترتيبها.. ثم أصعد إلىٰ مرقدي في السطح فأستمتع بلآلئ النجوم، وأطرب لنباح الكلاب ينساب من مكان بعيد. ثم يبدو لي فأنزل إلىٰ الديوانية حيث المكتبة (الدولابان)، وأوقد سراج أبو دنان لا لأقرأ بل من أجل الالتذاذ بتقليب الكتب وتقبيلها(١).

❁ ❁ ❁

جاءني أحد أساتذتي في أحد أقسام الكلية، وقد أصبح عميدًا ونائبًا لرئيس الجامعة ومستشارًا ثقافيًّا فيما بعد، وطلب مني بعض الكتب في أي فرع من فروع المعرفة، ودُهِشتُ لأني لم أعهده يهتم بالكتب كثيرًا، ولكنه كان قد تزوج من أجنبية، وجاء والدها من بلدته ليزوره، واستنكر حموه أن يكون زوج ابنته الأستاذ الجامعي ليس في بيته مكتبة، ولكن الأستاذ اعتذر بأن كتبه في الجامعة، ولكن والد زوجته أصرَّ علىٰ أن يشتري منشارًا وأدوات نجارة، واشترىٰ عدة رفوف خشبية، وقام بتركيبها بنفسه حتىٰ يكتمل مظهر الأستاذية؛ ولذا لجأ الأستاذ إلىٰ جمع بعض الكتب حتىٰ يكتمل المظهر أمام والد زوجته الذي تعوّد أن يرىٰ مكتبة في كل بيت مهما ضاق هذا البيت. ولازلت أذكر أن الشقق الصغيرة التي كان يسكنها صغار العاملين في المجر تضم رفوفًا كثيرة تحمل الكتب المختلفة(٢).

---

(١) أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري، شيء من التباريح ص٦١.

(٢) كمال الدين البتانوني، حكاية مكتبة ص٦٧

تقديس الكتاب

حكت لي زوجتي عن أستاذ كان يدرِّس لها الفلسفة في جامعة «جلاسجو»، وكان يصر علىٰ أن يملي علىٰ طلبته المحاضرة كلمة بكلمة، فلما سألوه لماذا لا يطبع المحاضرة ويوزعها عليهم فيوفر عليهم وعلىٰ نفسه مشقة الإملاء، أجاب بأنه يعرف جيدًا ما تضفيه عملية الطبع من قدسية علىٰ أي شيء مطبوع، مهما كانت قلة أهميته، ومن ثَم فهو يأمل بأن يعاملوا النص الذي كتبوه هم بخط اليد، المعاملة التي يستحقها[1].

---

(١) جلال أمين، مكتوب علىٰ الجبين ص١١٦.

القراءة والمعرفة

اكتشفت أن صديقي لا يقرأ ليكتب، كما يفعل كثير من المثقفين، بل يقرأ ليعرف، وهذا شيء أندر بكثير مما نظن؛ فالمعرفة في نظره هدف في حد ذاته وليست وسيلة لشيء آخر، وهو قادر، فضلًا عن ذلك، علىٰ الربط بين ما يرِد إلىٰ ذهنه من معلومات جديدة وبين ما كان يعرفه من قبل. فإذا تكلم عن هذه المعلومات الجديدة وصلت إليك مختلطة بعصارة فكره، ومقترنة بموقف المؤيد أو الرافض بعد أن يطرح منها جانبًا ما لا يستحق أن يبالي به[1].

(١) جلال أمين، مكتوب علىٰ الجبين ص٧٦.

الكتاب الجيد

لجورج أورويل قول طريف يعرّف فيه الكتاب الجيد بأنه «الكتاب الذي يقول لك ما كنت تعرفه من قبل»، إنه إذن ليس الكتاب الذي يضيف إلىٰ معلوماتك، فهذا النوع من الكتب لا يقول لك ما كنت تعرفه بالفعل، ولكنه الكتاب الذي يدعم فهمك لبعض الأمور، وقد ينظم هذا الفهم ويرتّبه، فيزيد من وضوح هذا الفهم في ذهنك، ومن ثقتك بصحته، أورويل يقصد أن يقول أيضًا، فيما أظن، أن أفضل الأفكار وأهمها هي أبسط الأفكار وأسهلها، ومن ثم فليس من الغريب أن تطرأ علىٰ ذهن الكثيرين، فيأتي الكتاب الجيد فقط لتأكيدها وتوضيحها، ولكن الحقيقة أن أكثر الكتب ليس من هذا االنوع، بل أكثرها يثير أسئلة غير مهمة ويجيب عليها إجابات غير مقنعة، فكيف لا يخيب فيها الأمل؟.

لهذا السبب أعتقد أن أستاذي القديم (مصطفىٰ بدران) الذي أعطاني الدروس الوحيدة التي تلقيتها في علم الكيمياء في حياتي كلها، وكنت في الثالثة عشرة من عمري، كان علىٰ صواب عندما كان يصرّ علىٰ ألا يتكلم في موضوع لم يتأكد بعد من رغبتنا في معرفته وفهمه، وألا يقدم لنا إجابة علىٰ سؤال لم نطرحه نحن ابتداء. هل كان وراء هذه الطريقة في التعليم نفس الافتراض الذي يكمن وراء تعريف أورويل للكتاب الجيد، وهو افتراض أن الكلام الجديد مائة بالمائة لا يمكن أن يشكل «معرفة» حقيقية، بل يجب أن يكون الكلام، لكي تكون له فائدة حقيقية، صدىٰ لما كان يدور من قبل في ذهن المتلقّي؟[1]

---

(١) جلال أمين، ماذا علمتني الحياة ص٣٨٢،٣٨١.

القراءة السريعة

أعلنت كلية لندن للاقتصاد أنها نظمت سلسلة من عشر محاضرات، يمكن لأي طالب بالكلية حضورها، ويلقيها أستاذ متخصص، لتدريب الطلبة علىٰ زيادة سرعتهم في القراءة.

اهتممت بالأمر إذ كان يضايقني ما لاحظته من بطئي في القراءة مقارنة بالكثيرين غيري، ولم يقنعني قط الرأي القائل بأن سرعة القراءة تتعارض مع عمق التفكير، فقد لاحظت أن بطئي في القراءة كثيرًا ما يعود إلىٰ قلة التركيز مع شرود الذهن إلىٰ أشياء قد لا تكون لها صلة بالموضوع الذي أقرأ فيه. وهو ما أكده لي ما قرأته في سيرة برتراندرسل الذاتية وهو يتكلم عن الاقتصادي الشهير كينز الذي قال: إنه كان يظن في البداية أن كينز، وإن كان أسرع بديهة منه فإنه أقل منه عمقًا، ثم تبين له أنه كان مخطئًا، وأن كينز ليس فقط أسرع فهما بل وكذلك أعمق فكرًا.

ذهبت لحضور الدروس فأكد الأستاذ المحاضر لنا نفس المعنىٰ، أي أننا يجب ألا نظن أننا سنخسر شيئا بزيادة سرعتنا في القراءة، وأن البطء كثيرًا ما لا يكون له أي مبرر أو نفع علىٰ الإطلاق، ثم بدأ يعرّضنا لتمرينات، منها أن يعرض علىٰ الشاشة أمامنا باستخدام الفانوس السحري، صفحة بعد أخرىٰ من كتاب ما، وفي كل صفحة يقع الضوء الأخضر علىٰ السطر الأول بينما تبقىٰ بقية الصفحة مظلمة، ثم يتحرك الضوء إلىٰ أسفل، من سطر إلىٰ سطر، ويطلب منا الرجل أن نحاول أن نستوعب من الصفحة التي تضاء سطورها تباعًا علىٰ هذا النحو أكبر قدر من المعلومات يمكننا استيعابه.

وبعد هذا تزيد سرعة تحرك الضوء، فلا يبقىٰ مسلطًا علىٰ سطر معين إلا مدة قصيرة ثم تزداد قصرًا، ثم يوزّع علينا بعض الأسئلة ليختبر كمية المعلومات التي حصّلناها، من التمرينات الأخرىٰ أن يعرض علينا علىٰ الشاشة أيضًا صفحة تحتوي علىٰ نقد لكتاب أو فيلم، ولا تبقىٰ الصفحة علىٰ الشاشة إلا مدة قصيرة للغاية، ثم يطلب منا أن نقول إذا ما كان هذا النقد في صالح الكتاب أو الفيلم أو في غير صالحه.

كانت الفائدة الوحيدة التي حصلتها من هذه الدروس اقتناعي برأي المحاضر وزيادة اقتناعي بفائدة الإسراع في القراءة، ولكني لم أستفد منها كثيرًا في زيادة سرعتي في القراءة بالإنجليزية، الأمر الذي أحرزت تقدما فيه، ليس بسبب هذه السلسلة من المحاضرات بل بسبب شدة حاجتي، أثناء دراستي بإنجلترا، لتحقيق هذا التقدم، هو القدرة علىٰ تكوين رأي بسرعة فيما إذا كان كتاب ما، أو فصل فيه، أو مقال، يستحق أن أستمر في قراءته أم لا، وهو أمر قد لا يقل أهمية عن سرعة القراءة نفسها. أذكر أنني في إحدىٰ مقابلاتي مع أستاذي روبنز ذكر لي أن عليّ قراءة كتاب شومبيتر في تاريخ التحليل الاقتصادي، وهو كتاب مشهور، ويتمتع بتقدير الجميع، ولكنه يحتوي علىٰ نحو ١٢٠٠ صفحة من الحجم الكبير والبنط الصغير، فلما سألته بدهشة: «كل الكتاب؟» أجابني بإجابة ظلت عالقة في ذهني وهي: «يجب أن تتعلم كيف تقفز في القراءة!» وأظن أنه كان علىٰ صواب تمامًا، فقد اكتشفت، بعد أن تعلمت هذا القفز، حجم الفائدة التي يجنيها القارئ من ورائه، وكيف أني أضعت وقتا كثيرًا في كتب سخيفة كان من الواجب عليّ تركها في وقت مبكر.

يدهشني الآن أيضًا طول الوقت الذي احتجت إليه لكي أتعلم كيف أن عليّ أن أضع ثقتي لا في الكتاب، مهما بدا جذابًا باسمه أو موضوعه، بل في مؤلفه، وأن أدرك أن هناك بعض الكُتاب الذين يمكن أن يشعر معهم القارئ بالأمان، فيستطيع أن يطمئن إلىٰ أن أي شيء يصدر عنهم سوف يكون علىٰ الأرجح جديرا بالقراءة،

وأن عدد هذا النوع من الكتّاب في أي فرع من فروع المعرفة، أقل بكثير مما نظن، وأن نسبتهم إلىٰ المجموع تميل إلىٰ التضاؤل مع ازدياد عدد من يكتبون الكتب دون أن تكون لديهم في الحقيقة الموهبة اللازمة، بل ولا حتىٰ الأفكار التي تبرر قيامهم بتأليف الكتاب أصلًا، ومع ازدياد عدد الحاصلين علىٰ الشهادات أو من يقومون بالتدريس، وكذلك مع ازدياد قوة دافع الربح في نشر الكتب وتقدم أساليب الدعاية والترويج لها[1].

(١) جلال أمين، ماذا علمتني الحياة ١٤٩، ١٥٠.

مؤلف الكتاب الواحد

ذكر الدكتور منصور فهمي في إحدىٰ الندوات الجامعة بأمسيات القاهرة هذه العبارة «احذر مؤلف الكتاب الواحد» وقد أتيح لي أن أستوضحه المزيد، فقال: إن مؤلف الكتاب الواحد قد أحاط بموضوعه إحاطة المتريث المدقق، فهو بالنسبة لموضوعه قمة عالية جعلته من ذوي الاختصاص، وأنا أقول لنفسي لا تعبأ بقراءة الكتاب مرة واحدة، فهي لا تعطيك الكثير مما أراده الكتاب، واحذر أن تغتر بهذه القراءة، إذ لا بد من المعاودة والمراجعة كي تبلغ ما تريد![1]

---

(١) د. محمد رجب البيومي، ظلال من حياتي ص١٨٥.

تقييد الفوائد

من الظاهرات أن لما يقتنصه طالب العلم من الشوارد، ولما يدونه من الكُنَّاشات لذة أيما لذة غير ما تهديه إليه الآن الفهارس الفنية المنوعة والطباعة الأنيقة وعلامات الترقيم.

وقلبت في تقميشي من الكتب فوجدت خطوطًا وتأشيرات منذ سنوات عديدة لم أدر ما المراد بها، ولو علقت عليها في حينها كتابة لما ضاع جهدي في قراءات سلفت، وبعضها إشارات علىٰ الأغلفة واضح مقصودها، ولكن التحرير عليها وفق المقصود يقتضي عمرًا[1].

❁ ❁ ❁

كان يقرأ حينئذ في كتب النقد الغربي، فرأىٰ أن يضم إليها كتب النقد العربي، واستطاع أن يحول ما بها من ملاحظات نقدية إلىٰ جذاذات أو وريقات بادئًا بالجاحظ ومنتهيًا بابن الأثير، ومن هذه الجذاذات ألف -فيما بعد - كتابًا عن النقد العربي، وكتب مقالات مختلفة في بعض المجلات الأدبية عن نقاد العرب المهمين[2].

❁ ❁ ❁

اهتممت أول ما اهتممت بعلم النفس وعلم التربية، قرأت كل ما في مكتبة دار المعلمين من كتب تتعلق بهما، وكانت لي عادة طيبة، كنت قرأت الكتاب لخصته

---

(١) أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري، تباريح التباريح ص١٥، ١٧.

(٢) شوقي ضيف، معي (١/ ١٥٥).

وكتبت تلخيصه في دفاتر سميتها (دفاتر التلخيص) وكتبت عناوين الفصول وأهم ما فيها، وسجلت كلماتها الهامة ومقاطعها الضرورية، وما تزال هذه الدفاتر موجودة لديّ، وأعتبرها من أنفس ما فعلت. ، ومن المؤسف أن هذه العادة الطيبة لم تستمر، وتخليت عنها بعد سنين، ولو استمرت لكانت عندي الآن كتب كثيرة فيها أحسن ما فيها ملخصًا. بل كنت في كثير من الأحيان أناقش الكتب وأبدي فيها رأيي سلبًا أو إيجابًا. ولئن كنت تركت تلك العادة الحميدة فإني أنصح كل مطالع بتلخيص ما يطالع وبتسجيل أهم ما في الكتاب شعرًا ونثرًا وتاريخًا وقصصًا، لتعدو مرجعًا هامًّا له، يعرف فيها ما قرأ، ويعرف فيها أيضًا أهم ما قرأ[1].

(١) عبدالمعين الملوحي، شظايا عمري ص٥٠، ٥١.

فن المضغ

في شيكاغو لم يكن أمامي إلا المكتبة أو غرفتي أو الصقيع في الخارج، أمضيت الفصل الأول كله في الدرس والمطالعة، تسع أو عشر ساعات في اليوم، كنت أجلس للقراءة وأستمر فيها دون مقاطعة أحد.

وهكذا تعلمت القراءة الجدية، عرفت ما الذي عناه نيتشه بقوله أن القراءة هي «فن المضغ، الذي لا تجيده إلا البقرة»، كانت القراءة بالنسبة لي في السابق شيئًا أود الانتهاء منه بسرعة لكي أنصرف إلىٰ أمور أخرىٰ ممتعة.

في الصغر كان الدرس والطعام يفرضان علينا فرضًا، فيحرماننا من اللعب والمتعة، وفي المدرسة الداخلية كانت فترات الدراسة المسائية تفرض علينا كل يوم بين السابعة والثامنة والنصف وكانت نوعًا من الاعتقال اليومي نضطر فيه اضطرارًا أن نعد دروسنا لليوم التالي، ولم يخفف من وطأة هذا الحبس إلا كوننا جميعًا في قاعة واحدة، مطمئنين إلىٰ أنه لا يوجد أحد يلعب في الخارج، ولا شيء يفوتنا؛ لهذا كان أسلوب القراءة الذي تعودت عليه منذ الصغر هو تمامًا عكس أسلوب «المضغ» الذي تحدث عنه نيتشه، فتعودت ورفقائي في المدرسة ثم في الجامعة أن نقرأ كما نتكلم، ونكتب كما نقرأ، بسرعة وبأصوات وتعابير خطابية عالية، تعودنا أن نستمع وأن نتفرج لا أن نتفهم ونحلل ونفكر.

لا أذكر جميع الكتب التي قرأتها في تلك الأشهر الأولىٰ في شيكاغو، كان معظمها يرتبط بمواد دراستي: نيتشه، أرسطو، بركهاردت، وليم جيمس، شارلز بيرس، كيركيجارد، لكني بعد فترة بدأت أشعر بالتعب من المطالعة المستمرة،

وصرت أمضي أوقات أطول في غرفة الجلوس في الإنترناشيونال هاوس وفي جلساتي مع الطلبة علىٰ مائدة الغذاء في ايدانويس، لكني كنت دائمًا أعود إلىٰ كتبي.

رويدًا تحول الكتاب بالنسبة إليّ إلىٰ شيء حي، إلىٰ صديق حميم، إلىٰ ضرورة حيوية، وجدت نفسي أحادث الكاتب من خلال الصفحات المطبوعة، فلم يعد الاستماع كافيًا، وتعلمت أن أعيد قراءة مقاطع بكاملها، كأني أسأل الكاتب أن يعيد أقواله، أخذت أبحث عن المعنىٰ الذي كان بالسابق يفوتني ولا أعود إليه، فلم تعد الفكرة الغامضة تكفي، أصبحت أسعىٰ لاستيعاب المعنىٰ كاملًا وأصر علىٰ الوضوح التام.

أغلال خفية كبلت ذهني بدأت تتساقط ظلام سنين عديدة أخذ ينقشع تغيرت رؤيتي للأمور، لا من حيث المضمون فقط بل أيضًا من حيث طريقة الفهم والتحليل، فصار بإمكاني (وربما لأول مرة) رؤية الأمور من وجهات نظر مختلفة، ومن خلال مقاييس وقيم مختلفة.. شعرت فجأة أني اخترقت حاجزًا ذهنيًّا كان يفصلني عن رؤية الأمور علىٰ حقيقتها.. وصار بإمكاني رؤية ذاتي الاجتماعية (ربما لأول مرة أيضًا) من «الخارج» وبروح موضوعية متزايدة[1].

(١) هشام شرابي، الجمر والرماد ص١٣٥، ١٣٧.

نَسْخ الكتب

ما كانت مهنة نسخ الكتب وتلخيصها -نوع من نسخها-، يومًا من الأيام مهنة ارتزاق فحسب، بل كانت من أنجع الوسائل لتوسيع مدارك المعرفة وصقل الملكات وتنمية المواهب، وسعة مجال التفصيل تحمل علىٰ الاكتفاء بالإشارة إلىٰ علمين عبقريين في القمة بين أدباء العرب القدماء، أبي عثمان الجاحظ، وأبي حيان التوحيدي، فقد عُرِفَ عن الأول أنه كان يستأجر حوانيت الوراقين، فيبيت فيها ليلًا ليستفيد بما يقرأه وينسخه مما تحويه كتبها، وجأر الثاني في كتابه «مثالب الوزيرين» من قسوة معاملة الصاحب بن عباد بتكليفه فوق طاقته في نسخ ما يُقَدّم له من مؤلفات، وقد برز من ثمار عِلْم هذين العالمين ما برزا به غيرهما، إمتاعًا وغزارة، وسدادًا وحكمة.

وأمام القارئ إحدىٰ أمهات كتب اللغة -إن لم يكن أوسعها - كتاب لسان العرب لمحمد بن مكرم بن منظور المتوفىٰ سنة ٧٧١هـ - إنه ثمرة من ثمار تعاطي حرفة النسخ، فقد كان مؤلفه يمارس هذه الحرفة الشريفة فينتقي من مطولات الكتب ما يختصره وينسخه، كما فعل بكتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني، وبكتاب «تاريخ دمشق» للحافظ ابن عساكر، ثم عمد إلىٰ نوع آخر من أنواع النسخ المهذب المرتب، حيث اختار خمسة كتب من أمهات كتب اللغة هي : «تهذيب اللغة» للأزهري المتوفي سنة ٣٧٠هـ و كتاب «المحكم والمحيط الأعظم» لا بن سيده الأندلسي المتوفىٰ سنة ٤٥٨هـ وكتاب «الصحاح» للجوهري المتوفىٰ سنة ٣٩٣هـ و«حواشي الصحاح» لعبد الله بن بري المتوفىٰ سنة ٥٨٢هـ وكتاب «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير المتوفىٰ سنة ٦٠٦هـ - عمد إلىٰ هذه الكتب فجمعها

ونسخها مرتبة منسقة، وقدمها في هذا الكتاب الذي دعاه «لسان العرب»- وافصح في مقدمته بأن عمله لا يعدو مجرد الجمع -أي النسخ المنسق- فقال: (وليس لي في هذا الكتاب فضيلة أمت بها، ولا وسيلة أتمسك سوىٰ أني جمعتُ فيه ما تفرّقَ في تلك الكتب من العلوم فمن وقف فيه بها، سوىٰ أني جمعت فيه ما تفرق في تلك الكتب من العلوم فمن وقف فيه علىٰ صواب أو زلل فَعُهْدَتُه علىٰ المصنف الأول، وحَمْدُه وذَمُّه لأصله الذي عليه المعول، لأني نقلت من كل أصل مضمونه، ولم أبدل منه شيئا، بل أديت الأمانة في نقل الأصول)، ومع ذلك فقد أسدىٰ للغوبين- بل لجميع المعنيين بمختلف الدراسات العربية - بهذا المؤلف الفخم الضخم أكرم يد وأنداها.

ولقد نلت من هذه المهنة -مهنة النسخ - علىٰ طرف الثمام كما يقال، ففي أول شبابي كانت أوائل التجربة حين كنت أنسخ الرسائل والنصائح، لقاء أجر زهيد، يدفعه لي الشيخ عبد الله النصيبي -إمام مسجد تركي- وغيره، وفي عنفوان الشباب كنت أكثر من التردد علىٰ (مكتبة الحرم المكيّ) بحيث كان من يراني يخالني أحد موظفيها، وقلَّ أن أغادرها دون التزود منها بما نقلته، مما أرجع إليه للاستفادة والاستزادة من المعرفة في مختلف فروعها، وقد يكون من بين ذلك مؤلف كامل، فقد أعجبت بجودة مخطوطة من مخطوطات تلك المكتبة من كتاب «طبقات الأمم» لصاعد بن أحمد الأندلسي المتوفي سنة ٤٦٢هـ كان أحضر أصلها إلىٰ المشرق العالم الأندلسي المشهور علي ابن موسىٰ بن محمد بن سعيد المغربيّ(٦٨٥هـ) فدفعني الإعجاب إلىٰ نسخ هذا الكتاب، بطريقة تيسر لي سهولة حمله في جيبي، فكان أن نسخته بحرف دقيق جدًا بالخط الفارسيّ علىٰ ورق رقيق، والكتاب كما هو معروف صغير الحجم، قليل الورق، إلا أنه غزير الفائدة، ومن أمتع ما ألف في موضوعه -مما اطلعت عليه - سهولة عبارة، ووضوح أسلوب، وقد طُبِعَ مرارًا.

ولقد كنت أنقل ما أختار من نوادر الكتب أثناء المطالعة نقلًا عفويًّا، كما اتفق بدون ترتيب، فيختلط ويتداخل، بطريقة تسبب لي قلة الاستفادة منه وقت الحاجة إليه، ولم أعتد ترتيبه إلا بعد أن قمت بتلخيص «معجم البلدان» إذ جُلُّ ما نقلت منه كان خاصًا بموضوع واحد، ومرتبًا علىٰ الحروف، أما ما عَرَض لي نقله مما هو خارج عن موضوع تحديد الأماكن كالتراجم، ورقائق الأشعار، وطرائف الأخبار، فقد أفْرَدتُّ كُلًا علىٰ حِدةٍ، فأدركتُ بعملي هذا أن التنظيم من أقوىٰ وسائل النجاح في جميع الأعمال[1].

---

(١) حمد الجاسر، من سوانح الذكريات (١/ ٤١٩، ٤٢١).

إعارة الكتب

أذكر يومًا زارني فيه الشاب (م. ح) من قرية مصمص العربية، مدّ الشاب يده إلىٰ أحد رفوف الكتب وأخرج كتاب «الحرية والطوفان» لجبرا إبراهيم جبرا، مبديًا رغبته في استعارة الكتاب، كنا قد بدأنا منذ الاحتلال الجديد نكابد الحصار الثقافي الذي كابده أهلنا المحتلة أرضهم منذ ١٩٤٨، حيث أخذت السلطات العسكرية تمارس مصادرة الكتب من المكتبات الخاصة والعامة، سواء أكانت هذه الكتب أدبية، أم دينية، أم جغرافية، أم تاريخية إلخ.. هذا عدا عن قوائم بأسماء الكتب الممنوعة، هذه القوائم التي ما تزال تطلع بها علينا الرقابة العسكرية قائمة تلو الأخرىٰ. وهكذا، ومن منطلق إدراكي ويقيني بأنني لن أجد بديلًا أو عوضًا عن أي كتاب يخرج من مكتبتي إلىٰ الآخرين عبرت للشاب الزائر عن تحفظي من إعارة كتبي بسبب ظروف الاحتلال، لكنه ألحّ، ثم توسّل، وخجلت، فلم أملك أمام توسله إلاّ الرضوخ والسماح له باستعارة الكتاب الذي لم يعد إلىٰ المكتبة أبدًا، برغم مرور السنوات الطويلة، ولن يعود، فقد حدثني زميل له كان يرافقه في تلك الزيارة أن «م. ح» حين خرج بالكتاب من البيت كان يضمر الاستيلاء عليه، حيث قال له: وهل أنا مجنون حتىٰ أرد الكتاب إليها؟![1]

---

(١) فدوىٰ طوقان، الرحلة الأصعب ص٢٧، ٢٨.

التعريف بالكتب

كان روفائيل بطي من محبي مكتبة المثنىٰ الناشئة ومشجعيها، لا يمر يوم إلا زارها، واقترح عليَّ يومًا أن يحجز لي حقلًا صغيرًا في جريدته (البلاد) ليُقرّض بعض الكتب التي تصل إليَّ، ولم أكن يومئذ اهتم بمثل ذلك، ولكن ترغيبه وإلحاحه علي باستمرار حَمَلاني علىٰ قبول الاقتراح، فهيأت بعض الكتب وأعددتها للتقريظ بناء علىٰ رغبته وكان أول إعلان كتبه لي ونشره في جريدته إعلانًا عن كتاب صغير هو (النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم) لتقي الدين المقريزي، بعد أن كان قد أعيد طبعه بمصر عن طبعه ليدن، ولم أكن أتصور أن يكون لمثل هذا الإعلان البسيط كل هذه الأهمية وهذا الأثر، فقد جئت -كعادتي- صباح يوم إلىٰ المكتبة، وإذا بي أرىٰ جمعًا من الناس ينتظرونني لأفتح المكتبة، وكلهم يبتغون شراء هذا الكتاب، فبعت لهم وبقيت أبيع منه طول النهار حتىٰ نفدت نُسَخه[1].

---

(١) قاسم الرجب، المذكرات ص١٥٠.

معارض الكتب

كلما أقيم معرض للكتاب تمنيت لو أن هناك معارض دائمة للكتب، وليس معارض تقام لمجرد أسبوعين أو ثلاثة، وأنا أعلم أن المعرض من طبيعته أن يكون مناسبة حولية، ومحددة بزمن قصير، لكي تبقىٰ الإثارة في أقصاها، والإقبال علىٰ أحرّه؛ غير أن الرغبة في التنقيب والتقليب بين الكتب وهي في أكداس وتنويع، وقد اختلط حديثها في قديمها، زاهيها في قاتمها، معلومها في مجهولها، نادرها في مألوفها، رغبة لا يسهل إرضاؤها في أيام[1].

(١) جبرا إبراهيم جبرا، معايشة النمرة ص٤٧.

باعة الكتب

من الطرائف أن أحد الكُتُبيَّة المسنين، وهو عبد الحميد التركي، كان يبيع المجلات والكتب القديمة والتركية خاصة، وكان غريبًا بأطواره، فمثلًا إذا أعجبك عنده كتاب وساومته، وغادرتَ مكتبته ولو لمسافة خطوة واحدة، ثم عدتَ إليه، فسوف يقول لك: إن هذا الكتاب قد بيع! فلا يُظهره إلا بعد سنوات، ولم يكن هذا الرجل يغالي بالثمن ولم يتعسف، وإذا اشترىٰ كتابين مثلًا أحدهما في الجبر والآخر في الجغرافية، وجاءه مشترٍ يريد أحدهما، فإنه لا يرضىٰ ببيعه بمفرده ما لم يقتن منه الاثنين معًا، ويقول للمشتري: إنه ما دام قد اشترىٰ الكتابين صفقة واحدة فهو لا يبيع أحدهما دون الآخر، ولا يجد المشتري نفعًا حين يقول له: وما ذنبي وما حاجتي بالجبر وأنا طالب جغرافية. ولكن لا يفيد قط معه أي جدال[1].

(١) قاسم الرجب، المذكرات ص٥٤.

مع الناشرين

الذين يسمعون عن عبقرية بيروت في نشر الكتاب العربي، وقدرتها الخارقة علىٰ تصنيع الكتاب وإطلاقه والتعريف به، ربما لا يعرفون أن عالم النشر في بيروت، أشبه بالمجاهل الإفريقية حيث الناشر يأكل الناشر والزميل يفترس زميله.. وأصحاب دكاكين الثقافة يسرقون أعمال المثقفين وجاكيتاتهم وقمصانهم، وإذا استثنينا عشرة بالمئة من الناشرين اللبنانيين، ممّن يتحلّون بالشرف والثقافة والقيم العالية، فإن التسعين بالمئة الباقية منهم جزّارون محترفون يتعاطون مع الكتاب كما يتعاطىٰ جزار وثني مع قطيع من الأغنام دون أن يراعي في عملية الذبح أحكام الشريعة الإسلامية أو أية شريعة أخرىٰ.

وإذا كان مطلوبًا من الناشر أن يكون لديه حد أدنىٰ من الثقافة التي تسمح له بقراءة وتقييم المخطوطات التي تصل إليه، فإن هؤلاء الناشرين أُميّون بالوراثة، ولا يعرفون إذا كان الكتاب العربي يُقرأ من اليمين أم يقرأ من اليسار؟.

إنهم مجموعة من الضباع، تأكل كل ما في طريقها من كتب وورق، وكرتون ومطابع، وأدباء وشعراء وروائيين وحقوق تأليف!.

إلىٰ هذه الغابة المتوحشة دخلتُ عام ١٩٦٦، وما تزال عضّات الأفاعي والعقارب وأسماك القرش، مرسومة علىٰ كل زاوية من زوايا جسدي وحتىٰ أكون منصفًا، أود أن أقول إن سيف التزوير لم يطلني وحدي، بل طال أي مؤلف رائج، وأي كتاب يبيع أكثر من ثلاثمئة نسخة[1].

---

(١) نزار قباني، من أوراقي المجهولة (سيرة ذاتية ثانية) ص ٩٦، ٩٩.

حيل الناشرين

كنتُ قد استوردت كثيرًا من الكتب النفيسة النادرة، ولكنني عجزت عن بيعها وتصريفها، فبارت عندي وتكدست في مكتبتي ومخزني وحِرْتُ فيما أفعل بها لأتخلص منها فقد تضايقت نفسيًّا منها، وأصابني ضيق مادي من جراء ما تجمع لدي منها، فأخذت أسجل أسماءها، وعرضت مشكلتي علىٰ أحد أصدقاء المكتبة من الذين لا ينقطعون يومًا واحدًا عن زيارتها، وقلت له: (ما رأيك لو كتبنا عن المكتبة العامة وانتقدناها لخلوها من هذه الكتب؟) فاستحسن هذه الفكرة ورحب بها، وكانت له علاقة وثيقة بإحدىٰ الجرائد التي كانت تصدر حينئذ هي (الرافدين) لصاحبها رئيس تحريرها عبد الملك البدري المحامي، وطلبتُ إلىٰ صديقنا أن يلوم وزارة المعارف علىٰ إهمالها المكتبة العامة وعدم تزويدها بما تحتاج إليه مما يجد من الكتب المهمة والصادرة حديثًا، وذكرنا عناوين تلك الكتب، فصدرت الجريدة ذات صباح، وإذا بمدير المكتبة يومئذ محمد جواد أبو التمن يأتي إلىٰ مكتبتي المتواضعة في سوق السراي التي لم يكن قد سمع حتىٰ باسمها لصغرها وصغر عمر صاحبها.

وكان محمد جواد أبو التمن أقدر وأنشط من رأيتهم من المشتغلين في هذه المكتبة، فقد رعاها بعنايته وتعهد نموها وتقدمها وازدهارها طوال مكثه فيها، وكان الدكتور محمد فاضل الجمالي مدير التربية والتعليم العام حينئذ لا يرد له طلبًا مهما كلَّف من المال، فأخذ يشتري كل كتاب يسمع به وتفتقر المكتبة إليه، فيدفع ثمنه من جيبه، ثم يقدم بالكتب قائمة إلىٰ حسابات وزارة المعارف، فيُصرف إليه ثمن ما

اشتراه فيعيد ما دفعه، وكثيرا ما تبرع بثمن بعض الكتب، وكان أحرص من رأيت من مديري المكتبات العامة.

ولما جاء إلىٰ المكتبة وقع نظره علىٰ معظم الكتب التي نشرت الجريدة أسماءها حسبما ذكرت، فقال: إنني أريد شراء هذه الكتب جميعًا، وفعلًا اشتراها، فرزمتها له ودفع لي ثمنها كاملًا، وقال لي: أرجو إذا وصلت إليك كتب أخرىٰ أن تُعرِّفني بها، فلا تكتب بعد ذلك في الجريدة، وأخذ يتابع ما يصل إليّ من الكتب، فلا يصل كتاب إلا اقتناه[1].

---

(١) قاسم الرجب، المذكرات ص٩٦، ٩٨.

المآلات الحزينة للمكتبة

يقول الرحالة نيبور الذي زار العراق في القرن الثامن عشر: «إنك إذا كنت تريد كتابًا من بغداد ولم تجده فانتظر حتىٰ يتوفىٰ أحدهم فعندئذ ستباع كتب المتوفي في اليوم التالي فتجد الكتاب الذي تريده»، وقد صدق نيبور، فالكتاب في بغداد ما يزال من الأشياء الكمالية التي يستغنىٰ عنها أو تباع حال وفاة مقتنيها، وإن البغدادي إذا أفلس باع مكتبته، وكذلك إذا تزوج، أو أراد شراء دار له أو أية حاجة أخرىٰ، فإن أول ما يفكر به هو بيعه مكتبته أو ما عنده من كتب، كما أن الحكومة حينما تعلن سياسة التقشف والاقتصاد فإن أول ما تلتفت إليه هو إيقاف شراء الكتب أو تجليدها.

وهنالك كثير من الناس ممن باعوا مكتباتهم مرارًا -وهم أحياء- أذكر منهم علىٰ سبيل المثال: روفائيل بطي وإبراهيم صالح شكر ومحمود النقيب الكيلاني وناظم الغزالي ونعمان ثابت وغيرهم[1].

❁ ❁ ❁

في سنة ١٩٣٧ - ١٩٣٨ عُهِد إليّ ببيع مكتبة المغفور له العلامة محمود شكري الآلوسي المتوفىٰ سنة ١٩٢٤، وكانت هذه المكتبة تحتوي علىٰ كثير من الكتب الطريفة النادرة مما كان قد اقتناه أو أهداه إليه العلماء من بلاد المشرق والمغرب، ومن المستشرقين الذين أهدوا مطبوعاتهم إلىٰ الآلوسي لويس ماسنيون الذي كان يتتلمذ عليه ويراسله برسائل يختار ألفاظها من كلام الصوفية كالحلاج والجُنيد والسَّري السَّقَطي وغيرهم.

---

(١) قاسم الرجب، المذكرات ص٦١.

وكنت أعثر في داخل الكتب التي أبيعها من كتب الآلوسي علىٰ قصاصات من رسائل مختلفة أُرسلت إليه ليجيب عليها، وكانت أكثر تلك الرسائل مُرسَلة من العلامة اللغوي الأب أنستاس ماري الكرملي، فقد كان يسأله كثيرًا من الأسئلة التي تتناول مسائل فقهيّة ولغويّة وتاريخيّة وأدبيّة، وربما كتب الآلوسي أجوبته علىٰ القصاصات نفسها، وأحيانًا كان يحتفظ بالأسئلة ويجيب عليها في رسائل علىٰ أوراق أخرىٰ، وكانت تواقيع الأب أنستاس التي يوقع فيها رسائله مختلفة؛ منها: الأب، الباتري، الحافي، الخادم، (أ)، وهو الحرف الأول من اسمه، وهو يفتتح رسالته إلىٰ الآلوسي بقوله: (سيدي العلامة) أو (سيدي الفاضل)[١].

۞ ۞ ۞

رحلنا إلىٰ باريس محملين بحقائب ملابسنا فحسب، ولم ننقل معنا مكتبتنا ! أجل، فقد تخلينا مضطرين عن أغلىٰ كنزٍ نملُكه، عن أعمالٍ مهداة من قبل مؤلفيها، وعن مجموعاتٍ ثمينة من الروايات العالمية، وعن معاجم وموسوعات مكثنا علىٰ مدىٰ شهورٍ نسدد ثمنها، عن مسرحياتٍ وأبحاثٍ ودراسات أمضينا سهرات طويلة ونحن نتناقش حولها.

لقد تخلينا عن موضوع حبنا المشترك: «الكتاب» فبادرنا إلىٰ توزيع ما كنا قد اكتنزناه عامًا بعد عام، والأسوأ من ذلك أننا أحلنا إلىٰ صناديق القمامة مجموعات بأكملها من الأعمال الفكرية اليسارية التوجه، وقد أقسمت يومها بألاَّ أشتري كتابًا واحدًا ما دمت علىٰ قيد الحياة، وقد احترمت هذا القسم، فأنا أتردد علىٰ المكتبات العامة لاستعارة الكتب التي أرغب في مطالعتها[٢].

۞ ۞ ۞

---

(١) قاسم الرجب، المذكرات ص١٤٥، ١٤٦.
(٢) هنرييت عبودي، أيامي مع جورج طرابيشي ص١٣٦، ١٣٧.

ظلَّ احترامي للكتب علىٰ حاله حتىٰ احتجتُ في سنةٍ أن أبيعها، وشقَّ عليَّ ذلك في أول الأمر، وكنت لا أكاد أطيق أن أدخل الغرفة التي كانت مرصوصةً فيها، وظللتُ أيامًا أحسُّ كلَّما نظرتُ إلىٰ الرُّفوف التي خلت ممَّا كان عليها أني فقدتُ أقرب الناس إليَّ وأعزَّهم عليَّ، وأشعر أني مُشْفٍ علىٰ البكاء إذا لم أحوِّل عيني عن هذه الرُّفوف الخالية، ولم يكن ما أتحسَّر عليه زينتُها، وما أضعتُه فيها من مالٍ خسرتُه بالبيع، وإنما كانت الحسرة علىٰ فقدان أساتذتي وإخواني. وبقيتُ بعد ذلك زمنًا لا أمرُّ بمكتبة عامَّة إلا أشحتُ بوجهي عنها من فرط الألم، وإلا أحسستُ أن يدًا عنيفة تلوي أحشائي وتحاول أن تقتلعَها.

وكان من غرائب ما حدث أني لبثتُ أكثر من سنة لا أقتني شيئًا من الكتب؛ كأنما زهَّدتني الحسرةُ علىٰ ما ضيَّعتُ في كلِّ جديدٍ غيره، ومن الغريب أن هذا هو نفسُ الإحساس الذي عانيتُه لمَّا توفيت زوجتي، فقد ظللتُ سنواتٍ لا أطيق أن أنظر إلىٰ امرأة، ثم فتَرَ الألم وخفَّت وطأته، كما هي العادة[1].

---

(١) إبراهيم المازني، العمر الذاهب ص ١١٣، ١١٤.

المخطوطات

كان اتصالي بالمخطوطات خطرًا عليَّ، المخطوطات القديمة كالمخدرات إذا اعتادها الإنسان هيهات أن ينجو منها -القول هذا لطه حسين -؛ لذلك لم أدع فرصة منذ ذلك الحين إلا اغتنمتها للإطلاع علىٰ المخطوطات، ولعل الظروف نفسها هي التي ساعدت علىٰ ذلك.

كان همي عندما ذهبت إلىٰ باريس، إثر إصداري تاريخ ابن عساكر، أن أقرأ الآلاف الخمسة من المخطوطات العربية المحفوظة في الناسيونال، رغم تحضيري الدكتوراه في الآداب والحقوق، وما كدت أعود حتىٰ أرسلتني الحكومة في عام ١٩٤٥م إلىٰ إسبانيا؛ لأكشف مخطوطات الإسكوربال، والأديرة الأخرىٰ، فقضيت فيها شهورًا وطفت في تلك البلاد التي نقلت يومًا ثقافة العرب إلىٰ أوروبا. فما كدت أعود حتىٰ رشحتني الحكومة لأن أكون مديرًا لمعهد المخطوطات في جامعة الدول العربية.

لم تصنع جامعة الدول العربية شيئًا أحسن من إنشاء هذا المعهد، وكانت ترمي من وراء ذلك إلىٰ جمع التراث العربي -أي الكتب العربية القديمة المخطوطة - وإعادته إلىٰ بلادنا، لقد كان هذا التراث المبعثر في كل بلد، عندنا، ثم تسرَّب بأشكال وطرق مختلفة إلىٰ غيرنا. وأصبحنا نحن نتغنىٰ بالتراث ونحلم به من بعيد، ولشدة تغنينا به صار مخدرًا يخدرنا، فنقول: كنا وكان أجدادنا، دون أن نعرف هذا التراث، أو نقرأه أو نعلم شأنه، وكان من المستحيل أن يُعاد هذا التراث؛ لأنه أصبح ملكًا لغيرنا، فرؤي أن تُصوَّر هذه الكتب علىٰ أفلام صغيرة، وتحفظ في المعهد؛

ليرجع إليها العلماء في دراساتهم، وكان في المعهد، إذ بدأت عملي فيه، قرابة ستة آلاف فيلم، وتركته بعد ثماني سنوات، وعدد المخطوطات يقارب الثلاثين ألفًا.

كنت في تلك السنوات غارقًا إلىٰ أذني في الماضي السحيق، أعيش مع الموتىٰ الأحياء، لكنها عيشة هادئة مفيدة، تعطي دائمًا، كم أثار عملي هذا في نفسي وعقلي زوابع ومشكلات، كم خاطرت وغامرت لأكشف مخطوطة أو أراها، كم دخلت الأديرة والكنائس والمكتبات والمساجد والزوايا. كم هبطت الأودية، وصعدت في الجبال، كم أَلِفَت كفاي الغبار، وأنفي رائحة الرطوبة.

لقد طوَّفت في معظم أقطار الأرض، لم أدع بلدًا في أوروبا إلا زرته، حتىٰ روسية عرفتها في شتائها المخيف، وصيفها اللطيف، في شمالها وجنوبها، وطفت من أقصىٰ المغرب حتىٰ أقصىٰ إيران، ولم يفتني الاطلاع علىٰ المخطوطات العربية في الولايات المتحدة الأمريكية، فعندما دعيت في السنة الماضية لأكون أستاذًا زائرًا في جامعة برنستن، اطلعت علىٰ مجموعتها النفسية، وطفت في الجامعات الأخرىٰ، ومراكز الدراسات العربية، ووضعت فهرسًا لكل ما فيها من تراث عربي.

وبالجملة أتيح لي أن أرىٰ هذا التراث بنفسي، وأن أُقلِّبه وأقرأ الكثير منه، وأُقيِّد التقاييد عنه، ولا أعتقد أن أحدًا مما سبقني أو عاصرني أتيح له أن يعرف التراث العربي المبعثر في أقطار العالم كما عرفته[١].

(١) صلاح الدين المنجد، لمحات من تجاربي الفكرية ص ٩٥،٩٠.

الكتابة

كانت الكتابة بالنسبة إليَّ، مع الرسم أحيانًا، ضروريّة ضرورة الحب، ضرورة الصداقات، ضرورة الماء والخبز[1].

ليس أكبر من متعة القراءة، إلا متعة الكتابة، تلك المتعة الأعظم والأعمق والأندر، فالكتابة، إذا ما تخلت عن تمنُّعها وانصاعت للقلم، هي تلك الحورية الرائعة، الذاهبة بالنفس في طرقات الجنة ودركات الجحيم، متعة ولا كأية متعة أخرىٰ يعرفها الجسد: فهي وَجْدٌ صوفيّ، وهي عذاب عَذْب، وهي وعد يتراكض علىٰ السطور مرة، ويتعثر عليها مرات: وعدٌ بالكشف، وعدٌ برؤية ما لا تراه العين، وعدٌ باتصال الذات بأروع ما في الكون من فرح وعشق وحزن وغضب، حيث حيوات الأفراد تتجسد في الخيال، وتنتفض وتتدافع وتستكين، وكأن الحياة الواحدة قد ضُربت بألف.

فإذا كنت أعجب وأحزن لمن لا يعرف متعة القراءة، فإنني أشعر أن الكتابة شأنها شأن آخر، لا يشبه القراءة ولكنه يصب في النهاية فيها، فالمبتلىٰ بعشق الكتابة كمن ابتلي بجوع جحيمي، بشبق لاهث وراء سراب. ولكنها إذا ما تحققت، فهي الوليمة التي دونها كل الولائم، وليمة الخلق والخيال، وليمة الحس والعقل، وليمة الوحي والنشوة، ولا يخرج المرء منها إلا مضطرًّا، وكأنه يخرج من عوالم الوهج والإثارة والمستحيل، ليعود إلىٰ عالم عادي جدًّا، باهت اللون جدًّا، يبحث فيه عن السحر الذي لن يلقاه علىٰ أشده إلا حين تعاوده حمَّىٰ الكتابة، وتستبد به بعذابها وعذوبتها من جديد[2].



(١) جبرا إبراهيم جبرا، شارع الأميرات ص٢٦٦

(٢) جبرا إبراهيم جبرا، معايشة النمرة ص٩، ١٠

طوال أربعة عقود من الزمن هيمنتْ عليَّ غريزة الكتابة، بحيث أنني قلَّما استطعتُ التخلص من سطوتها، كانت هذه الغريزة تعذبني عذابًا لا طاقة لي به عندما لا أجد وقتًا للكتابة أو مناخًا مناسبًا للتأمل والإمساك بالقلم، غير أن هذه الغريزة كانت تروضني شيئًا فشيئًا بحيث أنني استطعتُ أن أمارس عملي الطبي ومهنة الكتابة في الجو ذاته، وتسرب عالم الأدب إلىٰ مهنتي وصار عسيرًا عليَّ أن أفصل الطب عن الأدب.

طوال سنوات عمري كنتُ أبحثُ عن الخلاص في الكتابة، ففي الكتابة أستعيد وقائع حياتي من جديد، لكنني أستعيدها كما تبدو في أحلامي من دون آلام، من دون مرارة، من دون نواهٍ، عبر الكتابة، عبر حروفها وكلماتها وسطورها، أكتشف ثانيةً، ما كان مخفيًا عليَّ خلال حدوثها، أكتشف أسرارها، ألغازها، مباهجها، جراحاتها.

لم يكنْ أمامي سبيل آخر، أو خيار آخر، أو طريق آخر سوىٰ الكتابة فهي وحدها التي أنقذتني من الضياع واليأس والعبث واللاجدوىٰ وربما حتىٰ الجنون[١].

❁ ❁ ❁

كانت الكتابة وما تزال مدار حياتي، وكنت أعتبر كل نشاط خارج ذلك الإطار، نوعًا من خلسة المختلس أو الخروج علىٰ القواعد والمسلَّمات، وعندما يخرج كتاب لي من المطبعة أشعر كأن ابنًا جديدًا وُلد في العائلة[٢].

❁ ❁ ❁

من يتصدىٰ للكتابة عليه أن يقبل طائعًا دفع الضريبة المترتبة علىٰ هذه الكتابة، وإلا وجب عليه الصمت، من الأهداف التي من أجلها أتجشم الكتابة ، أو بعبارة

---

(١) علي صالح، العوالم الثلاثة ص٣٤، ٣٧.

(٢) سليمان موسىٰ، ثمانون ص١٧٠.

أصح (أتمتع) من أجلها بالكتابة ؛أن أحقق سعادتي حين أمارس حريتي بوضع الكلمات علىٰ الأوراق؛ فأنا أجد في هذا الفعل راحتي، منذ أن تحكمت في القلم والقرطاس، وقد كتبتُ في حياتي شعرًا ورسائل شخصية، وأبحاثًا أكاديمية، وتقارير إدارية، وحين لا أجد شيئًا مفيدًا أكتبه أشغل نفسي عادة (بالشخبطة) علىٰ الأوراق.

هنا أشعر كأن حملًا ثقيلًا يلقىٰ عن كاهلي، ولا يعنيني بعد ذلك أكان ما كتبته ذا معنىٰ يتعارف عليه الناس ، أو كان خاليًا من المعنىٰ جملة في نظرهم، ويسرني بالطبع أن يجد كلامي طريقه إلىٰ الآخرين؛ أما أنه يعود عليّ بعد ذلك بالنفع المادي ، أو يجلب إلىٰ إطراء أو شهرة، أو يجلب عليَّ في الجانب الآخر رفضًا أو حتىٰ متاعب، فهذا لا يشغل بالي علىٰ الإطلاق[1].

۞ ۞ ۞

أتذكر أن أهالي البصرة وبعض أهالي الزبير بشكل خاص كانوا يقرأون قراءة نهمة لا تنقطع: يقرأون الكتب التراثيّة والحديثة والمترجمة ويتباحثون بها ولكنهم في أغلب الأحيان مستهلكون للكتب وليسوا ممارسين للكتابة ممارسة تتناسب مع قدراتهم الإبداعية، وهذه في رأيي القضية الأساسية لدىٰ القارئ العراقي أو العربي إجمالًا: إنه يقرأ جاعلًا قراءته فيضانًا يغرق فيه كيانه كله فالأمر المخيف ليس فقط الهجمة الثقافية الغربية فحسب بل الهجمة الثقافية برمتها: هي هجمة تمحو الشخصية وتشكل في المناخ الفكري فريقين لا يلتقيان، فريق الكتب وفريق القراء. لعل السبب يعود لنظام التعليم فهو يشجع علىٰ القراءة ويهمل فن الكتابة، أو يهمل فن المغامرة الكتابية وبعد التعليم يأتي اقتصاد النشر، فالناشرون العرب لا يغامرون بدورهم، إنهم ينشرون لمن هو معروف وينشرون الترجمات، وكيف يكون معروفًا من لم يمنح الفرصة ليعرّف نفسه للناس: إنها حلقة مفرغة ضحيتها الكاتب العربي،

(١) د.محمود الربيعيّ، بعد الخمسين ص١٨٦.

فهو لا ينشر له لأنه مغمور وهو مغمور لأنه لا ينشر له، وهي أيضًا في اقتصاد النشر قضية تتعلق بخسارة الناشر حين يغامر لأن مبيعات الكتاب الناجح نفسها ليست بالكثيرة، وعندما تعرّفت علىٰ ناشرين وعلمت منهم أن مائة وخمسين مليون عربي لا يشترون أكثر من خمسة آلاف نسخة علىٰ مدىٰ سنة من كتاب مؤلف يعتبر علىٰ شيء من النجاح، اندهشت وما زلت مندهشًا: إن الكتاب الناجح في فرنسا (ولنقل ذلك الذي يحصل علىٰ جائزة غونكور مثلًا) يباع منه نصف مليون نسخة في مدىٰ بضعة أسابيع وعدد سكان فرنسا خمسون مليونًا، مع أن نقادها يشكون من تضاؤل القراءة لدىٰ الفرنسيين بسبب الحياة الحديثة المشبعة بالتلفزيون والسينما والمطاعم والشواطئ والنشاطات الرياضية[1].

(١) نجيب المانع، ذكريات عمر أكلته الحروف ص١٨٧، ١٨٨.

بوابة الكتابة

إذا كنت تريد أن تكون كاتبًا، يجب أن تفعل أمرَين قبل أي شيء آخر: تقرأ كثيرًا وتؤلف كثيرًا. لا توجد أي وسيلة أعرفها للالتفاف علىٰ هذين الأمرَين، لا يوجد أي طريق مختصر.

أنا قارئ بطيء، لكنني أُنهي عادة سبعين أو ثمانين كتابًا في السنة، أغلبها روايات خيال، لا أقرأ بقصد دراسة الحِرفة؛ بل أقرأ لأنني أحبّ القراءة، هذا ما أفعله في الليل، مستلقيًا علىٰ كرسيي الأزرق. بشكل مماثل، لا أقرأ روايات الخيال بقصد دراسة هذا الفن، بل فقط لأنني أحبّ القصص، لكن هناك عملية تعلّم جارية، فكل كتاب تقرأه يعطيك درسًا أو دروسًا، وفي كثير من الأحيان الكتب السيئة تعلمك أكثر من الكتب الجيدة.

عليك أن تقرأ كثيرًا، وتصقل كتاباتك (وتعيد تعريفها) باستمرار، أجد صعوبة في تصديق أن الأشخاص الذين يقرأون قليلًا جدًّا (أو لا يقرأون علىٰ الإطلاق في بعض الحالات) يتجرّأون علىٰ التأليف ويتوقعون من الناس الإعجاب بأعمالهم، لكنني أعرف أن هذا حقيقي، لو ادّخرتُ نيكلًا (خمسة سنتات) كلما أخبَرني أحدهم أنه يريد أن يصبح كاتبًا لكن «ليس لديه الوقت ليقرأ»، لتمكّنت من دعوة نفسي إلىٰ عشاء فاخر، هل يمكنني أنا أكون فظًا بشأن هذا؟ إذا كنت لا تملك الوقت لتقرأ، فلن تملك الوقت (أو الأدوات) لتؤلِّف، الأمر بهذه البساطة.

القراءة هي مركز الإبداع في حياة الكاتب، وأنا آخذ معي كتابًا أينما أذهب، وأجد أن هناك جميع أصناف الفرص للاستفادة منها، السر هو في تعليم نفسك القراءة برشفات صغيرة وبابتلاع طويل.

لقد وُلدت صالات الانتظار للكتب، وكذلك ردهات المسارح قبل بدء العرض، وصفوف الحجز الطويلة والمُضجرة، حتىٰ إنه يمكنك أن تقرأ بينما تقود بفضل ثورة الكتاب الصوتي، من بين الكتب التي أقرأها كل سنة، حوالي ستة إلىٰ اثني عشر منها موضوعة علىٰ شريط[1].

(١) ستيفن كينغ، مسيرتي في التأليف ص١٤٣، ١٤٥.

بدايات الكتابة

ولدتُ وترعرعتُ في بيت تحولت غرفه إلىٰ مكتبات وزواياه إلىٰ مكاتب يتناوب عليها أفراد الأسرة للقراءة والكتابة والتأليف، وكانت الجرائد والمجلات علىٰ أنواعها تتدفق ليتخاطفها الوالدان والأشقاء وكأنها خبز الحياة.

في الثامنة من العمر دخلت المدرسة وتعلمت القراءة، وعنَّ لي وأنا في الثانية عشرة من العمر أن أقلِّد الكتَّاب الذين تغص رفوف المكتبات عندنا بنتاجهم، فأصدرتُ «مجلة» من أربع أو ست صفحات، أكتب فيها أخبارًا وتعليقات هي في الحقيقة ما أسمعه من الإذاعة أو أحاديث الأهل والزوار، ومعظمها عن الحرب التي كانت تشتعل آنذاك (١٩٣٩-١٩٤٥)، ووقع عدد من المجلة التي كنت أحاول أن لا يطَّلع عليها أحد خوفًا من الاستهزاء والسخرية بين يديَّ صديق للعائلة، خليل الطبري، فأبدىٰ إعجابه «بمهارتي» الكتابية.

لم أقم في حياتي بعمل أو نشاط إلا وكان القلم أداتي الأولىٰ وكانت الكتابة هي الوسيلة، وسواء نجحت أو فشلت، وحققت لنفسي مقعدًا في مجالس الكُتَّاب أو بقيت أبوابها موصدة في وجهي، فإني كاتب، ولم أكن إلا كاتبًا، ولا أحب أو أستحق أن أوصف إلا ككاتب، ولا أعترف بمهنة إلا مهنة الكتابة، حتىٰ حينما درست في بعض الجامعات في فترات متقطعة بقيت أحوم في سماء الكتابة وأعوم في بحار الحبر والورق.

عالم الكتابة الذي حبست نفسي فيه عالم واسع يشمل المقالة الصحافية وتأليف الكتب أو ترجمتها وإعداد الموسوعات والقواميس وتحرير المجلات

والزوايا الصحافية وإدارة مراكز البحوث والإشراف علىٰ يكتبه الآخرون، هذا هو عالمي الذي أعتز به، كان هواية قبل أن يصبح مهنة وكان حبًا دائمًا ولم يكن نزوة عابرة، وكان انتمائي إليه طوعًا وشرفًا ولم يكن واجبًا مفروضًا[1].

❁ ❁ ❁

قرأ لهم منذ نعومة أظفاره، وتعلق بأساليبهم جميعًا، فكان يكتب الصفحة علىٰ أسلوب طه حسين، ويكتب الأخرىٰ علىٰ أسلوب أحمد أمين، وثالثة علىٰ أسلوب عبد الوهاب عزام، فقد قرأ كتبهم حتىٰ حفظها، وعرف بحوثهم واستساغها، ونقلها إلىٰ إنشائه فاندمجت في أجزاء كتابته، واختلط الأمر فغدا مقلدة راوية، وكذلك يبدأ المتأدب، أول الدرب، يقلد ويقلد حتىٰ يتاح له مرة أن يبتكر[2].

❁ ❁ ❁

كان نصيبي من التعبير ضيقًا محدودًا، لا يؤهلني إلىٰ شيء، وأذكر أننا حين كنَّا في درس -الإنشاء - التعبير، كنت أكتب في الموضوع الذي يعطىٰ لنا في السنة السادسة سطورًا، لا تتجاوز الستة، بينما كان زملائي يكتبون صفحة كاملة، وبعضهم يكتب أكثر من صفحة بخط دقيق. والمفاجأة وأنا أعتبرها اليوم ممرعة، أما يومها فقد كانت غير ذلك إذ إنني «أُكملت» في درس الإنشاء في امتحان آخر السنة.

وأقول اليوم، بعد مرور خمسين سنة: رب ضارة نافعة، والحمد لله، فقد خدمني من لم ينجحني في التعبير يومئذ، وأدعو له بالرحمة، لأنه كان مخلصًا في رسالته مع ربه وأمانته، ذلك أنه سلك مبدأ: الدين النصيحة، كان ذلك درسًا في رد الفعل

---

(١) أنيس صايغ عن أنيس صايغ ص١٦٢.
(٢) د. سامي الدهان، درب الشوك ص٢٠.

يومئذ، دفعني إلىٰ القراءة وإيثار الكتاب علىٰ غذائي الضروري، بله الكماليات، ولم يكن في أيامي الأولىٰ ما يسمىٰ اليوم بـ: الكماليات[1].

ومن توفيق الله وعونه تعرفي علىٰ الأستاذ الأديب الشاعر ذي الخلق العالي محمود عارف في جدة، حين استقررت فيها، وذلك خلال عام ١٣٦٨ هـ، فأعلنت إليه حاجتي إلىٰ الزاد المعرفي ورجوته النصح، والرجل كريم وسمح وذو مروءة، فأشار عليَّ أن أشتري -نظرات- المنفلوطي، وأبدأ في قراءتها عليه بعد العصر من كل يوم، وكنت لصيقًا في ذلك الوقت لدىٰ آل راجح، في بيتهم، في حارة المظلوم، وكان محمد وعبد العزيز راجح الشقيقان زميلي في الجمارك، وكنت وعبد العزيز معًا في قسم التحرير، في أمانة جمارك الحجاز، والأستاذ عارف كان يسكن غير بعيد من بيت آل راجح.

وبدأت قراءة فصول نظرات المنفلوطي علىٰ الأستاذ عارف، وكان يقوِّم لي نطق الكلمات التي كنت أخطئ فيها وما أكثرها؛ لأن تحصيلي اللغوي كان محدودًا جدًّا، وكنت ألخص ما أقرأ في كراس في اليوم التالي.

ولعل هذا العون امتد شهورًا: قد تزيد علىٰ الثلاثة، ذلك أنني كنت شغوفًا بالقراءة، ومن توفيق الله أنني كنت لا أقع في خطأ وقعت فيه من قبل وصُحِحَ لي، وهذا أعانني علىٰ سرعة الجمز في قراءاتي ومطالعتي، وقد نصحني أستاذي العارف أن أقرأ مجلة «الرسالة»، لصاحبها أحمد حسن الزيات، فكنت أحرص علىٰ اقتنائها في يوم وصولها من مصر.. علىٰ بواخر الشركة الخديوية: «الطائف وتالودي»، ووكيل توزيع الصحف المصرية يومئذ محمد حسين أصفهانيّ، وكنت أبكر يوم وصول هواي «الرسالة» إلىٰ مكتبة الأصفهاني التي تشبه الكشك في السوق

(١) عبد الفتاح أبو مدين، حكاية الفتىٰ مفتاح ص١٤٢، ١٤٤.

الكبير في ركن -مسجد عكاش-، وأقف أنتظر وصول الأصفهاني بسيارته الجيب -الولز- يحمل أكياس الصحف والمجلات لأختطف -الرسالة- وأسهر ليلتي فرحًا بالغنيمة.

وكنت أفهم بعض ما أقرأ ولا أفهم الكثير مما تحفل به هذه المجلة التي كانت مدرسة في أيامها، والتي ظلت تصدر نحو عشرين سنة، ثم طوتها الأيام، حصلت من الأستاذ عارف علىٰ نسخ قديمة من مجلة الرسالة كان يحتفظ بها، فغنمت هذه الصفقة وفرحت بها واعتبرتها هدية ومكسبًا.

وعطشي إلىٰ المعرفة، وشعوري بما أحس من نقص كان يدفعني إلىٰ التقتير علىٰ نفسي في مأكلي وملبسي لأقتني كتابًا، فقد كنت أعتبر اقتناء كتاب يومئذ غنيمة، وأذكر أني كنت أخرج من الجمرك في آخر الدوام وفي جيبي خمسة ريالات، متوجهًا شطر سوق الندىٰ لأنال غدائي في أحد المطاعم -العدنية -.

وحين أرمق المكتبة التي كان يقتعد فيها رجل يمني مسن، يلف ساقيه وظهره بحبوته في مبنىٰ من مباني الأوقاف في تلك السوق، فهذا الرجل يقضي القيلولة في مكتبته التي تحوي كتبًا قديمة، قليل راغبوها أجد الشوق يدفعني إليه لأشتري كتابًا بثلاثة ريالات مضحيًّا بغدائي، وأنا فرح وسعيد بما حصلت عليه من زاد فكري، وأنصرف عن المطعم إلىٰ بائع الجبن و«الشريكة» المطرزة بالسمسم، فأشتري وجبتي، وأمضي نحو سكني سعيدًا بما نلت من غُنْم.

وبعد تناول وجبتي التي ارتضيتها من الخبز والجبن، أنام ساعة، ثم أستيقظ لأستأنف تقليب صفحات الكتاب الذي اشتريت، وآخذ في قراءتها، فإذا شعرت بتعب الجلسة علىٰ طراحتي القطنية ، وتكون الشمس قد غربت، أضع -الفانوس- عند رأسي علىٰ صفيحة قاز فارغة، وأتمدد علىٰ ظهري وآخذ في القراءة حتىٰ

يداهمني النعاس، وفي بعض الأوقات أغفو والكتاب علىٰ صدري ثم أستيقظ، لأضع الكتاب علىٰ الأرض وأطفئ الفانوس وأمضي في نومي.

وكنت خلال هذه المرحلة أستعير كتابًا من أحد أصدقائي؛ لأني لا أستطيع اقتناء كل كتاب أراه في المكتبات، فالمرتب لا يحتمل ميزانية الكتب التي لا حدود لها، وكان الصديق كرماء يعيرونني الكتاب الذي يجذبني عنوانه، علىٰ أن أعيده في وقت قياسيّ كما يقال، خلال يومين، وكان لا بد من السهر في ناموسية الشاش، هروبًا من الناموس وأحتمل دخان الفانوس بجانبي لأقرأ شطرًا من الكتاب ليلًا، وأكمله خلال النهار، ثم أعيده إلىٰ صاحبه مصحوبًا بالشكر والعرفان بالجميل.

وكنت أبتعد عن السهر مع الصديق في تلك الفترة التكوينية، إن صح هذا التعبير، لأني في حاجة إلىٰ الزاد المعرفي بقدر ما يتاح لي، في حدود إمكاناتي العقلية والمادية. وأتساءل أين الطموح في شبان اليوم ليقرئوا ويتثقفوا والكتب تملأ المكتبات والحال المادية ميسورة، ولكن الهمم نامت وخمدت![١]

وهكذا تحول ذلك الصبي العامل في المقاهي والفرن، وخلط وعجن (مونة) البناء والترميم، والذي لم يحصل إلا علىٰ الشهادة الابتدائية في ثلاثة عشر شهرًا دراسية، وقد ضاعت تلك الشهادة الوحيدة وأصبح -مفتاح- كويتيبًا، ناقدًا مشاركًا في إصدار صحيفة الأضواء في جدة، في نهاية عام ١٣٧٦هـ، وهو يومئذ موظف في قسم التحرير في جمرك جدة، راتبه لا يتجاوز ثلاثمائة وأربعين ريالًا، ثم أصدر في عام ١٣٧٩هـ بمفرده مجلة الرائد الأدبية، التي استمرت تؤدي دورها الثقافي حتىٰ قيام المؤسسات الصحافية في البلاد، في نهاية عام ١٣٨٣هـ، ثم دخل مؤسسة عكاظ للصحافة والنشر موظفًا.. في إدارتها، ثم أسند إليه.. في شهر شوال / ١٣٩٣هـ

(١) عبدالفتاح أبو مدين، حكاية الفتىٰ مفتاح ص١٥٥، ١٥٩.

مسؤولية العدد الأسبوعي من عكاظ، وهو عدد مستقل، مضىٰ فيه قدمًا، حتىٰ استقال في متوسط عام ١٣٧٦هـ، ثم تحول إلىٰ مؤسسة البلاد للصحافة والنشر مع الدكتور حسن أبي ركبة، وكانت المؤسسة في وهدتها، فاستعان الرجلان: أبو ركبة وأبو مدين بالله، وشمرا عن ساعد الجد، فأنقذا المؤسسة من الغرق، وأنشأ مطابع دار البلاد، وحققا نجاحًا وتقدمًا وارتقاء بالمؤسسة والمطبعة، وأصبح ذلك الفتىٰ الذي عرفنا آنفًا بدايات حياته.. إداريًّا ناجحًا في عكاظ والبلاد المؤسسة والمطبعة والنادي الأدبي الثقافي[١].

❁ ❁ ❁

كتابات المنفلوطي التي كنتُ «أرتِّلها» في نفسي بالتقديس والإجلال. بدأت محاكاته وخاصة في موضوعات الإنشاء المدرسية، ومما كنت أصنعه أن أدوِّن في «مذكرة» العبارات التي تعجبني من كتابات المنفلوطي، وأضع المذكرة في جيبي وأنا أشعر أنها نقود أنفق منها فيما أحتاج إليه.

ولا أظنني بحاجة إلىٰ أن أقول: إن ذلك كان في البداية فقط، فلابد أن تكون للكاتب شخصية متميزة وأسلوبه الذي هو هو، ولكن لا بد أن يتكون من منابع ويتقوىٰ بروافد حتىٰ يتم تمامه ويجري جريانه[٢].

---

(١) عبدالفتاح أبو مدين، حكاية الفتىٰ مفتاح ص٢١٨، ٢١٩.

(٢) عباس خضر، ذكرياتي الأدبية ص١٨.

مقالاتهم

الكتابة للصحافة والتأليف مشغلة عن الاستزادة في القراءة أيما مشغلة. ولكنني وطنت نفسي علىٰ كثرة الكتابة والتأليف رغم مشقتها علىٰ نفسي وأُنسي، لأنه ليس من رسالة طالب العلم أن يُثقِّف نفسه فحسب، بل عليه أن يُنوِّر أبناء أمته بكل ما حققه وحذقه من علم؛ ولأن كثرة الكتابة تثبت العلم في الذاكرة، ولأن كل كتابة مشروع تطلّع جديد يتعهده الكاتب مدىٰ عمره، ولأن رزقي في شفرة قلمي![1]



وأنا مضىٰ عليّ الآن (٤٤) سنة وأنا أحرك قلمي، وأكتب إلىٰ الجرائد مجانًا لا أبتغي جزاءً ولا شكورًا[2].

والحق أن هموم النفس التي لا خلاص منها في خضم الحياة، قد تقف حائلًا دون الإنتاج المفيد إذ تأتي من الأحداث ما تصرف النفس، فلا تجد الرغبة في الكتابة مهما سهُلَت المصادر، ودنت الوسائل، بل بدون هذه الأحداث قد يعزف الإنسان عن القراءة فضلًا عن الكتابة، فتظل حيًّا كميت، وحاضرًا كغائب، ويمتد ذلك إلىٰ بضعة اشهر لا بضعة أيام، وقد عالجت الكتابة العلمية، والكتابة الأدبية فوجدت الكتابة العلمية قد تكون أيسر منالًا من الكتابة الأدبية لأن الكتابة العلمية تسهل وتلين إذا توفرت المصادر، وهدأ البال، أما الكتابة الأدبية فلا بد لها من الصفاء

(١) أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري، تباريح التباريح ص١٤.
(٢) محمد كرد علي، المذكرات (٢/ ٤٣٠).

الروحي والإشعاع النفسيّ حتىٰ تستجلي الخوالج الدفينة في أعماقك، ومن حسن الحظ -لا من سوئه- أني لا أرضىٰ عما أكتب، وكلما قرأت ما كتبت لاحت لي نواح من النقص كان يجب استكمالها، لذلك جعلت ديدني أخيرًا ألا أراجع المقالات الأدبية والاجتماعية بعد كتابتها، بل أتركها كما سمح بها القلم في الجولة الأولىٰ، لأن المراجعة تفتح لي أبواب الزيادة والحذف حتىٰ يكاد الموضوع أن يتحول إلىٰ شيء آخر، وهذا مما يتعب ويرهق، وعلىٰ العكس من ذلك القصيدة الشعرية، فإني أجد رغبة شديدة في معاودة المراجعة لها، وأحذف ما أحذف مستريحًا وأزيد ما أزيد في شوق، لأن الفكرة وإن كانت تامة، والتصوير وإن كان مكتملًا، فهذا التمام وهذا الكمال لا يمنع الخيال أن يوحي بالجديد، لا سيما في العاطفيات التي تلج إلىٰ مسارب النفس.

والنفس غور عميق لا يُسبَر مهما حاول الإنسان الغوص، فيكتفي بما جادت به المقادير، وفرحي بالقصيدة إذا اكتملت علىٰ الوجه الصحيح أكثر من فرحي من المقال أو الكتاب إذا اكتمل وطُبع وذاع، لأن كل إنسان يتمنىٰ في أعماقه أن يبدع من ذاتيته ما يفاجئ به القارئ، والكشف عن الذات كما يكون في المقال الأدبيّ وفي القصة ذات التحليل، يكون في القصيدة أكمل وأتم مهما قلّت مساحتها اللفظية، لأن ما يغمر الشعر من التصوير والموسيقىٰ والإيحاء والرمز كل ذلك لا يتوفر علىٰ الوجه الأكمل في غيره، لذلك تجد الشعر يُحفظ ويستعاد، وكأنه مقطوعة غنائية يطرب لها الجمهور، وأعني بالشعر هنا الشعر الحقيقي الجدير بهذا الاسم لا كل ما يقال مما نعهد لدىٰ العروضيين والنظاميين[١].



(١) د. محمد رجب البيومي، ظلال من حياتي ص١٨٣، ١٨٤.

وأكثر ما اتجهت في هذه المقالات إلىٰ نوع من الأدب تغلب عليه الصيغة الاجتماعية والنزعة الإصلاحية، فهذا أقرب أنواع الأدب إلىٰ نفسي وأصدقها في التعبير عني، وخير الأدب ما كان صادقًا يعبر عما في النفس من غير تقليد، ويترجم عما جربه الكاتب في الحياة من غير تلفيق.

ولقد اطمأننت إلىٰ هذا النوع من الكتابة، إذ كان يفتح عيني للملاحظة والتجربة، ويسرّي عن نفسي بالإفراج عما اختزنته من حرارة، فكنت أشعر بعد كتابة المقالة كما يشعر المحزون دمعت عينه أو المسرور ضحكت سنه، وكنت أحس كأن نحلة تطن في أذني لا تنقطع حتىٰ أكتب ما يجيش في صدري، فإذا استولىٰ موضوع المقالة علىٰ ذهني فهو تفكيري إذا أكلت أو شربت، وحلمي إذا نمت؛ وعمل لا وعيي الباطن إذا شغلت؛ ولهذا انقلبت هذه الظاهرة إلىٰ عادة، ومن عادة إلىٰ (كيف) متسلطن.

ولي تجربة في هذا الباب؛ وهي أني إذا عمدت إلىٰ إعداد بحث علمي كفصل من فصول فجر الإسلام أو ضحىٰ الإسلام فأنا في كل وقت صالح لهذا العمل ما لم أكن مريضًا، أما في المقالات الأدبية فلست صالحًا في كل وقت، بل لا بد أن تهيج عواطفي بعض الهياج، وتهتز نفسي بعض الاهتزاز، كمن يمتح من بئر أو ينحت من صخر، وأحيانًا أرىٰ القلم يجري في الموضوع حتىٰ أستطيع أن أوقفه، وأحيانًا يسير في بطء وعلىٰ مهل حتىٰ لا أستطيع أن أستعجله، وأحيانًا يتعثر فلا أجد بدًّا من الإعراض عن الكتابة، ومن الصعب تعليل ذلك، فقد يكون سببه صلاحية المزاج وسوءه، وقد يكون قوة الدواعي وضعفها، وقد يكون الاستعداد للتجلي وعدمه.

واعتدت منذ أول عهدي بالقلم أن أقصد إلىٰ تجويد المعنىٰ أكثر مما أقصد إلىٰ تجويد اللفظ، وإلىٰ توليد المعاني أكثر من تزويق الألفاظ، حتىٰ كثيرًا ما تخيل (ضمائري) فأعيد الضمير علىٰ مؤنث مذكرًا وعلىٰ مذكر مؤنثًا، لأني غارق في

المعنىٰ غير ملتفت إلىٰ الألفاظ، ولا أتدارك ذلك إلا عند التصحيح، وقد يفوتني ذلك أيضًا؛ ولتقديري للمعنىٰ أميل إلىٰ تبسيطه حتىٰ لأسرف أحيانًا في إيضاحه لشغفي بوصوله إلىٰ القارئ بيّنًا ولو ضحيت في ذلك بشيء من البلاغة.

ومن حبي للإيضاح أفضل اللفظ ولو عاميًّا علىٰ اللفظ ولو فصيحًا إذا وجدت العامي أوضح في الدلالة وأدق في التعبير، وأفضل الأسلوب السهل ولو لم يكن جزلًا إذا وجدت الأسلوب الرصين يغمض المعنىٰ أو يثير الاحتمالات، ويدعو إلىٰ التأويلات، ومن أجل هذا تشكك فيّ بعض الأدباء: هل يعدونني أديبًا أو عالمًا! ولم أقم لهذا الشك وزنًا، فخير لي أن أصدق مع نفسي ومع غرضي ومع ميلي من أن أزوّق أسلوبي وأكذب علىٰ نفسي ليجمع الناس علىٰ أدبي[1].

❁ ❁ ❁

أنا في العادة أخجل فأهضم نفسي حقها بهذا الخجل، ومن حقي أن أقول: إن الأسلوب الذي أكتب به والأسلوب الذي كنت أخطب به كلاهما جديد، قلدني فيه كثيرون وما قلدت فيه أحدًا، وكذلك الأسلوب الذي كان ينظم به أخي أنور العطار رحمه الله.

أنا لا أنكر أني تأثرت حينًا بالمنفلوطي وحينًا بالرافعي وحينًا بالمازني، لا سيما في قصة «سانين» (وهي قصة سيئة لكاتب روسي ترجمها من قديم عن الإنكليزية ونشرتها سلسلة روايات «مسامرات الشعب» من أكثر من نصف قرن)، وحينًا بجبران، ولكن هذا كله كان عارضًا لم يستمر طويلًا، وكنت معجبًا أشد الإعجاب بالرافعي، ولكن تبدل نظري إليه وحكمي عليه، وخير ما كتب «تحت راية القرآن» و«وحي القلم»، أما ما يسميه فلسفة الحب والجمال في مثل «رسائل الأحزان»

---

(١) أحمد أمين، حياتي ص٢٦٣، ٢٦٥.

و«السحاب الأحمر» و«أوراق الورد» فأشهد أنه شيء لا يطاق، يتعب فيه القارئ مثل تعب الكاتب ثم لا يخرج منه بطائل.

وكنت معجبًا بالزيات، وما أزال معجبًا به، وإن كان يحس القارئ بأنه يَتعب بتخيّر ألفاظه ورصف جُمَله، أما زكي مبارك فأحسب أنه صاحب أجمل أسلوب، تقرؤه بلذة ولا تكاد تجد فيه فائدة! ولقد قرأت كتابه «ليلىٰ المريضة في العراق» خمس مرات، وما فهمت ما ليلىٰ هذه؛ أهي حقيقة أم رمز؟ وهل يصف واقعًا أو يسرد خيالًا؟ ماذا يريد أن يقول، ما عرفت ولا وجدت من عرف. ولكنه -علىٰ ذلك- كلام جميل جميل.

وممن عرفت مَن يكتب المقالة الواحدة في يوم كامل أو في أيام عدة، كالرافعي (كما قال عن نفسه في مقالته «دعابة إبليس»)، والزيات كما عرفته لما كنت معه، ومنهم من يكتبها في جلسة واحدة لا يمسح القلم ولا يعيد النظر في جملة، كالمازني وزكي مبارك في أكثر أحواله، وكان الشيخ علي يوسف صاحب «المؤيّد» يكتب المقالة التي تهزّ البلد أو ترجّ أركان الحكومة وهو يحدّث زُوّاره ويكلّم مَن حوله، و«لكل امرئ من دهره ما تعوّدا»[1].

❁ ❁ ❁

بدأت الكتابة في جريدة «الأحرار» باكرًا ثم استمررت أكتب فيها وفي وليداتها: «الأحرار المصورة» و«صوت الأحرار» و«النهار» ففي طبعي أمران لا أعرف كيف جاءا إليّ، وأنا أحمد الله علىٰ وجودهما في: الوضوح في العمل والثبات في المسير.

---

(١) علي الطنطاوي، الذكريات (٣/ ٢٨٦، ٢٨٧).

ولما بدأتُ الكتابة في جريدة «الأحرار» بدأت أيضًا بالكتابة بتوقيع مستعار «صريع» أو «صريع الغواني»، كان لهذا التوقيع قصة: كان نفر منا في الجامعة الأميركية: أنا وحافظ جميل وإبراهيم طوقان ونديم بارودي (رحمهم الله) ووجيه بارودي نؤلف: «دار الندوة»، نجتمع في الحين بعد الحين فننظم قصائد معًا (وكان اهتمامي بالدروس أكثر من اهتمامهم. من أجل ذلك كان اجتماعي معهم قليلًا). في «دار الندوة» اختار إبراهيم طوقان لقب العباس بن الأحنف، واختار حافظ جميل لقب أبي نواس (وحافظ جميل من بغداد) واختار وجيه بارودي لقب ديك الجن (وديك الجن أو عبد السلام بن رغبان شاعر من حمص)، و(وجيه بارودي من حماة)، فلم يبق لي من تلك الكوكبة من شعراءِ العصر العباسي الأول سوىٰ لقب صريع الغواني مسلم بن الوليد، أما نديم بارودي فلم يتخذ، فيما أذكر، لقبًا؛ لأنه كان يدون وقائع الجلسات فقط.

وفيما بعد تركت التوقيع بلقب صريع الغواني (إلا في الحين بعد الحين) وأخذت في توقيع مقالاتي باسمي الصريح، وكنت في عدد من الأحيان أوقع بالحرف «ع» أو بالحرفين «ع. ف».

كانت مقالاتي في الأدب والتاريخ وفي الردود (وخصوصًا علىٰ الأب لويس شيخو والأب هنري لامنس)، كان لويس شيخو قد توفي (عام ١٩٢٧)، ولكن الأب هنري لامنس كان ما يزال حيًّا (ت ١٩٣٧)، كان الأب لويس شيخو مغرمًا بجعل كل شاعر عربي مسيحيًّا، وأما لامنس فكان يريد أن يشكك القارئ في كل جهد إسلامي[١].

---

(١) عمر فروخ، غبار السنين ص٣٨، ٤٠

تعودت الكتابة بيدي علىٰ الورق علىٰ شكل تسويد ثم إملاء النص انطلاقًا من هذه الأوراق، وعملية الإملاء هذه عملية مركبة إذ يتزاحم فيها التفكير والتعديل ويغتني فيها الجدل داخل الفكر، أما عن أوقات اشتغالي، فأنا أشتغل منذ ما لا يقل عن ربع قرن بوتيرة يومية من الساعة التاسعة صباحًا حتىٰ الساعة الثانية عشرة ظهرًا، ومن الثالثة حتىٰ السادسة مساء. وأنام في الغالب في العاشرة أو العاشرة والنصف ليلًا بعد قراءة صفحات من كتاب أو مجلة علىٰ الفراش[1].

❁ ❁ ❁

الكتابة مسألة مزاجية وفن خاص جدًّا يمارسه صاحبه بطريقة متميزة عن الكتَّاب الآخرين؛ ولأسباب أجهلها، لا أكتب إلا علىٰ ورق أصفر ومسطر، إن أي نوع أو لون آخر من الورق يتعذَّر علىٰ قلمي أن يجول علىٰ صفحاته، أقول «قلمي» لأني لم أعتد الطباعة علىٰ الآلة الكاتبة، ولا استعمال الكمبيوتر ولا آلة التسجيل ولا أي من المخترعات الحديثة، ولم أمارس الإملاء في حياتي، حتىٰ بعد أن ضعف النظر كثيرًا، وأنا حاليًّا أكتب لكن لا أستطيع أن أقرأ ما أكتب، أعتمد علىٰ زوجتي أن تقرأ لي ما سبق أن كتبت.

وأفترض الهدوء الكامل وأنا أكتب أي كلام أو ضجيج أو تقطع أو رنين الهاتف يقطع عليَّ أفكاري ويبعدني عن مواصلة الكتابة، والأفضل أن أكون وحدي

(١) د. محمد عابد الجابريّ، حفريات في الذاكرة ص٢٣٨.

في الغرفة وأنا أكتب، ولا أكتب إلا علىٰ طاولة كبيرة ومرتبة وكل شيء عليها في موضعه المناسب والصحيح(١).

۞ ۞ ۞

سيرتي في الكتابة إجمالًا أن أنفتح علىٰ رياح الحياة وأمدادها، أن أترك الأشياء ومسمياتها تأتي إلي في لحظات يقظتي وانتباهي، وحتىٰ في لحظات سهوي وشرودي، فآخذ في إلقائها علىٰ الورق لكي لا تتبدد وتذهب سدىٰ، ثم أرجع إليها المرة تلو الأخرىٰ من أجل صقلها وتشذيبها في ضوء فكرة أو رؤيا أحدس جدارتها وبلاغتها.

مجمل الطقوس عندي، أو لنقل العادات، أن أحاول تحقيق ما أقدر عليه من الاستغوار الذاتي في فضائي المعتاد، وأن أهيئ للكتابة ما تستلزمه من عزلة وتوحد، فلا لاغية ولا ضوضاء ولا انشغال بشيء آخر سواها، وفي حالة الإعياء أو نضوب القلم، أقضي لحظات استرخاء في انتظار عودة المداد إلىٰ مدده ومجراه.

المتعة، متعة الكتابة، تكمن أساسًا في علاقتي مع نفسي ومع كيانات الكلمات والأشياء، إنها الثمرة المطلوبة والمجتناة؛ إنها كنبض حي من طبيعتها أن تتجلىٰ عبر لمع وبوارق، ثم تخبو أو تزول؛ لذا أراني أقضي أقسىٰ أوقاتي عند تواري المتعة، أي بعد اقتنائها واستهلاكها، كما أني أقضي في ترقب عودتها وتجددها لحظات يُتمٍ وقلق.

وقد أتلهىٰ في حالتي هاته بتسويد بياض الانتظار بما يعنُّ لي من الكتابات التعويضية، التي قد تجلب لي بعض المتع الصغيرة، لكن ما إن تتلاشي تلهيتي هته

---

(١) أنيس صايغ عن أنيس صايغ ص٢١٢، ص٢١٣.

حتىٰ أعود إلىٰ طلب النشوة الحقيقية والعليا، التي يوقنني زخمها وتوهجها أنها مُعدية، أي قادرة علىٰ أن تمس بقبساتها بعض الآخرين(١).



قلَّما ألفت في المساء لأني إذا كتبت هاج مخي، فإذا ما نمت بعد الكتابة لم أنم نومًا هادئًا، وظل عقلي يحلم ويحلم، ويبدئ ويعيد فيما كنت أكتب، وليس الحال كذلك إذا اقتصرت علىٰ القراءة، ولذلك اعتدت أن أفكر وأقرأ مساء ثم أكتب صباحًا غالبًا، ولا أستطيع الكتابة إلا في هدوء تام فأي صوت يزعجني، وكم تمنيت أن يكون للأذن غطاء خاضع لإرادة الإنسان كما هو الشأن في العين(٢).

❁ ❁ ❁

ليس أبغض إليَّ من الكتابة، ولا أثقل علىٰ نفسي من تناول القلم، وما أعرفني كتبتُ شيئًا إلا بعد أن أعيا بالتهرُّب وأعجز عن الإفلات، وليس هذا لكسل، فإني لا أطيق السُّكون.

ومن أغرب ما يحدث أني أراني كلما أردتُ الكتابة أحاول قبل معاناتها أن أعزِّي نفسي بأحلام اليقظة، فآوي إلىٰ فراشي وأستلقي عليه وأغمض جفني، وأذهب أحضِر إلىٰ ذهني صورًا شتَّىٰ من الحياة كما أشتهي أن تكون، علىٰ قدر ما يستطيع خيالي أن يلفِّق، وما أزال كذلك حتىٰ يغلبني النعاس أو ينهضني الشعورُ بالواجب إذا كان الوقتُ أضيقَ من أن يتَّسع للأحلام، وفيما عدا ذلك لا أحبُّ الأحلام ولا أؤثرها علىٰ الحقائق.

---

(١) بنسالم حميش، الذات بين الوجود والإيجاد ص ٧٥.

(٢) أحمد أمين، حياتي ص٣٠٤.

ولو كانت القدرة علىٰ اختيار الموضوع تسعفني لكنت حقيقًا علىٰ الأرجح أن أكون أنشط إلىٰ الكتابة، ولكنَّ اختيار الموضوع أشقُّ عليَّ وأشدُّ عذابًا من الكتابة نفسها، علىٰ فرط مَقْتِي لها واستثقالي لمعاناتها.

وأنا أحسُّ حين أعالجُ أن أهتدي إلىٰ موضوع صالح للكتابة كأن رأسي قد صار «قهوة برابرة» أعني مكانًا يكثر فيه اللَّغط وتشتدُّ الضوضاء ولا يدري المرء كيف يفهَم الناسُ بعضهم عن بعض، كذلك يكون رأسي كلُّ ما فيه ضجَّةٌ عاليةٌ مرهقةٌ تنتهي بالصُّداع والعدول عن الكتابة، أو إرجائها إلىٰ وقتٍ آخر أحسُّ فيه أني أصحُّ وأكثر تهيُّئًا لها.

والواقع -عندي علىٰ الأقل- أن نفسي لا تكون متهيِّئةً للكتابة في كلِّ وقت أو كلَّما أردت، ويخيَّل إليَّ أن هناك أويقاتٍ تحسُّ فيها النفسُ مثل نشوة الخمر، وهذا هو الذي أعنيه بالتهيُّؤ، وقد كنت أجرِّب ذلك أيام كنت أكتب وأنا في سَراح ورَواح -أعني لمَّا كنت غير مطالب بالكتابة -، أما الآن فقد صارت الكتابة صناعةً وعملًا أؤدِّيه وأنا كاره؛ لتكرُّره يومًا بعد يوم بلا راحة أو استجمام.

وقد سألني بعضهم في رسالة بعث بها إليَّ: لماذا لا أقول الشعر الآن؟ وليس لي من جواب عن ذلك سوىٰ أن الصِّحافة هي التي قطعتني عنه، والصِّحافة تُكسِب الكاتب مرونة في الأسلوب وسرعةً في الأداء، ولكنها تفسِد عليه فنَّ الكتابة، ولا سبيل إلىٰ الاستغناء عن الفنِّ في الشعر إذا أمكن الاستغناء عنه في كتابة الصُّحف[1].

إذا بدأتُ الكتابة فيندر جدًا أن أتوقَّف بعد ذلك، ولكن الصُّعوبة هي أن أبدأ، واستهلال الكلام هو الذي يحيِّرني دائمًا ويشقُّ عليَّ، وأحسب هذا راجعًا إلىٰ حالة عصبيَّة أو إلىٰ ما يسمَّىٰ «الإيحاء الذاتي» أعني الإيحاء إلىٰ النفس؛ فقد ظللتُ أقول

---

(١) إبراهيم المازني، العمر الذاهب ص٢١٠-٢١١.

لنفسي كلَّما هممتُ بعمل أو قول أو كتابة أو مباشرة أيِّ شيء: إن الخطوة الأولىٰ العسيرة، والتي يكثر قبلها التردُّد، حتىٰ إذا خطاها الإنسان صار ما بعدها سهلًا، نسبيًّا علىٰ الأقل، ظللتُ أقول هذا لنفسي وللناس حتىٰ وقر في ذهني، ورسخ في نفسي، وبدا أثره في كلِّ ما أعالج، حتىٰ في شؤون الحياة العادية.

وأنا أكره أن أضطرَّ إلىٰ حذف الكلمات وإفسادها و «ترميجها» أي شطبها، ولا سيَّما في فاتحة الكتاب، ويسرُّني ويشجِّعني علىٰ المضيِّ أن أرىٰ السطور تتوالىٰ مستقيمةً بلا شطب أو إفساد.

وإذا كتبتُ علىٰ مهل جاء الخطُّ واضحًا والسُّطور متقاربة، وإذا أسرعتُ -وهذا هو الأغلب- تباعدت السُّطور وساء الخطُّ.

ولست أستطيع أن أكتب إلا في اللحظة الأخيرة التي ليس بعدها أخرىٰ، وأحسب هذا راجعًا إلىٰ الكسل من ناحية، وإلىٰ طبيعة العمل الصحفيِّ اليوميِّ من ناحية أخرىٰ.

وقد تعوَّدت أن لا أكتب إلا علىٰ مكتبي في الجريدة، فليس لي في بيتي عملٌ سوىٰ القراءة، أما الكتابة في البيت فقد قاربَت المستحيل.

ويستوي عندي الآن أن تكون الغرفة خاليةً ساكنة، وأن تكون كالسُّوق القائمة كلَّها ضوضاء؛ فإن في وسعي أن أنصرف عن الضَّجَّة، وأن أحصر التفاتي في عملي بحيث لا أسمع ما يدور حولي من اللغط بالغًا ما بلغت ضجَّته، وما دام الذين حولي لا يوجِّهون الكلام إليَّ ولا يطلبون مني المشاركة في الحديث فإن لغطهم لا يعطِّلني ولا يُحْدِث لي أيَّ تعويق، لا في عملية التفكير، ولا في صَوغ العبارة عمَّا أريده؛ لأن انصرافي عنهم يكون تامًا، فكأنهم غير موجودين، واعتقادي أن تأثير العمل في

وسط الضوضاء سيءٌ جدًا، وأن ضرره بالأعصاب عظيمٌ وإن كان المرء لا يشعر بذلك.

وكثيرًا ما أحسُّ حين يستغرقني الموضوع كأني أكتب ما يملىٰ عليَّ، فأكتب وأنا لا أكاد أفهم، كأني سكرتيرٌ تجري يده بما تتلقَّىٰ أذنه، وليس في هذا الذي أصفه مبالغة، ولا أنا أكتبه لأدَّعي أني ملهَم. كلَّا، لا شيء من هذا علىٰ الإطلاق، وإنما هي الحقيقة التي جرَّبتها مرَّاتٍ لا تعدُّ ولا تحصىٰ، وأحسب تفسير ذلك أن شيئًا مستكنًا في ما وراء الوعي يبرز فجأةً ويستولي علىٰ النفس ويملؤها، فيجري به القلم بسرعة.

ولستُ أعود إلىٰ ما أكتب بعد الفراغ منه، مهما كان حرصي عليه وعنايتي به؛ فإني سريع الملل والضَّجر، ويندر جدًا أن أستطيع تغيير شيء فيه.

ولهذه المناسبة أقصُّ عليك أني لمَّا قدَّمتُ روايتي «غريزة المرأة» للسيدة فاطمة رشدي طلبت منِّي أن أطيلها قليلًا، فاعتذرتُ لها بأني كالتي وضعَت طفلًا، فإن كان قد جاء أنثىٰ فهي لا تستطيع أن تجعله غلامًا، وإذا جاء غلامًا فليس في طوقها أن تقلبه أنثىٰ، أو أن تجعله أجمل أو أقبح، أو تصلح له أنفه أو تصغِّر له أذنيه، فضحكت وقبلت عذري.

ولا أحتاج أن أقول: إني لا أعرف التبييض، فإن الصِّحافة تعلِّم المرء الاكتفاء بالمسوَّدة، والاقتصار علىٰ استعمال القلم الرَّصاص؛ ولذلك يندر أن يتفق أن يوجد في بيتي حبر، وإذا وُجِد فهو ممَّا يشتريه ابني لحاجته إليه في دروسه[1].

۞ ۞ ۞

من عادتي ألا أُرسل ما أكتبه مباشرة أو من وحي اللحظة الأولىٰ سواء كان شعرًا أو نثرًا بل كنت أكتب ما أكتب ثم أعود إليه بالنقد والتصحيح، ولكني مع ذلك كنت

---

(١) إبراهيم المازني، العمر الذاهب ص٢١٩، ٢٢٤.

متعجلًا ومعجبًا بما أكتب، فأراه كله صالحًا للنشر بينما الآخرون يرونه تافهًا فيرمون به في سلة المهملات، وكنت أتأثر من ذلك، ولكني كنت مثابرًا علىٰ المحاولات ولم يمنعني عدم النشر من الكتابة مرات أخرىٰ وتجويد كتابتي.

ومن عادتي أني كنت أعرض ما أكتب علىٰ من كان يزورني أو ألتقي به من أندادي أو من كان يكبرني من الطلبة بل تجرأت بعض الأحيان وطلبت رأي الشيخين هالي والتليلي فيما أكتب. فكنت أقرأ عليهم ما كتبت إعجابًا بنفسي وحماسًا لفكرتي، ولكن ألاحظ من وجوههم أنهم لا يشاركونني نفس الإعجاب والحماس، وقد أفسر ذلك منهم علىٰ أنه غيرة مني، فازداد إصرارًا علىٰ المواصلة والإتقان بدل أن يؤدي ذلك إلىٰ فشلي[1].

---

(١) أبو القاسم سعد الله، حياتي ص١٥٠.

وصايا الكتابة

في سنة ١٩٢١، كنت رئيس تحرير جريدة الأفكار، وكانت لسان الحزب الوطني، وكان يشرف عليها بماله وجاهه عبد اللطيف الصوفانيّ. وكان صاحب الفضيلة الشيخ محمد شاكر يجعل سهرته في منزل الصوفاني بك، وكانت مقالتي تقرأ في السهرة مرة ومرتين ومرات، وكانت هذه الالتفاتة تغريني بالزهر والخيلاء، ولكن الشيخ قال: اكتب كثيرًا يا زكي، اكتب في كل وقت لترتاد علىٰ سهولة البيان[١].

(١) زكي مبارك، زكي مبارك بقلم زكي مبارك، إعداد كريمة زكي مبارك ص١٣٤.

كتب ومجلات

الاعتبار

عندما سافر الأمير عبد الإله ونوري السعيد إلىٰ أمريكا زارا جامعة برنستون في نيوجرسي، وقدمت إليهما هذه الجامعة هدية، هي جملة نسخ من كتاب (الاعتبار) لأسامة بن منقذ الذي عُني بتحقيقه ونشره الدكتور فيليب حِتّي في نيويورك، وكان هذا الكتاب الجليل من أحب الكتب إلىٰ نوري السعيد، إذ كان كثيرًا ما يشتري مني قبل أسفاره نسخًا منه ليقدمها هدايا إلىٰ أصدقائه ومعارفه، وكان الذي دلَّه علىٰ هذا الكتاب وحبَّبه إليه عبد الرزاق الحَصَّان -رحمه الله - الذي كان لا يرىٰ نسخة من كتاب إلا بعث بها إلىٰ من يعرفهم من أصدقائه[1].



الفرج بعد الشدة

هل قرأتم كتاب «الفرج بعد الشدة» للقاضي التنوخيّ؟ لقد قرأته وعمري إحدىٰ عشرة سنة، ثم قرأته أكثر من ثلاثين مرة وحفظت قصصه كلها من كثرة ما أعدت النظر فيه، فاقرؤوه تجدوا فيه ما لا تجدون مثله في كتاب آخر من صور المجتمع العباسيّ ومصطلحات أهله، وأحوال الموظفين وأوضاع التجار، وأقل ما تستفيدون منه أنه يهوّن علىٰ المحزون منكم حزنه حين يرىٰ أن مِن الناس مَن أصابه أكثر مما أصابه[2].



---

(١) قاسم محمد الرجب، المذكرات ص١٤٣.

(٢) علي الطنطاوي، الذكريات (٢/ ٣٧١، ٣٧٢).

لسان العرب

مضيت إلىٰ الشيخ المرصفي مرة فقال: هل عندك نسخة من لسان العرب؟ فقلت: لا. فقال: تبيع جبتك وقفطانك وتشتري نسخة من لسان العرب[1].



الأغاني

• كان من أول ما اقتنيتُ «الأغاني» (طبع السَّاسي)، وهي نسخةٌ محشوَّةٌ بالغلط، ففككتُ الأجزاء «مَلازِم»، وجعلتُ أحملُ المَلازِم معي واحدةً واحدةً إلىٰ دار الكتب في أوقات فراغي، وأراجع النصوص نصًّا نصًّا، وبيتًا بيتًا، وأدوِّن التصحيح أو التكملات علىٰ ورق أبيض أعددتُه لذلك، وصرتُ ألصِق الورق المكتوب بين الصَّفحات المطبوعة، حتىٰ إذا انتهيتُ من جزءٍ جلَّدتُه وانتقلتُ إلىٰ ما يليه، وهكذا حتىٰ أتممتُ الكتاب كلَّه، فصار ضعفَي حجمه الأصلي، وحدَث لسوء حظي في أيام الحرب الماضية أن رَقَّت حالي فجأة، واحتجتُ إلىٰ المال، وأنا امرؤٌ ربَّتني أمي -رحمها الله- علىٰ الاعتماد علىٰ النفس والاستغناء عن الناس، وبغَّضَت إليَّ الاستدانة وكلَّ ضروب الاستعانة بالغير، فلم أجد لي حيلةً إلا أن أبيع ما اقتنيتُ من كتب، ورأىٰ بعضهم عندي نسخة «الأغاني» هذه، فألحفَ في طلبها، فأبيتُ أن أبيعها، فلم يزل يزيد في الثمن ويرتفع به حتىٰ أغراني، وما كاد يخرج بها حتىٰ طار عقلي وندمتُ أشدَّ الندم؛ فإنها ثمرة تعبي سبع سنوات، ولكن أمي فاءت بي إلىٰ السَّكينة وقالت لي: ألستَ قد قرأتها؟ انتهينا إذن، ولا داعي

(١) زكي مبارك، زكي مبارك بقلم زكي مبارك، إعداد كريمة زكي مبارك ص٢٧.

للأسف! فجعلتُ بعد ذلك أعزِّي نفسي بقولي: إن فائدة القراءة كفائدة الطعام، والمرء يأكل ليصحَّ بدنُه، ولو أني نسيتُ اليوم ما أكلتُ في أمسي لما منع ذلك أن الفائدة قد حصلت، وأن جسمي انتفع بما طعمت، وكذلك العقل، يقرأ المرء ليستفيد علمًا ويقوِّي مداركَه وينمِّي ملكاته، ولا يمنع حصولَ الفائدة أنه نسي ما قرأ أو أن الكتاب غير موجود[1].

- كنت أحفظ من كتاب الأغاني أشعار الأصوات المختارة وتراجم الشعراء والأدباء، حفظتها مع كثير من الملح والنوادر والشعر المكشوف، ولكتاب الأغاني يعود الفضل في إذكاء روح المطالعة التي أحببتها كثيرًا[2].



زهر الآداب

كان المتقدمون يعنون بدراسة الكامل للمبرد، والبيان والتبيين للجاحظ، وأدب الكاتب لابن قتيبة، والنوادر لأبي علي القالي، وكانت هذه الكتب أصول الأدب عندهم كما ذكر ابن خلدون، وعندي أن زهر الآداب أغزر مادة، وأكبر قيمة من جميع تلك المصنفات؟ لأن ذوق الحصري ذوق أدبي صرف، أما أولئك فكانت أهوائهم موزعة بين اللغة، والرواية والنحو والصرف، إن زهر الآداب دائرة معارف أدبية، شاء الله أن تَسلم من جناية الليالي[3].



(١) إبراهيم المازني، العمر الذاهب ص٧٢، ٧٣.

(٢) قاسم محمد الرجب، المذكرات ص٤٤.

(٣) زكي مبارك، زكي مبارك بقلم زكي مبارك، إعداد كريمة زكي ص٧٠، ٧١.

العِقْد[1]

تكونت لديك مكتبة لا بأس بها، فيها بعض أمهات الكتب، منها كتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربه الأندلسي، وكان قد اشتراه صديقك عبد الرحمن، وكنتما شريكين في المكتبة، أشرتَ إليه لأهميته الأدبية فاشتراه، وأخذ معه الجزء الأول إلىٰ القرية ليقرأ فيه، وكان بطيئًا في القراءة أكثر وقته يعمل في المزرعة، ولم تقرأه حتىٰ تبدأ بالجزء الأول، وكنتَ نظاميًّا و«صارمًا» في القراءة، تبدأ من أوله، ولا تتخطىٰ فقراته، فهمتها أو لم تفهمها، أعجبك الكتاب أو لم يعجبك، وانتظرت الجزء الأول طويلًا، سنواتٍ، وأنت تستحيي أن تطلبه من صديقك، ولم تقرأ الكتاب حتىٰ الآن[2]!



الشعراء الثلاثة

الكتاب الذي استوقفني من بين ما احتوته مكتبة أبي المتواضعة -والذي سوف يصحبني أمدًا طويلًا - هو كتاب «الشعراء الثلاثة: شوقي ومطران وحافظ» تصنيف حسن السندوبي صاحب جريدة الثمرات، وكان في طبعته الأولىٰ التي صدرت سنة ١٩٢٢ عن المكتبة التجارية.

كان الكتاب يضم صورًا فوتوغرافية للشعراء الثلاثة طال تأملي فيها وتفرسي في ملامح كل منهم، ومقدمة ضافية كتبها الأديب والصحفي حسن السندوبي عن «حاجة الأدباء والناشئين إلىٰ مثل هذا الكتاب الذي يضم بين دفتيه جمهرة مستصفاة

---

(١) الصواب أن اسمه كتاب العقد.

(٢) محمد خير رمضان يوسف، سلام من جزيرة منسية ص٢٣٦.

من عيون ما جادت به القرائح الفياضة لأكابر شعراء هذا الزمان الذين هم بلا نزاع -في رأيه- «القمة والجبهة والصدر للطبقة الأولىٰ من شعراء هذا العصر وهم شوقي ومطران وحافظ».

لقد لمست دون أن أدري باب هذا العالم السحري الغامض المسمىٰ بعالم الشعر، ولم تفتح يدي مجرد درج من أدراج مكتبة أبي، وإنما فتحت عالمًا غريبًا حاشدًا ورائعًا، استغرقني وتملكني، حتىٰ لقد صار مبعث الدهشة في بيتنا أن يجدوني كل يوم من الصباح الباكر، وقد خلوت بنفسي في غرفة الجلوس، ونشرت أمامي علىٰ الأرض هذه المقتنيات والكنوز من الكتب والمجلات واستلقيته علىٰ صدري ورحت أقلب فيها، وأتوقف بالتأمل هنا وهناك، وأنا من شدة اللهفة والتوق أتعجل نهاية قصة أو أتطلع لخاتمة موقف أو قصيدة، وأقفز بعيني فوق السطور علىٰ أمل أن أعود ثانية لقراءة سهلة متفحصة، ثم اكتشفت أن ما استوعبته في حدود قدرتي علىٰ الفهم والتذوق هو أقل القليل، لكنه القليل الغامر الذي يملؤني ويفيض عني[1].



البستان

كان في المختارات الشعرية التي هيأها إسعاف النشاشيبي لطلبة المدارس في كتاب عنوانه «البستان»، يوزَّع علينا مجانًا، عالم غريب جميل، من ماضٍ أخذ شيئًا فشيئًا يتشكل ويتجسم في خيالي من خلال القصائد القصيرة التي برع جامعها في انتقاء أبياتها وشرحها، ورحت أحفظ العديد من تلك القصائد عن ظهر قلب،

---

(١) فاروق شوشة، عذابات العمر الجميل ص٣٢، ٣٤.

وألقيها بصوت رفيع عالٍ كلما تسلقت شجرة، أو وقفت علىٰ «سلسلة» علىٰ حافة الوادي، وكأني أخاطب بها أشجار الزيتون، ودوالي العنب، سواء فهمتُها أم لم أفهمها، كانت اللغة بحد ذاتها تهزني بأصوات كلماتها وإيقاعاتها، فكيف إذا أدركت معاني بعضها[1].



أذكىٰ سليقتي الأدبية اطلاعي القصصي، علىٰ النحو الذي وصفته في (ليالي الشتاء). ثم إقبالي في المدرسة علىٰ مطالعة (كلية ودمنة) ذلك الكتاب الذي يفيد منه الفتيان والكهول والشيوخ والراسخون في الأدب. وهو أحد الروائع القليلة التي عاودتها نحوًا من عشرين مرة في مختلف حقب حياتي[2].

دع القلق وأبدأ الحياة

كانت أيامًا صعبة تلك التي قضاها صاحبنا خياطًا، ليس لأن، المهنة كانت متعبة أو لأنه كان ينفر من العمل اليدوي، كلا، إن المشكلة التي واجهت صاحبنا والتي عانىٰ منها كما يعاني الإنسان من أزمة حادة، نفسية وفكرية، هي مشكلة مستقبله: هل يترك الدراسة نهائيًّا ويتفرغ لميدان التجارة والمال، أم أنه يترك هذا الميدان ليتفرغ للدراسة؟، سؤال لم يكن الفصل فيه يتوقف علىٰ مجرد ميوله واختياره.

المشكلة الحقيقية، التي كانت بؤرة الأزمة عنده يومئذ، هي ما بعد الاختيار، لقد كان يشك في نجاح مشروع الخياطة الذي انخرط فيه مع عمه، وفي نفس

(١) جبرا إبراهيم جبرا، البئر الأولىٰ ص١٣١.
(٢) بولس سلامة، حكاية عمر ص٣٦.

الوقت كان يحس بأن مسؤولية فشل المشروع ستكون أشد عليه -معنويًّا وأخلاقيًّا- إذا هو تخلىٰ وترك عمه وجده، وكان يشك أكثر في إمكانية متابعة دراسته: أين وكيف؟

وبينما كان صاحبنا يعاني من بحران من القلق النفسي والفكري جعله يقضي كل يوم ساعات في إحدىٰ الحدائق العمومية -التي كان يتردد عليها من قبل للمراجعة والدرس- يسرح بخياله في خضم من الأفكار الفارغة الجامدة يقدم رجلًا ويؤخر أخرىٰ، ويقضي ساعات طوالًا من الليل في أرق موجع وخانق، إذا به تقع عيناه ذات يوم في واجهة إحدىٰ المكتبات التي كان يتردد عليها من حين لآخر، علىٰ كتاب بعنوان: دع القلق وابدأ الحياة (لمؤلف أمريكي اسمه: ديل كارنيجي).

اشترىٰ الكتاب وأخذ يقرأه ويعيد قراءته في الحديقة العمومية كل صباح لمدة أسبوعين أو أكثر حتىٰ تشبع بالطريقة التي يقترحها المؤلف لحل المشاكل، فعزم علىٰ تطبيقها والالتزام الكامل والنهائي بما يقرره علىٰ ضوئها. إن صاحبنا يدين لهذا الكتاب، ليس فقط في التخلص من تلك الأزمة بل لربما أيضًا في معالجة «قلق الاختيار» كلما اعترض حياته ما يستوجب اتخاذ قرار حاسم[1].



اعترافات تولستوي

الإلحاد جفاف مؤلم، وفراغ مفزع، ومحاربة للطبيعة الإنسانية التي فطرت علىٰ الشعور بإله، والارتكان عليه والأمل فيه، وإلا كانت الحياة جافة فارغة مفزعة منافية للطبيعة.

---

(١) د. محمد عابد الجابريّ، حفريات في الذاكرة من بعيد ص١٤٥.

وكان من المصادفة الحسنة أن حضر إليّ أحد أبنائي الأوفياء وأحب أن يسليني بالقراءة لي بعض الوقت، فكان مما اختاره لي كتاب «اعترافات تولستوي» فوقع في نفسي موقعًا جميلًا، إذ رأيته يصور حياته وقد ركن أول الأمر إلىٰ العقل وحده، وإلىٰ العقل الواقعي لا غير، فأسلمه الاعتماد علىٰ المقدمات المنطقية المادية وحدها إلىٰ الإلحاد، وعد الدين خرافة من الخرافات، ولكنه شعر بعد حين بأن الحياة لا قيمة لها وأنها فارغة من المعاني.

إن هذه الحياة المادية التي تركن إلىٰ العقل الجاف وحده لا تستطيع أن تجيب عن الأسئلة الآتية: ما قيمة الحياة؟ ما الذي يربط بين الحياة المادية المحدودة وبين الأبدية؟ وما الذي يربط بين حياة الإنسان الجزئية والإنسانية الكلية؟ إلىٰ مثل هذه الأسئلة، فكان لا يجد في قضايا العقل وحدها جوابًا، وساءت نفسه وأظلم تفكيره، وأدرك أن الحياة علىٰ هذا الوضع نكتة سخيفة، وأنها لا تستحق البقاء، وحاول الانتحار مرارًا، وفي كل ذلك كان يهزأ بالدين، ولا يريد أن يتجه إلىٰ التفكير فيه.

وأخيرًا بعد الشقاء الطويل والعذاب الأليم اتجه إلىٰ الدين لينظر كيف يحل هذه الأسئلة، فرأىٰ أنه وحده الذي يفسر معنىٰ الحياة، ويربط الحياة الجزئية بالكلية، والنفس الفردية بالإنسانية، فاطمأنت نفسه وانقلب متدينًا.

فكان في هذا الكتاب عزاء لنفسي ومجال لبعض تفكيري، وقارنت بين موقف تولستوي وموقف الغزالي، فقد كنت قرأت له كتاب «المنقذ من الضلال»، وكان مما حكىٰ عن نفسه أنه مر بمثل هذا الدور؛ شك في كل التقاليد الدينية، واستعرض المذاهب المختلفة في الدين، وأحب أن يركن إلىٰ الفلسفة وحدها فلم تسعفه، وإلىٰ تعاليم الباطنية فلم يطمئن إليها، واستولىٰ عليه الشك حتىٰ غمره، ووقع في أزمة نفسية حادة، واحتقر سخافات الناس في التخاصم علىٰ المال والجاه والمنصب فنفر من كل ذلك.

وأخيرًا بعد أن استحكمت أزمته النفسية وأخذت منه كل مأخذ مرض مرضًا شديدًا، ولا أشك أن مرضه الجسمي كان نتيجة لمرضه النفسي، ثم أفاق قليلًا قليلًا وإذا هو يخرج من هذه الأزمة كما خرج منها تولستوي متدينًا بالقلب لا بالمنطق، وبالشعور النفسيّ الغريزيّ لا بالمقدمات الفلسفية[1].



اعترافات جان جاك روسو

هِمْتَ -في فرنسا- بجان جاك روسو. لم يكن اهتمامك في «العَقد الاجتماعي» ولا في «أميل» وإنما في «الاعترافات»، ويسرك أن تسمع أستاذ البلاغة في السوربون يقول: إن الكتب الستة الأولىٰ من اعترافات جان جاك روسو من أعلىٰ النثر الفرنسي، ولعله قال: أعلىٰ النثر الفرنسي[2].



مجلة الرسالة

• لما جاءت الرسالة كانت الأمنية التي اعتملت في أعماقنا دون أن تتبلور في الوعي الظاهر، ثم تحققت.

لم تكن مجرد مجلة أدبية، بل كانت حاجة فكرية، نطلبها في أعماقنا أيضًا؛ إذ نشأنا علىٰ حب اللغة العربية وأدبها، ليس فقط، بل تتلهف نفوسنا إلىٰ ما عبَّر عنه حافظ إبراهيم بقوله:

فارفعوا هذه الكمائم عنا ... ودعونا نشم ريح الشمال

---

(١) أحمد أمين، حياتي ص٢٨٢، ٢٨٣.

(٢) د. علي جواد الطاهر، فصول ذاتية من سيرة غير ذاتية ص١٩٩.

كنا نتطلع إلىٰ الجديد الآتي من الشمال: من أوروبا، وقد تلقينا منه ما بهرنا وأمتعنا، ولكن كانت تخيفنا بل تزعجنا حملات متطرفة هوجاء تهاجم اللغة العربية الفصيحة وتستهين بأدبها وتدعو إلىٰ العامية وإلىٰ الارتماء في أحضان الغرب والتجرد من كل ما هو عربي، وكنا نريد الثقافة الأوروبية علىٰ أن نتلقاها ونحن واقفون علىٰ أرض عربية، لا نقبل شيئًا يمس كياننا وشخصيتنا العربية، بل نطلب ونرحب بما يتآخىٰ مع ثقافتنا ولا يتنافر مع قيمنا، وكنا نريد أن نقطف الورد ونحاذر الشوك. فلما قالت لنا الرسالة إنها «تربط الشرق والغرب علىٰ هدىٰ وبصيرة» أعجبتنا جدًا كلمتا «هدىٰ وبصيرة».

وسارت المجلة المرموقة علىٰ الهدىٰ والبصيرة، تقدم لنا أطباقًا شهية من ثقافة الغرب وقطوفًا دانية من الثقافة العربية والإسلامية، وأشرعت الأقلام فيها للدفاع عن الكيان والشخصية والقيم، وجاست مشارط الكتاب في جسم المجتمع المريض[1].

• جاءت مجلة الرسالة كالنبع الصافي للظامئين للأدب والشعر والثقافة العامة، فكنت أترقب يوم الأثنين ترقّب الصادي إلىٰ المنهل العذب حين تتدفق مياهه الحلوة[2].

• كانت مجلة الرسالة التي يصدرها الأديب الكبير أحمد حسن الزيّات في مقدمة المجلات الأدبية التي تشترك فيها المكتبة، حيث تعرض أعدادها بانتظام في قاعة المطالعة، وكنتُ أقرأ ما أستطيع قراءته من مقالاتها وقصصها وقصائدها، وأعُدّها أثمن زاد أدبي أتغذّىٰ به!

---

(١) عباس خضر، ذكرياتي الأدبية ص٨.

(٢) السيد فرج، حياتي بين السيف والقلم ص١٥.

وفي بعض الأعداد رأيتُ مقالًا للأستاذ عبد المتعال الصعيدي يرد فيه علىٰ الأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد في مسألة نحوية تتعلق بشعر الأعشىٰ، ففهمتُ فهمًا آخر غير ما عناه الأستاذ الصعيدي، وسارعت بالرد عليه، وكانت المفاجأة أن يُنشر رَدّي بعدد (٣٤٢) الصادر في (٢٠ يناير سنة ١٩٤٠) فأحدث دويًّا آخر بين المدرسين إذ أن مجلة الرسالة هي مجلة الرسالة، والأساتذة يقرءونها بإجلال وتوقير، وحين جاء العدد التالي حاملًا ردّ الأستاذ الصعيدي، ومُبيّنًا تَسَرّعي في الفهم، لم يُنقص ذلك من قدري، لأن مجرد نشر الرسالة لي هو في ذاته مظنة تقدير، وأذكر أن الأستاذ محمد عمر الأستاذ بالمعهد، قد دعاني إلىٰ منزله مع بعض الأساتذة وكبار الطلاب، ليُثني عليّ، وليقول: إني أضرب المثل الرائع لطالب المعهد الديني! فكانت لفتة كريمة منه[1].

ولعلّك تذكر بالخير شيخ أساتذة الأدب بالكلية، وسيد علمائها الأستاذ الكبير أحمد شفيع السيد فقد كان يذكر لنا الرسالة دائمًا بين مصادره العديدة في تاريخ الأدب العربي، وقد ينقل بعض أبحاثها الأدبية عن الشعراء الأقدمين معقبًا بما يعنّ له من نقد أو توجيه، وكنا نسمع محاضراته في شوق وإعجاب يزيدان عن الوصف، وحين رأىٰ اهتمامنا بالرسالة، غمرنا بوده، وذلّل لنا كثيرًا من العقاب فصرنا لا ندري أنتقدم إليه بالشكر، أم إلىٰ مجلة الرسالة التي تربط بين قلوب المتأدبين من أساتذة وطلاب برباط وثيق، وإن أفادتنا الرسالة فائدة تامة في الدراسة العالية بالكلية فقد كان هذا أمرًا نتوقعه لما بين أبحاث المجلة ودروس الكلية من ارتباط، بل من يدري؟ ربما تكون الرسالة هي التي وجهتنا إلىٰ كلية اللغة دون أن نشعر لما غرسته في نفوسنا من حب للأدب وهيام بتاريخه ورسائله، ولكن الذي لم نكن

(١) د. محمد رجب البيومي، ظلال من حياتي ص٣١، ٣٢.

نتوقعه بحال، أن نجد الرسالة الغراء تأخذ بأيدينا في معهد التربية العالي للمعلمين وتُعيننا علىٰ استكناه مسائل التربية الحديثة وتفهم علم النفس بما نشرتْه من أبحاث في هذين العلمين، وأذكر جيدًا أني جعلت الرسالة بين مصادري العلمية حين كتبت مقالاتي في امتحان الدبلوم فقد اعتمدت علىٰ ما كتبه الدكتور عبد العزيز عبد المجيد والدكتور فضل أبو بكر في الذكاء والطفولة بأعداد الرسالة؛ لأن الزيات الحصيف كان يولي الأبحاث الغربية الحديثة، ومن بينها علم النفس والتربية عناية فائقة لينأىٰ بالفكر العربي عن جموده وقيوده ويطلق أمامه الباحات الرحيبة للسير، والأجواء الفسيحة للتحليق، ونحن الآن وقد جاوزنا التعلم إلىٰ التعليم، وانتقلنا إلىٰ تدريس اللغة العربية بالمدارس الثانوية نجد تلاميذنا في حاجة ماسة إلىٰ مجلة أدبية تقيِّم الألسنة المعوجَّة، وتشد التفكير الواهن، وترفع الخيال الهابط، ولن تكون هذه المجلة غير الرسالة، فقد نجحت في تجربتنا معها -ومع الآلاف من قرائها - أتم نجاح، وكانت نعم الناصر المبين(١).

• والرسالة هذه رمز الأدب ومقياس الأديب، ولا يفوت صاحبنا عدد من أعدادها التي تصل إلىٰ «المكتبة العامة»، وهو إذ يقرأ «الرسالة» يستمتع وينتشي، وحين صدرت «الثقافة» قرينة للرسالة ومنافسة وصلت إلىٰ المكتبة العامة ولمس الطالب ما دفع صدور الثقافة بصاحب الرسالة إلىٰ تطوير في مجلته فزاد الطالب التزامًا لها، وإن استهوته مقالات طه حسين النقدية في «الثقافة» فإن هواه بقي مع الرسالة لأنها أدخل في «الأدب» وقد أَلِفَ كُتّابها واحدًا واحدًا وأعجبه كثيرًا أسلوب «الزيّات» وأطربه نمط الكتابة التي يزاولها زكي مبارك في بابه الدائم «ليلىٰ المريضة في العراق»(٢).

---

(١) محمد رجب البيوميّ، ظلال من حياتي ص٦٢، ٦٣.
(٢) د. علي جواد الطاهر، فصول ذاتية من سيرة غير ذاتية ص١٣٩، ١٤٠.

• كم راقني من الرسالة أنها كانت لسان إصلاح ونهوض ينشد الإصلاح لذاته، ويرىٰ كل مفكر أن يسهم فيه وأن يضع لبنة في بنيانه دون نظر إلىٰ مطمع أو مغنم، وقدر لهذه الصحيفة نجاح كبير، بدأت تحت كنف «لجنة التأليف والترجمة والنشر» ثم استقل بها المرحوم «أحمد حسن الزيّات».

وكم كان مؤمنًا بها ومخلصًا لها، وقد تابعتها منذ عام خمسة وثلاثين بعد عودتي من بعثتي، وأسهمت فيها ما استطعت حتىٰ عام واحد وخمسين، وفي عام اثنين وخمسين قدر لها أن تتوقف عن الظهور لأسباب مالية، وكم أسف القراء والمثقفون لهذا التوقف، وأذكر أني زرت الخرطوم عام ثلاثة وخمسين، وكان من بين الأسئلة البارزة التي وجهت إليّ: أين صحيفة الرسالة؟[1]



مجلة المقتطف

كانت المقتطف أعظم مجلة في نظري، حيث أدت مهمة للغة العربية والمثقف العربي؛ إذ هي مجلة تكتب في الأبحاث العلمية، وتكتب بلغة عربية رائعة، وقد نشرت ترجمة لنسبية إنشتاين، وكنت أتتبعها وأتعمق فيها[2].



مجلة المكتبة

مجلة (المكتبة) لا تضاهيها مجلة في البلاد العربية كلها، ولم يسبق لمكتبة أن أصدرت ما يشابهها، والفضل يعود إلىٰ رئيس تحريرها السيد مهدي القزاز الذي

---

(١) إبراهيم بيوميّ مدكور، شيء من الذكريات ص٢٠٥.
(٢) عبد الله كنون، مذكرات غير شخصية ص٦١.

طوَّرها من نشرة بسيطة إلىٰ مجلة محترمة لها أهميتها ومكانتها، وبالرغم من تكاليفها الباهظة فإن مكتبتنا لم تتنصل عن إصدارها باستمرار وانتظام ولم تبخل عليها بمال بعد ما رأينا من إعجاب القراء وزبائن المكتبة بها وإقبالهم المتزايد عليها، حتىٰ أن مكتبة الكونغرس الأمريكية والمتحف البريطاني بعثا إلينا ببرقيتين يطلب أعداد منها لم تصل إليهما، وكذلك كانت تفعل باقي الجهات في البلاد العربية والأجنبية.

لقد أصبحت مجلة (المكتبة) اليوم ضرورية لكل عالم وأديب ومثقف وباحث، وفيها تلتقي أقلام كبار الأدباء العرب، كما أصبحت مصدرًا مهمًّا للمؤلفين والكُتَّاب يرجعون إليه ويستشهدون به.

إن التعريف بالكتاب أمر مهم فعلًا، فكم هي الكتب التي تصدر غريبة الاسم مبهمة العنوان، لا تنطوي أسماؤها علىٰ معنىٰ واضح يدل علىٰ ما حوته من معلومات، وبالتالي تصبح أسماؤها وعناوينها سببًا للزهد فيها والانصراف عنها، ومن ثم يتوقف صرفها ورواجها فتبور وتكسد، وأنا ذاكر هنا طائفة من أسماء تلك الكتب علىٰ سبيل المثال لا الحصر:

كتاب (الجشطلت) يبحث في علم النفس.

كتاب (الجوبولوتيكا) يبحث في علم الجغرافيا.

كتاب (عبد الله جاك منو) هو كتاب تاريخي يبحث في أواخر حملة نابليون ويروي قصة القائد الفرنسي الذي اعتنق الإسلام وتَسَمَىٰ باسم عبد الله.

كتاب (بوائق وأنابيق) تأليف أحمد زكي وهو قصة الكيمياء.

كتاب (مذكرات الأمير عبد الله)، والقارئ يخيل إليه أن صاحب هذه المذكرات هو الأمير عبد الله ملك الأردن، والصحيح أنه أحد أمراء الأندلس من آل زيري.

كتاب (شجرة الدر) يبحث في اللغة، والقارئ يتوهم أنه قصة عن شجرة الدر ملكة مصر[1].



(١) قاسم الرجب، المذكرات ص٢٤٢، ٢٤٣.

التأليف والمؤلفات

لست كثير الثقة بنفسي، ولا بما يصدر عني، فالكتاب أؤلفه أو المقال أكتبه لا أثق بحكمي عليه بأنه جيد أو رديء حتىٰ يقرأه الناس فيحكموا بجودته أو تفاهته، قد ألمح فيه الجودة أو التفاهة، ولكني لا أثق بحكم نفسي علىٰ نفسي حتىٰ يؤيد الناس ظني أو يكذبوه.

وأذكر مرة أني أعددت يومًا -وأنا مدرس بمدرسة القضاء- محاضرة موضوعها «دقة الملاحظة» وكان من عادتنا أن نعرض ما نكتب علىٰ عاطف بك بركات ناظر المدرسة فيجيزه أو لا يجيزه، وقلَّ أن تخلو محاضرة يقرؤها من ملاحظات عليها يقيدها بالقلم الأحمر، فبعد يوم رد إليّ المحاضرة، وليست عليها أية إشارة، فأيقنت أنها لم تعجبه ، ولم يرض عن شيء فيها، وأسفت عليها أسفًا شديدًا، وجعلت أبرر حكمه عليها، وأقول ماذا تحتوي هذه المحاضرة من أفكار: فكرة كذا تافهة، وفكرة كذا مسبوقة، وفكرة كذا ليست بذاك، وهكذا حتىٰ استسخفت كل ما فيها، ويوم الثلاثاء وهو موعد المحاضرة استدعاني صباحًا. وسألني: لِمَ لَم أعلن عن محاضرتي؟. فقلت: إنك استسخفتها، فقال: من قال لك ذلك؟، قلت: كل الدلائل، فلم تحدثني بشأنها، ولم تؤشر عليها وأرسلتها إليّ مع الساعي، ونحو ذلك. فقال: إني وجدتها كاملة فليس لي انتقاد عليها فلم أؤشر علىٰ شيء فيها، وسألت عنك فقيل لي إنك في الدرس فأرسلتها مع الساعي، والمحاضرة قيمة جدًّا.

فأخذت أستعيد في ذهني نُقَطها وأقول إن فيها فكرة كذا وهي جيدة وفكرة كذا وهي جديدة، وفكرة كذا وهي قيّمة، وألقيتها فاستُحْسِنت فعددتها حسنة، وهذا عيب فيّ لم أدر كيف نشأ، فخير للإنسان أن يثق بنفسه من غير غلو ويقدر إنتاجه علىٰ حقيقته من غير إفراط أو تفريط[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) أحمد أمين، حياتي ص٣٠٢، ٣٠٣.

أذكر أن بعضهم سألني مرَّة: أي كتبك أحبُّ إليك؟ فلمَّا قلت: «ولا واحد» استغرب جوابي وأنكَره، وذكَّرني بأني قلتُ مرَّة: «إن هذه المفاضلة عسيرة؛ لأن الكتب كالأبناء، والوالد لا تخفىٰ عليه مزايا أبنائه وعيوبهم، ولا يجهل أن هذا ذكيٌّ وذاك غبيٌّ مثلًا، ولكنه مع ذلك يحبُّهم جميعًا علىٰ السَّواء وإن كان يعرفُ فضل بعضهم علىٰ بعض»، وهذا صحيحٌ علىٰ الجملة، وفي الأغلب والأعمِّ، ولكني رجلٌ دأبي أن أراجع نفسي، ولا تنفكُّ حالاتي النفسية تتغيَّر، فنظرتي إلىٰ الشيء وإحساسي به يختلفان من يوم إلىٰ يوم.

وثمَّ أمرٌ آخر، هو ما يتمثَّل لي من صور الكمال، وما يبدو لي في عملي من وجوه النَّقص والقصور، وليس لي حيلةٌ إلا أن أقيسَ ما أخرجتُ إلىٰ ما كنتُ أحبُّ أن يكون، وإلا أن أحدِّث نفسي أنه كان في مقدوري أن أصنع خيرًا ممَّا صنعت، ولو كنت أعتقد أن هذا هو غاية ما يبلغه الجهد ويصل إليه الإمكان لرضيتُ وقنعتُ واغتررت، ولكني أحسُّ أني أقدر علىٰ خيرٍ ممَّا أفعل، وقد يكون هذا إحساسًا كاذبًا كالجوع الكاذب، وقد يكون خدعةٌ من خدع الغرور، فإن يكن كذلك فإنه ولا شكَّ بلاء، ولكنه الواقع علىٰ كل حال[1].

(١) إبراهيم المازني، العمر الذاهب ص٢٠٧، ٢٠٨.

طريقتهم في التأليف

إذا أردتُ تأليف كتاب في موضوع أختاره ، فلا بد من تنظيم القراءة، بعد أن أجمع المراجع، لأستوعب ما يمكن أن يكون موضع رصد ومناقشة، وفي هذه الفترة قَلَّ أن أقرأ غير ما يتصل بالبحث الذي أعكف عليه، إذ يتلبسني نشاط موجه إلىٰ ما أنا بسبيله، وقد يقع في يدي كتاب جيد يثير الانتباه، فأقفله عن عمد، كيلا تتشتت أفكاري التي تتكامل في خاطري، وكأنها حلقات في سلسلة مديدة، وقبل أن أبدأ الكتابة أكون قد فرغت من استيعاب المراجع، ووضعت عناوين البحث كما تتراءىٰ بعد القراءة، وقد أترك فرصة هادئة، للتفكير الصامت إذ اعتمدتُ علىٰ إحساس داخلي يساعدني علىٰ التحليل والاستنباط، وأُفاجأ بما أصل إليه أثناء هذا التفكر الصامت؛ لذلك أرىٰ أنه لا بد من فترات السكون الهادئة لتتعارف المعاني وتتلاقىٰ علىٰ وجه صحيح، كما يشعر شارب الماء بالارتواء بعد الشراب، كأني بعد هذا السكون الصامت أحس جيشان الأفكار في نفسي، وأخاف عليها أن تشرد فلا أستطيع استيعابها إذا أرجأت الكتابة، فأحضر الورقة والقلم وما أريده من المراجع، وأبدأ في تحرير الفصول، وقد عودني الله التدقيق فيما أحاوله، ومنه العون والسداد[1].

❁ ❁ ❁

أذكر أن الرئيس «ابن سينا» حينما كان يعزم علىٰ تأليف كتاب: كان يعتكف -يومين أو ثلاثة فقط- اعتكافًا كاملًا، أو شبه كامل، ويأخذ في وضع عناوين للأبواب -في ثنايا الأجزاء- ويترك في الدفاتر فراغًا بين الباب والباب، ثم يأخذ

---

(١) د. محمد رجب البيوميّ، ظلال من حياتي ص١٧٥ .

في وضع عناوين الفصول في الأبواب تاركًا فراغًا بين كل فصل وفصل بما يقدِّر أنه يكفي للفصل، ثم يأخذ في وضع إشارات سانحة لما عساه أن يكون فقرات، ثم يخرج من معتكفه معتبرًا أن ما بقي من الكتاب إنما هو تشطيبه فحسب وأنه في الوضع «السينويّ» قد انتهىٰ من تأليفه.

وبعد ذلك يحمل معه الكتاب أينما سار، فيكتب -بحسب الظروف - كلمة هنا، وكلمة هناك: في هذا الفصل أو ذاك، من أواخر الكتاب أو من منتصفه، أو من أوله بحسب الفكرة المواتية.

وقد علمتني التجارب الماضية في التأليف أن طريقة «ابن سينا» -مع بعض التعديل بالنسبة لي - من خير الطرق، فالإنسان تختلف استعدادته وتختلف إمكاناته من آن لآخر، ومن الخير أن يعمل في مختلف الظروف، العمل الميسور له.

ولقد كان «ابن سينا» يكتب، لا يستند إلىٰ هذا المرجع أو ذاك: ينقل منه، أو يعزو إليه، أما أنا؛ فقد كنت أحتاج دائمًا إلىٰ مراجع، وهذه المراجع أراجعها، وأضع -بين قوسين - المهم منها، ثم ألتمس نقله، في قصاصات من الورق، ويتجمع عندي مئات من هذه القصاصات: فأرتبها فصولًا، ثم أرتب الفصول ترتيبًا متواليًا، ثم أرتب قصاصات كل فصل، ثم أكتب لا ألتزم ترتيب الفصول الذي وضعته، وربما بدا لي بعد الفراغ من الكتاب أن أحدث تغييرًا في ترتيب الفصول، وقد يتساءل القارئ عن استخدامي للقصاصات في كل فصل؟، وما كان استخدامي لها إلا إنارة الطريق في تفكيري: فقد تكون القصاصات موضع نقد! وقد تكون موضع إهمال، وقد تكون موضع استئناس لما أرىٰ، وقد أوردها لأستنتج منها جوًّا كان يعيشه المؤلف الذي أكتب عنه أو لأستنتج منها فكرته[1].

❁ ❁ ❁

(١) د. عبد الحليم محمود، الحمد لله هذه حياتي ص٨، ٩.

يقول نيتشه في سيرة حياته Ecce Homo إنه يبتعد عن الكتب والمطالعة عندما يكون منغمسًا في التأليف والكتابة، فيقول: «إن يقرأ المرء في الصباح الباكر عندما يكون كالفجر، في قمة قواه - إن هذا عمل شرير»، ويقول: «إن الذي لا يستطيع التفكير إلا إذا كان في يده كتاب يفقد قدرته علىٰ التفكير المستقل ويصبح فكره مجرد رد فعل للعوامل والمؤثرات الخارجية».

إنني من النوع الذي لا يستطيع التفكير إلا إذا كان في يده كتاب يطالعه، كل أفكاري هي بشكل أو بآخر، نتاج ما أقرأ، لم تصدر عني فكرة يمكن وصفها بأنها فكرة أصيلة أو ملهمة، وكل ما أكتبه هو نتيجة عمل متواصل وساعات من البحث والقراءة والتفكير، ويستغرق كتابة مقال أو إعداد محاضرة أيامًا وأسابيعًا من العمل المستمر، أما تأليف كتاب فيتطلب أشهرًا من الانقطاع التام علىٰ مدىٰ سنوات، وقد استغرق إنجاز كتابي «المثقفون العرب والغرب» ست سنوات، وهو لا يتعدىٰ المائة والخمسين صفحة في نصه الإنكليزي، لقد مضيت من عمري سنين عديدة في انفراد تام بسبب هذا العمل.

ولم يتغير روتيني اليومي علىٰ كر السنين: يبدأ يومي في الساعة التاسعة وينتهي في الخامسة، مع فاصل قصير لغذاء خفيف من الساندويش، أحضره بنفسي، وقليل من الفاكهة، حصيلة اليوم الواحد لا تتعدىٰ عادة ست صفحات أو سبعًا وتشكل «مسودة» أولىٰ، أعيد كتابتها مرتين وثلاثًا قبل دفعها للطباعة علىٰ الآلة الكاتبة.

يقول تشارلز ديكنز ليس النبوغ إلا المقدرة علىٰ تحمل الجهد المستمر (taking pains)، إذا كان هذا صحيحًا، فإني لا شك قد لامست حدود النبوغ، المهم هو إخضاع النفس واتباع نظام معين، والمثابرة في العمل رغم كل شيء.

هذا النظام وما يترتب عليه من سيطرة ذاتية، أكثر أهمية كما أرىٰ من القدرة الفطرية علىٰ «الخلق» و«الإبداع»، ففي آخر المطاف، ما نحققه في هذه الحياة هو الشيء الموضوعي المحسوس، وليس ما نكنه من نيات وأحلام وتأملات(١).



إذا لم أكتب كل يوم، تبدأ الأحرف بفقدان تشويقها في ذهني، تبدو أحرفًا بدلًا من أشخاص حقيقيين، وتبدأ الطليعة الروائية للحكاية تصدأ وأبدأ بفقدان السيطرة علىٰ حبكة قصتي ووتيرتها، وأسوأ شيء هو أن إثارة ابتكار شيء جديد تبدأ بالتلاشي، وأبدأ أشعر أن العمل وظيفة، وهذا مماثل للموت بالنسبة لمعظم الكتاب، ويكون التأليف في أفضل حالاته دائمًا، عندما يكون أشبه بتسلية مُلهمة للكاتب، يمكنني التأليف بدم بارد إذا لزم الأمر، لكنني أفضِّل عندما يكون طازجًا وحارًّا جدًّا لإمساكه.

اعتدتُ علىٰ القول في مقابلاتي إنني أؤلف كل يوم ما عدا يوم احتفال الشتاء، والرابع من يوليو، وذكرىٰ ولادتي، هذه كذبة أقولها لأنك عندما توافق علىٰ إجراء مقابلة، عليك أن تقول شيئًا، ومن الأفضل أن يكون شيئًا نصف ذكي علىٰ الأقل، كما أنني لم أرغب أن أبدو كمدمنٍ علىٰ العمل ملٍ. الحقيقة هي أنني عندما أؤلِّف فإنني أؤلِّف كل يوم، سواء كنت مدمنًا علىٰ العمل مملًّا أم لا، وهذا يشمل يوم احتفال الشتاء، والرابع وذكرىٰ ولادتي.

أحبّ إنهاء عشر صفحات في اليوم، أي ما يوازي ٢,٠٠٠ كلمة. وهذا يعادل ١٨٠,٠٠٠ كلمة في فترة الأشهر الثلاثة، وهو طول لا بأس به لكتاب يستطيع القارئ الغوص فيه بسعادة، إذا كانت الحكاية محبوكة جيدًا وبقيت محفِّزة له.

---

(١) هشام شرابي، الجمر والرماد ص١٣٠، ١٣١.

في بعض الأيام، تأتي تلك الصفحات العشرة بسهولة؛ فأبدأ بإنهاء مأمورياتي عند الحادية عشرة والنصف صباحًا، مغرورًا مثل جرذ في مصنع نقانق، لكن كلما كبرت في السن أجد نفسي أتناول الغداء علىٰ مكتبي وأُنهي عمل اليوم حوالي الواحدة والنصف بعد الظهر، وأحيانًا أخرىٰ، عندما تأتي الكلمات بصعوبة، أجد نفسي ما أزال أعمل عند العصر، ولا أمانع في الحالتين، لكن فقط في الظروف القاهرة جدًا أسمح لنفسي أن أتوقف عن العمل قبل إنهاء ٢,٠٠٠ كلمة.

حين تدخل غرفة تأليفك الجديدة وتُغلق الباب، يجب أن تكون قد وضعت هدفًا تأليفيًّا يوميًا، كما هو الحال مع التمرين الجسدي، سيكون من الأفضل تخفيض ذلك الهدف في البدء، لكي تتجنَّب وهن العزيمة، أقترح عليك ألف كلمة في اليوم ولأنني أشعر بالشهامة، سأقترح أيضًا أنه يمكنك أخذ يوم استراحة واحد في الأسبوع علىٰ الأقل في البداية، هذا يكفي وإلا ستخسر الإلحاح والفورية في قصتك.

إذا أمكن، لا يجب أن يكون هناك هاتف في غرفة تأليفك، وبالطبع لا تلفزيون أو ألعاب فيديو لكي تضيّع وقتك، إذا كانت هناك نافذة، أغلق الستائر إلا إذا كانت تطل علىٰ جدار فارغ.

لأي كاتب، خاصة للمبتدئ، من الحكمة التخلّص من كل مصدر إلهاء ممكن، إذا تابعت التأليف، ستبدأ باستبعاد تلك الإلهاءات بشكل طبيعي، لكن من الأفضل لك في البداية أن تحاول تدبير أمرها قبل أن تؤلِّف[1].

---

(١) ستيفن كينغ، مسيرتي في التأليف ص١٥١، ١٥٥.

الذئب الهيجلي

الذئب الهيجلي المعلوماتي هو ذئب خاص جدًّا، جواني لأقصىٰ درجة، يعبِّر عن نفسه في الرغبة العارمة في أن أكتب كتابًا نظريًّا، إطاره النظري واسع وشامل للغاية ولكنه في الوقت نفسه يتعامل مع أكبر قدر ممكن من المعلومات والتفاصيل، إن لم يكن كلها. أي أنني كنت أطمع في كتابة عمل يصل إلىٰ أعلىٰ مستويات التعميم والتجريد والشمول، وفي الوقت نفسه تصل إلىٰ أقصىٰ درجات التخصص والدقة. وهذه صيغة مستحيلة لأنه إن اتسعت الرؤية ضاقت العبارة، فما بالك برؤية بانورامية متسعة في غاية الاتساع وتفاصيل دقيقة في غاية الدقة.

ويبدو أن هذا الذئب الهيجلي المعلوماتي كان يطاردني منذ طفولتي، فقد كنت أنوي أن أحصر كل ما تبقىٰ من كتب لم أقرأها في مكتبة البلدية بدمنهور (بحسبان أنها تحوي كل المعرفة الإنسانية) حتىٰ يمكنني أن أعرف كل ما خطته يد البشرية! وأذكر في شبابي أنني بدأت في كتابة تاريخ الشعر الإنجليزي منذ البداية حتىٰ النهاية من منظور ماركسي. أقول «بدأت» لأنني لم أنته منه قط، بل لم أجاوز الصفحة الثالثة! وقد أصبت بصدمة عميقة، في قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب في جامعة الإسكندرية، حين عرفت أن أحد أساتذتي لم يكن قد قرأ الأعمال الكاملة لشكسبير! وحين بدأت كتابة رسالتي للماجستير مع الدكتور محمد مصطفىٰ بدوي عن أثر الشعر الرومانتيكي الإنجليزي وبودلير علىٰ جماعة أبوللو وبخاصة إبراهيم ناجي، ظهرت نزعتي الهيجلية المعلوماتية بشراسة، فكنت أريد أن أقرأ كل شيء كمقدمة لكتابة الماجستير. فقرأت المعلقات وكثيرًا من عيون الشعر العربي، وبخاصة شعر المتنبي، وكتبت دراسة عن الانقطاع في الشعر العربي.

ثم قرأت كثيرًا من الأعمال النقدية للعقاد والمازني وطه حسين وإبراهيم المصري، وكتبت دراسة مطولة في الموضوع، وقرأت بعض عيون التراث آنذاك. وبدأت في كتابة دراسة في شعر خليل مطران، وأنهيت دراسة عن ترجمة ناجي لديوان أزهار الشر لبودلير وأثرها عليه.

كما كتبت الدراسة التي قدمتها لبروفسير إيان جاك عن «الانتقال من الكلاسيكية الجديدة إلىٰ الرومانسية». وكان الدكتور بدوي يتركني أكتب ما أريد، ولم ينقذني مؤقتًا من براثن الذئب سوىٰ ذهابي إلىٰ الولايات المتحدة.

وقد صرع هذا الذئب مجموعة من أعز أصدقائي أمام ناظري، مات بعضهم دون أن ينبس ببنت شفة، رغبةً منه في أن يحقق هذه الصيغة المستحيلة: عمل نظري شامل مجرد ينتظم كل المعلومات الممكنة. ولعل صديقي الأستاذ علي زيد -رحمه الله- مثل فريد علىٰ ذلك. كان -رحمه الله- يعرف كل شيء تقريبًا، ولا يعرفه كمعلومة، وإنما في إطار نظري شامل كان يزداد اتساعًا علىٰ مر الأيام. كما أنه كان يعرف الكثير من اللغات الأوروبية (الإنجليزية - الفرنسية - الإسبانية - الإيطالية) وكان تملكه لناصية اللغة العربية شيئًا مذهلًا. كنت كلما أطلب منه كتابة مقالة يجلس ليتحدث عن موضوعها ساعات طوالًا، ويأتي بأطروحات مذهلة. ثم يذهب لكتابة المقال، فيأتي بعشرات الكتب ويبدأ في البحث وتتسع الرؤىٰ إلىٰ ما لا نهاية، فيلتهمه الذئب.

وهذه إشكالية لا يواجهها متوسطو الذكاء، فبعضهم يحشد التعميمات التي لا يربطها رابط (أسميها «أفكارًا» في مقابل الفكر)، والبعض الآخر يحشد المعلومات التي لا يربطها رابط أيضًا. وأمثال هؤلاء يخطون بضعة كتب («ويرص كلامًا فوق كلام تحت كلام» علىٰ رأي صلاح عبد الصبور) تُنشر مع مئات الكتب الأخرىٰ التي تصدر ويقرؤها البعض ثم تموت.

وهم يعيشون حياتهم في سعادة بالغة ورضا تام! لكن أن يحاول المرء الجمع بين أعلىٰ مستويات التعميم وأدنىٰ مستويات التخصيص فهذا مستحيل، والمصير هو الفشل النبيل والصمت الدائم.

استمر الذئب الهيجلي المعلوماتي متربصًا بي، وإن كان والحق يقال قد تم ترويضه قليلًا في الولايات المتحدة حيث كان عليَّ أن أكتب أبحاثًا قصيرة لمقررات الدراسة العليا تقدم في نهاية كل فصل دراسي، تعلّمت من خلالها أنني لا بد أن أكبح جماح ذاتي وإلا لما انتهيت من شيء.

كما أن أستاذي المشرف علىٰ رسالة الدكتوراه كان لا يسمح لي بالانطلاق في أي اتجاه. فبعد أن كتبت دراسة مطولة عن وردزورث وويتمان وأصولهما التاريخية والدينية والفكرية، أخبرني أن هذه «الخلفية» لا علاقة لها بالرسالة ذاتها، وأنني بوسعي أن أقرأ ما يحلو لي بخصوص «الخلفية»، طالما أن ما أقرأ له علاقة بموضوعي الأساسي (الوجدان التاريخي والوجدان المعادي للتاريخ)، ولكن علىٰ ألا أكتب سوىٰ النزر اليسير عن هذه الخلفية، لأنها ليست موضوع اختصاصي.

كما أنني لاحظت أنني لو قرأت كل ما كتب عن موضوع تخصصي (من مقالات ورسائل دكتوراه وكتب) لقضيت سحابة أيامي أقرأ وأستوعب وأقرأ دون أن أنتج شيئًا.

ويظهر ترويض الذئب الهيجلي المعلوماتي في النصيحة التي أسديتها لصديقي كافين رايلي. فقد كان يكتب كتابه الغرب والعالم، والذي استغرق معظم حياته الفكرية، وكان لا يكف عن الإضافة والتعديل ولا يجرؤ عن نشره. فأخبرته: «كافين، يحين وقت في حياة الإنسان، يكون الكتاب الوحيد الذي يستحق القراءة هو الكتاب الذي يؤلفه». وهي عبارة تهدف إلىٰ أن أبين له أن المعرفة لا حدود لها

وأن المعلومات بحر يمكن أن يبتلع المرء، ومن هنا يجب أن يتوقف المرء عند نقطة ما. وقد كان، إذ توقف كافين ونشر كتابه، وحقق نجاحًا كبيرًا وذيوعًا منقطع النظير[1].

---

(١) عبدالوهاب المسيري، رحلتي الفكرية ص١٧٨، ١٨٠.

الكتاب الأول

كم كان عمري حين أقدمت علىٰ هذه التجربة الخطيرة؟

مؤكد أنه لم يكن يتجاوز الرابعة عشرة، إن لم يَقِلَّ عنها فكيف واتتني الجرأة إذن للإقدام عليها؟ أما التجربة، فهي -ولا فخر- تأليف أو الاشتراك في تأليف كتاب وطبعه، بهدف «تثقيف» الشباب، و«إثراء» الفكر الإنساني بثمرات عقولنا «الواعية»! ولمَ لا أفعل والقلب غض والأحلام عريضة ولا تعرف الحدود؟ ألم نقرأ بعض الكتب، فشعرنا بعد قراءتها بأننا نختلف عن غيرنا من زملائنا، إلىٰ الحد الذي قد يسمح لنا بتوعيتهم بفكرنا؟، وألسنا نقرأ علىٰ غلاف بعض كتب القراءة المدرسية أسماء ثلاثة أو أربعة مؤلفين اشتركوا في وضع الكتاب؟، وألا يحمل الكتاب المفضل لدينا وقتها وهو «فصول مختارة من كتب التاريخ» أسماء أربعة مؤلفين، لا يختلفون عنا كثيرًا، سوىٰ في أن أسماءهم «معروفة» بعض الشيء، كطه حسين، وأحمد أمين، وإبراهيم الإبياري، وعبد الحميد العبادي فيما أذكر؟.

إذن فماذا ينقصنا لكي نكرر تجربتهم، ونشترك في تأليف كتاب وطبعه ونحن أربعة من الأصدقاء نتحدث في الأدب، وكلنا أو «معظمنا» له إبداعه الأدبي الخاص؟ فأنا مثلًا أراسل كل مجلة إقليمية تطلب مراسلين لها، وأرسل إليها صورتي ورسوم استصدار البطاقة الصحفية الخاصة بها، وهي غالبًا مصدر الدخل الرئيسي لهذه المجلة، فيأتيني بالبريد خطاب خطير من إدارة المجلة يبشرني باعتمادي مراسلًا لها في مدينة دسوق العامرة، ومعه بطاقة صحفية ممهورة بخاتم المجلة، أزهو بها كثيرًا، وأُطلع إخوتي وأصدقائي عليها.

ثم أُغْرق هذه المجلة بكتاباتي وقصصي القصيرة الساذجة، فتنشر القليل منها، وتُلقي معظمها في سلة المهملات، وإذا نشرت لي شيئًا صدَّرته بهذه العبارة المهيبة: للأديب الناشئ فلان الفلاني طالب ثانوي!.

أما صديقي إبراهيم فيكتب الزجل علىٰ طريقة شاعر الشعب بيرم التونسي، ويلقيه علينا في الحفلات المدرسية، كما أن له مقالًا يتيمًا بعنوان «كيف يصل الشباب إلىٰ السعادة والغنىٰ؟» نشره في مجلة الحائط بالمدرسة، ولقي «رواجًا» ملحوظًا، فراح يعيد كتابته ويضيف إليه، أو يحذف منه، ويعيد نشره في كل مكان تصل إليه يده من مجلات الحائط المختلفة، إلىٰ مجلة المدرسة المطبوعة، إلىٰ بعض المجلات الإقليمية، ومع أنني لم أعد أذكر من وصفة صديقي هذا للوصول إلىٰ السعادة والغنىٰ شيئًا الآن، إلا أنها لم تكن تخرج غالبًا عن إطار النصائح المدرسية الشائعة في زماننا، من نوع: من جد وجد، ومن طلب العلا، سهر الليالي .. إلخ، فماذا يمنعه إذن من أن يعيد كتابة هذه «الدرة اليتيمة» ويضيف إليها الجديد، فيصبح هو إسهامه الرئيسي في مشروع الكتاب الجديد مع بعض أزجاله الأخرىٰ؟!.

وماذا يمنع صديقنا الثالث جورج من أن «يثري» هذا الكتاب أيضًا ببعض أشعاره المماثلة وأزجاله ومختاراته من كتب القراءة؟، يبقىٰ المؤلف الرابع، الذي يحتاج إليه غلاف الكتاب، كي تحتل أسماء المؤلفين سطرين متساويين علىٰ صدره، علىٰ غرار ما فعل طه حسين وزملاؤه في كتاب «فصول مختارة»، وما دام الأمر كذلك، فلا بد أن يشترك معنا محمد في تأليف الكتاب، صحيح أنه ليس «ملطوشًا» بالشعر والأدب مثلنا، ولا يضيع أوقات فراغه في قراءة هذه الخزعبلات التي نقرأها، وإنما يستثمره فيما هو أنفع وأجدىٰ للبشرية، وهو حلاقة رؤوس الزبائن في صالون أبيه، رغم محاولات الأب لإبعاده عن المهنة.

نعم، صحيح كل ذلك لكننا من ناحية أخرىٰ لا نتصور أن نشترك في عمل أدبيّ لا يشاركنا فيه صديقنا الرابع الذي تراوده أحلام الشهرة في ميدان الحلاقة، وليس الأدب، فإن لم يكن ذا ملكة أدبية، فتكفيه طيبة قلبه وصداقته المخلصة لنا، واحتماله صابرًا لخزعبلاتنا الأدبية، ولا بأس بعد ذلك بأن نكتب له نحن بعض الشذرات الأدبية ونضع عليها اسمه، ليس فقط وفاء بحقه علينا، وإنما أيضًا لعل ذلك يطمئن بعض خواطر أبيه تجاهه، ويؤكد له أن «الولد» يمضي قدمًا في طريق العلم، ولن يخيب آماله فيه! كما أننا -من ناحية أخرىٰ نحتاج إلىٰ «شريك» رابع في رأس المال الذي سنصدر به الكتاب؛ لأننا المؤلفون والناشرون، بل والموزعون أيضًا له، وصديقنا في النهاية رجل كسِّيب، ويستطيع أن يسهم معنا بربع التكاليف من عائد الحلاقة في أوقات الفراغ!

فعلىٰ بركة الله إذن مضينا في مشروع الكتاب وبعونه ألفنا كل مواده، وراجعناها، واخترنا له اسمه المهيب «وحي الأدباء»، ولم يبق إلا أن نقدمه للمطبعة، لكي تدور عجلاتها وتحفظ هذا التراث الأدبي الخالد للتاريخ! ثم جاءت اللحظة الحاسمة التي ينبغي لنا فيها أن نقدم مواد الكتاب للمطبعة، ولم تكن في مدينتنا وقتها، سوىٰ مطابع صغيرة تطبع الإعلانات التجارية والكروت، وليس الكتب، فحملنا الدوسيه الضخم الذي يضم ثمرات عقولنا، وركبنا القطار من دسوق إلىٰ مدينة دمنهور القريبة، حيث المطابع الكبرىٰ.. وتوجهنا من محطة السكة الحديد إلىٰ مطبعة «المستقبل» التي طالما قرأنا اسمها علىٰ بعض الكتب الأدبية لأدباء الأقاليم.

وسرنا في الطريق إليها في وقار يليق بأمثالنا من الكتاب والمفكرين، واستقبلنا في المطبعة كهل يرتدي الطربوش وبدلة قديمة، بدا لي من بياض وجهه المشرب بالحمرة أنه من أصل تركي أو ألباني، ولا أعرف حتىٰ الآن كيف واتتنا الجرأة علىٰ أن نصارحه بما جئنا إليه من أجله، لكننا صارحناه في النهاية، أو صارحه -علىٰ

الأصح - بذلك إبراهيم، وقد كان أجرأنا في هذه المواقف، ولدهشتي الشديدة فإن الرجل لم يطردنا من مطبعته أو ينهرنا، طالبًا منا الكف عن هذا العبث، والالتفات لدروسنا، بل إنه أيضًا لم يبد دهشة ولا انزعاجًا، ولم يرفع بصره إلينا، وإنما مد يده في صمت طالبًا الكتاب، فوضعنا الدوسيه في يده.، وقلبه هو للحظات، ثم قال لنا باقتضاب: ستة جنيهات والاستلام بعد ١٥ يومًا!

وكأنما قد انزاح عن صدرنا هم ثقيل، وتنفسنا جميعًا الصعداء بارتياح، كأننا قد اجتزنا أصعب العقبات، وفتشنا باضطراب في جيوبنا، وأخرج كل منا نصيبه المقرر من العربون، وهو خمسون قرشًا، فاكتمل الجنيهان وقدمناهما للرجل، فتناولهما صامتًا، ووضع الدوسيه علىٰ المكتب، وانصرف إلىٰ ما كان يفعله قبل مجيئنا إليه بلا كلمة واحدة، وانسحبنا نحن بهدوء، ورجعنا إلىٰ محطة السكة الحديد، ونحن نطير فوق السحاب! وتساءلنا خلال رحلة العودة متعجبين كيف قدر الرجل تكاليف طبع الكتاب، بغير أن يسألنا عن عدد النسخ التي نريدها منه؟

وتبادلنا الرأي حول هذه النقطة طويلًا، ثم قررنا في النهاية أن ندع الأمر كله لحكمة الرجل وخبرته بمثل هذه الأشياء! وتفرغنا نحن للأمر الجلل الذي ينتظرنا، وهو أن يدبر كل منا مبلغ جنيه كامل خلال فترة الخمسة عشر يومًا القادمة، لدفع باقي فاتورة المطبعة.

ولقد كان أمرًا جللًا بحق ومطلبًا عسيرًا إذ يكفي لكي تدرك مدىٰ صعوبته أن تعرف أن مصروفي الأسبوعي لم يكن يزيد حينذاك عن ٢٥ قرشًا، وأن هذا الجنيه المطلوب كان يكفي وقتها لشراء حذاء إيطاليّ مستورد من النوع الفاخر، ومعه حزام جلدي لا يقل جودة، وربما بضعة مناديل كذلك فكيف السبيل إليه خلال هذه الفترة القصيرة، وكيف لم نفكر في ذلك ونحن مشغولون بأحلام المجد الأدبي الذي ينتظرنا بعد صدور الكتاب؟

لم يكن هناك مفر من أن يلجأ كل منا إلىٰ أهله، مناشدًا إياهم أن يسهموا في تشجيع «العلم والأدب» بهذا المبلغ «البسيط»، ليس فقط لأنهم آباؤنا وأمهاتنا وإنما أيضًا لأنه بأمثالهم من «رعاة» العلم والأدب تتقدم الشعوب، ويرقىٰ الفكر، ولا بأس بأن نستعين بثقافتنا في تأكيد ذلك بالأمثلة التاريخية المناسبة، وبما جاء في الحديث الشريف عن «العلم النافع» الذي يمضي صاحبه إلىٰ الدار الآخرة، ويبقىٰ علمه النافع في الأرض يستفيد به الآخرون، ويدعون له بالمغفرة.

ولست أدري كيف كان رد فعل آباء شركائي لهذه المناشدة الخطابية المؤثرة، لكني ما زلت أذكر حتىٰ الآن ابتسامة أبي وأنا ألقي بين يديه هذه الخطبة الجليلة وهي ابتسامة حِرْت طويلًا وقتها في تفسيرها، ولم أفهمها حق فهمها، إلا حين تقدم بي العمر كثيرًا، وأدركت أنها إنما كانت تتراوح بين الرضا عن انشغالي بمثل هذه الأمور التي تصرف فتىٰ مثلي عن الانحرافات الأخرىٰ، وبين الرثاء الخفي والإشفاق المكتوم من أن يكون هذا «الولد» بالفعل «مخبولًا» بعض الشيء، كما تُنبئ بذلك أحيانًا بعض أحواله!

لكن الأمر قد انتهىٰ علىٰ أية حال نهاية موفقة، ورجع كل منا إلىٰ أصحابه، ومعه الجنيه المنشود، بغض النظر عما خاضه من أهوال في سبيل الحصول عليه.

وفي الموعد المحدد ركبنا القطار إلىٰ عاصمة النور والثقافة بالنسبة لنا وقتها وتوجهنا إلىٰ المطبعة وسلمنا لصاحبها المبلغ الرهيب الذي جمعناه، فتلقاه منا في صمت، وأشار بلا احتفال إلىٰ رصتين من الكتب في ناحية من المطبعة فاتجهنا إليهما ورفعناهما واكتشفنا أن الكتاب الكبير الذي قدمناه في دوسيه منتفخ إلىٰ المطبعة قد تحول بعد الطبع إلىٰ ما يشبه الكراسة المدرسية، حيث لا تزيد صفحاته عن ٤٠ أو ٥٠ صفحة. وتساءلنا في حيرة أين ذهبت المواد الأدبية الخطيرة التي قدمناها للكتاب؟، وهل سقط بعضها سهوًا أثناء الطبع؟

وتصفحنا الكتاب بمزيج من الاضطراب والترقب فوجدنا كل المواد التي قدمناها للمطبعة منشورة في الكتاب لكنه الفارق بين خط اليد الذي كتبناها به، وبين جمعها بحروف المطبعة الصغيرة، أو قل هو الفارق بين الأحلام الوردية وبين الواقع فإذا كان حجم الكتاب وغلافه -الذي لا يختلف كثيرًا عن ورق لف اللحم - قد صدمنا بعض الشيء، فإن هذه الصدمة لم تذهلنا عن الإنجاز الكبير الذي حققناه، ولم يحرمنا ذلك من الإحساس الشديد بالزهو ونحن نرىٰ أسماءنا علىٰ الغلاف بنفس طريقة أسماء طه حسين ورفاقه علىٰ الكتاب إياه، لكننا لم نستسلم طويلًا لهذه النشوة فلقد آن الأوان لأن نفكر في مسئولية نقل الكتاب إلىٰ مدينتنا، وتوزيعه علىٰ القراء المتعطشين لقراءته.

أما «النقل»، فلم يكن مشكلة كبيرة، فلقد تبين أن صاحب المطبعة قد طبع منه ٢٠٠ نسخة فقط، فحمل كل منا ٥٠ نسخة من الكتاب الصغير بلا عناء، ورجعنا إلىٰ القطار، وأما «التوزيع» فربما كان هو المشكلة الحقيقية التي واجهتنا، لكنها لم تفت في عضدنا علىٰ أية حال فلقد قدرنا أننا لو بعنا النسخة الواحدة بـ٥ قروش، لغطىٰ الكتاب تكاليفه، وحقق لنا ربحًا صافيًا قدره أربعة جنيهات، بواقع جنيه كامل لكل منَّا لكن من سيشتري هذا الكتاب الصغير لهؤلاء المؤلفين المجهولين بـ٥ قروش، وكتب المشاهير كانت تباع تقريبًا بنفس السعر؟! ثم أين نجد مائتي قارئ لهذا الكتاب في مدينتنا الصغيرة، وكيف نوزعه عليهم؟ هل ندور به علىٰ المقاهي، كما يفعل الباعة الجائلون؟ وهل يسمح لنا آباؤنا بذلك، حتىٰ لو واتتنا الجرأة عليه، أم أن الأفضل أن نسلمه للمكتبة -الوحيدة بالمدينة وقتها - وهو إن رضي صاحبها بذلك، فلن يأخذ منه سوىٰ عشر نسخ يبيعها لحسابنا، وبغير أن يدفع لنا شيئًا!

انتهينا بعد طول التفكير إلىٰ ترك مسئولية توزيع الكتاب لكل منا، يتصرف فيها كما يشاء في حدود نصيبه من عدد النسخ، ولنر بعد ذلك ماذا سيكون من أمرنا وأمر الثقافة والفكر في هذا الزمن!

ورجع كل منا إلىٰ بيته، حاملًا مجده الأدبي بين يديه، ولست أعرف ماذا فعل شركائي في نصيبهم من النسخ، لكني أعرف أن «جمهورنا» من القراء لم يتعدَّ في النهاية بعض الأصدقاء والأقارب وزملاء المدرسة، وأن كلًّا منا لم ينجح في توزيع كتابه إلا علىٰ عدد لا يتجاوز أصابع اليدين من إخوته وأصدقائه..

فإذا كنا قد خسرنا «الجلد والسقط» -كما يقولون- في هذا الكتاب، فلقد كسبنا من ورائه الكثير والكثير، وهو إحساس الرضا عن النفس لاستثمار طاقتنا فيما تصورناه شيئًا مفيدًا، وكسبنا أهم من ذلك معايشة الحلم الوردي، والاستغراق فيه لفترة ثمينة من فترات العمر، أما ركود الكتاب وعدم رواجه، فهكذا قد صادف الفشل بعض كبار الأدباء في بداية حياتهم، ولم يفت في عضدهم، فهل نيأس نحن؟

لقد أصدر الروائي التشيكي الألماني كافكا (١٨٨٣-١٩٢٤) أول رواية له وسعد كثيرًا بصدورها، واشترىٰ منها عشر نسخ وزعها فخورًا علىٰ أصدقائه وأقاربه، وبعد بضعة شهور اتصل بالناشر يسأله عن توزيع الكتاب، فأجابه بأنه لم يوزع سوىٰ ١١ نسخة فقط، منها النسخ العشر التي اشتراها المؤلف فإذا بالمؤلف ينشغل لفترة من الوقت بشيء واحد، هو أن يعرف شخص هذا القارئ الوحيد لروايته، وراح يسأل عنه في المكتبات، دون أن ينجح في التوصل إليه، فإذا كان هذا هو حال (كافكا) الذي تطبع رواياته الآن بلغات عديدة، فلقد كنا نحن أفضل حالًا منه كثيرًا فلقد وزع كتابنا أكثر من ١١ نسخة بكل تأكيد كما أننا أيضًا قد عرفنا كل «أشخاص» من اشتروا كتابنا واحدًا واحدًا. والآن، وبعد حوالي أربعين سنة من هذه التجربة، فإني أشعر -ربما أكثر مما كنت وقتها- بالامتنان الشخصي لهم وأدرك جيدًا كم كان كريمًا وعطوفًا كل من اشترىٰ كتابنا هذا أو اكتفىٰ بتشجيعنا، دون أن يشتريه ودون أن يسخر منا أو يهزأ بنا كما أدرك الآن أيضًا كم كنا نحن حالمين وواهمين ومستغرقين في أحلام وردية خادعة، بدليل أنني لم أصدر كتابي الأول

«الحقيقي» إلا بعد أن تخطيت الأربعين من العمر، لكن من قال أن الفتىٰ في مثل أعمارنا وقتها مطلوب منه ألا يكون حالمًا، ولا واهمًا، ولا مستعدًّا للاستغراق في مثل هذه الأحلام الجميلة؟[1]

۞ ۞ ۞

علىٰ رصيف مقهىٰ عبد الله بالجيزة كان يلتقي كل ليلة جمع متميز من الأدباء والنقاد. يتحاورون، يقرءون لبعضهم البعض آخر إنتاجهم الأدبي، يشكلون ملامح نهضة أدبية وثقافية جديدة، تدور بينهم أحيانا المعارك الأدبية بين القديم والجديد، بين أنصار التراث وأنصار الحداثة بين أنصار الرومانسية ودعاة الواقعية.

في أحد شوارع الجيزة الضيقة كنت أقطن. ولم أكن أتعدىٰ بعد عامي السادس عشر وكنت قد انتهيت لتوي من الشهادة الثانوية وأتأهب لدخول الجامعة، وكانت تعتمل في صدري أحاسيس كثيرة إذ أشعر أنني خُلِقت لأكتب، وكنت أقرأ كثيرًا نماذج من الأدب العربي والأدب العالمي، وكنت أقرأ في الإنجليزية التي كنت أجيدها إلىٰ حد كبير رغم سني اليافع حينئذ، وكنت أسمع عن قهوة عبد الله القريبة من منزلي، وكنت أقرأ كذلك لكل الأسماء التي أراها -عن بُعد- جالسة في المقهىٰ، وكنت أخشىٰ الاقتراب منهم رهبة للكلمة، وخشية من سطوة القلم، لكن غروري كان يصور لي -وأنا أرمق هذه الصفوة اللامعة عن بُعد- أنني يومًا ما وقريبًا جدًا سأكون واحدًا منهم، ولم أكن أدري -في سذاجة ويفاعة الشباب الأول- أن الطريق طويل طويل .. وشاق شاق.

واتخذت القرار أن أصبح واحدًا من رواد قهوة عبد الله، كاتبًا مثل بقية الكتاب الجالسين علىٰ رصيفها الزاخر نقاشًا، وحوارًا وصخبًا، وكان لا بد لتنفيذ هذا القرار

---

(١) عبد الوهاب مطاوع، ساعات من العمر ص٣٩، ٤٨.

أن أنشر كتابًا كاملًا يصبح جواز سفري إلىٰ الندوة الليلية بتلك المقهىٰ، أجلس مع الجالسين أو علىٰ الأقل مع واحد من قبيلتهم هكذا صور لي غروري الساذج وانكببت علىٰ مجموعة قصص أحبها وأنا أقرأ، وكنت أتمثل نفسي كاتبًا لها، وأتمنىٰ أن أكتب يوما مثلها، ولكني شعرت بالعجز إلىٰ درجة البكاء لأن موهبتي الغضة لم تكن تمكنني من أن أتطاول عظمتها، وعندما اكتمل الكتاب ترجمة وتأليفا اتجهت بأصوله في ثقة -أحسد عليها- إلىٰ دار الفكر العربي التي كانت من أكبر دور النشر المصرية والعربية وقتئذ.

كان صاحب الدار -الحاج عبد المنعم - رجلًا طيبًا، بشوشًا، لكنه كان أيضا تاجرًا ماهرًا و(رجل سوق) يعرف ما ينفع من تجارة الكتب وما لا ينفع، إذ كان العصر عصر قراءة ولم يكن قد أفسده بعد التليفزيون ولم تكن أفسدته ثقافة (السندوتش) السريعة في وسائل الإعلام، وكانت القصة القصيرة قد بدأت -بفضل يوسف إدريس في مصر وسهيل إدريس في لبنان، وغيرهما في أرجاء الوطن العربي- تجتذب أعدادًا ضخمة من القراء.

اتجهت بمجموعة قصصي التي أسميتها «سبعة أفواه» باسم القصة الأولىٰ في المجموعة إلىٰ صاحب دار النشر لأطلب نشرها، هكذا دون مقدمات!! ولم يكن «الحاج» قد سمع من قبل بطبيعة الحال عني، ولا أدري كيف بلغت بي الجرأة أن أقدم مجموعة كاملة من القصص لأنشرها مثل أي كاتب شهير في هذا السن اليافع؟!.

وكان من الممكن أن تأخذه القسوة بي فيصرفني من مكتبه ساخرًا من جرأتي وتجاسري، لكنه -حتىٰ لا يكسر خاطري ليوئد موهبتي في مهدها إن كان لدي ثمة موهبة - آثر أن يطلب مني شرطًا تعجيزيًّا.

قال: (إن أنت أتيتني بمقدمة لهذه المجموعة بقلم ناقد شهير -وأطرق يفكر قليلًا ثم أردف - كأنور المعداوي مثلًا، فإنني سوف أنشر لك المجموعة).

كان أنور المعداوي ناقدًا ملء السمع والبصر، وكان الحصول منه علىٰ كلمة نقدية في جريدة ناهيك عن دراسة نقدية كاملة تتصدر مجموعة قصص لكاتب ناشئ لم تتأكد موهبته بعد بمثابة الخوض في دروس المستحيل، لكني -بحساب الشباب وسذاجته - اتجهت إلىٰ مقهىٰ عبد الله في الجيزة، وقدمت نفسي إلىٰ أنور المعداوي وطلبت منه أن يكتب الدراسة النقدية لمجموعتي القصصية!.

لم يندهش أنور المعداوي لجسارتي فقد كان أستاذا بحق، يقدر الموهبة الوليدة حق قدرها يرعاها يتعهدها يحدب عليها حتىٰ تثمر وتينع، وقد وجد في عيني اللامعتين بالطموح والأمل وإصراري علىٰ تحقيق ذاتي، شيئًا ربما يتطور في المستقبل إلىٰ مشروع كاتب، فكان قراره أن يأخذ المجموعة ويقرأها فإن أعجبته فسيكتب لها المقدمة المنشودة، وضرب المعداوي لي موعدًا بعد شهر، وظللت لا يخالجني النوم إلا ساعات قلائل قلقة، طول أسبوع كامل أنتظر الحكم بالميلاد أو الإعدام.

ولم أطق صبرًا أن أنتظر شهرًا كاملًا كأنه الدهر بلا نهاية، فذهبت إلىٰ المقهىٰ بعد أسبوع واحد من اللقاء الأول وهناك وجدت المعداوي بابتسامته العريضة وشاربه الرفيع المصقول وقامته الشامخة يرحب بي ويأخذني بين أحضانه، وكان المعداوي قد كتب المقدمة.

لم أدر بنفسي أو بما أفعله فأخذت أجري كالمجنون إلىٰ مقر دار النشر الواقعة عند باب اللوق ونسيت أن أركب الترام، (ولم تكن معي نقود علىٰ أي حال لأركب تاكسي)، وبعد نصف ساعة من الجري المتواصل عبر شوارع القاهرة، وأنا أرفع

يدي بمقدمة أنور المعداوي وجدت نفسي وجها لوجه أمام الحاج عبد المنعم ودفعت بالمقدمة في نبرة انتصار واضحة.

أسقط في يد الحاج وتأمل المقدمة فإذا بها فعلا بقلم أنور المعداوي وإذا بها عنّي وعن هذه القصص الموجودة بالمجموعة، لم ينبس الحاج بكلمة واحدة، وإنما فتح درج مكتبه الأيمن في استسلام واضح وأخرج ١٧ جنيهًا وأعطاها لي، ثم أردف، مُرَّ علي بعد شهر تجد الكتاب (مطبوعًا) أمسكت بالـ ١٧ جنيهًا وأخذت أجري مرة أخرىٰ إلىٰ منزلنا بالجيزة لأضعها في يديّ أمي وكأنني أقول لها: هأنا أصبحت رجلًا وهأنا قد كسبت مالًا من عرق جبيني، كان هذا المبلغ البسيط (١٧ جنيها) وما يزال أجمل وأحلىٰ مبلغ كسبته في حياتي[1].

الكتاب الأول لأي كاتب حدث جلل في حياته لحظة الميلاد مليئة بالشغف والحزن الرقيق والفرح الغامر، وعندما يمسك الكاتب في يده بكتابه الأول يشعر أنه قد كبر فجأة مائة عام ذلك أنه يدخل منذ تلك اللحظة عالم الكبار عالم المسئولية عن كل حرف يكتب بعد ذلك المسئولية عن موقف معين لا بد أن يتخذه من الكون والحياة والناس والأشياء[2].

۞ ۞ ۞

بدأت تجربتي مؤلفًا وكاتبًا في وقت مبكر من عام ١٨٦٧، في الشهر الأول من ذلك العام جئت إلىٰ نيويورك قادمًا من سان فرانسيسكو، وبعد وقت ليس بطويل، اقترح عليّ تشارلز إتش ويب أن أقوم بنشر كتاب يضم مشاهد مسرحية فكاهية كنتُ قد أعددتها.

---

(١) د. سمير سرحان، أيام العمر الجميل ص٧، ١٢.
(٢) د. سمير سرحان، أيام العمر الجميل ص٢٧.

عرفت تشارلز كمراسل في صحيفة ذا بوليتين في سان فرانسيسكو، وقد أصبح بعد ذلك محررًا في صحيفة ذا كاليفورنيان، لقد راق لي ذلك الاقتراح بشكل كبير وأحسست بنشاط يدب في داخلي، وأصبحت لدي الرغبة الكاملة بأن أجرّب الأمر فيما لو وجدتُ الشخص المُجِدّ الذي يريحني من عناء جمع تلك المشاهد، لم أرد القيام بالعمل بنفسي، فقد كان هناك بداخلي ومنذ البداية بقعة فارغة كان ينبغي أن يشغلها الجدّ والمثابرة، ولكنّ هاتين الصفتين كانتا غائبتين.

تولىٰ تشارلز ويب عملية تجميع المشاهد. أتم هذه المهمة ووضع النتيجة بين يدي، وبعد ذلك ذهبت بهذا العمل إلىٰ مؤسسة الناشر الذي يتعامل معه، وهو السيد كارلتون، نهض كارلتون من مقعده وقال لي ببرود: حسنًا، هل أستطيع أن أخدمك بشيء؟

ذكّرته بأنّ وجودي عنده في المكتب كان بناء علىٰ موعد قد رُتِّب لي معه حتىٰ أقدم له كتابي ويقوم بنشره، قال: «الكتب! انظر وستجد في كل مكان حولك كتبًا تنتظر النشر، هل تظن أنه تنقصني الكتب؟ عذرًا، فأنا لست بحاجة للمزيد، أتمنىٰ لك صباحًا طيبًا».

مرت إحدىٰ وعشرون سنة قبل أن ألتقي كارلتون مرة أخرىٰ، وكنت أقيم عندها مع عائلتي في لوسيرن، وقد قام بزيارة قصيرة لي، وصافحني بلطف قائلًا: «في الحقيقية لست بالشخص المهم علىٰ الإطلاق، ولكن لدي من المزايا ما أفخر به ويمكنه أن يخلد ذكري: فقد رفضت كتابك، وبذلك فأنا أستحق جائزة الغباء في القرن التاسع عشر دون منازع».

لقد كان جميلًا جدًا منه أن يعتذر عما فعل، وقد قلت له ذلك، وقلت له أيضًا: إني أحببت هذا التصرف منه؛ لأني كنت في كل سنة من السنوات الإحدي والعشرين

تلك أنتزع روحه في خيالي مرات عديدة، وقد كنت أفعل ذلك في كل مرة من هذه المرات بطريقة جديدة تفوق سابقتها قسوة ووحشية، أما الآن فقد أصبح صديقًا مخلصًا لي أحترمه وأقدره، ولن أقتله بعد ذلك أبدًا.

نقلت إلىٰ ويب تلك المغامرة التي حدثت لي مع كارلتون، فقال بشجاعة وتحد إن الكتاب سينشر برغم أنف كارلتون وكل أمثال كارلتون في هذا العالم، وقال إنه سيتولىٰ نشره بنفسه، وإني سأحصل علىٰ عشرة بالمئة عن كل نسخة يتم بيعها، وقد قام بذلك بالفعل، وخرج لنا بكتاب جميل جدًا صغير الحجم بلون أزرق وذهبي، وأظن أنه أسماه «ضفدع مقاطعة كالفيراس، وقصص أخرىٰ». وكان ثمن النسخة الواحدة دولارًا وربع الدولار[١].

۞ ۞ ۞

عندما شرعت في اختيار الإهداء الذي سأصدّر به كتابي الأول الذي نشر في إنجلترا ويتضمن رسالتي للدكتوراه، أهديت الكتاب إلىٰ شخصين «إلىٰ أبي الذي علمني حب الكلمة المطبوعة وإلىٰ أستاذي روبنز الذي علمني ألا أقدّسها».

كانت هذه العبارة تنطوي علىٰ بعض المبالغة في الناحيتين، إذ من الصعب أن يتعلم المرء «حب الكلمة المطبوعة» من شخص واحد، ناهيك عن تعلم «عدم تقديسها»، ولكني كنت مدفوعًا بالطبع بالرغبة في أن يكون الإهداء بليغًا ومؤثرًا[٢].

۞ ۞ ۞

كانت أول أعمالي الأدبية هي خمس روايات كتبتها من عام ١٨٧٩ إلىٰ ١٨٨٣، ولم يقبل أحدٌ بنشرها. ثم بدأتُ بكتابة مسرحية تجديف عاطفية، حيث صوَّرت أم

---

(١) مارك توين، سيرتي الذاتية ص١٠١، ١٠٥.

(٢) جلال أمين، ماذا علمتني الحياة ص٣٧٥.

البطل كامرأة سليطة، لكني لم أُنهيها أبدًا. فقد كنتُ، ولحسن حظي، فاشلًا كعابث؛ كل محاولاتي في كتابة الفن من أجل الفن قد باءت بالفشل، وكانت كدقِّ مسامير في دفتر ملاحظات[1].

---

(١) برنارد شو يُفصح عن نفسه ص٨٧ .

المؤلفات

كتاب الإسلام والحضارة العربية

كتاب الإسلام والحضارة العربية طبع في مجلدين في مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، علىٰ نفقة لجنة التأليف والترجمة والنشر، وقد سلخت في تأليفه ثلاث سنين لم أنقطع فيها يومًا واحدًا عن التأليف، ومدة اشتغالي كل يوم ثماني ساعات فأكثر. وشاهدت تيسيرًا في التقاط مادته ما وقع لي في تأليف كتاب غيره. فكنت أذكر ما تلوته من ثلاثين أو أربعين سنة في هذا المبحث أو المباحث فأسقط في الحال علىٰ ما أتوخىٰ، وقرأت ورجعت إلىٰ أكثر من خمسمائة مصنف باللغات الثلاث وقال بعض العارفين إنه أجود كتبي تأليفًا ، وذلك لأن موضوعه عَامّ جذَّاب يحتاج إلىٰ الرجوع إليه الموافق والمخالف . والكبير والصغير، والعربي والإفرنجي. ومما كتب إليَّ الأمير شكيب أرسلان فيه: «أنا معتقد أنك وفِّقْت فيه توفيقًا كبيرًا وأنه خير ما كتبت بل من خير ما أُخْرِج من الكتب في هذا العصر، ولعمري إن هذا الموضوع كان يُعوزه كتاب جامع محيط بأطرافه كهذا الكتاب سد هذا العوز، وكفىٰ الناس مؤونة نشدان الأدلة من هنا ومن هنالك ومن هناك[1].



خطط الشام

هو كتاب في مدينة الشام وتاريخه صرفت في تأليفه ثلاثين عامًا، وطالعت لأجله زهاء ألف ومائتي مجلد باللغات الثلاث العربية والتركية والفرنسية، وأنفقت

(١) محمد كرد علي، المذاكرات (١/ ٣١٨).

في سبيل تأليفه نحو ألف وخمسمائة جنيه، ويدخل في ستة مجلدات[1].

۞ ۞ ۞

دولة الإسلام في الأندلس

لما صدر كتابي «تاريخ العرب في إسبانيا» (سنة ١٩٢٤) كان مجهودًا متواضعًا، ولكن حَسَن التنسيق، غني المادة، ويشتمل علىٰ موجز في تاريخ الأندلس منذ الفتح، حتىٰ عصر الناصر لدين الله (في نحو مائة صفحة)، وكنت قد بدأت في كتابته منذ أيام دراستي في الحقوق، وقرأت من أجله عددًا من المصادر العربية الجامعة، وبعض المصادر الأوربية مثل دوزي ولاين بول، وقد كانت هذه الفاتحة الأولىٰ في البحوث الأندلسية رغم ضآلتها أساس مجهوداتي الكثيفة الواسعة النطاق فيما بعد، في ميدان الدراسات الأندلسيّة، ودليلًا اتبعته في تنظيم مراحل التاريخ الأندلسي في موسوعتي الأندلسيّة، التي اشتغلت من أجلها فيما بعد زهاء عشرين عامًا في مدريد والاسكوريال وغرناطة والمغرب وغيرها، والتي تبلغ سبعة مجلدات كبيرة، تشغل نحو خمسة آلاف صفحة[2].

إني أعتقد أن هذه الفترة الطويلة، من دراساتي التاريخية، أو بعبارة أخرىٰ دراساتي الأندلسيّة، والتي كان مسرحها بالأخص في إسبانيا والمغرب، هي ألمع ما في حياتي العلمية، وقد بدأت هذه الفترة بصدور الطبعة الأولىٰ من كتابي دولة الإسلام في الأندلس، في سنة ١٩٤٣.

وقد كانت محاولة متواضعة، ولم أكن حين صدورها قد وفقت إلىٰ دراسة أية من المصادر الأندلسية المخطوطة، التي ظفرت بالكثير منها فيما بعد، وقد بدأت

(١) محمد كرد علي، خطط الشام (٦ / ٤٢٤).
(٢) محمد عبدالله عنان، مذكراتي في ثلثي قرن ص٧٢.

زياراتي لشبه الجزيرة الإسبانية في سنة ١٩٥٠، بعد أن استقرت الأحوال، عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، فدرست اللغة الإسبانية.

وكان يشجعني علىٰ ذلك صديقي الدكتور حسين مؤنس أيام رياسته لهذا المعهد الجليل، وقمت من سنة ١٩٥٠ إلىٰ سنة ١٩٧٤ بأربع عشرة رحلة دراسية إلىٰ إسبانيا، وقمت بعشر رحلات إلىٰ إقليم الأندلس زرت فيها الحواضر الأندلسيّة الشهيرة، قرطبة وجيان وأشبيلية وغرناطة ومالقة ورندة والمرية مرارًا وتكرارًا، وهذا عدا ما قمت به من زيارة سائر قواعد إسبانيا المسلمة القديمة في شمال الأندلس وفي شرقها ووسطها وغربها، وما قمت به من زيارة سائر قواعد إسبانيا النصرانية التي لها علاقة بتاريخ إسبانيا المسلمة، من حواضر قشتالة القديمة وقشتالة الجديدة وجليقية وليون وأراجون ونبرة.

وقد استغرق هذا الطواف المستمر بأنحاء شبه الجزيرة الإسبانية زهاء أربعة أعوام من سنة ١٩٥١ إلىٰ سنة ١٩٥٤، وكانت ثمرة هذا المجهود الكشفي الشامل، إخراج كتابي «الآثار الأندلسيّة الباقية في إسبانيا والبرتغال».

وقد كان لهذا التجوال الشامل في شبه الجزيرة الإسبانية، ولهذه الدراسات التاريخية والجغرافية العميقة للمواقع والأطلال والآثار أكبر الأثر في تكييف دراساتي التاريخية، وفي إلقاء الضوء علىٰ كثير من نواحيها الغامضة، وأود أن أسجل -بادئ ذي بدء - أني قمت بهذه الرحلات الدراسية كلها، وغيرها، إلىٰ المغرب وإيطاليا وإنجلترا، والتي كلفتني مبالغ طائلة، خلال عشرين عامًا، قمت بها علىٰ نفقتي الخاصة، ولم ألتمس بل ولم أكن لأقبل أية معاونة مادية من أية جهة حكومية أو أية هيئة علمية، ضنا بحريتي في البحث والتفكير، وحرية قلمي، التي كنت أضعها دائمًا طول حياتي، موضع التقديس، واستطعت بحمد الله أن أحتفظ

بها دائمًا، وفي كل الظروف[1].

❁ ❁ ❁

نقد نقد العقل العربي

كتابٌ واحدٌ حمله معه جورج عندما غادرنا لبنان في صيف ١٩٨٤، هو «نقد العقل العربي» للمفكر المغربي، محمد عابد الجابري، وكان الكتاب قد صدر حديثًا عن دار «الطليعة» وقد واظب جورج علىٰ مطالعته طوال رحلتنا في الطائرة، وكان بين الحين والآخر يصارحني قائلًا: «إنه عمل رائع، هائل»، وقد كرَّس له بحثًا مطولًا، كان باكورة مساهماته في مجلة «الوحدة» الشهرية.

وبعد انقضاء فترةٍ وجيزةٍ علىٰ وصولنا إلىٰ فرنسا واستقرارنا في ضاحية «كريتاي»، علم جورج بقدوم الجابري إلىٰ باريس فسارع يدعوه علىٰ العشاء مع صديقنا الباهي محمد، وكانت جلسة لطيفة، ودية، لم يتكلم الجابري خلالها كثيرًا علىٰ ما أذكر، إذ احتكر جورج الكلام كما هي عادته، ولكن هذا الإعجاب لم يدم طويلًا إذ بدأ جورج يكتشف أخطاء وتفسيرات مغلوطة في كتاب الجابريّ.

حاولتُ إقناعه في بادئ الأمر بأنها مجرد أخطاءٍ مطبعية، إذ يستحيل علىٰ مفكر رفيع المستوىٰ أن يُخطئ علىٰ هذا النحو، ولكن عندما أثبت لي بأن الخطأ بعينه يتكرر في أكثر من فقرة وأكثر من صفحةٍ، اضطررتُ إلىٰ تبرئة صفحة عامل المطبعة، وقد أصيب جورج بخيبة أمل عظيمة ولام نفسه علىٰ الثغرات الخطيرة في ثقافته وقاعدته المعرفية؛ لأن لولاها لما سارع يكيلُ المديح لكتاب (نقد العقل العربي) وكان هذا الشعور بالتقصير وراء انطلاق مشروعه الجبار (نقد نقد العقل العربي) الذي بذل في سبيل إنجازه جهودًا هائلة وكرَّس له عشرين عامًا من حياته،

---

(١) محمد عبد الله عنان، مذكراتي في ثلثي قرن ص١٤٨، ١٥١.

فلم يترك مرجعًا في التراث العربي الإسلامي إلا وعاد إليه، فتّش ونقّب وقارن ووسّع آفاق بحثه متخطيًا حدود موضوعه الأولي[1].

يقول جورج: «من ذلك اليوم لم أعد أوجه لومي إلىٰ الجابري، بل إلىٰ نفسي، لأنني حكمت علىٰ كتاب في موضوع لم أكن أملك كل مفاتيحه المعرفية، وأقسمت بيني وبين نفسي أني بعد الآن لن أقول شيئًا أو أصدر حكمًا بدون أن أكون مستوثقًا من كل المعلومات بصدده، وهكذا أخذت قراري بإعادة تربية نفسي، وإعادة تثقيف نفسي، وهكذا انكببت أنا الذي درست اللغة العربية والتراث العربي جزئيًّا في الجامعة، انكبابًا مرعبًا علىٰ قراءة كتب التراث وعلىٰ مطالعة عشرات وعشرات المراجع التي ذكرها الجابري، والتي رحت أدقق كل شاهد من شواهدها وأتحقق من صحتها في كل المجالات، وبصراحة أقول لكم وقعت علىٰ عشرات وعشرات من الأمثلة علىٰ مثل هذا التزوير الذي أوقع فيه الجابري عن قصد أو عن غير قصد -لا أدري - قُرّاءه وأنا منهم»[2].

عندما باشر جورج في كتابة «نقد نقد العقل العربي»، كان ما يزال يتأبىٰ عن التعامل مع الكمبيوتر، مما اضطره إلىٰ نسخ آلاف الصفحات، من المراجع التي كان يحتاج إلىٰ العودة إليها، وقد غرقت دارُنا تحت تلال من المطبوعات، والويل لمن كان يحاول نزع الغُبار عنها أو إزاحتها، ولو قليلًا من مكانها، فهو وحدُهُ عليمٌ بترتيبها وتصنيفها، من أين أتاه الصبر لجمع كل هذه المعلومات ولدراستها، ثم توظيفها في عمله النقدي الضخم بل الجبار؟[3].

۞ ۞ ۞

(١) هنرييت عبودي، أيامي مع جورج طرابيشي ص١٣٧، ١٣٨.
(٢) هنرييت عبودي، أيامي مع جورج طرابيشي ص٢٤١، ٢٤٢.
(٣) هنرييت عبودي، أيامي مع جورج طرابيشي ص٤٩.

كان هذا الكتاب «ماذا حدث للمصريين؟» بلا شك أنجح كتبي طرًّا، وكان من أكثر ما سرني في نجاحه أن كثيرًا من فصوله اختلط فيه الشخصي بالعام، الذكريات الخاصة بي أو بأسرتي، بالتغيرات التي طرأت علىٰ المجتمع المصري ككل، وقد طمأنني هذا علىٰ أني أستطيع أن أتكلم عن أمور ذاتية دون أن أفقد قارئي أو أصيبه بالملل، إنه سرور أقرب، إذن، إلىٰ سرور كاتب القصة بنجاح قصته، الذي يفوق سرور عالم الاجتماع أو الاقتصاد باستقبال مقال أو كتاب له استقبالًا حسنًا، وكأن الرضا في الحالة الثانية هو رضا عن عمل قمت به، وفي الحالة الأولىٰ رضا عني أنا شخصيًّا، وهو باعث أقوىٰ علىٰ السرور[1].

كنت أستطيع أن أخمّن بماذا نجح هذا الكتاب مع القراء أكثر بكثير مما نجح غيره، ومع هذا فقد كنت أشعر بالغيظ عندما كان يحدث أن يقابلني شخص، بعد صدور الكتاب بعدة سنوات نشرت خلالها عدة كتب أخرىٰ لا بأس بها، فإذا به يقول لي: «أهنئك علىٰ كتابك»، وأظن لوهلة أنه يقصد كتابي الأخير فإذا به يقصد بالطبع «ماذا حدث للمصريين؟».

تذكرت الغيظ الذي كان يشعر به يحيىٰ حقي عندما لا يذكر أحد اسمه إلا مقترنا بقصة «قنديل أم هاشم»، علىٰ الرغم من أنه نشر عشرات القصص والروايات بعدها، وكان هو يعتبر أن أفضلها جميعا رواية أخرىٰ هي «صحّ النوم». وتذكرت أيضًا الكاتب الأثير لديّ (ألفريد إيير A.J. Ayer، الذي نشر وهو لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره كتابًا صغيرًا اسمه «اللغة والحقيقة والمنطق» (Language, Truth and logic) لخص فيه بوضوح وسلاسة مدهشة فلسفة الوضعية المنطقية،

---

(١) جلال أمين، رحيق العمر ص٣٧٨.

فظل حتىٰ آخر أيامه لا يذكر اسمه إلا مقترنًا بذلك الكتاب، وكان هذا يغيظه بدوره إذ كان يعتقد أنه نشر بعد هذا الكتاب كتبًا أفضل منه بكثير.

لاحظت أن هذا الكتاب «ماذا حدث للمصريين؟» يمزج أيضًا بين وصف تجارب شخصية لي وتجارب المجتمع المصري ككل، فقلت لنفسي: «أليست هذه السمة هي أيضًا التي تلاحظها في كتابات أحب الكُتّاب الإنجليز إليّ، وهو جورج أورويل، الذي كان يكتب وكأنه يتكلم، ولا يجد أي غضاضة في مقالاته من التطرق من الحديث في موضوع بالغ الأهمية، إلىٰ حديث عن تجربة شخصية له أو العكس؟ أوَ ليست هذه السمة من بين ما حبّب الرجل إليّ؟

ثم أليست هذه أيضًا سمة لكتابات واحد من أحب الكُتّاب السياسيين المصريين إليّ وهو أحمد بهاء الدين، الذي كان بدوره يكتب وكأنه يتكلم، وكان كلامه، الممتع دائما، مليئا بالقصص الواقعية الصغيرة التي مرّت به وعاينها بنفسه، ولكنها كانت دائما قصصا ذات مغزىٰ عام ولا تكون تافهة أبدًا؟»[1].

(١) جلال أمين، ماذا علمتني الحياة ص٢٩٦، ٢٩٧.

التحقيق

قال لي أحد أصدقائي: لماذا توجهت إلىٰ التحقيق مع أنك قادر علىٰ إنجاز إبداعات بعيدة عن مجال التحقيق؟، قلت، أقول لك: عندي جوابان أحدهما علىٰ سبيل الفكاهة والثاني علىٰ سبيل الجد؛ أما الأول فأقول: ليس من حقك أن تنتقص من فضل التحقيق عليّ.

ذات يوم وأنا في مكتبي بالجامعة الأمريكية دخل عليّ رجل كبير في علمه ومنزلته الاجتماعية وقال لي دون مقدمات: إلىٰ متىٰ ستظل مشغولًا بالتحقيق؟! فقلت له: دعني أحدثك ما للتحقيق عليّ من فضل: وصلني مؤخرًا كتاب من بلد عربي يتضمن دعوتي إلىٰ مؤتمر لمكافحة الجريمة، فتملكتني الدهشة، بأي وجه أدعىٰ إلىٰ مثل هذا المؤتمر وفكرت طويلًا وأخيرًا اهتديت إلىٰ أن القوم قرأوا اسمي علىٰ بعض الكتب «تحقيق إحسان عباس» فقالوا لأنفسهم قد ضبطناه، إنه «محقق» فلا أقلّ من أن يقدم لنا شيئًا عن أساليبه في التحقيق مع المجرمين، وبهذا الحل زالت الدهشة، وأما الجواب الثاني، فأقول لك إذا سلمت معك بإن قولك هذا صحيح اختصارًا للجدل فإني أفسر لك تاريخ صلتي بالتحقيق تدريجيًّا.

كانت صلتي بالتراث علىٰ مراحل: حين درست أدب صقلية الإسلامية وجدت هناك تراثًا لا يتحقق درسه بغير إحيائه، ثم اتصلت بالأستاذ أحمد أمين فقدم لي رسالة مخطوطة للمعري وقال: ليتك تحققها، فحققتها مع أنها كانت قد نشرت من قبل مرتين. وحين توجهت إلىٰ الخرطوم كان الدكتور عبد المجيد عابدين يكتب رسالته للدكتوراه عن «الأمثال» وطلب مني أن أشاركه في تحقيق كتاب «فصل

المقال في شرح الأمثال» للبكري، وحين انتدبت لتدريس الأدب الأندلسيّ في جامعة القاهرة - فرع الخرطوم لم يكن أمامي سوىٰ إحياء ما لم ينشر من التراث الأندلسيّ أو ما كان يستحق أن يعاد نشره محققًا، إذن كان التراث بالنسبة لي مؤازرًا لعملي الأكاديمي، وكان ضرورة لا بد منها لاستكمال بعض جوانب المعرفة، وحين عملت في بيروت جعلت أكثر همي في ميدان التحقيق نشر المكتبة الأندلسية، لأني في الجامعة الأميركية كلّفت بتدريس الأدب الأندلسي، وهو حقل لم أرتده في دراستي الجامعية. وقد أحسن الناس بي الظن حتىٰ صاروا يعتقدون في البلاد العربية وفي خارجها -خطأ أو صوابًا - أنني حجة في كل ما يتصل بالأندلس، إن هذه الثقة تستحق أن تقابل بما يوازيها ومع ذلك فإن التراث لم يحجب عينيّ ما يجدُّ في الأدب العربي الحديث، كما أنني علىٰ الرغم من كل ما حققته من كتب لا أعدّ نفسي محترفًا في الميدان، بل ظل التحقيق لدي «هواية» تجذبني، ولكنها لا تستطيع أن تتملكني.

وقد كان أكبر أهدافي في الحياة العلمية أن أوسّع نطاق المعرفة لديّ، إذ علىٰ الرغم من إيماني بالتخصص الدقيق الجامعيّ، فأنا أحب أن أقرأ مؤلفات خارج نطاق الأدب والنقد، وأكره التخصص الذي يعني «الانغلاق» المطلق، وقد كفل لي التحقيق اطلاعًا واسعًا علىٰ شؤون معرفية، كان يمكن أن تظل مغلقة دوني.

ولا أنكر أنني ظننت في بعض المراحل أن التحقيق قد يكون مصدر دخل إضافي ولكني أدركت بعد التجربة أنني كنت واهمًا، فإن الكتاب قد أصبح سلعة بائرة، وأصبح عرضة للتزوير والسرقة، ثم مرّ عليّ وقت شعرت فيه أن التحقيق قد أصبح لديّ تسلية، مثل لعب الورق أو مثل لعبة تقاطع الكلمات. مهما يكن من شيء، فأنا أحب التراث العربي، ولا يقف بيني وبينه حجاب، وأنا أعتز بالجيد منه، ولكني أيضًا أعتقد أنه ليس مقدسًا وأن فيه غثاء كثيرًا لا يستحق الإحياء، وقد جعلتني هذه

النظرة الموضوعية أقبل علىٰ تحقيق ما فيه فائدة أكيدة، وهذا يقتضي معرفة دقيقة بالمخطوطات، وقد حصرت مجال تحقيقي في الأدب والتاريخ والتراجم ولم أتعد هذا المجال إلا استجابة لظروف لا أستطيع تجنبها، وكنت لا أتهيب الإقبال علىٰ تحقيق الكتاب الذي أختاره مهما يكن حجمه؛ ولهذا حققت وفيات الأعيان (٨ أجزاء مع الفهارس)، ونفح الطيب (٨ أجزاء مع الفهارس)، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (٨ أجزاء)، ومعجم الأدباء ياقوت (٧ أجزاء مع الفهارس)[1].

(١) إحسان عباس، غربة الراعي ص٢٢٦، ٢٢٩.

زمّار الحي

لم أتوقع أن يقرأ أولادي الثلاثة كتابي «ماذا علمتني الحياة؟» لِما علمتني إياه الحياة من أن «زمار الحي لا يطرب»، وهي عبارة سمعتها من أبي أكثر من مرة، ورأيت دليلًا علىٰ صحتها في مواقف أبناء أدباء وكتّاب كثيرين من أعمال آبائهم؛ ولهذا اكتفيت بأن أعطيت كلًّا من أولادي نسخة، كتبت عليها إهداء، دون أن أسال بعد هذا عما إذا كانوا قرءوه أو قرءوا أجزاء منه، كانت مفاجأة سارة لي أن أعلم أن اثنين منهما قرآ الكتاب، ولكن كان واضحًا لي أن الثلاثة، سواء من قرأه منهما أو من لم يقرأه، لم يعلقوا عليه أهمية تقارب ما علّقته أنا عليه.

وقد أكد هذا لي ما كنت قد توصلت إليه من قبل، من أن من الخطأ الشديد اعتبار أولادنا استمرارًا لنا، ومن ثَمَّ فلا يمكن أن نأمل أن يعتبروا هم قصة حياتنا جزءًا من قصة حياتهم، كل منهم يريد أن تكون له قصة مستقلة ومبالغتنا في تعليق أهمية علىٰ ما فعلناه نحن وما لم نفعله، تضايقهم وتثير أعصابهم[1].

(١) جلال أمين رحيق العمر ص١٨.

أعلام في حياة الأعلام

• كان أول ما رسمه -رحمه الله - أن طلب إلىٰ مدير المعارف أن يضع بالاشتراك مع أحد مستشاريه منهجًا للدراسة يغرس في أنجاله الروح الدينية لتهيمن علىٰ نفوسهم، ونص علىٰ تفسير القرآن قائلًا: «أريد أن يفهم أبنائي معنىٰ ما يقرؤونه من القرآن ليكون ذلك أدعىٰ إلىٰ العمل، فالعلم بلا عمل لا فائدة فيه»، ثم التفت إلىٰ مدير المدرسة صاحب اللمحات قائلًا: «نحن عرب ندرك بفطرتنا ما لا يدركه غيرنا، البسائط من الأمور لا تعتنوا بها، اسمع هذا المثل: البقرة بشكلها المعروف لها أرجل ورأس وغير ذلك، فتعليم شيء عن البقرة أكثر من هذا ضياع للوقت وحرمان من الفائدة، اعتنوا باللباب واتركوا القشور»، وتلك نظرية من أروع النظريات في أصول التربية يرشد إليها جلالته علىٰ سجيته دون تعمق وفي غير فلسفة وتعسف، ووُضِع المنهج علىٰ التخطيط الذي رسمه جلالته -يرحمه الله - فكان في واقعه أفضل ما في مواد المنهج الابتدائي وموصولًا بمواد المنهج الثانوي، بل بمواد المنهج العالي لشموله مادة التفسير والحديث والفقه واللغة العربية والتاريخ الإسلامي إلىٰ جانب اللغة الإنجليزية والعلوم الرياضية.

وعُرض علىٰ جلالته عن طريق الشيخ يوسف ياسين فحاز الموافقة، وعندما تهيأت الأسباب واكتمل الترتيب لفتح المدرسة في مكة استدعىٰ جلالته -يرحمه الله - مدير المدرسة صاحب اللمحات في مجلس خاص، وأخذ يزوده أو يرسم له الطريق الذي يجب أن يسلكه في كل ما يتصل بالمدرسة والتعليم لأنجاله، واستهل الحديث بقوله: «أنا عَلِمْت أنك شديد، وبلغني أنك ضربت ابن فلان، وأنا أشير عليك أن لا تضرب العيال -يعني أنجاله - طبعًا من أول مرة لأنهم ينفرون منك،

أما إذا درجوا علىٰ المدرسة وألفوا التعليم وأخمل أحدهم فأدّبه [أخمل أي أتىٰ بما يؤاخذ عليه]، وإذا تأخر أحد منهم عن المدرسة ساعة فأخِّره بعد إخوانه ساعتين، وإذا قصَّر أي منهم في أداء الواجب فأخِّره حتىٰ يكمل القاصر عليه»(١).

• **استماع جلالته للقرآن:**

بمناسبة رغبة جلالته في الاستماع إلىٰ القرآن علىٰ الدوام أرسل رسولًا للمدرسة في مسجد البديعة يقول للمعلمين: إذا انتهيتم من التدريس (فالشيوخ يبونكم) أي يريدونكم، والشيوخ اصطلاح لأهل نجد أو لأهل الرياض يقصدون به الملك، وبمجرد انتهاء الدراسة بادر المدرِّسون إلىٰ مجلس جلالته الحافل بخاصة الشخصيات فالتفت جلالته إلىٰ المدرس الأول وقال له: اقرأ لنا وطوِّل القراءة حتىٰ يُؤذِّن العصر، ثم التفت -يرحمه الله - يتحدث إلىٰ من حضر مجلسه من المستشارين وغيرهم يثني الثناء ويبدي ارتياحه لسماع القرآن من معلم أنجاله، وكان الحزب الذي قرأه المعلم سورة الفرقان، ومن عادة جلالته إذا استمع للقراءة أن يطرق برأسه وتدمع عيناه فيظل يمسح الدموع بطرف (غترته)، ويلبث بعد القراءة ساكنًا أمدًا قصيرًا ثم يستأنف الحديث، أو يردد بعض الآيات القرآنية التي استمع إليها.

وحدث مرة أخرىٰ أن بعث جلالته أحد خاصته إلىٰ القصر في الرياض يقول: (الشيوخ يبونكم في البديعة والسيارة حاضرة واقفة عند باب القصر). فلبىٰ المدرسون الطلب، وعند الوصول إلىٰ البديعة بعث جلالته أحد حاشيته ليرافق المدرسين إلىٰ مجلسه وجلسوا حيث انتهىٰ بهم المجلس فاستدعاهم رحمه الله وأجلسهم إلىٰ جواره، ثم أخذ في السؤال عن المدرسة وعن دوام الأنجال،

(١) الشيخ عبد الله خياط (إمام الحرم المكي)، لمحات من الماضي ص٧٢، ص٧٣.

ووجههم رحمه الله إلىٰ العناية بالقرآن كعادته مكررًا الاهتمام به قبل أي شيء آخر، والتفت أثناء الحديث إلىٰ المدرس الأول قائلًا: «ما طلبناك إلا لتقرأ علينا القرآن فلبي الرغبة»، وقرأ سورة الحشر والمجلس كله منصت في خشوع لروعة كلام الله وتأثيره في النفوس، أما جلالته فكعادته أخذت عيناه تذرف الدمع حتىٰ انتهت القراءة[1].

• **دعم جلالته للمدرسة:**

في صباح يوم ١٦/ ٥/ ١٣٥٨هـ تفضل جلالة الملك بمكالمة مدير مدرسة أنجاله هاتفيًّا قائلًا: «اليوم لا تُخْرِجوا العيال -ويعني أنجاله - من المدرسة إلا قبل المغرب؛ لأنهم طلبوا أن نُرخِّص لهم اليوم من المدرسة، وهذا جزاؤهم ولا يجلس معهم أحد منكم»، وهذه ثالث حادثة من نوعها؛ أي حجز الطلبة في المدرسة بعد الدراسة لفترة طويلة لطلبهم الرخصة من المدرسة، وقد غادر الأساتذة المدرسة حسب أمر جلالته وتركوا الطلبة وشأنهم.

• يقول أحد الأنجال تعليقًا علىٰ هذه الحادثة: «أمران لا يتسامح فيهما الشيوخ -أي لا يقبلون فيهما عذرًا- الصلاة والقراءة»، أي إقامة الصلاة في جماعة بالمسجد والتعليم[2].

• عاصر صاحب اللمحات جلالته أمدًا طويلًا، ووقف علىٰ الجوانب الخيّرة في حياته، فهو إذ يذكر منها شيئًا -علىٰ سبيل المثال - إنما يتحدث عن واقع لَمِسَه وعاشه لا عن رواية يرويها ولا عن كتاب تاريخ ينقل منه، فمن الجوانب الخيّرة خشوعه -يرحمه الله- عند سماعه للقرآن وتأثره بوعْده ووعيده، وطول بكائه

---

(١) عبد الله خياط، لمحات من الماضي ص٩٩.
(٢) عبد الله خياط، لمحات من الماضي ص١٣٤.

ونشيجه حتىٰ يشفق عليه من حضره، وحتىٰ يقف القارئ عن القراءة ظنًا منه أن ذلك يخفِّف من تأثره، ولكنه -يرحمه الله - يأمر بمعاودة القراءة ويقول: «اقرأ وطوِّل، ولا تبخل علينا».

كانت خيام المدرسة في القَنْص تقام بالقرب من مخيم جلالته، لذلك كان صاحب اللمحات يلحظ جلالته -يرحمه الله - إذا كان ثلث الليل الآخر تشعل له المصابيح الكهربائية، وينتهز هذه الفرصة الثمينة في قيام الليل، ويستمر في مناجاة ربه بآياته ويضرع إليه ويبكي بكاء الثكلىٰ، ويستمر علىٰ هذا الوضع حتىٰ قبيل الفجر فَيُوتر ثم يُصلِّي الصبح في جماعة، ثم يمكث في مجلسه يتلو وردًا من الأذكار النبوية[1].

• أعتبر نفسي مدينًا في حياتي دينًا قويًّا عظيمًا لشخصين الأستاذ السيد (محمد رشيد رضا) عليه رحمة الله و(الملك عبد العزيز) عليه رحمة الله[2].

• كان من عادة (الملك عبد العزيز) أن يستصفي الرجال الأوفياء مع أصحابهم، فقد كان (صالح بن عذل) من أوفىٰ الناس لـ (ابن رشيد) ولما انتهىٰ أمر (ابن رشيد) التحق بـ (ابن سعود) فكان من أوفىٰ الناس إليه.كان الملك عبد العزيز يستصفي أعداؤه حتىٰ يجعلهم من أقرب المقربين إليه ومن أخلص الناس إليه[3].

• وللملك عبدالعزيز فلسفة خاصة في هذا الشأن فهو يقول : إن الذين وفوا لمن قبلي وهم يرون الأمور مدبرة عنهم سوف يفون معي والأمور مقبلة إليّ. والملك عبدالعزيز ولىٰ كثيرًا من رجال الحسين وظائف عالية في حكومته كما فعل ذلك عند فتح إمارة الرشيد في حائل، وكما فعل عندما فتح إمارة الأحساء ، وكذلك

---

(١) عبد الله خياط، لمحات من الماضي ص٢١٤، ٢١٥.
(٢) يوسف ياسين، المذكرات ص٧١.
(٣) يوسف ياسين، المذكرات ص١٩٩.

عندما فتح إمارة عسير[1].

❁ ❁ ❁

المنفلوطي

المنفلوطي سَلِس العبارة ضحل المعنىٰ، ليس لأفكاره عمق ولكن علىٰ ألفاظه طلاوة، كثير الترادف، خَطابي الأسلوب، ومقالته «تأبين فولتير» التي صاغ فيها ما تُرجم له عن فيكتور هوغو هي في رأيي النموذج الكامل للأسلوب الخطابي الذي كان الغالب علي نثر هوغو. ومن قرأ كتبه (أي هوغو) «قبل المنفىٰ» و«أثناء المنفىٰ» وخطبه في مجلس النوَّاب ومرافعاته في المحاكم، لا سيما دفاعه عن ولده، رأىٰ دليل هذا الذي أقوله. ولو أتقن هوغو العربية وكتب بها تأبينه فولتير لما جاء بأعظم ولا أكرم ممَّا كتب المنفلوطي. هذا رأيي أنا.

وما أحدٌ ممَّن كان من لِداتنا ومن أبناء عصرنا إلَّا تأثَّر يومًا بالمنفلوطي و«نظراته». أما «العبرات» فأكثر قصصها بدائية مصطنَعة. وليست البراعة أن يموت الولد من المرض فتموت الأم من الحزن ويموت الأب من الندم ويموت أهل الحارة من البكاء... بل البراعة أن يسخن الطفل قليلًا ولا تدري أمه وهي وحدها في الدار ما تصنع له، فتسهر معه: تضمَّه إلىٰ صدرها وتحاول أن تدفع عنه المرض بعاطفتها. إن وصف حال الطفل والأم أصعب من أن نجعل من هذا المرض وباء يقتل أهل البيت والجيران، ويدَع الناس كأنهم في هيروشيما يوم ارتكب فيها ناس من البشر الجريمة التي لم يرتكب مثلَها نيرون ولا هولاكو، ولا إبليس نفسه[2].



---

(١) عبدالكريم الجهيمان، مذكرات وذكريات من حياتي ص١٢٧.
(٢) علي الطنطاوي، الذكريات (٣/ ٢٨٤- ٢٨٥).

محمد رشيد رضا

أستاذي السيد (رشيد رضا) يرجع الفضل إليه بعد الله إلىٰ أنه فتح ذهني وفتح لنا طريقًا في الحياة، وعلمنا كيف نكون مستقلي الذهن مستقلي الفكر، وأن نطلب معالي الأمور وألا نرضىٰ بسفاسفها، وهذا زيادة عما علمنا إياه من معرفة الدين والتوحيد الخالص، وكان عندما يقرر دروس التوحيد ومذهب السلف الصالح في التوحيد ويحمل الحملات الشديدة علىٰ الذين بدلوا وغيروا واخترعوا ووقعوا في مصائب جسيمة بسبب اتباعهم لفلاسفة اليونان والرومان وخروجهم بالآراء الدينية النظيفة النقية إلىٰ هذا النوع من المنطق المغلوط والفلسفة الخاطئة، فكان يبين التوحيد -توحيد الأسماء والصفات وتوحيد الربوبية وتوحيد الألوهية- ببيانٰ واضح سليم مبنيًّا علىٰ اعتقاد راسخ متين، وأذكر أنه ذات يوم كان يلقي درس التوحيد يوم الخميس، فأخذ بمجامع قلوبنا، واضطر واحد منا أن يقول له: إننا نشعر بغبطة عظيمة لأننا سمعنا شيئًا مفيدًا، قال: إنكم تسمعونه من معتقد ومؤمن[1].



الشيخ السعديّ

اعتاد أهل السوق أن يستقبلوا بحفاوة الشيخ عبد الرحمن الناصر السعدي، الذي لا تكاد سماحته ودعاباته تفارقان الأذهان، وهو يمر قادمًا من المسجد الجامع وإليه، ويخطب ويؤمّ الصلوات والتراويح والقيام بصوته الوقور الخاشع، ويحظىٰ بدرجة رفيعة من الوقار والاحترام لا تُبارىٰ في العلم الشرعي والتفسير، ولا تُجارىٰ في مكارم الأخلاق، ويتذكرون له استجاباته الاجتماعية للدعوات المبسطة، وكيف أن صاحبنا، وبينما كان في حدود الثالثة عشرة من العمر، وعلىٰ مدىٰ سنوات لاحقة،

---

(١) يوسف ياسين، المذكرات ص٧١.

كلّفه الشيخ بمرافقة مسنّ كفيف من أهل البدائع، يُديم اعتكاف العشر الأواخر من شهر رمضان المبارك في مسجد الشيخ، وليصحبه الفتىٰ مع جماعة المسجد في أثناء استراحة صلاة القيام بين تسليماته في الثلث الأخير من الليل، لتناول القهوة والشاي في منزل الشيخ وسط المسوكف، فيكافئه بريالي فضة علىٰ مرافقته[1].



الشيخ عبد العزيز ابن باز

كان الشيخ حكيمًا فيما يفتي به، فقد حضرته يومًا وقد سأله بعض طلبة العلم عن زوجته التي ترفض دفع زكاة حليها، فقال له: لا بأس في ذلك، ويحسن بك إذا تصدقت بصدقة أن تنوي أن يكون زكاة عن ذلك الحلي، فلما خرج الرجل، ناقشته في ذلك، قلت: كيف ذلك؟، وأنت تقول بوجوب زكاة الحلي؟ فقال لي: ماذا تريد يا عمر؟ تريد أن تفتيه بالوجوب، فيقع النزاع بينه وبين زوجته، فيطلقها!!

ومن حكمته أنني حدثته يومًا عن واقعة قلت فيها: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخطأ في مسألة ما، وكان في الجلسة بعض الحضور، فسكت، ومرَّ علىٰ ذلك أسبوعان، فبينما نحن جلوس يومًا في منزله، قام وطلب مني أن أتبعه، فلما صرنا في المختصر، وهو غرفة صغيرة كان يخلو فيها مع من يريد محادثته علىٰ انفراد، فقال لي: أتذكر يوم حدثتني بكذا، وأخذ يحدثني عن مدىٰ حبنا للصحابة، وكيف علينا توقيرهم، وأن لا نستسهل تخطئتهم، وما تزال نصيحته تعمل عملها في نفسي حتىٰ اليوم[2].



---

(١) عبد الرحمن الصالح الشبيلي، مشيناها (حكايات ذات) ص٣١.

(٢) عمر الأشقر، صفحات من حياتي ص٤٣، ٤٤.

الشيخ عبد الله القرعاوي

كان من ضمن رحلاتي إلىٰ المدن التي تقع فيها المعاهد رحلة إلىٰ (صامطة) في جنوب المملكة. وحين وصلنا أنا وزميلي منصور الدخيل إلىٰ مطار جازان، كان في استقبالنا فضيلة الشيخ الداعية المشهور عبد الله القرعاوي رحمه الله، نيابة عن تلميذه الشيخ حافظ الحكمي مدير المعهد لاعتلال صحة الأخير حينذاك، وهذا مما يؤكد نبل الشيخ القرعاوي الذي يقوم بمهام تلميذه الشيخ حافظ الحكمي الذي كان أيضًا مميزًا في خُلُقه وفي علمه حتىٰ أن كثيرين كانوا يتوقعون له شأنًا كبيرًا بين العلماء لولا أن توفاه الله في مقتبل عمره يرحمه الله.

تلفتنا نبحث عن السيارة الفارهة التي ستقلنا إلىٰ المعهد، ولكن الفراهة المنتظرة تحولت إلىٰ (وانيت)، وهي سيارة الشيخ القرعاوي، التي ينتقل بها لتبليغ الدعوة وإرشاد أهالي المنطقة الذين أصبحوا يدينون له بتعليمهم وإرشادهم في أمور الدين خصوصًا[1].



الشيخ محمد البشير الإبراهيميّ

الشيخ البشير الإبراهيمي الذي طالت صحبتي إياه في دمشق عندما كان يزورها (وما أكثر ما كان يزورها) وفي عمّان مرات وفي القدس وفي بغداد، وطالما خطبت في الحفلات التي كان يخطب فيها، وهو عالم طلق اللسان ناصع البيان، يتدفق الكلام من فيه تدفّقًا بلا لحن ولا زلل.

---

(١) عبد الله بن إدريس، قافية الحياة ص٧٥، ٧٦.

وقد كنَّا يومًا معًا في سيارة واحدة من القدس إلىٰ دمشق، وكنت إلىٰ جنب السائق حيث تعودت أن أركب دائمًا (حتىٰ إني إن ركبت داخل السيارة توهمت أنه دار رأسي وضاق نفَسي)، وكنا نتحدث، فتعبَت رقبتي من الالتفات إليه؛ لأنني لم أكن أتلو بيتًا من الشعر إلا قال: إنه لفلان الشاعر من قصيدة كذا، وسرد عليّ القصيدة كلها أو جلها.

فقلت: كيف حفظت هذا كله؟ قال: وأخبرك بأعجب منه، فهل تحب أن تسمع؟ قلت: نعم. فراح يقرأ عليّ مقالات لي كاملة مما نُشر في «الرسالة» أو مقاطع كثيرة منها، ما كنت أنا نفسي أحفظها. قلت: يا سيدي، الشعر فهمت لماذا تحفظه، فلماذا حفظت مقالاتي وما هي من روائع القول ولا من نماذج الأدب؟ قال: ما تعمدت حفظها، ولكني لا أقرأ شيئًا أحبه وأطرب له إلا علق بنفسي فحفظته.

فأظهرت (صادقًا) العجب منه والإعجاب به، وأضمرت في نفسي حقيقة استحييت أن أجهر بها، هي أنه مر عليّ دهر كنت أنا فيه كما قال. وأنا ما أزال أحفظ مقاطع كثيرة مما كتب المنفلوطي والرافعي والزيّات والبشري وكرد علي وأمثالهم من أئمة البيان، مع صعوبة حفظ النثر وتفَلّته من الأذهان أما ما أحفظ من الشعر فكثير كثير، وإن لم يبق منه إلا القليل، علىٰ أن هذا القليل الذي بقي في ذهني كثير والحمد لله[1].



الشيخ بهجة الأثريّ

لقد عرفت من عفة هذا الشيخ وعزته النفسية، منذ ما قبل ثلاثين عامًا، نحوًا مما يثير الإعجاب، فقد كان الشيخ (بهجة) من جملة العلماء والشعراء والأدباء

---

(١) علي الطنطاوي، الذكريات (٥/ ٥٢، ٥٣).

والمؤرخين الذين استكتبتهم للإسهام معنا بنتاجهم العلمي والفكري في صحيفة (الدعوة)، ومن أهم الذين كانوا يكتبون في (الدعوة) من العراق: الشيخ محمد بهجة الأثري، واللواء الركن محمود شيت خطاب، والمؤرخ عباس فاضل العزاوي وآخرون، وقد أرسلت مكافأة لكل منهم أسوة بجميع المتعاونين مع (الدعوة) في جميع البلاد العربية بما فيها المملكة، فما كان من الشيخ بهجة الأثري واللواء محمود شيت خطاب، إلا أن أعاد كلٌ منهما مكافأته، شاكرين ومعتذرين عن استلامهما بحجة أنهما لا يكتبان (للدعوة) من أجل المكافأة، وإنما هو «احتساب» لوجه الله، وقال أحدهما في خطابه: «إن من يكتب في المجال الإسلامي ويأخذ أجرًا علىٰ كتابته هو رجل لا تتجاوز كلماته أبعد من حلقه في النفع والدعوة للحق والخير»، من هذا الموقف الكريم والعفيف وغيره من المواقف المعروفة عن هذا العالم السلفي الجليل محمد بهجة الأثري، يدرك المرء قيمة هذا الرجل وأمثاله من الذين يتوجع المجتمع لفراقهم، ويتألم لرحيلهم، في صمت موجع لم يتح حتىٰ الرثاء لهم، وذكر بعض محاسنهم كما يجب[1].

❁ ❁ ❁

أحمد أمين

• للأستاذ أحمد أمين جهد كبير في الكتابة عن الإسلام وتاريخه الاجتماعي والسياسي والثقافي، وعلىٰ الرغم من استفادته من الترجمات والدراسات الاستشراقية والمؤلفات المتنوعة في عصره وقبل عصره، إلا أنه قدم سجلًا حافلًا، غير أن نظرته لفلسفة الحكم في الإسلام لم تكن سليمة، وخلط السيئ بالحسن، ولم يتحر الدقة في أحكامه علىٰ العصور المختلفة، وما جد فيها من عوامل خارجية

---

(١) عبد الله بن إدريس، قافية الحياة ص٣٤٥، ٣٤٦.

وداخلية، كان ناقلًا أكثر منه محللًا؛ ولهذا فإن من يقرأ له يجب أن يكون علىٰ حذر بالغ، ولا تهوله ضخامة جهده المبذول، وموضوعاته الكثيرة التي تبدو مترابطة، والمؤرخ كما نعلم إما أن يكون متذوقًا ومستوعبًا ومحللًا لأحداث التاريخ، وإما إن يكون مجرد ناقل أو جامع للآراء، وهذا النوع الأخير قد يستسهل أمر إصدار الأحكام السريعة، وهو أمر في غاية الخطورة، وأرجو ألا أكون مخطئًا إذا قلت إن الأستاذ الكبير أحمد أمين من ذلك الطراز الثاني(١).

• كان الفتىٰ يعجب إعجابًا شديدًا بكل ما يعرضه أستاذه أحمد أمين وخاصة حين يراه يتعمق في وصف الظواهر العقلية للأمة العربية وما وضعته من العلوم وما صاغته من الأفكار وكان -دائمًا- يوصي الفتىٰ ورفاقه أن يعنوا بتسجيل معلوماتهم في جذاذات وأن يتعودوا في بواكير حياتهم أن يلتقطوا من الكتب التي يقرءونها خير ما فيها ويدونوه في هذه الجذاذات أو الوريقات حتىٰ إذا احتاجوا إليه في المستقبل وجدوه مَدَّ أيديهم وتحت أبصارهم.

وكان يذكر للفتىٰ ورفاقه أن الكتب القديمة غير مفهرسة وأن الباحث إذا لم يستخدم طريقة الجذاذات في أثناء قراءتها أفلتت منه المعارف الطريفة التي وقع عليها واضطر إلىٰ قراءة الكتب ثانية، ولم يعرف الفتىٰ قيمة هذه الوصية إلا بعد أن عُني بالبحث وعرف بوضوح أنه فاته الكثير بسبب إهماله هذه الطريقة واتكاله الخاطئ علىٰ ذاكرته، والذاكرة كثيرًا ما تخون صاحبها، وقد يذكر الإنسان الفكرة التي تصادف أن قرأها وينسىٰ المصدر الذي جاءت فيه.

وكان ينهىٰ طلابه أشد النهي عن الجدل العقيم وما يحمل من مغالطات ويكرر أن طريقة الجدل اللفظي عند القدماء حلّت محلها في العصر الحديث طريقة

---

(١) نجيب الكيلاني، مذكرات الكيلاني ص١١٠.

التحليل والاستقراء؛ ولعل هذا ما جعل الفتىٰ فيما بعد يحرص علىٰ ألا ينزلق في مجادلة عقيمة لا تجدي نفعًا، وجانب مهم فيه كان يعجبه هو ورفقه وهو: حسن انتقائه للنصوص التي تصور الفكر العربي الإسلامي، وكأنما كانت لديه حاسة يلتقط بها أدق ما يقرءه وأروعه، وكان يألف الفتىٰ ويوده مودة صادقة، وهي مودة ظلت تزداد مع الأيام دعمًا وتوثقًا[1].

• قال لي الدكتور شوقي ضيف ذات يوم أن أستاذنا أحمد أمين بحاجة إلىٰ من يقرأ له، ومن يكتب ما يمليه، وقد ذكرتك له، فقلت: أنا علىٰ أتم الاستعداد لذلك، فصرت أذهب إلي بيت الأستاذ أحمد أمين في الدقي، حوالي الرابعة بعد الظهر وأقرأ له ما يعيِّنه من فصول أو صفحات، وكان يحب أن يستمع إلىٰ مواد في علم الاجتماع، ويملك نسخة من موسوعة العلوم الاجنماعية، وكان يملي عليّ معظم سيرة حياته التي نشرها في كتاب عنوانه «حياتي» وغيرها من الكتب والمقالات.

وقد سعدت بصحبة هذا الرجل الكبير المتواضع، ولكنه ذات يوم سلمني ظرفًا، فلما غادرت منزله وأصبحت علىٰ كورنيش النيل فتحته فإذا بي أجد فيه مبلغًا من النقود، فتأثرت كثيرًا حتىٰ فاضت دموعي لأني كنت -والله يعلم - أحب أن يتقبل مني هذه الخدمة مجانًا، ولم يكن الدكتور شوقي قد ألمح إلىٰ شيء من ذلك، وعن طريق أحمد أمين رحمه الله تعرفت إلىٰ الدكتور زكي نجيب محمود إذ كان يحرر مجلة الثقافة، وهو الذي شجعني علىٰ أن أنشر ما أكتبه في هذه المجلة.

ولما انتهىٰ أحمد أمين من إملاء سيرته الذاتية قدمها إلىٰ الدكتور زكي، ليسمع رأيه فيها، فقال الدكتور زكي: لي ملاحظة واحدة، سيرة ذاتية تقصّ أحداث الطفولة،

---

(١) شوقي ضيف، معي (١/ ١٣٨، ١٣٩).

والشباب والكهولة، هل يمكن أن تخلو من الحب، فنقلت هذه الملاحظة إلىٰ الأستاذ أحمد أمين فقال: أضف في الموضع الفلاني الفقرة التالية: «بل قد تحركت فيَّ عاطفة الحب منذ الصبا»... إلخ، ومضىٰ في الإملاء حتىٰ أكمل الفقرة، وقد كتبت عن هذه السيرة مراجعة لدىٰ صدورها، فلما قرأ صاحبها ما كتبته قال لي: إن الذين يميلون إلىٰ التحليل النفسي يشتطون أحيانًا في تصوراتهم وتقديراتهم، فسكت ولم أقل شيئًا(١).



العقاد

• كان الفقيد العظيم باحثًا جريء الرأي، ناقدًا نافذ البصيرة، جدليًّا دامغ الحجة، وبهذه المزايا الأصيلة فيه أضاف إلىٰ المكتبة العربية ثروةً من الكتب القيِّمة في شتىٰ الأغراض، وبذَر البذور الصالحة الأولىٰ للنقد العربي في جيل كان النقد فيه طمسًا للحقائق ونهشًا للأعراض، وأقام للكلمة المكتوبة ميزانًا لا يثقلُ ولا يخفُّ إلا بالحق، وجعل للأسلوب قانونًا لا يبرم ولا ينقض إلا بالمنطق، وربما كان الحقُّ عنده غير الحقِّ الذي يعتقده الناس، والمنطق الذي يراه غير المنطق الذي يصححه القياس، ولكنه علىٰ كل حالٍ لا يقول إلا ما يعتقد، ولا يعتقد إلا ما صح في رأيه.

وما علمتُ أن العقاد نال شيئًا ورآه فوق ما يستحقُّ إلا مرة واحدة، فقد كتبتُ كلمة في «الرسالة» عن كتابه «عبقرية محمد»، فلما قرأها كتب إليَّ يقول: «لقد أعطيتني فوق ما أستحق، فإن كنت عادلًا فقد عرَّفتني بنفسي، وإن كنتَ مجاملًا فقد عرَّفتني بك!».

---

(١) إحسان عباس، غربة الراعي ص١٨٨، ١٨٩.

أما أسلوبه، فصريحٌ لا رغوة فيه، جليٌ لا غبار عليه، مستقيمٌ لا التواء به، يتّصل فيه اللسانُ بالعقل فلا يلغو، ويعتمد فيه المقام علىٰ القريحة فلا يَهُن، وهو أسلوب رجل مؤمن بالعقل والرجولة، فإذا قرأته أو حلَّلته علىٰ ضوء هذا الإيمان تكشَّف لك عن منطق قويٍّ لا يتناقض في الرأي، ولا يتعثر في الأداء، ولا يتكثَّر بالحشو، ولا ينزل عن طبقته حتىٰ في المقاصد المبتذلة والمعاني المطروقة.

عرفت العقاد منذ خمسين سنة، فما ذممتُ المعرفة ولا مللتُ الصُّحبة، كانت صداقتنا قائمة علىٰ الاحترام والمودَّة، فلم يقل أحدنا في الآخر ما يكره، وكان من الممكن أن يكون شأنه مع سائر الكتَّاب كشأنه معي لو لم يتحرَّشوا به ويتعالوا عليه، وكثيرًا ما سفَرتُ بالسِّلم بينه وبين من خاصمهم، كشوقي والرافعي وشكري والزهاوي، ولكنه رضوان الله عليه كان صليبَ الرأي، يُعْيِيك أن تحمله علىٰ ما لا يريد[1].

• شُغِفْت بعمق العقاد ودراساته التحليلية، ومعلوماته الوافية، واطلاعه الواسع، وقدرته الفذة علىٰ إبداء الرأي، حول ما يتعرض له من قضايا، كان ينتقد فلاسفة الغرب ومفكريه انطلاقًا من فهم عميق، وقدرة فائقة، وكان جديد الفكرة، جديد الرأي، يأنف من أن يتبنىٰ رأي أحد، كان بحق عملاقًا في فنه، واثقًا بنفسه لأبعد حدود الثقة، ولا يستطيع أحد أن ينكر مواقفه المشهودة ضد قوىٰ «الزحف الأحمر» في مصر وغيرها، في وقت استطاعت فيه الماركسية والماركسيون أن يتخذوا لهم مواقع حصينة في ساحة الفن والصحافة والسياسة والتنظيمات الحزبية الحكومية، فلم يَكلْ العقاد أو يمل، بل ظل مثابرًا في مهاجمتهم، وتعرية مقاصدهم، ولم يتوقف عن دراساته الإسلامية التي ظلت تصْدر تباعًا حتىٰ في أحرج الأوقات، وأشدها حساسية.

---

(١) أحمد حسن الزيّات، ذكرىٰ عهود ص٤٢٤، ٤٢٥.

باختصار لقد تركت كتابات العقاد فينا أثرًا لا يمحىٰ، وتعلمنا منها الكثير، وتحفَّظنا إزاء بعض الآراء التي لم ترتكن إلىٰ دليل قوي، وبرهان أكيد، وهذا الأثر الذي تركه فينا العقاد، قد استطاع أن يغزو آفاقًا أخرىٰ غيرنا، من رجال الفكر والتاريخ في أوربا عندما قرأوا ترجمة بعض أعماله، كما أنه سدد سهامًا قاتلة للأدعياء من رجال التبشير والاستشراق، أولئك الذين عاشوا يحاربون الإسلام ويناوئونه[١].

• كان كتابي شعراء نجد المعاصرون وسيلة جيدة لي نحو تحقيق اللقاء والتعرف علىٰ كبار الأدباء في مصر؛ فقد زرت الأستاذ الكبير (عباس محمود العقاد) في منزله بالعباسية، وحضرت ندوته الأسبوعية التي يعقدها ضحوة (الجمعة)، وتحتضن هذه الندوة غرفتان، بينهما باب مفتوح، ناولته نسخة من الكتاب عليها الإهداء، فنظر إلىٰ العنوان بتمعن، ثم تصفحه ووضعه أمامه، فانتهزت الفرصة وقلت له: نحن نعتب عليك عتب التلاميذ علىٰ أستاذهم بأنك لم تتحدث، ولم تكتب عن الشعر في الجزيرة العربية، قال: نعم الشعر عندكم إلىٰ ما قبل عشرين سنة أضعف من الشعر في البلاد العربية الأخرىٰ، ولكنكم الآن تتطورون وربما أن كتابك هذا قد يغير وجهة نظري، لا أدري؟

بعد أربعة أيام من تلك الجلسة، اتصل بي محمد سعيد كمال صاحب مكتبة المعارف، يقول: «مبارك عليك، لقد رأيت نسختك التي عليها الإهداء للعقاد تجلد عند مصطفىٰ سليمان في حي عابدين، والعقاد معروف عنه أنه لا يجلد إلا الكتاب الذي سيقرؤه ويحتفظ به».

في الجمعة التالية زرت العقاد في ندوته الأسبوعية، فلما فرغ منها وقفت معه وعرفته علىٰ نفسي ظنًا مني أنه نسيني، قال: «أعرفك، وقد قرأت شيئًا من كتابك، وقد تغيرت وجهة نظري تمامًا عن الشعر عندكم، فقد وجدت فيه شعرًا عظيمًا وشعراء

---

(١) نجيب الكيلاني، مذكرات الكيلاني ص١٠٣، ١٠٥.

عظماء وعملك فيه أعظم، إلا أنني أسفت لوجود هذا الشعر (الزفت) الذي يسمونه الشعر الحر، وأنتم يا أخي في نجد موطن الشعر الأصيل واللغة العربية الفصحىٰ، كيف تقلدون الشعراء العرب الذين قلدوا الشعر الغربي»؟.

فأبديت له وجهة نظري في أن الكتاب عمد إلىٰ عرض كافة التجارب الشعرية العمودية والتفعيلة، وذلك من باب الإنصاف ورسم الواقع، فقال: معك حق، ثم مسك يدي، وأدخلني إلىٰ مكتبه، ونزع كتابًا مجلدًا بغلاف بُنِّي، فقال: لقد جلدت الكتاب لاهتمامي به، وسأذهب إلىٰ (أسوان) غدًا، وسآخذه معي لأكمل قراءته، ولأكتب عنه رأيي صراحةً، فقلت: مرحبًا بما تقول فيه، بل ويشرفني[1].

• كان العقاد مستعمرًا للقارئ، وقد قرأته فوجدت فيه شيئًا من القوة أول الأمر ولكن فيما بعد وجدت أن تلك القوة موجهة ضدي، لماذا؟ لأن العقاد لا يحاور القارئ، إذا كان طه حسين ديكارتيًّا فهو لأنه يعطي القارئ فسحة في كتابته: كان يدعو القارئ إلىٰ مائدته الفكرية أما العقاد فيأكل طعامه الفاخر وحده تاركًا القارئ يشم الرائحة، وقد قال لي الدكتور صلاح نيازي مؤخرًا أنه أعاد قراءة بعض مقالات العقاد فوجده يشبه أستاذًا بيده عصا، فقلت له أن هذا هو انطباعي أيضًا، فأنا منذ زمن بعيد أخذت أشعر أنه مع العقاد لا تبقىٰ للقارئ كرامة قرائية مهمة، وكنت بوصفي قارئًا، مستعدًا للتنازل عن هذه الكرامة في سن معينة، أما بعدها فلا.

طريقة العقاد في وحدانية الفكرة، في إبداء الرأي المتعالي في انعدام روح الفكاهة انعدامًا غريبًا علىٰ مصري (مع أن صديقه المازني الخفيف الدم) كلها أمور تجعلني أتصور العقاد ملاكمًا قديرًا لا يرضىٰ أن ينازله أحد لكي يظل ملاكمًا قديرًا وحده[2].

---

(١) عبد الله بن إدريس، قافية الحياة ص١٦٢، ١٦٣.

(٢) نجيب المانع، ذكريات عمر أكلته الحروف ص٨٢.

• العقاد يتفرد في الكُتّاب العرب بهذه الأخلاق المثالية، فلا يعاتب ولا ينقد ولا يذكر، ولا يحقد، كما يفعل غيره، علىٰ كثرة اللقاءات في المجمع وفي المجلس الأعلىٰ وفي الرسائل(١).

• لم أكن أتعاطف مع العقاد، ولم أكن أذهب في تقدير أدبه إلىٰ المدىٰ الذي يذهب إليه كثير من الشباب الذين يلتفون حوله ويحضرون ندواته، والعقاد كاتب كبير بلا شك، ومؤلف خصب وافر الإنتاج، ولكن معظم كتبه التي بدأها بالفصول النقدية والعبقريات الخالية من كل مادة علمية حقيقية، ثم أعقبها بسلسلة طويلة من الكتب المختلفة، التي لم تكن علىٰ الأغلب سوىٰ خلاصة لما يهضمه من قراءة بعض المؤلفات الأجنبية الحديثة، ولم تكن تجذب اهتمامي، وأسلوبه بالرغم من سلامته العربية، أسلوب جاف بعيد عن الجزالة، التي يمتاز بها أسلوب زميله وصديقه المازني وإشراقه، أضف إلىٰ ذلك ما كان يتسم به العقاد من التعالي والغطرسة والغرور الذي لا نهاية له، وهذا كله مما كان يبعدني عن التعاطف معه(٢).

• لم أحب العقاد الذي كانت حلقته الأسبوعية تعقد في بيته ولم أتردد عليها، ولعل السبب في ذلك هو شخصية العقاد ولسانه الجارح في حق خصومه من الأدباء والمفكرين، كنت وما زلت أعتقد أن دور العقاد كان قد انتهىٰ، وأن دوره الحقيقي والإبداعي والتجديدي كان أيام شبابه عندما كان يمثل الثقافة الجديدة والمتقدمة(٣).

۞ ۞ ۞

---

(١) د. سامي الدهان، درب الشوك ص٤٦، ٤٧.

(٢) محمد عبد الله عنان، مذكراتي في ثلثي قرن ص١٤٢، ١٤٣ - تتعدد الآراء وتختلف تجاه المشاهير والأعلام مدحًا وذمًا، قربًا وبعدًا، ومن المفيد إيراد ذلك كله للتوازن في التقييم.

(٣) معن زيادة ، الفصول الأربعة ص٨٢، ٨٣.

• قرأت الكثير والكثير لطه حسين، إنه أولًا وقبل كل شيء أديب وفنان أكثر من أي شيء آخر، أديب حتىٰ في تاريخه وفي بحوثه وفي نقده، وله أسلوب أديب متميز بين كُتّاب العربية لا يشاركه فيه أحد.

وقبل أن نخوض في الحكم عليه، يجب أن تعرف أنه تراجع عن الكثير من آرائه التي أغضبت العلماء والغيورين علىٰ الإسلام، تراجع في خطاب رسمي لمدير الجامعة آنذاك أحمد لطفي السيد باشا، وحج بيت الله الحرام، وكتب مؤلفات جديدة تجب ما قبلها مثلما رأينا في «مرآة الإسلام» و«علىٰ هامش السيرة» و«الوعد الحق» وغيرها، لكن الذي لا مراء فيه هو أنه أساء إلىٰ الأزهر وإلىٰ الفكرِ الإسلامي بالآراء المنحرفة التي تبنَّاها ردحًا من الزمن، وكذلك بترديده لأفكار بعض المستشرقين المغرضين، وخاصةً أن الأوساط الغربية قد روجت لمثل تلك الأفكار، بل إنها تركت بصمات واضحة في الفكر العربي المعاصر نفسه.

ولعل الكثيرين ممن تلقفتهم الحضارة الغربية ببريقها، أو ممن ساء رأيهم في الدين، فانحازوا إلىٰ الشيوعية أو الوجودية، لعل الكثيرين من هؤلاء قد تربوا علىٰ فكر طه حسين القديم، وتحليله لأحداث التاريخ الإسلامي، وإبرازه لجوانب مثيرة ومحزنة في علاقات الأشخاص الأوائل في فجر الدعوة الإسلامية.

لكن يبقىٰ طه حسين المتحرر، المدافع عن المعذبين في الأرض، والمتغني بتضحيات عمار وياسر وسمية، والحامل لمرآة الإسلام وعظمته، والمترنم بذكريات البيت العتيق، ومسيرة المد الإسلامي في صباحه وظهره وحتىٰ اليوم.

لقد أدىٰ طه حسين دورًا لا شك فيه، وخلَّف مدرسة أدبية متميزة، وكان همزة وصل بين ثقافات أجنبية وثقافتنا العربية، وكانت نقطة الضعف فيه هي عداؤه القديم للأزهر ورجاله، ولفقيه المكتب الذي كان يحفظه القرآن الكريم، فتمادىٰ في سوء الظن، وحاول أن يثأر لنفسه، ويثبت أن ذلك الأعمىٰ الضعيف، الذي رسب في الامتحان، أقوىٰ من الأزهر ومن شيوخه، بل أقوىٰ مما يتصورون وكانت تجربة.

ولا يشك أحد أن طه حسين في بدايات عمره، ليس هو طه حسين في سني حياته الأخيرة أي بعد أن تولىٰ وزارة المعارف وأعلن كلمته الشهيرة «التعليم حق للجميع كالماء والهواء»[١].

• لم يعرف الفتىٰ محاضرًا شد إليه الأسماع وجذب إليه القلوب كما عرف ذلك عند أستاذه طه حسين؛ فقد كانت محاضراته وصوته فيها مهوىٰ الأفئدة، وكان -أحيانًا- يلقيها بالجمعية الجغرافية أو بقاعة إيوارت في الجامعة الأمريكية، فكنت لا تكاد تجد مكانًا لا للجلوس فحسب، بل -أيضًا- للوقوف، وكل ذلك -أو قُل كثير منه- بفضل صوته المحبب الرائع الذي اكتسبه لنفسه خلال تعلمه لتجويد الذكر الحكيم، وكان قد أتقن هذا التجويد صبيًّا، وكثيرون مثله في أيامه أتقنوه، ولكن أحدًا منهم لم يستطع أن يلائم بينه وبين محاضراته ومخارج كلامه وصورة إلقائه كما لاءم طه حسين[٢].

• والذي لا جدال فيه أن طه حسين أشد تأثيرا بحديثه منه بكتابته، وأنه يمسك بتلابيب المستمع إليه فلا يدعه يغفل عنه أو يشرد منه لحظة واحدة. وأني لأذكر خلال غداء جمعنا مع رئيس الجمهورية السورية عقب محاضرة الدكتور طه حسين

---

(١) نجيب الكيلاني، مذكرات الكيلاني ص١٠٩، ١١٠.

(٢) شوقي ضيف، معي (١ / ١٤٦).

التي ألقاها في بلودان وقد جلس بجواري الأمين العام للديوان الجمهوري وأخذ يثني علىٰ الدكتور طه وعلىٰ سحر حديثه ثم سألني عن رأيي في المحاضرة فقلت له باختصار: لقد سببت لي أرقا! فلم أظفر بلحظة نوم أو سرحان خلال الإستماع إليها؟! وضحك الرجل وقال لي: هذا خير ثناء علىٰ المحاضر والمحاضرة(١).



بين العقاد وطه حسين

• إذا ذُكِر العقاد ذُكِر طه حسين والعكس، ويأتي الذكر علىٰ سبيل الاختلاف، والضد والنقيض، والنقاش الحاد في أيهما الأحسن، والأكبر والأعظم، وتبلغ الحدة أحيانًا كثيرة بطرف إلىٰ أن يجرد طرفًا من كل فضيلة، فليس العقاد أديبًا عند قوم، وليس طه حسين أديبًا عند قوم، ويطول النقاش علىٰ غير طائل علىٰ مدىٰ خريطة الوطن العربي.

ويخرج من ذلك أن الذي أشك فيه أن الذي يحب طه حسين لا يحب العقاد -وكم تذكرني الحال، لو كان مجال للمقارنة، ما يقع -أو وقع - فيه الفرنسيون إزاء روسو وفولتير بل ما وقعت أنا فيه إذ لم أستطع أن أميل فضلًا -عن أن أحب - فولتير، وكان شأني من قبل الشأن مع العقاد فما العمل؟ هذا هو الواقع، والحقيقي، ولا بد من الصراحة في موطن الذكريات التي لا تقلل من شأن العقاد لدىٰ أنصاره ولا تزيد من شأن طه حسين لدىٰ أحبابه، وإلا فكان ألف وألف عامل يمكن أن يدفعني إلىٰ حب العقاد، فهو كاتب عربي حديث كبير وما في ذلك شك وله المعجبون، وله عندك مقالات وكتب، ولك معه قراءات أو محاولات قراءات.

---

(١) يوسف السباعي، من حياتي ص١٨٠، ١٨١.

أجل ولنكن أكثر دقة، إنها في جملتها محاولات في قراءة العقاد، تصل إليك مجلة «الرسالة» وفي صدرها مقال للكاتب الكبير عباس محمود العقاد فتحاول أن تقرأ مقبلًا مرة طوعًا ومرة كرهًا، ولكنك لا تمضي معه أكثر من سطور، ونظرات هنا وهناك علىٰ أول هذه الفقرة من المقالة أو تلك الفقرة منها لحظات وتضيق ذرعًا وإذا بك تسير يدًا بيدًا مع آخرين كطه حسين أو الزيّات أو المازني أو زكي مبارك كلهم إلا الكاتب الكبير(١).

• لكل من الشخصيتين الرائعتين أسلوبهما الخاص: أحسست أن أسلوب طه حسين هامس معتذر يدق باب القارئ مستأذنًا بالدخول، فهو يريد صداقة القارئ، أما أسلوب العقاد فمقتحم توكيديّ، يقول القول الواثق وليذهب القارئ إلىٰ الجحيم، إنه لا يطرق باب القارئ كصديق بل كدائن أو كممثل لجهاز الأمن أو كشخص عهد إليه أمر إلقاء القبض علىٰ القارئ، أما أسلوب العقاد أسلوب الخطابة وأسلوب طه حسين أسلوب المحادثة الودية.

أحاول أن أنظر إلىٰ الجوانب الإيجابية في العقاد: كان ناقدًا فذًّا في كتبه الممتازة مثل كتابه «ابن الرومي: حياته من شعره» الذي قرأته مرات. لقد أنصف العقاد ابن الرومي وجعله يحيا الآن، وهو ما لم يستطع أن يفعله ناقد عربي بحقه، وفي مقالات العقاد المؤثرة أشد التأثير عندي دراسته لشعراء مصر الحديثين أي منذ نهاية القرن الماضي وأهمهم سامي البارودي وحافظ إبراهيم وحفني ناصف وأحمد شوقي، وإن فيها الفهم العميق لماهية الشخصية في الشعر، والعقاد بحاثة عنيد قوي الفعالية في الربط بين التعبير والشخصية، بين الأداء ومن يقف وراء الأداء، بين الكلمة ومسؤولياتها

---

(١) د. علي جواد الطاهر، فصول ذاتية من سيرة غير ذاتية ص١٠٦، ١٠٧.

في التركيبة الفنية أو لا مسؤوليتها حين تنطلق لكي لا تعني شيئًا سوىٰ زخرف القول[1].

• هذان إذن كانا عملاقي الأدب اللذين كانا المثل الأعلىٰ لكل أديب شاب في العشرينات، فبقدر ما كان طه حسين قليل الكلام هادئ النبرة جاد الملامح يستمع أكثر مما يقول، كان العقاد متدفقًا جياشًا جهير الصوت يتكلم أكثر مما يستمع، ووجدت عند هذا وذاك عطفًا واهتمامًا[2].



الرافعي

حين رأيت مع أحد زملائي في مدرسة منوف الثانوية مجلدًا ضخمًا به جزءان من كتاب «وحي القلم» لمصطفىٰ صادق الرافعي وقلَّبت صفحاته ووقعت عيناي علىٰ مقالات قصصيّة بعنوان «المجنون» رجوت زميلي أن أقرأ المجلد بجزأيه، وما كدت أقرأ صفحة واحدة حتىٰ عقدت معه أروع صفقة في العمر، بأن بادلته الكتاب بعدد كبير مما يختاره من كتبي، وألقيت بنفسي في خضم «وحي القلم» بمعماره اللغوي المحكم المصقول، وأفانين بلاغته التصويريّة الدقيقة المرفهة، وبيانه الساحر بالبصيرة المضيئة، واغترافه المدهش من ينابيع التراث، ويقظته الأمومية علىٰ آلام وعواطف البشر.

استولىٰ عليّ مصطفىٰ صادق الرافعي ثلاث سنوات كاملة أَخْرُجْ من كتاب إلىٰ كتاب، وأعيد ما قرأت مرات، وقد قادني وحي القلم ومعه «حياة الرافعيّ» للمرحوم محمد سعيد العريان إلىٰ مجموعات كتب الرافعي في الحب والجمال، والنقد

---

(١) نجيب المانع، ذكريات عمر أكلته الحروف ص٨٨.

(٢) لويس عوض، أوراق العمر ص٤٤٠.

والمعارك الثقافية، وأدخلني ذلك معمعة الحياة الثقافيّة والعاطفيّة[١].

۞ ۞ ۞

إبراهيم المازني

• كان عملاقًا علىٰ قدر قامته القصيرة وثَّابًا منطلقًا بالرغم من ساقه العرجاء فياضًا متدفقا مرحًا علىٰ قدر ما تلاطمته أمواج الحياة طوال رحلة شاقة عريضة استغرقت ستين عامًا هي عمره في هذه الدنيا منذ ولد في أغسطس عام ١٨٨٩ حتىٰ رحل فيه عام ١٩٤٩م[٢].

• لقد كان رجلَ وحدِه في طراز عيشه، ونظام عمله، ونمط تفكيره، وأسلوب كلامه، فإذا أضيف إلىٰ ذلك أن المازني كان أحد الكتَّاب العشرة الذين يكتبون لغتهم عن علم، ويفهمون أدبها عن فِقْه، ويعالجون بيانها عن طبع، وأن هؤلاء العشرة البررة متي خلت أمكنتهم في الأجل القريب أو البعيد فلن يخلفهم في هذا الزمن الثائر الحائر العجلان من يحْمِل عنهم أمانة البيان ويبلِّغ بعدهم رسالة الأدب، أدركنا فداحة الخطب الذي نزل بالأمة العربية يوم توفي هذا الكاتب العظيم[٣].

• كان المازني عظيمًا، رجلًا وأديبًا، أذكر في أول عهدي بالكتابة وفي مطلع الشباب أنه كتب نقدًا في جريدة البلاغ لكتاب أصدره كامل كيلاني باسم «أساطير ألف يوم»، وكنت قد قرأت هذا الكتاب وسرتني قصصه التي كتبها كامل كيلاني للناشئين في مستوىٰ فوق مستوىٰ الأطفال، وهذا قليل جدًا في عالم القراءة عندنا حتىٰ الآن، مع فائدته وضرورته للانتقال من القراءة الطفولية إلىٰ قراءة الكبار.

---

(١) محمد عفيفيّ مطر، أوائل زيارات الدهشة ص٦٠.
(٢) فتحي سعيد، في بلاط الصحافة والأدب ص٩٨.
(٣) أحمد حسن الزيّات، ذكرىٰ عهود ٣٨٣.

لما قرأت نقد المازني بدت لي أوجه في الرد عليه، فكتبت هذا الرد وأرسلته إلىٰ جريدة البلاغ، فتلقاه المازني، وكان مشرفًا علىٰ الصفحة الأدبية، فنشره وعقَّبَ عليه تعقيبًا آلمني، لم يتعرض لمضمون الرد، بل كتب ما يشير إلىٰ اتهام كامل كيلاني بأن له يدًا في الرد إن لم يكن هو كاتبه، وزاد علىٰ هذا أن ذلك مما يزهده في نقد الكتب، بل أكثر من ذلك أعلن الكف عن هذا النقد.

ثارت نفسي وامتلأت غيظًا، فكتبتُ ردًا عنيفًا، وأذكر أني قلت فيه أنه لا يصح أن يكتب ما يكتب ثم يعتصم مني في «قلعة التقديس»، ما أزال أذكر هذا اللفظ، وذهبت بالرد علىٰ المازني نفسه في مكتبه بالجريدة، قدمته إليه قائلًا: «أنا كاتب الرد الأول وليست لي صلة شخصية بكامل كيلاني»، تناول ردي وألقىٰ عليه نظرة سريعة وقال في شبه ابتسام: «طيب حاضر» وانصرفتُ راضيًا عن نفسي لأني فعلت ما يجب أن أفعل، إذ جابهته بما أريد ولينشر الرد أو لا ينشر، سيان.

وفي اليوم التالي رأيتُ ردي منشورًا في البلاغ كما هو، لم تحذف منه العبارات الشديدة الموجهة إلىٰ الرجل العظيم، والتقيت بكامل كيلاني بعد ذلك بسنوات وقال لي: «لا أنسىٰ أنك هاجمت الأسد في عرينه، ولكني لم أغتر بهذا، فقد استقر بنفسي أن الأسد أكبَرَ نفسه من أن يصغر في مدافعتي، فمكَّن لي من الهجوم عليه»[1].

• أحببت المازني وكنت أطرب لأسلوبه وفكاهته وسخريته، وتأثرت به حينًا وحاولت تقليده، ولكن من أين لي خفة روحه؟ وإن كان يؤذيني منه تهاونه بأمر دينه وكلامه عن شرب الخمر كأنه يتكلم عن شرب الشاي. وسواء لدي أشربها أم كان علىٰ طريقة الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون، فالمهم عندي أثر ما يكتب الكاتب

(١) عباس خضر، ذكرياتي الأدبية ص٥٢.

في نفوس القراء، وعليه أن يذكر أن الله سائله[1].



أحمد حسن الزيّات

• كان الزيات صانعًا لم يجاره أحد في عصرنا في تمجيد اللفظ وصوغه، كانت افتتاحيته قِطَعًا نادرة من فسيفساء اللفظ الحلو المنمَّق الناعم المتساوق، كم حفظت الكثير منها، وشعرت أنني لا بد لإرضائه من أن يكون مقالي معرضًا لأبهج الألفاظ، وهكذا يضطر المبتدئون أحيانًا إلىٰ التملق إلىٰ رؤساء التحرير، فلما رضيتُ عما كتبت، أرسلته إليه مع صورتي، وترددت أسبوعين بين الأمل والخوف؛ أؤمل أن يُنشر وأخاف أن يُهمل، لقد كنت ناشئًا لم يقدمني أحد إلىٰ الزيّات، ولم يأخذ بيدي أحد.

وذات يوم حمل إليَّ البريد رسالة من الزيّات، أمسكت بها بيد راجفة، وخفت لحظات أن أفتحها، ثم مزقت الظرف وأخرجت الرسالة، كانت لا تتجاوز الأسطر الثلاثة كُتبت بخط الزيّات الدقيق المنمق، وفيها يرحب بمقالي ويثني عليه، لكنه يسألني بعد ويقول: «هل حَنَنْتَ إلىٰ أيام صباك، فأرسلتَ لي خيالك وأنت غضّ الشباب حلو الإهاب؟».

هذه التجربة أفرحتني حتىٰ شعرت أن أسلوبي كأساليب الشيوخ، ولكني تساءلت: ألا يستطيع الشباب أن ينتجوا كالكبار؟ هل الأسلوب الجيد مقصور علىٰ الشيوخ؟ هل النبوغ وقْفٌ علىٰ الذين دلفوا نحو الخمسين؟ هل السن هي المقياس الذي ينبغي اتخاذه في تقييم العمل الأدبي أو الفكري؟ ثم شعرت بأنني في بلد لا يجد الأديب الناشئ فيه مَن ينطلق به، أو يفتح له الطريق، أو يريه الآفاق، أو يوجِّهه، أو يكوِّنه.

---

(١) علي الطنطاوي، الذكريات (٢ / ٣٩٣).

ليس للأديب سوىٰ جهده وتعبه، وليس مثل الجهد الطويل العميق سلاح يتخذه المبتدئون ليحتلوا مكانهم إلىٰ جانب الكبار، لقد أحسست أن جهدي وقراءاتي الطويلة لم تكن عبثًا، ولكن كم كنت أشعر بالطمأنينة لو كان إلىٰ جانبي معلم كبير![1]

• زرت الزيّات في مكتبه بالأزهر، ووجدت عنده الشيخ «محمود أبو رية» و«عبد الرحمن الشرقاويّ»، سلمت علىٰ الزيّات وأعطيته نسخة من كتابي شعراء نجد المعاصرون، ومددت يدي للسلام علىٰ أبي رية، قال: لا.. لا تسلم علي فأنا (كافر) في رأي الشيخ محمد حمزة إمام الحرم المكيّ، من خلال كتابي عن (أبو هريرة)؟، قال الزيّات لأبي رية: «ما دخل هذا الأستاذ فيما بينك وبين الشيخ حمزة»؟ قال: «لأنه سعودي، وظننت أنه سيكفرني كذلك»، يبدو أن أبا رية هذا مهزوز الفكر والعقل!!، ثم نظر الزيّات إلىٰ عنوان الكتاب وضرب براحته علىٰ جبهته وتأوّه منشدًا:

ألا يا صبا نجد متىٰ هجت من نجد ... لقد زادني مسراك وجدًا علىٰ وجد

ثم قال: أنا كتبت عن الشاعر (الأعشىٰ) صاحب (منفوحة)، وهو شاعر (نجديّ)، بالله كم تبعد منفوحة عن (مكة)؟ قلت: (قريبة جدًا)، فقط ألف كيلو!!! ثم أتبعت للتخفيف عنه: لكنها تبعد عن (الرياض) كيلين فقط!!.

رد: (ياه)؟ قلت: أنت من قادة الفكر والأدب في العالم العربي ولا تعرف موقع بلدة الأعشىٰ؟، قال: (لا والله أصلًا أنا ما حجيت ولا أعرف شيئًا كثيرًا عن شبه الجزيرة العربية)؛ ثم قال: (أنا عايز أعرف المنيفة والضمار الواردين في قول الشاعر):

---

(١) صلاح الدين المنجد، لمحات من تجاربي الفكرية ص٦٣، ٦٥.

أقول لصاحبي والعيس تخذي بنا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار؟

قلت: والله يؤسفني أنني لا أعرف الموقعين، ولكن يعرفها زميلكم في (المجمع اللغوي) الأستاذ حمد الجاسر، قال: صدقت والله، حمد الجاسر هذا (آية) في معرفة أنساب العرب ومواقعهم[1].

• مما أذكره أن مجلة الرسالة المصرية التي كان يصدرها في مصر الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات، نشرت لي قصيدة في أحد أعدادها، وهي قصيدة (أنشودة منتحر) التي أدرجت فيما بعد في ديوان (ملائكة وشياطين) الصادر عام ١٩٥٠، وقد أحدث نشر قصيدتي وأنا ما أزال طالبًا في دار المعلمين العالية، رجَّة في الوسط الأدبي والشعري في الدار وفي بغداد، إذ أن مجلة الرسالة كانت بخيلة جدا في النشر وبخاصة للأدباء والشعراء غير المعروفين، وأذكر أن الدكتور الراحل مصطفىٰ جواد قد هنأني، وقال لي: إني أحسدك، ولكنّه حسد أبويّ، لأن مجلة الرسالة قد نشرت لك قصيدة.

وبالطبع فإن اسمي قد وُضِع في أعلىٰ الصفحة مع لقب الشاعر، ويمكن أن يتصور الحال مع شاب ما زال في بدايته الشعرية، فأنا مدين لالتفاتة مجلة الرسالة إذ أنها أنصفتني وأنا ما أزال في البداية، ومن هنا يمكن أن نستخلص أن رؤساء تحرير المجلات والصحف الأمناء، يمكن لهم أن يلعبوا دورًا خطيرًا وكبيرًا في اكتشاف المواهب، وتقديمها إلىٰ القراء.

أذكر أن الأستاذ الزيّات بعد نشر هذه القصيدة وإرسالي قصيدة أخرىٰ إلىٰ المجلة، كتب لي يقول: (إياك والسرعة، لأن أمامك طريقًا طويلًا جدًا، وقد نشرنا

(١) عبد الله بن إدريس، قافية الحياة ص١٦٤، ١٦٥.

لك لكي تبدأ بالمسير في هذا الطريق الطويل).، وقال أيضًا: (إننا سننشر لك هذه القصيدة الثانية، ولكن انتظر بعدها، ولا تكتب إلينا إلا بعد سنة أخرىٰ)، وقد تقبلت نصيحة الأستاذ الكبير، وفرحت لأنني شعرت أنها نصيحة إنسان كبير، لا يريد أن يزحلق شاعرًا ناشئًا، وهو ما يزال في بداية طريقه، ولا يريد أن أصاب بالغرور أيضًا[1].

• نحن نعرف ما أُثِرَ عن أحد النقاد العرب القدامىٰ من قوله: أن الناس تنظر إلىٰ القصيدة ذاتها ولا تسأل في كم قالها الشاعر، وكذلك مقالة الزيّات، يعجب بها القراء ولا يسألون في كم كتبها.

كان صديقي الشاعر أحمد الزين معجبًا بكتابة الزيّات إلىٰ درجة الهوس، حتىٰ كان يهتف وهي تقرأ عليه (كان ضريرًا): الله.. الله، وكان يهتم بأن يعرف رأيي فيسألني: ألا تعجبك؟ فأقول: إنها مثل الدوامة تلف حول نفسها وتحدث منظرًا ولكنها لا تنطلق كتيار النهر.

كان ذلك رأيي أولًا في كتابة الزيّات، ولكن عندما رأيته يكتب مقالات الثالوث: الجهل والفقر والمرض، ورأيته يحمل علىٰ الأغنياء المتحكمين في الفقراء التفت إليه بشدة، وهالتني روعة المضمون التي تتحلىٰ بجمال الشكل، كتبت مرة أقول: «إن نثر الزيّات يغني ويطرب كأروع الشعر».

ألقيت عن كاهلي مزاعم الحاقدين علىٰ الزيات القائلين بأن أدبه أدب كساء، فوجدت الكساء الجميل يكسو جسمًا جميلًا، ولماذا نأبىٰ الجمال في الكلام ونحن نعشقه في كل شيء؟ لماذا تسمىٰ العنب حصرمًا كما سماه الثعلب لأن ذيله قصير لا يطوله؟[2].

---

(١) عبد الوهاب البياتيّ، ينابيع الشمس ص٤٠، ٤١.
(٢) عباس خضر، ذكرياتي الأدبية ص٦١.

• عرفت الزيات قبل الرسالة فيمن عرفت من أدباء مصر، قراءة لهم لا لقاء بهم. ولما صدر كتابه في تاريخ الأدب كنّا في سنة البكالوريا فقرأناه وفضلناه علىٰ «الوسيط»، وقرأت له «آلام فرتر» و«رافائيل»، وبلغ إعجابي بهما وحبي لهما الغاية لأني كنت في طَراءة الشباب وتيقظ العاطفة وتفتح النفس، وطربت لأسلوبهما الذي قلت (ولا أزال أقول) إنه نموذج للترجمة الأدبية، وإن تبيّن لي لمّا قرأنا الأدب الفرنسي أنه لم يلتزم نقل ما كتب مؤلّفا القصتين. ولا يضره إن لم يلتزمه، ولو ترجمها ترجمة حرفية كما يفعل التراجمة الآن لأسقطهما وأذهب بهاءهما ومسخهما.

وعرفت الزيات لما مرّ بدمشق وألقىٰ في المجمع العلمي محاضرة عن «ألف ليلة وليلة»، ولكني لم ألقَه.

وأنا لم آتِ «الرسالة» مبتدئًا، بل لقد كنت لما جئتها كاتبًا معروفًا في بلدي، نشرت مئات (مئات حقًّا لا مبالغة) من المقالات في السياسة وفي الحماسة وفي النقد وفي القصص التاريخي وفي المناظرات، حتىٰ في المسرح. ولست أنكر فضلها عليّ ولكن لا أحب أن أبخس نفسي حقها، فإذا عُدّ مَن تخرج في الرسالة، أي من بدأ منها وفيها، فلست منهم، وإن كان للرسالة ولصاحبها أكبر الفضل عليّ؛ فقد فتح لي صدره واتخذني أخًا وولدًا له، واتخذته أستاذًا ووالدًا أو أخًا كبيرًا، ولم أرَ منه علىٰ طول ما صحبته في العمل وفي النزهة وفي زيارات من أخذني لزيارتهم وفي مجالس المفاكهة أو المجادلة في مصر، وفي دمشق وفي قراها وجبالها ، لم أر منه إلاّ أطيب الخلق وأنظف اللفظ وأجمل المعاشرة. لقد كان صادق الود، عف اللسان، صافي الجنان[1].



(١) علي الطنطاوي (٢ / ٣٩٨ - ٣٩٩).

محمد كرد علي

عرفتُ رئيس المجمع العلمي الأستاذ محمد كرد علي، بعد أن نقدته في «الرسالة»، فدفعني إلىٰ العمل دفعًا، ولم أعرف في شيوخ المجمع كلهم رجلًا، خُلق ليشجع ويدفع إلىٰ العلم والبحث، مثله، لقد كان أبا النهضة الفكرية عندنا، ومهما طعن عليه الطاعنون، فإننا لم نر رجلًا من علمائنا أكثر جرأة، وأقوىٰ شخصية، ولا أكتم أني تعلمت منه الكثير من الحرية في الرأي، والجرأة علىٰ الجهر بما أعتقد، ولقد كلفني ذلك غاليًا، ولكني لا آسف عليه، ولن أنسىٰ ما حييت، كيف دفعني إلىٰ العمل بكتاب «رسل الملوك» لابن الفرّاء، وكان يود هو إخراجه، فأكببت علىٰ تحقيقه، وبذلت ما في جهدي من طاقة، وما في علمي من سعة؛ ليكون أحسن ما يكون، وكم رجعت إليه، وإلىٰ أستاذنا سليم الجندي، في حل الصعوبات التي كانت تعترضني، فكنت أجد منهما كل عون وهدىٰ وإرشاد.

ولقد حبَّب إليَّ هذان العالمان، بعونهما، العلم والانصراف إليه، فلما طُبع كتابي واطّلع عليه كرد علي، أخذ يُقَبّلني فرحان ويقول عبارته المشهورة: يا عيني عينك، يا عمري عمرك. أنت أحسن من الشيوخ، ثم أرسل إليَّ رسالة، تدل علىٰ عظمة هذا الرجل وسموه عن حسد العلماء، قال فيها: «إلىٰ ابني الروحي صلاح الدين المُنجِّد عجبتَ لما نَزَلْتُ لك عن صورة مخطوطة من كتاب «رسل الملوك» لابن الفرّاء، وكان عليك أن تعجب إن لم أدفعها إليك.

كنت في كل زمن أرىٰ الضنانة بالعلم أبشع أنواع الضنّ، والكتاب سواء نشرته أنا أو طبعه غيري؛ فالمهم أن يصدر للناس، وينتفعوا بموضوعه الطريف، وقد وفِّقتَ ونشرته في حلة أنيقة، وعلَّقت عليه ما زاده إمتاعًا، وأتبعته بملحق أماط النقاب عن حقائق جمة، فجاء أكثر فائدة من الأصل، جليت الغامض وبسطت المجمل، فجزاك

الله خيرًا عن العلم، إني ما زلت أُعجب بمن يعرف واجبه، ولو كان في مؤلفينا الشباب كثيرون مثلك يقومون بواجبهم؛ لكانت الشام اليوم أرقىٰ من مصر، سِر في سبيلك ولا تتوانَ لحظة عن متابعة ما أنت بصدده، فقد استعددت لما تخوض عبابه، وستستعيد مجد الأجداد، وتثبت أنك ابن عبد الله شيخ القراء في دمشق عليه الرحمة»[1].



زكي مبارك

كان زكي مبارك ظريفًا في كتابته، ولكن ميله في الحديث العادي إلىٰ التعاظم لم يكن يساعده علىٰ الإلقاء الظريف للفكاهات، ومن المفارقات في شخصيته أنه كان عنيفًا في مناقشاته وحملاته القلمِّية، ولكنه في التحدث مع الناس لم يكن كذلك، بل كان يتلطف برغم ذلك التعاظم.

كان يهتم جد الاهتمام بأن يحمي بقلمه وبمنتهىٰ العنف القدر الأدبي الذي استحقه بجدارة، وأن ينتزع تقديره ومكانته من براثن الحاقدين والجاحدين والموتورين من لذعات قلمه، ولكنه مع الآخرين لا يشعر بحاجة إلىٰ شيء من ذلك، وقد نالني رشاش من لذعاته جزاءً وفاقًا علىٰ بعض ما كتبته عنه بدافع الرغبة في النطاح!، ولم يكن يدع شيئًا يمسه من كبير أو صغير مثلي[2].



محمود شاكر

• في إجازة صيف (١٩٥٤) سافرت إلىٰ القاهرة فاستقبلني صديقي محمد يوسف نجم وقال لي: سنذهب معًا إلىٰ منزل الصديق الأستاذ محمود محمد شاكر

---

(١) صلاح الدين المنجد، لمحات من تجاربي الفكرية ص٨٥، ٨٨.

(٢) عباس خضر، ذكرياتي الأدبية ص١٧.

حيث تتعرف علىٰ عالم كبير، بل علىٰ أكبر عالم معاصر في شؤون التراث العربي والإسلامي، فرحبت بهذا الاقتراح، وتوجهنا إلىٰ منزله في مصر الجديدة، وكان لقائي به فاتحة عهد جديد في حياتي العلمية، كنت أقرأ له شعرًا ونثرًا في مجلة الرسالة، ولكن اقترابي منه فتح لي عالمًا جديدًا من المعرفة، فأصبحت أجد لديه إجابات متقنة عن أسئلة كثيرة تدور في رأسي ووجدت في مكتبته الغنية ما أحتاج إليه من مصادر، وفي زائريه وضيوفه وشهود مجلسه شخصيات من أبرز شخصيات العالم العربي والإسلامي، هنالك عرفت يحيىٰ حقي، وعبد العزيز الميمني، وعلال الفاسي، وصالح بن يوسف، وعبد الله التل، وكان الثلاثة الأخيرون لاجئين سياسيين، وكثيرين غير هؤلاء من أبرزهم المفكر الجزائري الإسلامي مالك بن نبي، هذا إلىٰ كثير من الأدباء والشعراء المصريين، في مقدمتهم الشاعر محمود حسن إسماعيل الذي كنت معجبًا بشعره وأنا طالب في الكلية العربية بالقدس.

وكان مجلس محمود ملتقىٰ لفئات مختلفة من الناس فيهم الشبان والكهول والشيوخ والطلاب والعلماء، وكان الصديقان ناصر الدين الأسد ومحمد يوسف نجم وأنا نقضي الساعات الطويلة في مكتبته العامرة أو نشارك في الحوار الدائر بين زواره، أو نستمع إلىٰ آرائه وتوجيهاته، والميزة الكبرىٰ فيه أنه ذو رأي عميق واطلاع واسع وليس هنالك من هو أقدر منه علىٰ فضح التفسيرات التي تزيف التاريخ والحقائق، إنه يستمد رأيه الواضح ويبلوره من تأمله الذاتي وعودته إلىٰ الأصول، دون النظر إلىٰ رأي سائد يردده الآخرون، كان محمود وما يزال يعتمد فهم الأسباب ويحسن ربط النتائج بها علىٰ نحو دقيق متفرد لم أجده عند غيره.

وكنت قبل أول لقاء لنا قد أصدرت كتابي «الحسن البصريّ» وشعرت بسعادة حقيقية وهو يقف عند مسائل مختلفة في هذا الكتاب ويشرح لي وجه الصواب فيها، وكانت طبيعة اللقاء تمنعني من تناول ورقة وتقييد تلك الملاحظات القيمة للإفادة

منها في طبعة تالية، لقد تعلمت من محمود وغرفت من علمه الغزير أضعاف ما قرأته وما سمعته قبل لقائه وقد كان بيته «مجمعًا» علميًّا لكثيرين من طلاب المعرفة من مصريين ووافدين[1].

• قال لي الدكتور ناصر الدين الأسد : تعرفت علىٰ الأستاذ محمود شاكر عام ١٩٥١، بعد انتهائي من إعداد رسالة الماجستير، وبداية تحضيري للدكتوراه، وكنت أعرف عنه الكثير من خلال قراءة مجلة الرسالة، ومن كتابه الذي أصدره عن المتنبي، وكان بيته منذ زمن بعيد كعبة للقصَّاد من العلماء والأدباء وطلبة العلم والمتأدبين، والعجيب أنني منذ زيارتي الأولىٰ له شعرنا معًا بهذه الرابطة الخفيَّة التي تجمع النفوس والعقول، حتىٰ أنني قبيل مغادرتي لداره أبدىٰ رغبته لي في أن تستمر المودة بيننا وما زالت مستمرة عميقة عمق الصداقة بين اثنين وقد أفدت من هذه المجالس مالم أفده من مجلس علمي آخر في جميع مراحل حياتي لا أستثنىٰ من ذلك مرحلة دراستي في الجامعة، ولقد مرّت علىٰ هذه الدار أوقات كانت تمتلئ فيها بطلاب العلم الذين يفدون إلىٰ القاهرة من مختلف البلاد العربية والإسلامية[2].

• قال لي فؤاد السيد ذات مساء، وكنت قد شكوت إليه حيرتي في اختيار موضوع للماجستير: «لماذا لا تذهب للقاء محمود شاكر؟» وحين أدرك من صمتي صعوبة الأمر عليَّ حمل عني عبء ترتيب هذا اللقاء.

وفي مساء اليوم التالي قال لي: «محمود شاكر ينتظرك في التاسعة من صباح الغد بمنزله بمصر الجديدة ش الشيخ حسين المرصفي قرب ميدان سفير»، وقد أشاع في نفسي ذلك شعور الرهبة والخوف والفرح؛ ولكنني -في الموعد - كنت علىٰ بابه.

---

(١) إحسان عباس، غربة الراعي ص٢١١، ٢١٢.

(٢) عايدة الشريف، شاهدة ربع قرن ص٩٠.

ضغطت علىٰ جرس الباب وانتظرت، وبعد ثوان فُتح الباب وملأ فراغه من عرفت أنه محمود شاكر نفسه، كان شابًا «في حوالي الخمسين!» مليئًا بالصحة والحيوية، وفي كامل هيئته، أنيقًا إلىٰ أقصىٰ حد، أسمر اللون وسيمًا، ذا تقاطيع «صعيدية» لا يخطئها الإنسان.

وبدا لي لأول وهلة قريب الشبه لعم من أعمامي في جهينة. وقد حياني في ود، وقادني مباشرة إلىٰ قلب مكتبته، وكانت المرة الأولىٰ التي أرىٰ فيها مكتبة خاصة بهذه الضخامة، وهذا النظام. كانت الكتب ترتفع في رفوفها حتىٰ السقف، وتمتد في الطرقات، وقد كسىٰ معظمها بجلد لامع، ودارت عيناي فيها، وكدت أصاب بالدوار، ولكنني تماسكت.

وسألني عن نفسي وماذا أريد، وتحادثنا في جو مصر الجديدة الهادئ حتىٰ الظهر، ولما أُذن للصلاة قال لي ببود بالغ: أتصلي؟ ولم أكن أصلي بصفة منتظمة؛ ولكنني طلبت أن أتوضأ، وأمَّني في الصلاة.

وبعد الصلاة طلبت الإذن بالانصراف فاستبقاني بمودة قائلًا: «أنت صعيديّ، ولدينا اليوم «ويكه» وبعد قليل سيصل أحمد راتب النفاخ، ومازن المبارك، فابق للغداء معنا»، ولم أملك -لفرط خجلي ووقوعي في أسر كلماته- سوىٰ الاستجابة، وكان الغداء ممتعًا حقًا، خاليًا من المبالغة والاستعراض، ومرتبًا ونظيفًا، وسررت بالتعرف علىٰ تلميذي محمود شاكر السوريين، واستمرت معرفتي براتب النفاخ فترة أهداني فيها نسخة مفيدة من تحقيقه لديوان «عبد الله بن الدمينة».

وبعد الغداء والشاي والراحة قرأ محمود شاكر علىٰ تلميذه -وعلىٰ مسمع مني- قصائد من مخطوطة ديوان جرير، وقد تأثرت أبلغ التأثر بهذا الجو العلمي الخالص، وقوىٰ لدي الإحساس بضآلة معرفتي بالتراث العربي، ولم يتوجه إليَّ

محمود شاكر طول الجلسة بشيء مما كان يتوجه به إلىٰ تلميذه، ولا أحرجني بسؤال، وحوالي المغرب تطوع فاتصل تليفونيًّا بعمر الدسوقي -الذي كان سيشرف علىٰ رسالتي في دار العلوم - وسأله إن كنت أستطيع أن أخرج ديوان «القطاميّ» الذي يقول:

والناس من يلق خيرًا قائلون له ... ما يشتهي ولأم المخطئ الهبل

فوافق عمر الدسوقي علىٰ ذلك، وفي المساء غص البيت بالناس، وانتظمت جلسة العلم، كان فيهم ناس معروفون وناس عاديون، وأقرباء لمحمود شاكر وطلاب يتابعون دراستهم العليا، ولم تكن الجلسة قد انفضت حين رغبت في الانصراف وسمح لي به، وخرجت أمشي نحو ميدان سفير بعد يوم حافل من أيام حياتي.

كان محمود شاكر يقدم عمله للناس دون مقابل، ويلقىٰ زائريه بود غير مصطنع، وقد ترددت بعد ذلك علىٰ بيته، واتصلت أسبابي بأسباب التراث العربي، فقرأت بعض دواوين الشعر القديم قراءة منظمة، واتضحت لي صورة الأدب العربي القديم، وسجلت للماجستير موضوع تحقيق ديوان القطامي، وساعدني محمود شاكر في الحصول علىٰ مخطوطة ألمانيا، وكانت مخطوطته الثانية بدار الكتب، وعملت بجد شهورًا طويلة من عامي ١٩٥٩ و١٩٦٠. وفي شهر إبريل عام ١٩٦٠ عينت معيدًا بقسم الأدب[1].

---

(١) د. محمود الربيعي، في الخمسين عرفت طريقي ٢ ص٧٥، ٧٨ - لما ظهر كتابي في الخمسين عرفت طريقي، قدمت نسخة منه إلىٰ محمود شاكر مهداة باقتباس من المتنبي:

عليم بأسرار الديانات واللغىٰ ... له خطرات تفضح الناس والكُتُبا

فكلمني مبديًا سرورًا عزيزًا، وقال لي إنه منذ أن تناول الكتاب لم يتركه حتىٰ انتهىٰ منه في الليلة ذاتها، وكانت الساعة إذ ذاك، الثالثة صباحًا! والذين يعرفون نهج محمود شاكر في الإطراء، يدركون السبب في السعادة العظيمة التي أستشعرها بسبب إشارته تلك. د.محمود الربيعي، بعد الخمسين ص٧.

• قال لي الأستاذ الشاعر الفحل محمود حسن إسماعيل يوم سألته عن تأثير شاكر عليه:

لا أستطيع تحديد أبعاد ما حزته من صداقتي لمحمود شاكر عام ١٩٣٦ لقد زج بي إلىٰ الشعر الجاهلي وأمالني مع الشعر الأموي وطوَّح بي مع الشعر العباسي فأحاطني لحمه وسداه بالشعر كافة وأستطيع القول أن شعري قبل معرفتي لشاكر كان نبعًا هادئًا فجعله بحرًا متلاطمًا، وهاتان الحقيقتان وإن دلَّتا علىٰ شيء فإنما تدلان علىٰ أن هذا العالم يظل نورًا لكل ما هو صالح وأصيل. وأنه نار حارقة علىٰ كل ما هو مستورد ومستعرض[١].

• حططت رحالي -كما يقول كُتّابنا القدماء - حين وصلت القاهرة مبعوثًا خريف ١٩٦٤ في شقة مفروشة بضاحية مصر الجديدة، لم يكن بيني وبين الشيخ محمود شاكر سوىٰ شارعين، كنت أقرأ له مقالاته اللاذعة التي بدأها بمقالة عنوانها (ليس حسنًا) وأردفها بأخرىٰ (بل سيئًا) وثالثة (بل قبيحًا) ورابعة (بل شنيعًا) يعتذر فيها عن الكتابة في الصحف مدة مديدة «برطع» خلالها الجهلة والمدَّعون والمتفرنجون والمتمركسون والأغبياء والمغرضون والغشاشون والمخادعون والكذابون وأعداء العربية والعروبة وخصوم الإسلام ومخاصمو الأديان كلها والكفرة والملحدون والنصابون والبوهيميون والمنحلون والمتحللون -وأصناف كثيرة أخرىٰ علىٰ حد تعبير الشيخ - علىٰ الساحة الثقافية والفكرية. وكان شديد الهجوم علىٰ لويس عوض (مستشار صحيفة الأهرام الثقافي) هجومًا قاسيًا ساخرًا شديد اللذع، وقد وجد في كتاباته ثغرات لم يرحمه في «التشنيع» بها عليه، حتىٰ بلغ الأمر حدَّه من الانتشار والوقع دَفَعَ كاتبًا كبيرًا هو الدكتور محمد مندور إلىٰ الخروج

---

(١) عايدة الشريف، شاهدة ربع قرن ص٨٧.

عن صمته وكتابة مقال في مجلة (روز اليوسف) يعاتب الشيخ علىٰ هجمته الضارية ويرجوه الكف عن تشريح لويس عوض فالمسكين لا طاقة له برد صواعق الشيخ شاكر[1]!

جاءني صاحبان زائرين، قالا: إنهما ذاهبان لزيارة الشيخ شاكر هل ترافقنا؟

يا سلام! فرصة لن أضيعها، ومضينا إلىٰ العَلَم الشهير، المحقق المدقق الناقد الكبير، وجدناه ينتظرنا في مكتبة بيته يخب في عباءة فضفاضة وعلىٰ عينيه نظارة سميكة الزجاج، الكتب مرصوصة (من القاعدة إلىٰ القمة) مدسوسة في الأرفف وعلىٰ المقاعد وأينما تلفتَّ وجدتَّ كتابًا يحلق فيك، وجاء الشاي، وسخن الحديث بين أحد الصاحبين وبين الشيخ، ثم ارتفعت نبرة الأصوات، ثم عَلَتْ، وتحوَّلت إلىٰ صراخ وزعيق وسباب، وقام الشيخ يرتجف غضبًا فقام له أحد الصاحبين ثم ما لبثت الأيدي أن تشابكت يدفع بعضها بعضًا.

بدأ العراك بل بدأ الالتحام لولا أن ألقيت بالكتاب الذي في يدي وقفزت وصاحبنا الآخر نَفُضّ الاشتباك: «صلوا علىٰ النبي يا جماعة، اخزوا الشيطان، لا حول إلا بالله، سبحان الله.. استغفر الله»!.

جلس الجميع مكتئبين وساد الصمت فترة وفجأة قام الشيخ شاكر يُقَبّل خصيمه ويعتذر إليه، بل راح يُقَبِّلنا واحدًا بعد الآخر ويستغفر الله ويلعن الشيطان الرجيم، بعد قليل خرجنا نحن الثلاثة نتندَّر بما حدث، قال أحدنا: «الإنسان بشر، يخطئ ويصيب»، قال الآخر: «كنتَ أنتَ المخطئ ألا تعرف الشيخ شاكر و فورة أعصابه وحدة طبعه؟»[2].

(١) قلتُ يومًا للأستاذ محمود شاكر أنني في طريقي إليك قابلت الدكتور عبد الغفار مكاويّ وعرضتُ عليه أن يحضر معي فقال: أأذهبُ لزيارة من جعلني أعاف الإمساك بالقلم لمدة سنتين !. عايدة الشريف، شاهدة ربع قرن ص٩١.

(٢) علي فهمي خشيم، هذا ما حدث ص١٨٨، ١٨٩.

• من يظفر بالبحث والتنقيب في مكتبته -رحمه الله - سيجد أنَ جُلّ ما حوته المكتبة حَظِيَ بعنايته وقراءته له، ما كان منها من مجلد واحد أو مجلدات عديدة، تصل العشرين مجلدًا، كأمثال «لسان العرب» و«الأغاني» وغيرها، وقد عرفتُ عنه أنه قرأ «لسان العرب» أكثر من مرة ويوصي بقراءته.

وقراءاته قراءات تأمُّل، وكثيرًا ما كانت الكتب تحظىٰ بتعليقاته المفيدة، وقد وجدت ذلك في العديد من الكتب ذات الأجزاء المتعددة مثل: «لسان العرب» و«أمالي ابن الشجري»، و«الكامل» للمبرد وغيرها، وكان -يرحمه الله- حريصًا علىٰ اقتناء الكتب، ويتابع ما يُطبع منها في مصر وخارجها، وكان يحثني علىٰ تزويده بما يجدُّ من مطبوعات جامعة الإمام وغيرها، يوم أن كنت عميدًا للمكتبات بالجامعة.

ومن حرصه علىٰ الكتب، كان لا يسمح بإعارتها -إلا ما ندر -، لكنه يفتح أبوابها علىٰ مصراعيها لمن أراد أن يطّلع ويقرأ داخل المكتبة، ومن نهجه أنه لا يسمح لمن يريد كتابًا أن يأخذه بنفسه، وإن كان يعلم مكانه، أو يعيده إلىٰ مكانه بعد الانتهاء منه، بل يتولىٰ ذلك هو بنفسه لمن يريد الاطلاع علىٰ أي كتاب، وذلك لأنه رتب مكتبته بطريقته حسب العلوم، ويعرف أماكن الكتب، ويخشىٰ من اختلال الترتيب، إذا تولىٰ طالب الكتاب أخذه وردَّه[1].

۞ ۞ ۞

علي الطنطاوي

قرأتُ أكثر ما كتبه علىٰ الطنطاوي في فترة متقدمة نسبيًّا، وأنا مدين له بكثير من الفضل، ليس في الأدب وحده بل في الفكر واللغة والتاريخ وغيرها فجزاه الله

(١) عبد الله عسيلان، قصة مكتبة ص٢٥.

عني وعن الأجيال التي أفادت من كتبه خير الجزاء، وبالمناسبة، فأظن أن الطنطاوي استكمل توهجه الكتابي في النصف الأول من حياته تقريبًا؛ إذ كان أكثر إنتاجه في تلك المرحلة، واقتصر بعد ذلك -في الأعم الأغلب - علىٰ الأحاديث الإعلامية -في الراد والرائي كما كان يسميهما -، وتحرير مذكراته ذات الثمانية أجزاء، بالإضافة إلىٰ الفتاوىٰ والمحاضرات العامة، وهذا درس بليغ للشباب أن يستغلوا سنيَّ الشباب لينجزوا فيها الأعمال الكبيرة[١].

۞ ۞ ۞

شوقي ضيف

• زارني وفد من أساتذة آداب القاهرة برئاسة الدكتور شوقي ضيف، اختليت به عقب دعوة علىٰ العشاء في منزلي، وسألته عن سر خصوبة إنتاجه العلمي الذي صار به مؤرخ الأدب العربي الأول، باح لي بهذا السر بعد لأيٍ، قال: «إنه يضع خطة الكتاب ويلتزم بإتمامه بعدد محدود من المصادر الأمهات، ووقت زمني لا يتجاوزه، وأنه يغض نظره عن التشعبات والتفريعات التي لا تنتهي».

أسعفتني هذه النصيحة بعد أن كنت قد فرزت ثلاثة وثمانين كتابًا في موضوع الأسلوب[٢].

• في الجامعة عرفت الدكتور شوقي ضيف -وكان آنذاك في عنفوان شبابه -، يدخل إلىٰ قاعة المحاضرات وبيده دفتر كتب فيه ما يريد أن يمليه علىٰ الطلبة، يفتح دفتره ويبدأ في الإملاء، وهو أثناء ذلك يقطع القاعة من أولها إلىٰ آخرها، ذهابًا إيابًا، ولا يرفع رأسه عن الدفتر، وفي العام التالي يُصْدر ما أملاه علينا في كتاب،

---

(١) عبد الرحمن الجرعي، شذرات سيرية ص٦٠، ٦٣.

(٢) صلاح فضل، عين النقد (سيرة فكرية) ص ٢٣٩.

وعندما توثقت صلتي به، وكرّمنا بأن انضم إلينا بعد حوالي عشرين عامًا للتدريس في الجامعة الأردنية الحديثة التأسيس، سألته: لماذا لم يكن يرفع رأسه عن الدفتر، وهو يملي؟ أجابني: إن كل ما كتبه في الدفتر كان واضحًا في بالي، ولكنني كنت لا أفارقه لأنني كنت أخجل من الطلبة(١).



فؤاد السيد

كان فؤاد السيد رجلًا ربعة لطيف المعشر مرح الروح معوانًا لكل من قصده في شيء، وقد مَدَّ لي يد المساعدة بكل سبيل حتىٰ إنني كنت أزوره في بيته بميدان «قشتمر» في حي الظاهر فألقىٰ لديه كل ترحيب، ولم أكن أجد ما أهدي له سوىٰ نصف كيلو (شاهي أحمر) أو عبوات من أمواس «جيليت» للحلاقة أو قطعة قماش «هيلد»، وكانت هذه الأشياء عزيزة وقتها في مصر، ابنه الصبي أيمن هو الذي يفتح لي الباب لأدخل مكتبة والده الفخمة، وقد أصبح أيمن فيما بعد دكتورًا معروفًا وتولىٰ إدارة المكتبة القومية التي كان أبوه رئيس قسم مخطوطاتها فترة من الزمن.

ذات يوم بينما كان فؤاد السيد جالسًا يداعب زملاءه ويحادث البحاث والدارسين جاءه خبر صاعق، زوجته أصيبت بجلطة فَشُلَّ نصفها الأيمن، قفز من مكانه مسرعًا إلىٰ بيته، اعتلىٰ عربة الترام المار في شارع محمد علي عند ميدان باب الخلق، وقلبه يخفق كجناح العصفور الصغير، وكان يحب أم أيمن كثيرًا.

---

(١) محمود السمرة، إيقاع المدىٰ ص٥٥.

لم يكد يصعد درج العمارة ويبلغ باب شقَّته حتىٰ وقع، توقف قلب فؤاد السيد عن الخفقان. توفي وهو يتطلع إلىٰ الغرفة التي رقدت فيها زوجته، بكيت عندما سمعت الخبر بكيت كثيرًا[1].



سلامة موسى

كرهت أدب سلامة موسىٰ، فهو رغم علمه ودعوته للأخذ بالأساليب الحديثة والمنهج العلمي، لم يكن موفقًا، وخاصةً عندما دعا للعامية، ونفر من الدين، وتجاهل قيم الحضارة الإسلامية، بل شكك فيها، ولقد قرأت له الكثير، وفهمت أنه يدعو إلىٰ الانسلاخ من قيمنا وتقاليدنا العريقة، واتباع الأسلوب الغربي في السلوك والأداء والعلاقات الاجتماعية والفردية، وكان خصامي الأبدي معه بعد واقعة شهيرة في كلية العلوم جامعة القاهرة، إذ أُجْرِيت مسابقة للخطابة بين طلبة هذه الكلية، وكان هو رئيس لجنة التحكيم، ورأينا وجهه يكفهر ويشحب كلما وقف خطيب متسابق، وبدأ خطبته باسم الله الرحمن الرحيم، واستشهد ببعض الآيات القرآنية، أو الأحاديث النبوية، ثم يضع قلمه علىٰ الورقة ويضع «صفرًا»، فإذا جاء الخطيب ودخل في الموضوع مباشرة دون أن يسمي، وضع ١٠ درجات، وهاج الطلبة وماجو بعد إعلان النتيجة، أما هو فلم يسكن، بل وقف يعلق علىٰ المسابقة ويقول: «حسبتني وأنا أحضر لكلية العلوم أنني سوف أسمع خطبًا تنهج النهج العلمي، وتبعد عن الميتافيزيقا والغيبيات فإذا بي للأسف أجد نفسي في كلية لاهوت».

(١) علي فهمي خشيم، هذا ما حدث ١٩٤، ١٩٥.

واحتدت المناقشة، وكاد يحدث تشابك بالأيدي، لولا أن الطلبة أصحاب الحق المهضوم أنفسهم تحلقوا حوله، وحموه من غضبة الجمهور، فانصرف سالمًا وهو يسب ويسخط ويلعن.

ومن الأمور المثيرة للدهشة، أن سلامة موسىٰ في أخريات أيامه -عام ١٩٥٦ علىٰ ما أذكر -أدلىٰ بتصريح مضمونه، أنه يتخلىٰ عن الدعوة إلىٰ استخدام اللغة العامية في الكتابة وذلك في سبيل القومية العربية هكذا قال.

وعلىٰ الرغم من الكثير الذي كتب عن هذا الرجل في حياته وبعد مماته، وخاصة بالنسبة للمجلات التي ساهم فيها، ودعوته إلىٰ المنهج العلمي، وترويجه لنظرية النشوء والارتقاء، وإلحاحه علىٰ اتخاذ العصرية أسلوبًا في الحياة الحديثة، علىٰ النمط الأوربي، واستمساكه بالفرعونية ودعوته الدائبة لها، وقيام بعض الكُتَّاب والأدباء بالسير علىٰ نَسَقه، حتىٰ أن نجيب محفوظ في بداية حياته الأدبية، كتب رواياته الأولىٰ عن العصور الفرعونية، أقول علىٰ الرغم من كل هذا فماذا بقي لسلامة موسىٰ؟ لقد قامت محاولات لإعادة نشر تراثه، لكنه لم يلق القبول، وأنشئت مكتبة باسمة تخليدًا لذكراه، من صنع أسرته ولكن دون جدوىٰ لقد كان فقاعة كبيرة روج لها المغرضون وأعداء الإسلام، وسرعان ما انفجرت وذابت دون دوي[١].



لويس عوض

صرح لي د. لويس عوض بعد أن انتهىٰ من كتابة سيرته قبل أن يرحل بليلة، مبديًا لي تخوفه من درجة الصراحة العالية في ما كتبه، وكيف أنه -وهو يحمل مخطوطة السيرة قبل أن يدفعها إلىٰ النشر - كيف أنه حذف منها أكثر من فصل كتبهم بصراحة

(١) نجيب الكيلاني، مذكرات الكيلاني ص١٠٧، ١٠٨.

شديدة عن أسرته وعلاقاته المبكرة بمن حوله سواء علىٰ المستويين الشخصيّ أو الفكريّ، وكيف أنه لم يستطع في هذه السيرة، وكنت معه في مكتبته الضخمة في شارع الهرم بعيدًا عن زوجة فرنسية لا تفهم ما يفعل، وبعيدًا عن أقران أو إخوان لم يدركوا أهمية الصراحة التي كتب بها هذه الأوراق، وبين خبرته التي طالت وبدت في عينيه تأملًا ما لبث أن تحول إلىٰ نظرات كئيبة لإنسان غاضب، إنسان غاضب وعصبي معا وراح يكرر أمامي وهو يلقي أمامي بأوراق كثيرة مخطوطة في هذه السيرة (أوراق العمر) هذه العبارة.

ها أنا أحمل ثلاثة فصول من هذه السيرة لأضعها في النار بدلًا من أن أضعها في ثنايا هذا الكتاب! ما زلنا في الشرق لا نطيق الوضوح والانكشاف الواضح أمام الآخرين.

وراح د. لويس يذكر لي الكثير من الشخصيات -أكثرهم أقرباء له - التي ستغضب غضبًا هائلا من هذه الاعترافات، فماذا أفعل[١]؟ أضاف وهو لا ينتظر مني ردًا، ماذا أفعل وما زلنا في هذا العالم الشرقي الذي لم يتغير من قرون، كيف لي أن أتحدث أو أعترف كما فعل الكثير من الغربيين وهو ما يحدد أهم شرط من شروط الاعتراف أمام صدق الذات وكرسي التاريخ وليس تماهي الذات وكرسي التقاليد وحسب[٢].

۞ ۞ ۞

---

(١) عاتبني شقيقه الدكتور رمسيس عوض؛ لأنني لم أتدخل لديه؛ ليحذف الفصل الخاص بأخته، والذي يعده مسبَّة عائلية، وكنت أعرف رأيه السلبي في أخيه رمسيس وإشارته الوجيزة إلىٰ إمكاناته المحدودة قائلًا بالإنجليزية (عوض واحد يكفي) . صلاح فضل، عين النقد ص٢١٨.

(٢) د. مصطفىٰ عبد الغني، قبل الخروج (١/ ٢٥٤- ٢٥٥).

• إني أقف وقفة إجلال وتبجيل للعالم المتبحِّر في شتىٰ فنون العربية المتمكن من أسرارها وفك مغاليقها السيد طه الراوي، وإذا كان لي أن أقول: ليس بين أهل النحو أوسع فهمًا منه، فإني لأقول: ليس في دنيا العرب من كان أعلم الناس [منه] ببيت شعر، وقد تلقىٰ من فهمه للشعر، أنه يدرك فيه شيئًا، لم يدركه الشاعر في الأصل، ذلك أن الشاعر تحكمه سليقته، فتهديه إلىٰ أسرار، لا يدري كيف أتته(١).

• كان طه الراوي لا يشتري أي كتاب من المكتبات الكبرىٰ، وكان يتوخىٰ من وراء ذلك تشجيع الناشئين من أصحاب المكتبات الصغرىٰ، وكان لا ينفك يحبب المطالعة ويحث أصدقاءه ومعارفه عليها في كل مناسبة وفي كل مجلس من مجالسه الممتعة النافعة، فحمل الكثيرين علىٰ اقتناء الكتب واتخاذ المكتبات الخاصة.

وقبل أن أسافر إلىٰ مصر للمرة الأولىٰ، وكان ذلك في مارس من سنة ١٩٤٤، قال لي طه الراويّ: إنك ما تزال ناشئًا، ولا بد أنك في حاجة إلىٰ المزيد من المال تأخذه معك، ولم يلبث أن أرسل إليّ بيد ولده هاشم مبلغًا كبيرًا لأسد به حاجتي ويغنيني عن الغير في سفري، ولكنني أعدت إليه -شاكرًا - معظمه، بعد أن أخذت منه ما أنا في حاجة إليه، ولما عدت من مصر أبىٰ أن يسترجع المبلغ بل أخذ بدله كتبًا اختارها، وطلب إليّ أن أبيعها له بأغلىٰ ثمن، ولم يقصد من عمله هذا إلا تشجيعي والأخذ بيدي(٢).



---

(١) د. إبراهيم السامرائي، حديث السنين ص٩١.
(٢) قاسم الرجب، المذكرات ص١٢٩، ١٣٠.

محمد التابعي

أعترف أنني فتحت عيناي علىٰ كاتب عظيم اسمه محمد التابعيّ، وكان أجمل ما فيه أنه يكتب وينتقد دون تجريح وأدركت معنىٰ الرقي في النقد وتابعت كتاباته في جورنال آخر ساعة وكنت أشتريه من مصروفي الذي كان وقتها ثلاثة قروش[١].



يحيى حقي

يحيىٰ حقي من أطيب الأدباء وألطفهم وأكثرهم إبداعًا، وكان أدبه الساخر بهدوء ومحبة يمثل شخصية يحيىٰ حقي الهادئة والمحبة والمبدعة.

إنه بلا شك رائد الأدب الساخر، وأدبه يمثل قمة الأدب الراقي الذي يجعلك تبتسم ويدفعك إلىٰ التفكير والتأمل في آن، إنه علىٰ النقيض من أدب محمود السعدني الساخر الذي يجعلك تضحك وأنت تقرأ شتائمه وتشنيعاته ومبالغاته، والواقع أن أدب كل منهما يمثل شخصية الكاتب: فأدب يحيىٰ حقي هو يحيىٰ حقي الطيب الهادئ المبتسم الساخر المثقف البورجوازيّ أو الجنتلمان، أما أدب السعدني فهو السعدني ابن البلد الذي يرفع صوته عاليًا ولا يتورع عن التشابك بالأيدي مع الخصوم والتناطح بالرؤوس عند الحاجة واستنفاد قاموس الشتائم الشعبي الذي لا ينفد[٢].



---

(١) مفيد فوزي، نصيبي من الحياة ص٢٥.

(٢) نجيب المانع، ذكريات عمر أكلته الحروف ص ٨٣، ٨٤.

• لم أر أحدًا ممتعًا في مجلسه وحديثه مثل توفيق الحكيم، حديثه من السهل الممتنع وعفو كلامه في مستوىٰ ما تحبره الأقلام القادرة، يتكلم في النقد والقضايا الأدبية، كأستاذ بل كرائد وهو لا يزاول النقد كتابة، هو خير من يفسّر عمله الأدبي، أقصد بواعثه وملابساته، فاني أري أن العمل يجب أن يكون بحيث يفسر نفسه[١].

• توفيق الحكيم من الأدباء الذي يكره مواجهة الجماهير والتحدث إليها، ولست أشك أن عدم قدرة توفيق الحكيم علىٰ مواجهة الجماهير ناتجة عن رهبة وخشية وعدم تعود وقلة مران أكثر منها عجز وعدم قدرة؛ لأن توفيق من أسلم الناس منطقًا وأقواهم حجة وأشدهم تركيزًا وأسرعهم وصولًا إلىٰ الهدف الذي يقصده بشرط ألا يشعر أنه مراقب، وأن الأبصار تتطلع إليه، وأنه محاسب علىٰ كل لفظ ينطق به، ومؤاخذ علىٰ كل حركة يأتيها.

فهو إذا جلس إليك علىٰ غير معرفة وجدت منه ميلًا إلىٰ الصمت فإذا تحدث ففي تردد ولجلجة لا يمكن أن تتوقعها من توفيق الحكيم الذي رسمت له من أفكاره ومنطقه وفلسفته وذكائه وفكاهته وسخريته صورة رائعة لا تتفق ألبته مع صورته كمتحدث، فهو لا يكاد يحس أنك تنصت إليه أنصات، مراقب محاسب مكتشف حتىٰ يصبح منك علىٰ حذر ويحيط نفسه بسياج من الصمت والتحفظ ويخفىٰ عنك معالمه ويطمس سماته.

فإذا ما جلس إلىٰ أحد خلصائه -وهم قلة تعد علىٰ أصابع اليد - زال عن نفسه الإحساس بالقلق وانطلق في حديثه انطلاقا قد يبلغ به -لو لا متعة الحديث وقيمته- حد الثرثرة.

---

(١) عباس خضر، ذكرياتي الأدبية ص٦٧.

وأذكر أنه جلس يتحدث إلينا ذات ليلة في نادي القصة، ولم يكن بيننا غريب يخشىٰ توفيق الحكيم مراقبته فانطلق في الحديث ما يقرب من ساعتين بمنطقه السليم وفكاهته اللطيفة وآرائه القيمة، وعندما انتهىٰ من الحديث أقبل أحد الزملاء الصحفيين يسأله مقالًا لجريدته، ورغم أن الزميل عرض ثمنًا طيبًا للمقال فقد اعتذر توفيق الحكيم بأن ليس لديه ما يقوله في المقال، ودهشت وقلت له: إن الحديث الذي ألقاه علينا يمكن أن يُفصَّل منه عشر مقالات[1].

• إن الصورة الشائعة عن توفيق الحكيم أنه رجل خفيف الظل، محب للدعابة، يتقبل النكتة ولا يتأبىٰ الكاريكاتير، وكثيرًا ما نشر الفنان رخا رسمًا للحكيم وحماره ويكتب مصطفىٰ أمين تحت إحدىٰ الصور: والأستاذ توفيق الحكيم هو الذي إلىٰ اليمين! فالدعابة والنكتة والكاريكاتير تعايش توفيق الحكيم ويعايشها، ولكن لكل شيء عنده حدودًا، لا يمكن لأحد أن يتعداها[2].



مصطفى جواد

يكفي في تواضع الدكتور مصطفىٰ هذا المعجم الصغير الذي لا يفارقه (مختار الصحاح) يخف إليه كلما حزبه أمر[3].



---

(١) يوسف السباعيّ، من حياتي ص ١٨٢، ١٨٣.
(٢) السيد فرج، حياتي بين السيف والقلم ص٢٠٢، ٢٠٣.
(٣) د. علي جواد الطاهر، فصول ذاتية من سيرة غير ذاتية ص١٥١.

• كان أكبر زبون للسوق وللكتاب عباس العزاوي المحامي، فكان يتردد إلىٰ السوق أربع مرات أو أكثر في كل يوم فلا يفوته كتاب مطبوع أم مخطوط، ويصحبه أخوه علي غالب العزاوي المحامي، وكان رجلًا ذكيًّا مهذبًا، فكان عباس العزاوي يستشيره عند كل صفقة يقع عليها اختياره. وإذا ما وقع كتاب خطي ولم يشتره العزاوي، فإنه يبقىٰ سنوات دون أن يباع، إذ لم يكن هناك يومذاك من يتسوَّق الكتاب، وهناك كثرة من أصحاب الأقلام لم أرَهَم قد دخلوا السوق، أو اشتروا كتابًا، وهذا أمر عجيب(١).

• كان للأستاذ عباس العزاوي حكايات وأخبار، عن هؤلاء الذين تجاوزوا وظلموا، وفيهم من استعار، ولم يردَّ ما استعاره، وفيهم من أنكر أنه استعار وقُضي الأمر، وقد دفع هذا الذي أوذي به أن يكون منه غرائب، منها: أن الأستاذ عباس كان لا يُري الكتاب الذي يحمله، وهو إن حمله ستره بورقة من أوراق الصحف، وهو من أجل هذا وغيره قد كان منه أن يشتري الكتاب الذي لا يوجد نظيره لدىٰ باعة الكتب، فإن عرض له نسخة أخرىٰ حازها لنفسه واشتراها.

ومن المناسب أن أشير إلىٰ أني كنت ألقاه في غرفة المطالعة، في مكتبة السليمانية باسطنبول، في إحدىٰ رحلاتي الصيفية، وقد وقفت علىٰ مبلغ حرصه علىٰ الكتاب حتىٰ لو كان هذا مما يستعيره، فكان يستعير جملة مخطوطات، لينظر في صفتها.

وأذكر أني مرة سحبت أحد مخطوطاته فضربني علىٰ يدي ملاطفًا؛ لأنه يحرص علىٰ ألا يعرف المخطوط غيره، وكان لي أن رأيت رسالة مخطوطة صغيرة لحاكم

---

(١) قاسم الرجب، المذكرات ص٨٩.

عثماني في ولاية البصرة، كانت تشتمل علىٰ النخيل ومساحة الأرض، وجداول البصرة، وأهل البصرة من مسلمين شيعة وسنَّة ونصارىٰ ويهود وصابئة، وأقلية إيرانية مستوطنة، فاشتريتها بثمن بخس، فحدثت الأستاذ العزاوي عنها، فأرادها مني فقدمتها هدية، فقال لي: كأنك لست سامرائيًّا، لأنه كان يكره السامرائيين، لأن جماعة من أشرارهم سلبوا أخاه البصير وقتلوه.

وقد قيل عنه: إنه ضنين بما لديه من كتب مخطوطات أو مطبوعات، حريص عليها، غير أني وجدته يعير الكتاب، وأذكر أن الأستاذ شارل بلا المستشرق الفرنسي أحب أن يزور الأستاذ العزاوي، وهو في بغداد، ليسأله عن أحد مؤلفي الشيعة الذين ردوا علىٰ «العثمانية» للجاحظ. وقد علم الأستاذ المستشرق أن شيئًا من هذا في خزانة الأستاذ العزاوي، وقد أشعرت الأستاذ برغبة المستشرق في زيارته، فاستجاب وذهبنا إليه، وطلب منه ما كان له أن يسأل عن المؤلف الشيعي الذي ردَّ علىٰ الجاحظ، فما كان منه إلا أن أحضر شيئًا لابن طاووس وآخر للإسكافي، وشيئًا ثالثًا ذهب عني اسمه[1].

• عندما أنشئت جامعة الدول العربية، واجتمع في بغداد وزراء خارجيتها دعاهم (العزاويّ) في قصره، وعندما اجتمعوا أرادوا إحراجه ورؤية المكتبة، فدعاهم إلىٰ حجرة مجاورة لها وبينهما باب، ففتحه ووقف إلىٰ جواره بحيث يمنع كل مَن يحاول الدخول إلىٰ المكتبة، وسمح للوزراء أن يروا المكتبة من الغرفة المجاورة، ولم يسمح لأحد منهم بدخول حجرة المكتبة[2].



(١) د. إبراهيم السامرائيّ، حديث السنين ص٣٠١، ٣٠٢.

(٢) د. حسين نصار، التحدث بنعمة الله ص١٦٧، ١٦٨.

عبد الله الطيب

كان لي في الخرطوم أصحاب، أبدؤهم برئيس الجامعة، وهو الأستاذ عبد الله الطيب الذي عرفته زائرًا في بغداد، ولا بد من الإشارة إلىٰ أنه أبصر من رأيت في الشعر القديم، يحفظه ويقف علىٰ معانيه ورموزه، وهو في غير هذا ذو معرفة بالتاريخ والرجال، يصل هذه المعارف القديمة بما يكون من نظائرها في عصرنا، رأيته في الخرطوم، وهو في رئاسة الجامعة، علمًا كبيرًا له منزلته بين علية القوم(١).



نجيب محفوظ

• كنت أجلس قبالة نجيب محفوظ في نهاية الثمانينات في أحد المشارب المشهورة في ميدان التحرير، وفي الدور الثاني من هذا المشرب سألت نجيب محفوظ فجأة: إنني أهتم الآن بقيمة معينة وجدتها في بعض أعمالك.، أجابني بسرعة وهو ينظر إلي بترقب من خلف نظارته السوداء: ما هي؟ إنها (حالة) الجنون !

نعم هذه حالة متغلغلة في كياني، ولعل الكثيرين لا يعرفون أنني في سنوات عمري الأولىٰ أصبت بمرض الصرع وشفيت منه، أو قيل إنني شفيت منه، وكنت محاطًا في سنوات عمري الأولىٰ بهذه الحالة التي تشبه الجنون، لكنني .. وبعد صمت طال أضاف: لكنني تغلبت عليها بالعمل، بالقراءة والكتابة، بالبعد عن حالة تحمل بذور عدم العقلانية، حالة تحمل لي الصمت الذي يصل بي -لو استسلمت- إلىٰ الجنون، الوجه الآخر للصمت .

---

(١) د. إبراهيم السامرائيّ، حديث السنين ص٣٧٤.

إذن، وجدت في الكتابة معادلًا موضوعيًّا للخلاص من هذه الحالة، الوجه الآخر لعدم الكتابة هو الجنون، وأضاف محفوظ بسرعة كأنه يحمل هما ثقيلًا أو الموت[1].

• لم أقابل نجيب محفوظ سوىٰ مرة واحدة في الإسكندرية عام ١٩٦٩، وكان أيامها اشتراكيًّا، بل ماديًّا جدليًّا، وعجبت لأقصىٰ حد من فجاجة آرائه السياسية وسطحيتها، وكيف أن هذا الروائي العظيم الذي وصف خبايا النفس البشرية في ثلاثيته وغيرها من الروايات، يتحدث عن الكهرباء والتخطيط بحُسبانهما حلًّا وحيدًا وناجعًا لكل مشكلات البشر! (وكان توفيق الحكيم معنا وتحدث هو الآخر بإعجاب ووله عن العلم، دون أي تحفظات أو مخاوف. وكأنه أحد مفكري القرن التاسع عشر، الذين لم يدركوا بعض الجوانب المظلمة للتصنيع والتحديث والعلم).

وقد تكون آراء الفنان الفلسفية سطحية، علىٰ حين نجد أدبه في غاية العمق، لأنه حينما يتفلسف فهو يتفلسف بعقله وحسب ومن خلال ما حصَّل بشكل واعٍ من أفكار، أما حينما يبدع فهو يبدع من خلال كيانه ومن خلال ما مر به من تجارب لعله لم يفهمها هو نفسه عقليًّا، ولكنه أدركها واستوعبها بشكل وجودي مباشر وكلي[2].



أنيس منصور

أنيس منصور بعيدًا عن السياسة التي جعلت الكثيرين يهاجمونه لمواقفه وبالذات في عصر السادات، فهو أفضل كاتب عرفته تقرأه في سن مبكرة، يقدم إليك كل معارف الدنيا بأسلوب سهل جدًا.

---

(١) د. مصطفىٰ عبد الغنيّ، قبل الخروج (٢ / ٥٢، ٥٣).
(٢) عبدالوهاب المسيري، رحلتي الفكرية ص٦٧٣، ص٦٧٤.

أذكر مرة في ندوة بقصر ثقافة الحرية في الإسكندرية، (صار اسمه الآن مركز الإبداع)، أن سأله أحد الجالسين: لماذا وأنت أحد تلاميذ العقاد والذين حضروا دائمًا صالونه في بيته تكتب بأسلوب سهل بينما أسلوب العقاد كما تعرف صعب جدا ؟، لا أنسىٰ إجابته المرحة المعبرة إذ قال: علاقتي مع العقاد ينطبق عليها المثل الشعبي «إزاي يا فلان اتعلمت الأدب قال له من واحد قليل الأدب كل ما يعمل حاجة ماعملهاش!»، طبعًا ضحكنا وفهمنا أن الرجل هنا لا يتكلم عن أخلاق العقاد وسلوكه؛ لكن يبسّط العلاقة بين الكاتب وأساتذته، فالكاتب الحقيقي هو من يعرف كيف يستفيد من أساتذته فيحفر له طريقًا مستقلًا، وكلنا نذكر المقولة العربية القديمة عن الشاعر الذي أنفق عامًا كاملًا في الصحراء يحفظ أشعار السابقين ثم عاد إلىٰ أستاذه بعد هذا العام فقال له انسَ ما حفظت، وهكذا كي تكون شاعرًا اعرف ما قبلك ثم انسه لتكون نفسك، والأمر ينطبق علىٰ كل تجليات الإبداع[1].



هيكل

كان الأستاذ هيكل يمثل ظاهرة غير عادية علىٰ جميع المستويات -الصحفية والفكرية والإنسانية - وكان بالنسبة إلينا في «الأهرام» الصرح الثابت والراسخ رسوخ الأهرامات التي تستمد منها الجريدة اسمها؛ لذلك أحدث خبر خروجه من «الأهرام» هزة عنيفة لنا جميعًا.

وعلىٰ الرغم من جسامة ما حدث، إلا أن هيكل لم يبدُ عليه أنه انكسر، فقد حرص علىٰ مواصلة حياته كما اعتاد، محتفظًا بمن كانوا يعملون معه في الجريدة،

(١) إبراهيم عبد المجيد، ماوراء الكتابة (تجربتي مع الإبداع) ص٢٣٩.

فعين عنده سائقه النوبي «ساتي» بالمخصصات والتأمينات ذاتها التي كان يتمتع بها في «الأهرام»، وكذلك سكرتيره الخاص منير عساف، بل قد يعجب البعض حين يعلم أنه واصل كتابة مقاله الأسبوعي الشهير، «بصراحة»، بعد خروجه من «الأهرام»، فقد أراد هيكل علىٰ ما يبدو ألا يغير خروجه من «الأهرام» من نظام حياته في شيء، وقد كانت دهشتي كبيرة حين طلب مني في إحدىٰ زياراتي له تأجيل موعد ما إلىٰ يوم الأربعاء لأنه مشغول يوم الثلاثاء بالكتابة، ثم أسر إليَّ بأنه ما زال يعكف علىٰ كتابة مقاله كل يوم ثلاثاء كما كان يفعل طوال أكثر من ١٧ عامًا، وكنا نعرف في «الأهرام» أن يوم الثلاثاء هو يوم كتابة «بصراحة»، الذي كان يُنشر يوم الجمعة، فلم نكن نطلب مقابلته في ذلك اليوم ولا كنا نقترب من مكتبه، وقد تأثرت كثيرًا لما أسر إليَّ به الأستاذ هيكل في ذلك اليوم، حتىٰ إني لم أتجاسر علىٰ مفاتحته فيه ثانية، ولا هو ذكره لي بعد ذلك، فلم أعرف إلىٰ يومنا هذا كم أسبوع أو شهر ظل يكتب هذا المقال الذي كان يعرف أنه لن يُنشر، ولا ماذا حدث لتلك المقالات[1].

۞ ۞ ۞

عبد القادر المغربي

أذكر أني كنت ذات مرة في المجمع العلمي أتجاذب والأستاذ المغربي أطراف الحديث عن الأدب العربي، فسألته الرأي في بعض الأدباء، ثم عرَّجت إلىٰ استخباره عن طريقته في الكتابة والإنشاء. فإذا هو يُنهي إلىٰ أنه يعيّن موضوعه، ثم يُعنىٰ بإثبات ما يعنّ له من معانيه في أقصوصات يدَّخرها لهذه الغاية، ثم ما ينفك حتىٰ يستقين أنه استنفض ما عنده، واستجمع من الآراء ما فيه الكفاء. ومن ثَمَّ يقبل علىٰ ما بين

---

(١) محمد سلماويّ، يومًا أو بعض يوم ص٢٠٧، ٢١٣.

يديه، يُنسقه علىٰ ما يستطيب ذوقه، ويعمل فيه حذفًا وزيادة كما يقتضي مساقه، إلىٰ أن ينتهي من ذلك فيكون الموضوع قد استوفىٰ نهايته واستكمل غايته[1].



إبراهيم صالح شكر

كان إبراهيم كثير التردد إليّ والجلوس في مكتبتي فأحبته نفسي، والواقع أنني أعجبت أيما إعجاب بصراحته وشَمَمه وكرمه وحسن أخلاقه، وقد كان لا يكتم عني شيئًا مما يريد أن يسرني به، ولن أنسىٰ موقفًا جريئًا عجيبًا وقَفَه حين مرَّ بعض الوزراء في سوق السراي، وكان يتقدمهم رئيس الوزراء، وكان إبراهيم صالح شكر يطالع كتاب (سيرة النبي لابن هشام)، فقال له هذا الرئيس: «مرحبًا أبا رياض! شدتْسَوّي هنا؟ شِدَ تقرأ ؟» فقام إبراهيم واقفًا وأخذ يصيح بأعلىٰ صوته: «أنا أقرأ سيرة الرسول الذي كان لا يرتشي، أنا أقرأ سيرة الرسول الذي لا يحمل الحقد علىٰ أحد، أنا أقرأ سيرة الرسول محمد الذي جاء رحمة للعالمين»، ورأيته وقد تبدَّل شكله وأصبح في حالة عصبية غير طبيعية، وأخذ العرق يتصبب من وجهه، فدهشوا مما سمعوا وذهلوا، فلما راحوا قال لي «الحمد الله الآن ارتحت، فقد كنت أنتظر مثل هذه المقابلة لهؤلاء الذين عاثوا بالشعب فسادًا»، ولم يهدأ إلا بعد مضي ساعات.

ورأيته ذات مرة وإذا بدموعه تنهمر من عينيه، فتطفلت وسألته ما يبكيك يا سيدي؟ فلما لم يرض أن يبوح بما أبكاه ألححتُ عليه، فقال: أنت لا تدري أن روفائيل بطِّي هو أعز صديق أحببته، وهو ولدي بالروح، وقد مر الآن من هنا فلَمَحني ولمحته، وبيننا جفوة، فلم أتمالك نفسي ولم أضبطها فبكيت وتذكرت وأنا

---

(١) وجيه بيضون، بين الصناديق ص١٥٧، ١٥٨.

في هذه السن أن أموت وتبقىٰ علاقتنا هكذا منفصمة، وبالفعل فإنه مات ولم يصلح أحد بينهما[1].



المجرم البريء دوستويفسكي

• الكتّاب الذين قرأت لهم والفنانون الذين جلست إليهم أنواع: النوع الأول هو الذي يرش أرضية الغرفة بالماء إبان الظهيرة الصيفية المحرقة ويجعلها مكانًا محتملًا يدعو إلىٰ نومة القيلولة، ونوع ثان يأخذك إلىٰ قارب متين لتعبر نهرًا معتدل العرض فأنت آمن معه من الغرق، وإذا حدث ما لا يحمد عقباه ففي إمكانك أن تصيح ليأتي من أحد الجانبين من ينقذك إذا لم تكن تعرف السباحة، والنوع الثالث من الكتاب والفنانين من يأخذك من يدك اليمنىٰ دون أن تدري يدك اليسرىٰ (علىٰ حد تعبير أندريه جيد في سياق آخر) ويخرج بك عن بيتك وأهلك ومدينتك، فإذا أبعدك عن كل مكان تألفه استودعك وأبقاك وحيدًا تشق طريقك بنفسك، وهناك نوع رابع ما ينفك يسألك: ماذا تريد؟ ما هي مطامحك؟ لقاء ثمن بسيط وهو الإصغاء لي أستطيع أن أبلغك ما تريد. إنه الكاتب الموجه أخلاقيًّا وهناك أنواع أخرىٰ، ولكن أفظعها في تضاريس حياتي هو النوع الدوستويفسكي من الكتاب، مع هذا المخلوق ترىٰ البؤس فرحًا والمهانة كبرياء والتمزق صحة.

النوع الدستويفسكي الذي يقف علىٰ قمته هذا الكاتب المدوخ، دوستويفسكي، لا تدري معه هل أنت في صحبة شرير أم إنسان بلغ أعلىٰ درجات النقاوة والبراءة، لا بل أن دوستويفسكي هو أعلىٰ درجات النقاوة التي تحمل شرًّا أو أعلىٰ درجات الشر الذي يتحول إلىٰ نقاوة.

---

(١) قاسم الرجب، المذكرات ص١٣٩، ١٤٠.

دوستويفسكي إعصار من عواطف، بركان يغلي فيه الحريق والتدمير، ولكن كما يحدث مع بعض البراكين فإن حممها التي تحرق الأخضر واليابس تتحول بعد زمن ما إلىٰ مواد تخصب الأرض إخصابًا عجيبًا، أية وسوسات وصرخات وهمهمات أقضت مضجعي ونغصت علي النوم أطلقتها حروف هذا الكاتب الذي صافحني بيد دامية واستضافني علىٰ طعام قوامه إحدىٰ رئتيه! لعل كثيرين قرأوا دوستويفسكي فلم يحطمهم كما حطمني ولم يغير مجرىٰ دمائهم كما غير مجرىٰ دمي، والأمر يعود إلىٰ الاستعداد الأصلي لكل قارئ ولكل متقبل(١).

• إذا أردت العالم الخارجي فهناك تولستوي باني الحقول والشوارع والأرصفة والبيوت والصالونات وإذا أردت العالم الداخلي فهناك دوستويفسكي محرك النفوس الملتاعة المتوهجة الشريرة الطيبة، النفوس التي تريد أن تفعل الخير عن طريق أسوأ الشرور التي تحاول الوصول إلىٰ العظمة عن طريق الجريمة، النفوس التي تتصرف كأن في الكرم شيئًا كثيرًا من اللؤم وفي اللؤم شيئًا كثيرًا من السماحة والبذل(٢).

• لمعرفتي بدوستويفسكي حادثة طريفة: عندما دخل الإنكليز سورية مع الديغوليين، للخلاص من ممثلي حكومة (بيتان) في فرنسا المحتلة، سافر عدد من الموظفين الفرنسيين إلىٰ فرنسا وتركوا وظائفهم في سورية ومن هؤلاء الموظفين كان المستشار أو ما يشبه ذلك في الرستن قرب حمص.

مررت ذات يوم في السوق وأردت أن أشتري شيئًا من الموالح، وجئت إلىٰ دكان، وطلبت منه قضامة وبزرًا، أعدَّ البائع ما طلبت وأراد أن يضعه في ورقة، فإذا

(١) نجيب المانع، ذكريات عمر أكلته الحروف ص٢١١، ٢١٢.
(٢) نجيب المانع، ذكريات عمر أكلته الحروف ص٢١٨، ٢١٩.

هو يخرج كتابًا باللغة الفرنسية ويَهمّ بتمزيقه، فقد كان الورق غاليًا في فترة الحرب، وكانت الكتب -وا أسفاه - أرخص من الورق.

وإذا أنا أرجو البائع ألا يمزق الكتاب وأن يعطيني إياه لأراه وقرأتُ بالفرنسية اسم (دوستويفسكي) المؤلف واسم الكتاب «المهانون المذلون»، وقلت له: من أين لك هذا؟ قال: عندي مجموعة كبيرة من الكتب اشتريتها من مستشار فرنسي عاد إلىٰ فرنسا.

ورجوت البائع أن يريني هذه المجموعة:

وهالني ما رأيت: أكوام من الكتب فيها مؤلفات «راسين» كاملة ومؤلفات «روسو» و«فولتير» و«هوغو» ومؤلفات عدد من الكتاب الإنكليز والروس. الحق أن هذا المستشار كان مثقفًا كبيرًا.

بحثت في جيوبي فوجدت معي خمس ليرات سورية، وقلت للبائع: أعطني هذه الكتب. قال: خذ منها ما تشاء، وجمعت مجموعة كبيرة وحملت ما أستطيع وسِرْتُ بها ظافرًا إلىٰ البيت، ما تزال هذه المجموعة تشكل النواة الأولىٰ والممتازة لمكتبتي باللغة الفرنسية.

كنت أتمنىٰ أن أشتري كل الكتب، ولكن ما حيلة موظف يدفع كل ما بقي له من راتبه في شهر كامل ليشتري كتبًا.

قرأت الكتاب فأعجبني جدًّا، واكتشفت أننا لا نعرف من الثقافة شيئًا، ولا من الأدب، لقد تعلمنا كثيرًا عن الثقافة الفرنسية وقرأنا كثيرًا من الأدب الفرنسي، ولكن سياسة فرنسا الثقافية كانت تقتصر علىٰ تعريفنا بالأدب الفرنسي وحده، أما العالم فما كنا نراه بل كنا لا نسمع بأدبه.

وخرجت بعد أيام، فإذا أنا في الطريق، في حمص، بصديقي المرحوم الدكتور «سامي الدرويي» قلت له فرِحًا: يا سامي لقد اكتشفت اليوم كاتبًا كبيرًا روسيًّا هو

«دوستويفسكي» وقرأت كتابًا له هو «المذلون»، قال: وهل تعيرني الكتاب؟ وأعرته الكتاب، ولم يعد إلي بعد ذلك طبعًا.

أولم يكتب أناتول فرانس في مكتبته هذا الإعلان العجيب: «لا تعر كتبك لأحد فإنه لن يردها». «لو فحصت مكتبتي أنا مثلًا، لما وجدت فيها إلا الكتب التي استعرتها من الناس».

رحم الله سامي لعل هذا الكتاب الذي استعاره ولم يردّه، كان أول بذرة أوحت إليه أن ينصرف بعد سنين إلىٰ ترجمة آثار دوستويفسكي الكاملة[1].

• أذكر أنني سألتُ سامي مرة وأنا أرتب المكتبة التي احتوت الكثير من الكتب والدراسات عن دوستويفسكي أرىٰ أن هذا الكاتب قد استولىٰ علىٰ اهتمامك أكثر من أي كاتب آخر لماذا هو بالذات؟، فضحك وقال: لأنه من الأدباء الذين لهم نظرة فلسفية أو الذين كانوا أدباء وفلاسفة في آن واحد، وتابع قوله بدأت بقراءة مؤلفاته بالفرنسية وأنا في السادسة عشرة من عمري فما انقضت بضع سنين حتىٰ أتيت علىٰ آثاره كلها أعيد قراءتها بلا كلل أو ملل حتىٰ لقد أخذت أترجم بعض فصوله منذ ذلك الحين، استهواني ووجدت نفسي فيه، وما أظن إنني أخطأت التقدير منذ تلك السن ولا شك أن دوستويفسكي يمتاز بأنه معاصر دائمًا. حتىٰ أننا نرىٰ الآن كثيرا من المذاهب الفكرية والتيارات الأدبية المختلفة تنتمي إليه وتزعم بنوتها له، وتابع يقول بثقة: كم أتمنىٰ أن أنهي الأعمال الكاملة لدوستويفسكي لتضم المكتبة العربية هذه الأعمال حتىٰ يستطيع المثقف العربي أن يقرأ هذا الكاتب الفذ!.

وراح يعمل بجدية خارقة علىٰ ترجمة دوستويفسكي فكانت تتوالىٰ هذه الأعمال من بين يديه الواحد بعد الآخر، وفي عام ١٩٦٦ تم التعاقد بين وزارة الثقافة

---

(١) عبد المعين الملوحيّ، شظايا عمري ص٨٧ـ٨٩.

المصرية والدكتور سامي الدروبي علىٰ نشر الأعمال الكاملة لدوستويفسكي ولقد كان لهذا القرار هزة في الوسط الثقافي المصري[١].

• أنا عندي أن هناك ثلاثة روائيين في العالم لم يظهر أروع منهم، هم ستندال وتولستوي ودوستويفسكي، رغم أنه يضجرني[٢].

• لفت نظري سفير روما في موسكو، إلىٰ أعظم روائي في العالم علىٰ حد قوله وهو دستويفسكي. كان سبب شهرة دستويفسكي غوص في حياة البؤس الذي أشار إليه كل كاتب، بما فيهم الطلاب العرب. هناك سؤال طرح نفسه: ما هو سبب شهرة دستويفسكي عند جميع الطبقات؟ إن السبب يعود إلىٰ مئات التجارب، التي كان ينتظمها في الشاعرية في رواية (فسكي) بدون أن يوظف المصطلحات الشعرية والتعريفية، حتىٰ أنه أُصيب بالصرع، ورحّب بذلك الضيف؛ لأنه كان يعرف من معلوماته المدرسية، أن علاج الصرع يطفئ الذهن، لأنه يصيب الأحدَّ حساسية، سوف تصرعني الحالة ساعة أو نصف ساعة وأخرج منها خروج اللؤلؤة من الصدفة.

كنّا في الستينات هنا في اليمن نتباهىٰ بروايات دستويفسكي وكانت مشحونة باللذات العليا وبالمعارف المتوحشة إذ كان يحيط بوجوه الأبطال القلق ومعالم الجريمة في أي تشكيل[٣].

• في إحدىٰ الأمسيات زارني ثامر معيوف المحرِّر الثقافي لجريدة «القادسية»، وسألني عن الكتاب الذي لم أتمكَّن من استكمال قراءته، فقلت «الجريمة والعقاب» لدوستويفسكي. نُشِرَ الرأي في الصفحة الأخيرة ضمن زاوية صغيرة بعنوان «كتاب

---

(١) إحسان بيات الدروبيّ، سامي الدروبيّ ص١٤.
(٢) علي الشوك، الكتابة والحياة ص٢٣١.
(٣) عبدالله البردوني، المذكرات ص٦٠٢، ٦٠٤.

في المزاد» ونصه: «الكتاب الذي كنتُ متهيئًا، بصورة كاملة لقراءته، ولم أتمَّه، هو رواية «الجريمة والعقاب» لدوستويفسكي، ولطالما قرأت من قبل أقاصيص له، وأعجبت بها، ولمَّا أفلحتُ في الحصول علىٰ «الجريمة والعقاب» من صديقي جليل القيسي، قبل سنوات، وجدتُ الرواية نصًا مفككًا، بصورة تثير الشفقة إلىٰ حد بعيد.

لم تمضِ سوىٰ أيام إلَّا وبدأت حملة تشهير ضارية، أوشكت أن تفتك بي، وتنزع عني الأهلية الأكاديمية، وصرتُ موضوعًا للمقالات الساخرة، ولرسوم الكاريكاتير في الصحف، والمجلات، ونالني كل ما تطويه النفوس من سوء قصد.

والتقط نبرة السخرية رياض قاسم، فكتب: «يا للحسرة لقد ذهبت قراءتنا سدًا، فما أحسنًّا اختيار المقروء، ولا أحسنًّا إدراك طبيعة كل كاتب وكتاب، وأخذتنا إشاعات حتىٰ اعتبرنا رواية مثل رواية دوستويفسكي «الجريمة والعقاب» عملًا جيدًا، وكنا سادرين في أوهامنا نتخبَّط، دون دليل، حتىٰ قيَّض الحظ لنا كاتبًا مثل السيد عبد الله إبراهيم الذي فتح منافذ النور، فأفادنا أن رواية دوستويفسكي هذه تمثِّل نصًا مفكَّكًا يثير الشفقة إلىٰ حد بعيد!».

وما لبث أن أُشيع جوٌّ من الفكاهة، حينما نَشَرت مجلة «ألف باء» مقالة كتبها سامي محمد بعنوان «جريمة دوستويفسكي وعقاب عبد الله!» أُرْفقت برسم كاريكاتيري يصور ناقدًا يمتطي حمارًا متهالكًا، ينخسه من الخلف ليسير، وهو ينادي علىٰ دوستويفسكي، ومما ورد فيها، أن رأي عبد الله إبراهيم يعدُّ «إساءة بالغة إلىٰ الثقافة العراقية التي تمتلك وعيًا أدبيًا عاليًا بما أنجزه كبار الكُتَّاب الأجانب، ومن ضمنهم دوستويفسكي، وميلفيل، وشولوخوف»، وانتهىٰ إلىٰ القول بأن ما عبَّر عنه الكاتب يدل علىٰ «قصور في وعيه الثقافي، واعتراف بلا دراية منه أنه قارئ فاشل،

وغير مؤهَّل لتقييم عمل إبداعي، ومن هنا فإنني أشكِّك بقدراته الذوقية والنَّقدية، بقدر ما أسحب منه الثقة فيما يكتب.

انتقل الموقف من السخرية والاستعداء إلىٰ تجريدي من المؤهِّلات الثقافية بوصفي طاعنًا في الذوق الثقافي، ومخربًا للوعي العام، ثم وصل إلىٰ الدفع بوقف دراستي الأكاديمية، فقد كتب الشاعر رشدي العامل مقالة بعنوان «هو الذي رأىٰ» ومما جاء فيها، بعد مقدمة طويلة، أن الرأي الذي صدر بحق دوستويفسكي «رأي غريب لم نجد له مثيلًا لدىٰ أي ناقد أو كاتب آخر، منذ صدور الرواية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحتىٰ هذا العقد من أواخر القرن العشرين». وعبَّر عن خيبته «لأن هذا الرأي المدهش جاء متأخرًا جدًا، وأن أكوامًا من الورق ذهبت سدًا سواء تلك التي أهدرت في طبع هذه الرواية بمختلف اللغات العالمية، أو تلك التي ذهبت مجانًا لطبع مئات الدراسات والكتب عنها، كما ذهَبَت هدرًا أوقات عدد لا يحصىٰ من ألمع كُتَّاب ومفكري العالم الذين عنوا بدراستها. لقد تأخَّر مجيء الناقد العراقي كثيرًا، وبذلك فاتت الفرصة أمام أجيال متعددة عندما ضُلِّلت بأهمية هذه الرواية وروعة اكتمالها، دون أن يقيض لها ناقد يفتح بصرها وبصيرتها».

أصبح الموضوع مثار تندُّر الوسط الثقافي في العراق، وحيثما أقتني صحيفة أجد تشهيرًا بي. ولم تظهر غير مقالة يتيمة منصفة وسط هجوم شامل كتبها مدني صالح، جاء فيها: «لم أجد في موقف عبد الله إبراهيم من دوستويفسكي إلا الصدق الذي لا ينقص من قدر دوستويفسكي شيئًا، فعبد الله صادق في شرح حاله، ودوستويفسكي عظيم في تأليف أدبه، لا موقف دوستويفسكي يخل بموقف عبد الله، ولا موقف عبد الله يخل بموقع دوستويفسكي، وليس من تناقض ولا تضاد ولا تضارب في قولك إن عبد الله صادق بالموقف، موقفه النَّقدي، وإن

دوستويفسكي عظيم بالموقع، موقعه الأدبي، فذلك من جميل الصدق، وهذا من جميل الإبداع».

كانت الحملة شخصية أكثر منها موضوعية، فلم يشر أحد من المهاجمين، علىٰ الإطلاق، إلىٰ السبب الذي ذكرته فيما يخص «الجريمة والعقاب» وهو ضعف البنية السَّردية، فُقرَّاء دوستويفسكي يعرفون أن رواياته الكبيرة كُتبت بدافع الحاجة إلىٰ المال، فيوقِّع عقودًا مع ناشري المجلات لإظهار فصول أسبوعية أو شهرية منها، وغالبًا ما كانوا يستعجلونه للكتابة، وتسليمهم ما بحوزته لأنه لم يفِ به في المواعيد المطلوبة، فيطارده الدائنون، ويلحف عليه الناشرون، فدبَّج فصولًا تفتقر إلىٰ الترابط الذي ينهض بمهمة التماسك بين مكونات النَّص السَّردي.

جاء في رسالة كتبها دوستويفسكي عشية شروعه في كتابة الرواية: «أوشك علىٰ البداية في كتابة رواية تحت الكرباج، أي بسبب الحاجة المطلقة إلىٰ النقود، ويجب أن أجعلها مهمتي السريعة». لم تغب عنِّي الخلفيات الشيوعية لمعظم المتهجِّمين، لكنني ما أخذتها في الحسبان، وأرجِّح أنه لم يبلغهم أن «لينين» لم يحبَّ دوستويفسكي بسبب النزعة الدينية في رواياته، ولم يُحتفَ به طوال العهد السوفييتي كما حدث مع تولستوي، فلو علموا بذلك ما أمسيت هدفًا لسهامهم، إنما نافحوا عن كاتب ورثتْ بلادَه القيصريةَ الرايةُ الحمراء[1].

۞ ۞ ۞

برتراند رسل

أذكر رؤيتي لبرتراند رسل شخصيًّا في مناسبة رائعة جرت علىٰ بعد خطوات قليلة من كلية لندن للاقتصاد، ففي ١٩٦٢ أعلن عن عزم محبي برتراند رسل

---

(١) عبد الله إبراهيم، أمواج ص٢٦٤، ٢٦٨.

وتلاميذه إقامة احتفال بعيد ميلاده التسعين بطريقة غير مألوفة، وهي دعوة أي شخص من الجمهور يريد الاشتراك في هذا الاحتفال؛ بشرط شرائه تذكرة بجنيه واحد، فيكون له حق حضور هذا الحفل الذي يقام في صالة (Royal Festival Hall) الرائعة المقامة علىٰ نهر التايمز.

اشتريت تذكرة وذهبت، ووجدت الصالة البالغة الاتساع مكتظة بالجمهور، ودخل رسل بخطىٰ ثابتة لا تفصح عن سنّه وجلس في الصف الأول وسط التصفيق، ثم قام متحدث بعد آخر من مشاهير الفنانين لإلقاء كلمة صغيرة لتحية رسل؛ ولكن كان أطرف ما تضمنه الحفل هو قيام رجل لا أعرف اسمه، بالصعود إلىٰ خشبة المسرح وقال إنه يسره أن يعلن للجمهور عن صدور أحدث كتاب لبرتراند رسل، وأنه سوف يقرأ علينا الكتاب بأكمله، ثم أخرج من جيبه كتيبًا صغيرًا جدًّا لا يزيد حجمه عن حجم الكف الصغير، وسرعان ما ظهر أن من الممكن فعلًا قراءته كله في دقائق قليلة.

قال الرجل إن اسم الكتاب هو «أقصر كتاب في تاريخ العالم» (The Shortest History of the World)، وأن محتوىٰ الكتاب كله هو الجملة الآتية: «منذ بدء الخليقة، لم يمتنع الإنسان عن ارتكاب أي حماقة كان قادرا علىٰ ارتكابها» ونزل[1].



بلاشير

لا شك في أن الغربيين أساتذة في نهج البحث نظريًّا وعمليًّا، وأشهد أني تعلمت كثيرًا جدًّا من المسيو بلاشير في شؤون «المنهج»، وأكاد أقول لولاه لما عرفت جوهر

---

(١) جلال أمين، رحيق العمر ص١٧٣.

المنهج ولولاه لما عرفت جوهر «التحقيق» - تحقيق المخطوط العربي كذلك ثم ما ظنك أني لم أسمع وأنا الذي درست، في بغداد والقاهرة، وقرأت كثيرًا، ولم أسمع مصطلح «عبقرية اللغة العربية» إلا من المسيو بلاشير[1].



جون فيلبي

الشخصية الغربية التي أعتبر نفسي محظوظًا أنني تعرفتُ عليها هو (سان جون فيلبي) هذا الرجل الداهية الذي لعب دورًا كبيرًا في سياسة إنجلترا في الجزيرة العربية، وكان في وقت من الأوقات مستشارًا للملك سعود، وكان رجلًا أشقر اللحية حاد النظرة، عنيفًا، وجهه مقشور، لا يخجل من شيء، قادر علىٰ إحداث مشاكل كثيرة جدًا وكنت أمُر علىٰ بيته وأنا راجع من بعض السهرات الفارغة فأسمع دقات الآلة الكاتبة، لأنه كان يجلس ليكتب مذكرات، أو ليكتب ويربي في حديقة بيته نماذج عديدة من حيوان الصحراء ونبات الصحراء.

هذا هو الفرق بين العقلية الأوربية كما شاهدتها بعيني، وبين العقلية المصرية.

ليس بين المصريين ولا كل الشرقيين أي اهتمام بدراسة المنطقة التي هم فيها سواء من حيث النبات أو الحيوان أو التاريخ، بل وظيفتهم التحدث عن الأكل والشرب والدسائس الخطرة[2].

---

(١) د. علي جواد الطاهر، فصول ذاتية من سيرة غير ذاتية ص١٥٦.

(٢) يحيىٰ حقي، ذكريات مطوية ص٣٩، ٤٠.

حول العالم

ألمانيا

من حسن حظ نفر من الناس أن يعيشوا في زمن رجل عظيم أو رجل مشهور، ومع أن الشهرة حظوظ (كما يقول ابن رشيق)، ومع أن الناس مختلفون في تعريف «العظمة»، فإن هنالك تعريفًا واحدًا علىٰ الأقل يجب أن يقر به جميع الناس: إن الرجل العظيم هو الذي يترك بعده أثرًا نافعًا.

وأنا الآن لست في معرض الحكم علىٰ هتلر وأيام هتلر، ولكني سأروي عددًا من الملاحظات العابرة لأنني عشت في ألمانية من أيلول (سبتمبر) ١٩٣٥ إلىٰ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣٧، في ذروة حكم هتلر.

الاستبداد: إذا كنت تعني أن التنظيم وضبط الأمور هما من الاستبداد، فإن ألمانية كان في ذلك الحين في ذروة الاستبداد، يتفق مثلًا أن ينقطع ورود البيض من بلغارية أو تقصّر المزارع الألمانية في صنع الزبدة في فصل ما، ثم تدخل أنت دكانًا ليس فيه إلا بيضة واحدة وربع كيلو من الزبدة فتشتري تلك البيضة وهذه الزبدة بالثمن الذي كنت تشتري مثلهما بالأمس أو قبل الأمس.

الخمر والبرتقال: أفضل الفواكه البرتقال (لأنه لا يختمر في المعدة)، وهو عندي فاكهة مفضلة (في الحضر والسفر)، وربما أكلت البرتقال ثلاث مرات في النهار بعد وجبات الطعام الثلاث.

خرجت في ٢٠/ ٤/ ١٩٣٦ أريد أن أشتري شيئًا من البرتقال، فلم أجد في السوق حبة منه، فسألت البائع عن سبب ذلك فقال: اليوم مولد هتلر تقام الاحتفالات به في جميع أنحاء ألمانية، والبرتقال اليوم تشتريه الدولة؛ لأن هتلر لا يشرب الخمر ولا يقدم الخمر في مثل هذه المناسبة.

هتلر الخطيب: كان هتلر يطيل في خطبه (ساعة أو ساعتين أو ثلاثًا)، كانت هذه الخطب تذاع بالراديو؛ ولكن كثيرين من الناس كانوا يفضلون -إذا هُم استطاعوا- أن يسمعوا هتلر يخطب وهم يرونه.

وكنا نذهب قبل موعد الخطبة بساعة أو أكثر حتىٰ نستطيع أن نجد مكانًا قريبًا من الشريط الذي يفصل باحة الخطابة عن موقع النظارة، وكان هتلر يهدر في خطابه هدرًا، فلا تسمع في تلك الأثناء صوتًا غير صوته، وكنت مرة قريبًا جدًّا من الشريط، وكان قربي نفر من الأمهات يحملن أطفالهن فلم أسمع طفلًا بكىٰ، ولم أر شخصًا تحرك من مكانه[1].

في ألمانية لا يناقشون الرسالة الجامعية؛ ذلك لأن الرسالة الجامعية تكتب بإشراف أستاذ، فمناقشتها -في الحقيقة- مناقشة للأستاذ، غير أنهم يوجبون وضع اثنتي عشرة نسخة (أو كانوا يوجبون ذلك) في مكتبة الجامعة مدة ستة أشهر (في أثنائها لا يجوز لصاحب الرسالة أن يضيف اللقب العلمي إلىٰ اسمه)، فكان إذا أتىٰ علىٰ هذه الرسالة انتقادات وجيهة حُجبت الرتبة عن الطالب؛ ولكنهم يطلبون (أو كانوا يطلبون) امتحانًا شفويًّا غايته معرفة مدىٰ النضج الذي بلغ إليه الطالب في أثناء دراسته الجامعية[2].

۞ ۞ ۞

من طريف ما شاهده فيها منزل أديب ألمانيا المشهور جوته المتوفىٰ سنة ١٨٣٢، وكان البيت قد تهدم في الحرب العالمية الأخيرة، وأعيد بناؤه بأوضاعه القديمة بكل ما كان يحتويه من أثاث ورياش وصور لأصدقائه، وكأنما لم يصبه أي

---

(١) عمر فروخ، غبار السنين ص٧٨، ٧٩.
(٢) عمر فروخ، غبار السنين ص٩٠.

هدم ولا تخريب ولا دمار، ويدل البيت بطوابقه الثلاثة وما فيها من رياش وتحف علىٰ ثراء أسرته، ويقال: إن جده كان عمدة فرانكفورت وكان أبوه محاميًا وكانت أمه من سلالة طبقة الأشراف.

وقالت المرشدة: إن أباه كان يأخذه بتربية صارمة، فرض عليه فيها أن يدرس اليونانية واللاتينية والفرنسية والإنجليزية، وكان يراقبه في سهره بالخارج ليلًا، ولاحظ أنه يتأخر في سهره أحيانًا إلىٰ هزيع من الليل، فهدم جزءًا من حائط مكتبته المشرف علىٰ السلم، وأقام فيه نافذة ليراقبه ليلًا، وكان يظل ساهرًا وراءها ليعرف متىٰ يعود، ودفعت الأمَّ محبتُها لابنها وخشيتها عليه من تأخره أن تفتح له بابًا خلفيًّا يصعد منه إلىٰ غرفته حتىٰ لا يراه أبوه حين عودته، وكان الأب حين يشعر بتأخره في العودة بإحدىٰ الليالي يظل ساهرًا وراء النافذة، وكلما مضىٰ شطر من الليل ازداد غضبه حدة، حتىٰ إذا طال عليه الانتظار صعد إلىٰ غرفته فوجده نائمًا بها فيعجب من ذلك ويطمئن باله، وقالت المرشدة: إن جدته أهدته -في صباه - مسرحًا صغيرًا، ومعه مجموعة من العرايس والدمىٰ فكان يقصّ عنها بعض القصص الخيالية مما أعدَّه -فيما بعد - ليكون قصاصًا مبدعًا، وتجول صاحبي مع المرشدة في بيت جوته، ورأىٰ مكتبة أبيه، وكانت تضم -وما تزال- ١٩٠٠ كتاب[1].

۞ ۞ ۞

سألني نفر كثير من الأساتذة الذين درست عليهم: لماذا جئت إلينا؟ إنك لا تحتاج إلىٰ هذا الذي تدرسه علينا، كنت أقول لهم ما قاله ابن خلدون: إن الرحلة في طلب العلم مزيد كمال في التعلم، إن العاقل يرحل في طلب العلم (كما يقول ابن خلدون أيضًا) للقاء المشيخة (الأساتذة الكبار) ليحتك بهم، فيستفيد من اختبارهم

---

(١) شوقي ضيف، معي (٢/ ١٥٣، ١٥٥).

ويعرف طرق تفكيرهم وأساليب بحثهم (لا ليعرف عشر حقائق عن المتنبي مثلًا، بعد أن يكون في بلده قد عرف خمسًا منها).

سيعجب القارئ إذا قلت له: إنني زرت ثلاثًا وخمسين مدينة وبلدة وقرية في ألمانيا وحدها كنت وأنا أسافر ربما قطعت سفرتي ساعة أو ساعتين ثم تابعت طريقي بالقطار التالي.

رأيت مستشرقين كبارًا كثيرين فتلقيت عليهم أشياء من اختبارهم. وكان في ألمانية في ذلك الحين نفر من المستشرقين الكبار قد بلغوا السن القانونية وتركوا التعليم. لقد زرت من هؤلاء أوغست فيشر (وكنا في ليبزغ نسكن في شارع واحد).

زرت مِتْقُخْ (مع أنه كان قد نُحِّي في أيام هتلر عن الجامعات لأنه يهودي)، وعدني ماكس فايسفايلر (أمين مكتبة برلين) أن ألقي بروكلمن حينما يزور المكتبة، ولكن بروكلمن كان في زيارة خاطفة فرأيته ولم أحدثه[1].

---

(١) عمر فروخ، غبار السنين ص٥٤.

أمريكا

ها أنا أخيرًا في أميركا تحققت أحلامي ووصلت إلىٰ جامعة شيكاغو وأنا الآن في غرفتي الخاصة في الانترناشونال هاوس أحسست بالوحشة تغمرني قلبي يكاد ينفجر إني علىٰ وشك البكاء،

أريد العودة. أريد العودة إلىٰ وطني وأهلي وإلىٰ الحزب الذي تركته ورائي، فالحلم إذا تحقق كالرغبة إذا أشبعت، يترك وراءه فراغًا موحشًا، وفي تلك اللحظة أخذت قرارًا بالعودة في أقرب وقت ممكن.

سأدرس للحصول علىٰ شهادة الماجستير فقط وأعود بعد سنة، وشعرت بشيء من الراحة، ولم يدر في خلدي حينذاك أنني سأمضي الجزء الأكبر من حياتي في أميركا وأن عودتي إلىٰ وطني لن تكون إلا لفترة قصيرة مفجعة[١].

۞ ۞ ۞

لم يكن انطباعي عن نمط الحياة الأمريكي إيجابيًّا بالمرة، وعلىٰ الرغم من أني مع الوقت أصبحت أكثر استعدادًا للاعتراف بأوجه إيجابية فيه، فإن موقفي السلبي منه ما يزال هو الغالب وما يزال باقيًا معي حتىٰ الآن.

كنت علىٰ استعداد -وما أزال - للاعتراف بفضل التجربة (أو بالحضارة) الأمريكية في الارتفاع بمستوىٰ معيشة الشخص العادي أو المتوسط، ليس في أمريكا وحدها بل في العالم ككل، فالنموذج الأمريكي موجه في الأساس لخدمة

---

(١) هشام شرابي، الجمر والرماد ص١٥.

الرجل العادي والمرأة العادية، متوسطي الذكاء والخيال والخلق، وهذا في رأيي هو السبب الحقيقي وراء انتشار النمط الأمريكي في الحياة في مختلف بقاع الأرض انتشار النار في الهشيم؛ وهذا هو سر جاذبيته، ولكن الوجه الآخر لهذا النجاح هو ما تتسم به الثقافة الأمريكية بوجه عام من تراجع مختلف أنواع الثقافة الرفيعة أمام ذلك التيار الكاسح الذي يخاطب أكثر نوازع الإنسان سطحية، والاستعداد للتضحية بالكيف لحساب الكم، وإهمال ما لا يمكن قياسه وحسابه بالأرقام لصالح التقدم المادي البحت الذي يمكن قياسه وحسابه.

كرهت أيضًا ما لاحظته من ميل متأصل في نفس الأمريكي لتفضيل كل ما هو مصنوع، طالما أنه صنع بمهارة، علىٰ كل ما هو طبيعي. وبدا لي أن للأمريكي غراما لا حد له بإثبات تفوقه علىٰ الطبيعة وقدرته علىٰ الاستغناء عنها، واستغربت بشدة كيف يمكن في بلد تسخو فيه الطبيعة هذا السخاء علىٰ الإنسان أن يبدي الإنسان نحوها كل هذا العداء؟.

رأيت مثلًا في ولاية كاليفورنيا، التي قضيت فيها معظم فترة إقامتي بالولايات المتحدة، ولا تكاد تضاهيها ولاية أمريكية أخرىٰ في جمال مناخها واعتداله علىٰ مدار العام، أني أدخل بناء بعد آخر، ومقهىٰ أو مطعمًا تلو الآخر، فماذا أجد؟، أجد النوافذ مركبة علىٰ نحو يجعل من المستحيل فتحها، أو مصنوعة من زجاج ملون يحجب ضوء الشمس عما وراءها، وأجد أجهزة تكييف الهواء شائعة الاستعمال علىٰ نحو يخيل إليك معه أنك في أشد بلاد العالم حرارة وأقساها مناخًا، وأجد المصابيح الكهربائية مضاءة في وضح النهار، ولم لا؟ فقد يكون ضوء الشمس أشد قليلًا أو أخف قليلًا مما تريد في لحظة بعينها، والحرارة أشد قليلًا أو أخف قليلًا مما تحب وتشتهي في ساعة معينة من ساعات النهار أو الليل!

ثم ما هي هذه المعجزة الشهيرة في كافة أنحاء الأرض، المعروفة بـ«ديزني لاند» أو مدينة ملاهي ديزني، في جنوب لوس أنجلوس؟ مساحة فسيحة من الأرض تقوم عليها مبان متناثرة تقدم لك وسائل مختلفة للترفيه والتسلية، رائع التنظيم والتنسيق حقًا وبالغة النظافة والبهاء؛ ولكن شيئًا واحدًا يجمع فيما بينها: محاولة الإنسان الأمريكي أن يثبت أنه قادر علىٰ منافسة الطبيعة والتفوق عليها[1].

لم يعجبني ما رأيت، وبدأ يعتريني الشك، الذي أصبح يزداد قوة يومًا بعد يوم، بل ويتحول شيئا فشيئا إلىٰ يقين، في أن ما نسميه «الحضارة الغربية» قد يكون «غربيًّا» أكثر من كونه «حضارة».

لم أفقد بالطبع احترامي لما أدته هذه الحضارة من خدمات جليلة للبشرية كلها في الغرب والشرق، وفي الشمال والجنوب علىٰ السواء، ولكن الذي بدأت أفقد الثقة فيه هو الاعتقاد بأن كل ما يفعله الغرب يمثل بالضرورة «تقدمًا» للبشرية. بعبارة أخرىٰ، بدأت أنظر إلىٰ نمط الحياة الغربي مثلما ينظر عالم الأنثروبولوجيا للقبائل غير المتحضرة في إفريقيا أو آسيا أو أمريكا اللاتينية، فأخذت ألاحظ في الحياة اليومية في الغرب دليلًا جديدًا في كل يوم علىٰ «خصوصية» نمط الحياة الغربية، مما لم أجد أي مبرر لإلزام المجتمعات الأخرىٰ به، أي إلزامهم بالاعتقاد بأن الطريق الذي يقطعه الغرب في هذا الاتجاه أو ذاك، هو نفس الطريق الذي «يجب» علىٰ المجتمعات الأخرىٰ أن تسير فيه.

لم يكن الأمر بالنسبة لي، (ولا هو الآن) مسألة «نقد» للغرب، أو شعورًا من جانبي بأننا «أفضل» منهم، فقد بدا لي أن هذا الموقف الذي يعتبر ثقافتنا ونمط حياتنا أفضل من ثقافتهم ونمط حياتهم، ليس أقرب إلىٰ الحقيقة من الموقف الذي تخيلت[2].

---

(١) جلال أمين، ماذا علمتني الحياة ص٢٦٤، ٢٦٥.

(٢) جلال أمين، ماذا علمتني الحياة ص٣٠٧.

إنجلترا

حين خرجت إلىٰ الحياة كنت عزلاء من سلاح الخبرة ومعرفة الناس، فكانت المواجهة متعبة صعبة يعوزها التكافؤ، أن الكتب وحدها لا تكفي كمصدر لمعرفة الحياة وما في العلاقات البشرية من تعقيد وتصادم، علينا أن نحيا في الحياة ذاتها، فتجاربنا الخاصة تظل هي الينبوع الأصلي لتلك المعرفة.

هذا يقودني إلىٰ الحديث عن الانطباع الذي تركته في نفس إقامتي هناك بالنسبة لطبيعة الإنسان الإنكليزي وما عرف عن قوة إحساسه بفرديته وحبه لعزلته، أنه شديد التحفظ (والخصوصية)، لا يتكلم عن نفسه ولا يستحضر في أحاديثه موضوعات شخصية تشعرك بالحميمية وبالألفة الإنسانية، وتحفّظه هذا ليس تجاه الأجنبي فقط بل تجاه الإنسان الإنكليزي نفسه، وعبارة (بيت الإنكليزي قلعته) من أقوالهم المأثورة، فهو لا يسمح لأحد بدخوله؛ ولأن الأسرة الإنكليزية مرتبطة بالبيت، ولا تحب تبادل الزيارات مع الجيران، فحبها يستأثر به بيتها وكلبها وحديقتها.

وترىٰ الجار يحييٰ جاره من وراء سياج الحديقة، ثم يعلقان بكلمتين علىٰ حالة الطقس، ولا أكثر من ذلك، ولكن أهل الريف يظلون أكثر ودًا وتلقائية.

من جهة أخرىٰ يبقي الإنكليزي متحفظًا إلىٰ أن يثق بك، فإذا حصل التعارف الحقيقي ونشأت الصداقة تصبح أنت جزءًا من الأسرة وتستمر العلاقة، أن القول بأن الإنكليز غير عاطفيين وغير انفعاليين تدحضه فيما اعتقد حقيقة كونهم جنسًا منضبطًا إلىٰ أقصىٰ حد فلا يجاهر بأحاسيسه؛ ولعل ذلك يرجع إلىٰ أسباب تاريخية واجتماعية، وأنهم يتعمدون إخفاء انفعالاتهم تحت قناع من البرود المصطنع[1].

(١) فدوىٰ طوقان، رحلة جبلية رحلة صعبة ص١٩٢.

روسيا

حين دعينا إلىٰ الاتحاد السوفييتي وسُئِل عما يرغب أن يزور هناك قال: حبذا لو نزور قرية تولستوي وكان يترجم له في تلك الفترة كتاب لحن كرويتزر، وفعلًا قمنا بالزيارة ولن أنسىٰ ملاحظة المستشرق الأستاذ فلادمير كراسنوفسكي الذي كنا برفقته في تلك الرحلة حين قال كأن الدكتور سامي بزيارته هذه يريد أن يعايش تولستوي ليفهم منها عميقا روح الكاتب الذي يترجم له.

لا أستطيع أن أنسىٰ الاندهاش الذي ارتسم علىٰ وجه المستشرق كراسنوفكي حين زرنا مدينة لينغراد وكان سامي يصر علىٰ تسميتها بطرسبرج فكان حين نسير بشوارعها يكاد يقودنا وكأنه يعرف معالمها هنا الجسر الذي ذكره دوستويفسكي في قصته الليالي البيضاء، وفي إحدىٰ الشوارع وقف سامي قليلًا وقال: أظن أن قصة الجريمة والعقاب حدثت في هذا المنزل، أو في هذا المنزل وفي هذا الركن اجتمعت هيلين إلىٰ الأمير.

وعن قصة مذلون مهانون لن أنسىٰ منظر الاندهاش والإعجاب اللذين ارتسما علىٰ وجه مرافقنا الأستاذ المستشرق فلادير كراسنوفسكي فقال: سيدتي ألم أقل لك أن زوجك لا يقرأ ويترجم فحسب بل يعايش المؤلف، وأكمل نعم إنه يعايشه فعلًا[1].



(١) إحسان بيات الدروبيّ، سامي الدروبي ص٣٢.

شرع الروس سنة ١٩٢٩م في صنع طائرة عملاقة بثمانية محركات مؤلفة من طابقين، فيها قاعة استقبال فخمة، ومقاعد وثيرة، وفي سنة ١٩٣١، تم إنجاز هذه الطائرة المسماة «مكسيم غوركي»، لمناسبة مرور أربعين سنة علىٰ حياته الأدبية، وارتفعت في سماء موسكو، وهي تحمل نخبة من الشخصيات المسؤولة[١].

---

(١) نجاتي صدقي، المذكرات.

العراق

طلبت وزارة المعارف العراقيّة من وزارة المعارف المصرية انتدابي لتدريس أدب اللغة العربية بدار المعلمين العالية في بغداد وترددت في القبول، ولكن الأستاذ محمد بك فهيم أفهمني أن وزارة المعارف العراقية تطلبني بالذات وأن هذا تكريم لا يرفضه الرجل الكريم، فتوكلت علىٰ الله وسافرت.

دخلت بغداد وأنا متأهب لتأدية رسالتين: الرسالة الأولىٰ إعداد جيل من الأساتذة يقومون بإحياء الآداب العربية في البلاد العراقية، ولم يكن تلاميذي شبانًا وإنما كانوا كهولًا لهم ماض في التدريس بالمدارس الابتدائية، وقد قسمت الدرس إلىٰ قسمين:

قسم شفوي: وهو شرح «سورة الحجرات» في «التفسير للزمخشري» وقد ضجر الطلبة من أن نقضي العام كله في تفسير سورة الحجرات، وكان جوابي أن المهم عندي هو أن تعرفوا أسلوب الزمخشري في تفسير القرآن، وستذكرونني بالخير حين أرحل عن هذه البلاد.

أما القسم الثاني: فهو تكليف الطلبة بواجبات من أول يوم، واجبات قوية تروضهم علىٰ البحث والاستقصاء، فكنت أقضي الأمسية في الإشراف عليهم بالمكتبة العامة، مكتبة بغداد، وهي صورة مصغرة من دار الكتب المصرية، وكان الغرض ألا يسقط تلميذ في الامتحان؛ لأني أؤمن بأن سقوط التلميذ، هو أيضًا سقوط للأستاذ وفي نهاية السنة حملت واجبات الطلبة في عربة وقدمتها إلىٰ وزير المعارف ليمضي بنفسه نتائج الامتحان، قضيت مع الوزير ثلاث ساعات في مراجعة تلك الإجابات فقال الوزير وهو معالي محمد رضا الشبيبيّ: هذا جميل[1].

---

(١) زكي مبارك، زكي مبارك بقلم زكي مبارك ص٩٠-٩١.

فرنسا

لما ذهبت إلىٰ باريس في المرة الأولىٰ (١٩٣٦) حضرت علىٰ أساتذة كثيرين حضورًا جيدًا، كنت أحضر علىٰ ليفي بروفنسال «الخطوط علىٰ الخشب»، (وفي كثير من الأحيان لم تكن تلك الخطوط مقروءة أو واضحة)، وكنت أجلس في أواخر الغرفة، (وكنت عند لويس ماسينيون في صدر القاعة - أما وليم مارسيه فكنا نجلس معه علىٰ طاولة مستديرة).

مشىٰ إلي ليفي بروفنسال يومًا وقال لي: أنت لست تلميذًا، فمددت يدي إلىٰ جيبي وأخرجت بطاقة جامعة برلين، وبعد أن تأملها قال لي: ولكن أنت غير هؤلاء (وأشار إلىٰ طلبة في صدر القاعة أعرفهم). قلت له: طبعًا، أنا غير هؤلاء، هؤلاء حصلوا علىٰ البكالوريا (ومن الخير ألا أذكر نوع تلك البكالوريا) وجاءوا توًا إلىٰ هنا، أنا أحمل شهادة بكالوريوس علوم (فوق البكالوريا بثلاث سنوات) من الجامعة الأميركية، ثم إني علّمت سبع سنوات، وقد ألفت عددًا من الكتب المدرسية والأدبية، وأنا أحسن أربع لغات وأُلِمُّ بلغة خامسة، حينئذ قال لي ليفي بروفنسال: وما جئت تفعل عندنا؟

إن الرحلة في طلب العلم، كما يقول ابن خلدون، ليست للتعلم، ولكن لمزيد كمالٍ في التعلم»، وهذه غاية لا تتم إلا بالاحتكاك بين البشر لينتقل الاختبار الإنساني من فرد إلىٰ فرد (في نطاق الاستعداد الفطري الفائق وفي نطاق الجهد البشري)[1].



(١) عمر فروخ، غبار السنين ص٥٥، ٥٦.

عندما كنت الضيف الرئيس للرئيس شيراك في استعراض العيد الوطني الفرنسي، خُصصت لي سيارة رينو صغيرة لأنهم لا يصنعون سيارات كبيرة في فرنسا، وكان في مقدور الفرنسيين منحي سيارة مرسيدس أو كاديلاك، لكنهم منحوني سيارة من صنعهم، حتىٰ إن الرئيس شيراك قدم في سيارة رينو، ولنا جميعًا في ذلك عبرة، وهي أن تفخر بما لديك أيًّا يكن نوعه[1].

(١) مهاتير محمد، طبيب في رئاسة الوزراء ص٤٣٥.

اليابان

قد يبدو اليابانيون متأمركين في الظاهر غير أنهم في الواقع أشد الأقوام تمسكًا بتراثهم وأصالتهم وهويتهم. صحيح أنَّه في اليابانية. -مثلًا- الكثير من الدخيل الإنكليزي خاصة لكنهم يبنوه حسب طريقتهم وكتبوه بحروفهم هم. ورغم محاولات التطوير في كتابتهم ورغم صعوبة هذه الكتابة، وهي مجرد صور رمزية علىٰ أحدهم أن يحفظ منها ألفي رمز علىٰ الأقل لكي يتمكن من القراءة والكتابة، فقد استمسكوا بنمط هذه الكتابة المعقدة العسيرة، فإذا وعىٰ الياباني في ذاكرته الصور الألفين صار قادرًا علىٰ الكتابة، فإن زاد زادت ثقافته بمقدار ما في مخيلته من صور. لذا فإنه سرعان ما «يقرأ» صحيفة تفوق صفحاتها المائة وهو جالس في القطار من بيته إلىٰ مقر عمله. إنه في الواقع لا يقرأ بل «يتفرج» علىٰ الكتابة المصورة ويفهم دلالات الصورة ولهذا أيضًا كان معدل قراءة الفرد الواحد (منذ ربع قرن) ستة وعشرين كتابًا في السنة -ومن المؤكد أنه ازداد الآن. ولك أن تحسب ما يُطْبَع من كتب إذا علمت أن سكان اليابان يفوقون المائة والثلاثين من الملايين.

وهم مقلِّدون وتقليديون في الوقت نفسه. إنهم يقلدون أي اختراع تقني حديث يظهر في أوروبا أو أمريكا بشكل مذهل ثم يتفوق التقليد علىٰ الأصل. من يصدق، مثلًا، أن شركة (فيلبس) الهولندية التي قدمت هي أول جهاز (فيديو) ثم أين أجهزتها اليوم مما تعرضه الشركات اليابانية؟ وقد رأيت في مكتب السيد (أوراوكا) وهو صاحب دار نشر ذو صلة ببلادنا والبلاد العربية الأخرىٰ، فتاة يابانية منكبَّة علىٰ نقل إعلان باللغة العربية من نشرة أمامها إلىٰ جهاز الحاسوب ليعاد طبعه، فاستفسرت منه كيف وأين تعلمت العربية. أجاب إنها لا تعرفها ولا تعرف لغة أخرىٰ غير اليابانية.

إنها تنقل، لنقل تقلد، ما أمامها فحسب. وعندما قارنتُ ما نقلتْ بالأصل لم أجد خطًا واحدًا، بل الحق أن النقل كان أوضح وأجمل. فيا سبحان الله! لماذا يخطئ جامعو المقالات لدينا تلك الأخطاء الفاحشة الشنيعة وهم العرب الأقحاح؟!

ورغم مظاهر الأوربة والأمركة في الحياة العامة فهم تقليديون جدًا في حياتهم الخاصة. ترىٰ الواحد منهم يسرع بعربته إلىٰ عمله بلباس أوروبي ويصرِّف أموره علىٰ النمط الأمريكي في كل شيء يتصل بعمل، فإذا آب إلىٰ بيته خلع ما عليه من ثياب (مستعارة) وارتدىٰ ثوبه الياباني الفضفاض وانتعل خفًا وجلس فوق حشية علىٰ الأرض؛ ففي البيوت اليابانية تنعدم الكراسي ومن هنا فإن شركات الأثاث المنزلي الأوروبية لم تجد سوقًا لها هناك. يجلس الياباني ليتناول طعامه الموضوع فوق (طبلية) صغيرة وهو يتلاعب بعصوين رقيقتين ولا يستعمل الملعقة أو الشوكة مطلقًا.

ولم أر شعبًا يدخن التبغ بهذه الكثرة مثل اليابانيين وينافسهم فيه اليونانيون. ولم أعجب أن أرىٰ مطافئ السجاير علىٰ نواصي الشوارع وفي الممرات، فإذا لم يجد المدخن مطفأة سحب من جيبه علبة معدنية خاصة أطفأ فيها لفافته ثم يفرغها في المكان المناسب، فهم يعشقون وطنهم ويحرصون علىٰ نظافة مدنه وقراه لهذا فإن من النادر أن يُلْقِي أحدهم بورقة في الطريق، وعشق الوطن هذا مغروس فيهم منذ الطفولة اليابان ولا غير اليابان. ما كان يابانيًّا فهو المتميز الممتاز أما سواه فمجرد قمامة، ولا يشتري الياباني شيئًا من غير صنع بلاده وهو ما أدىٰ إلىٰ أزمات شديدة بينها وبين أمريكا التي تستورد من اليابان الكثير فإذا صدرت إليها بضاعة كسدت ولم تجد من يبتاعها رغم الدعاية والترغيب.

عشرة في المائة فقط من تلك الأرض الجبلية البركانية صالحة للزراعة وليس بها مساحات كبيرة للرعي فكانت أسعار اللحوم أغلىٰ الأسعار. وهم يزرعون في المساحات المائية الأرز بشكل وفير. كل شيء من الأرز؛ شرابهم الوطني (الساكي)

من الأرز والحلوىٰ من الأرز والأبواب والشبابيك من تبن الأرز المعجون، وحتىٰ الخِفاف في بيوتهم من الأرز. وهي بلد لا يوجد في أرضه معدن من المعادن، ولا نفط طبعًا، ومع ذلك فهي تصنع الطائرات والدبابات وأكبر حاملات النفط ومختلف ما تراه من أجهزة إلكترونية وكهربائية مدهشة، من المعادن ومن اللدائن المنتجة من خام النفط. وأغلب طعام اليابانيين من الأسماك والحشائش البحرية، وقد تساءلت عن السر في غزارة شعورهم وقلة الصلع فيهم فأجابوا بأن السر يكمن في تناولهم «تبن البحر» في وجباتهم. لكن كثرة تناولهم الأسماك وأعشاب البحر أدىٰ إلىٰ أن تكون أعلىٰ نسبة من سرطان المعدة في العالم من نصيب اليابانيين.

اليابان بلد الشاي والزهور. إن لهم طقوسًا وتقاليد في شربهم الشاي؛ فهم يقتعدون الأرض متحلقين بينما تقوم مُعِدة الشاي بجملة من الحركات والانحناءات وتبادلهم التحيات الطيبات وتلاوة بعض الصلوات والدعوات، ثم تسكب الماء الحار في فناجين مزخرفة وتذرّ عليها مسحوق الشاي كأنه الدقيق دون سكر علىٰ الإطلاق. بعدها يفترض أن يتناول الشارب فنجانه ويتأمل النقوش والزخارف علىٰ ظاهره، وهي في العادة ترمز إلىٰ قصة أسطورية، ويبدأ في الثناء عليها مستعرضًا ما عنده من معلومات حولها. ولكي يبدي إعجابه بالشاي وطريقة إعداده لابد أن يرتشف منه بصوتٍ عال، وكلما ارتفع صوت رشفه دل ذلك علىٰ ذوقه ورقة إحساسه ونبله وسعادته!

أما الإحساس بالمسؤولية فتلك مسألة أخرىٰ بالغة الأهمية؛ فقد يبدأ الياباني مجرد حارس ليلي في منشأة ما ولكن له أن يرتقي ببذل الجهد وإظهار الهمة حتىٰ قد يصير مديرها العام. من هنا كانت مؤسسته وتطورها ونجاحها أهم لديه من أبيه وبنيه وأمه التي تربيه[1].

❁ ❁ ❁

(١) علي فهمي خشيم، هذا ما حدث ص ٤٨٢، ٤٨٧.

عندما وصل إلىٰ اليابان في أبريل ١٩٧٢، كان المعهد قد حجز له في فندق تابع «للمركز الآسيوي باليابان»، وهي هيئة شبه حكومية تتولىٰ شئون الدارسين والمتدربين الأجانب، وكان الفندق سياحيًّا يجمع إلىٰ جانب شباب الدارسين من مختلف شعوب آسيا وإفريقيا، شبابًا من أوروبا وأمريكا اللاتينية.

سئم صاحبنا الإقامة في الفندق بعد شهر واحد، ففضلًا عن افتقاده الخصوصية، كان يمثل بيئة أجنبية تمامًا داخل اليابان، وكان معنىٰ ذلك أنه لن تُتاح له فرصة الاحتكاك بالناس والتعرف إلىٰ ثقافتهم عن قرب؛ ولذلك حزم أمره علىٰ الانتقال للسكنىٰ مع أسرة يابانية، وعندما أبلغ سكرتارية المعهد بذلك، علم منهم أن اليابانيين ليس من عادتهم قبول إقامة أجنبي عندهم، كما أن البيت الياباني محدود المساحة لا تتوافر فيه التسهيلات والخدمات التي يجدها بالفندق، لكنه لم يفقد الأمل، وطلب منهم نشر إعلان صغير بصحيفة «أساهي» -كبرىٰ الجرائد الصباحية علىٰ اليابانية - علىٰ نفقته الخاصة يضم ما يخدم الهدف من نشره (أستاذ أجنبي يتحدث الإنجليزية يرغب في الإقامة مع أسرة يابانية - اتصل بتليفون كذا)، ونُشر الإعلان صباح اليوم التالي، وتكلف ثمانين دولارًا (٢٠ ألف ين) ولدهشة سكرتارية المعهد، اتصلت إحدىٰ العائلات في العاشرة صباحًا تبدي استعدادها لقبول إقامة هذا الأستاذ عندها بشرط مقابلته أولًا، ثم اتخاذ القرار بعد المقابلة، وتحدد الموعد في الثالثة من بعد ظهر اليوم التالي.

ذهب صاحبنا بصحبة أحد أفراد السكرتارية في الموعد المحدد ليجد البيت كبير الحجم يصل إلىٰ ثلاثة أضعاف حجم البيت الياباني المتوسط، مكونًا من طابقين (علىٰ شكل فيلا)، وصاحبته أستاذة اقتصاد منزلي متخصصة في الطهي، لديها مدرسة صغيرة ملحقة بالبيت لتعليم الطهي للبنات المقبلات علىٰ الزواج، ولها سلسلة كتب منشورة (باليابانية طبعًا) عن صنوف الطهي في العالم، كما كان

لها برنامج تليفزيوني بإحدىٰ القنوات الخاصة، يقيم معها بالبيت ولدان أحدهما مهندس متزوج، والآخر طالب هندسة علىٰ وشك التخرج، وفي حديقة المنزل كانت هناك فيلًا الصغيرة مكونة من دور أرضىٰ للمعيشة وحجرتين نوم لسكنىٰ ابنتها الوحيدة المتزوجة من مهندس كهرباء.

وقد ارتاحت الأستاذة أوكاماتسو كيوكو -ربة الأسرة - لصاحبنا لأنه مصري (واليابانيون يعرفون عن مصر تاريخها القديم وجمال عبد الناصر)، ولأنه أستاذ جامعي (والأستاذ عند اليابانيين نصف إله). وعلم منها أن الحجرة التي سيقيم فيها هي حجرة زوجها الراحل (الذي مات قبل خمس سنوات)، وأن الهدف من قبول إقامته مع الأسرة، أنها تفكر في زيارة الأسرة لأوروبا في الصيف القادم، وأن وجوده بينهم سوف يساعدهم علىٰ الحديث بالإنجليزية يوميًّا بعض الوقت في مناسبات تناول الطعام وغيرها من المناسبات المتاحة، وهكذا تم الاتفاق علىٰ قيمة الإيجار، وأسعار وجبة الإفطار، ووجبة العشاء (في حالة تناولها مع الأسرة). وانتقل صاحبنا للإقامة مع عائلة أوكاماتسو اعتبارًا من اليوم التالي لهذه المقابلة، وكانت الإقامة مع هذه العائلة نافذةً واسعةً أطل منها صاحبنا علىٰ الحياة الاجتماعية والثقافة اليابانية، وفرصةً نادرة لمشاركة الأسرة نمط حياتها لما يزيد علىٰ العام.

فمن خلال عائلة أوكاماتسو تعرف إلىٰ بعض العائلات الأخرىٰ، وربطته بها علاقة صداقة امتدت سنوات، وزاره بعضهم عندما جاءوا إلىٰ مصر لأسباب تتصل بأعمالهم، وعن طريق عائلة أوكاماتسو تعرف إلىٰ العادات والتقاليد اليابانية والمتاحف المختلفة والفنون الشعبية في احتفالات المعابد الموسمية (التي تشبه الموالد عندنا)، وأتيحت له زيارة بعض المعابد في جبل فوجي، وكان أول أجنبي يُسمح له بدخولها، وشارك في المناسبات العائلية التي لا يُسمح -عادة - لغير أفراد الأسرة وأقربائهم بحضورها.

كانت أم السيدة أوكاماتسو تقيم مع الأسرة، ولا تظهر إلا علىٰ مائدة الإفطار، وهي سيدة جاوزت الثمانين، وكانت تنحني لتحية الضيف الأجنبي، وتتناول الإفطار مع الأسرة، وتحدثه عن بعض ذكرياتها عن عصر مايجي من خلال ترجمة الأسرة، ثم تعود إلىٰ حجرتها فلا يراها إلا صباح اليوم التالي، ويبدو أنها كانت تكتفي بوجبة الغداء، ثم تنام قبل الغروب.

وذات صباح اجتمعت الأسرة حول مائدة الإفطار ومعهم صاحبنا، وكان مقعد «الجدة» خاليًا، فسأل صاحبنا: «أين الجدة؟» فردت أوكاماتسو بابتسامة باهتة: «الجدة ماتت هذا المساء»، فسقطت الملعقة من يده، واغرورقت عيناه بالدموع، فاضطرب الجميع وقال له الابن المهندس وزوجته إنهم كانوا يدركون أنها سترحل لأنها امرأة عجوز، وعبروا عن أسفهم لما سببوه له من حزن لا مبرر له (من وجهة نظر الابن الأصغر طالب الهندسة) لأنه ليس من أفراد العائلة.

قال صاحبنا للأستاذة أوكاماتسو إنه لن يذهب إلىٰ المعهد، وأنه سيبقىٰ معهم للاشتراك في تشييع جنازة الجدة، فأدهشه رفضهم الحاد لأنه لا يجب أن يحضر هذه المناسبة، وشرح له الابن الأكبر الأسباب، فليست هناك جنازة اليوم، بل ستظل الجدة في فراشها حتىٰ صباح اليوم التالي، وسوف يُستدعىٰ أفراد الأسرة من مختلف المدن لقضاء الليل حول سريرها وهي مسجاة فوقه يتذاكرون لها مواقفها معهم، وهم يشربون «الساكي» (نبيذ الأرز) ثم تُنقل إلىٰ المعبد حيث تُحرق الجثة، وكلها إجراءات قصرًا علىٰ أفراد الأسرة والأقارب لا يحضرها أي من الأصدقاء حتىٰ اليابانيين منهم، فعرض عليهم أن ينتقل إلىٰ فندق ليفسح مكانًا للأقارب، لكنهم رفضوا تمامًا لأن كل قريب عليه أن يتدبر أموره، ورجوه أن ينسىٰ الموضوع برمته وأن يمارس حياته اليومية كالمعتاد.

وعندما ذهب إلىٰ المعهد، قص ذلك كله علىٰ زملائه اليابانيين، فاستغرقوا في الضحك من موقفه، وقال أحدهم: إن هذه الواقعة لو كتبها مؤلف ياباني في سيناريو فيلم كوميدي للاقت نجاحًا كبيرًا، وقالوا له: إن الطريقة الوحيدة للعزاء هي شراء ظرف «الميمايكن» (وتعني نقود المواساة) يضع فيه مبلغًا بسيطًا من أوراق النقد لا يكون أربعة أو يقبل القسمة علىٰ أربعة؛ لأن علاقة الأربعة بالتراكيب الصينية تعني الفناء، فإذا قدم أحد نقود المواساة علىٰ هذا النحو كان ذلك تعبيرًا عن شماتته بالميت ورغبته في فناء روحه، فلا يُعاد خلقها من جديد.

اشترىٰ صاحبنا الظرف ووضع بداخله ثلاثة آلاف ين (١٢ دولار بسعر التحويل في تلك الأيام) وذهب في الثالثة من مساء اليوم التالي إلىٰ مكان العزاء أمام منزل نجل المتوفاة، فوجد باقة ورد مستديرة كبيرة خلف منضدة صغيرة عليها صورة المتوفاة وإلىٰ جانبيها طبقان بأحدهما بعض ثمار الفاكهة وبالآخر بعض الزهور، ووقف متلقو العزاء بجوار المنضدة التي وُضع عليها سجل للتوقيعات، واصطف مقدمو العزاء في طابور طويل وجد صاحبنا لنفسه مكانًا فيه، حتىٰ إذا جاء دوره قلد الآخرين فانحنىٰ أمام صورة المتوفاة واضعًا كفيه تحت ذقنه، ثم وقع في سجل العزاء ووضع ظرف نقود المواساة في العلبة التي وُضعت بجوار السجل لهذا الغرض، (وكان أحد أفراد السكرتارية بالمعهد قد تطوع بكتابة اسم صاحبنا علىٰ الظرف بالحروف اليابانية).

ربطت مشاركة صاحبنا في مراسم العزاء بينه وبين نجل المتوفاة «كاناموري» شقيق أوكاماتسو بروابط الصداقة لما يقرب من العشرين عامًا، كان ضابطًا مهندسًا بالجيش الياباني خلال الحرب العالمية الثانية، خدم بالصين ويجيد اللغة الصينية، ويفهم اللغة الكورية، وبعد استسلام اليابان تم حل الجيش، فأصبح بلا عمل، وذاقت أسرته الأمرين، وتقلب في عدة أعمال حتىٰ «التقط فرصته» (علىٰ

حد تعبيره)، فاستفاد من صداقته لأحد الرأسماليين الكبار الذي أسس عددًا من الشركات الصغرىٰ بأسماء أصدقائه حتىٰ يتهرب من الضرائب التصاعدية، كانت إحداها باسم كاناموري الذي استطاع أن يشتريها منه بعد أربع سنوات.

وبذلك أصبح منتجًا لبعض قطع الإلكترونيات التي يزود بها المصانع الكبرىٰ، شأنه في ذلك شأن غيره من صغار المنتجين، لأن الصناعات اليابانية الإلكترونية وشركات صناعة السيارات تعتمد علىٰ الصناعات الصغيرة في سد حاجتها من آلاف القطع التي تدخل في مكونات تلك الصناعات.

كان كاناموري مهتمًا بالثقافات الشرقية عامةً والثقافة الإسلامية خاصة، وكان يتناقش مع صاحبنا كثيرًا حول هذا الموضوع، وحرص علىٰ أن يزور ماليزيا وإندونيسيا وباكستان في شهر رمضان، وأن يخالط المسلمين هناك، وعجب لوجود اختلاف كبير في طقوس الصيام، وما ارتبط به من تقاليد هنا وهناك، ولمح وجود تشابه بين بعض الممارسات الإسلامية، وما اعتاده البوذيون؛ لذلك كان لقاؤه مع صاحبنا حافلًا بالنقاش حول الإسلام، وذلك التلاحم الملحوظ بين حضارات آسيا وثقافاتها.

وقد سمح كاناموري لصديقه بحضور مراسم خطبة ابنته استجابة لطلبه، وكان ذلك عام ١٩٧٨، ولكن الأمر تطلب الحصول علىٰ موافقة أسرة العريس بعد شرح طويل لتبرير السماح لأجنبي بحضور مراسم تقتصر علىٰ أسرتي العروسين ولا يُسمح لأحد بحضورها غيرهم، فأفهمهم كاناموري أن الرجل أستاذ جامعي يدرس الثقافة اليابانية ويريد مراقبة الحدث كحالة للدراسة، ومرة أخرىٰ وافقت أسرة العريس تقديرًا لصاحبنا لأنه أستاذ ومن مصر.

كان العريس باحثًا كيماويًّا بأحد المراكز العلمية تقدم بمعلومات عنه إلىٰ (الخاطبة) وكذلك تفعل العروس وغيرها من طلاب الزواج، فرغم الاختلاط علىٰ

نطاق واسع بين الذكور والإناث، وعلاقات الصداقة التي تجمع البنات والشباب في «فنادق الحب» التي توجد بكثرة حول الميادين الرئيسية والجامعات، لا يفضل الشباب الزواج إلا عن طريق «الخاطبة»، ثم أصبحت هناك شركات متخصصة في الجمع بين الرءوس في الحلال تستخدم الكمبيوتر، فيتقدم راغب الزواج -ذكرًا كان أم أنثىٰ- بملخص لتاريخ حياته، وصور متعددة له بالكيمونو والملابس الغربية، وتقوم الخاطبة أو الشركة المختصة بترشيح اثنين أو ثلاثة للمتقدم أو المتقدمة فإذا وقع القبول علىٰ أحدهم، تمت الاتصالات، ورُتب لقاء في مقهىٰ أو نادٍ يحضره كل طرف وأمه، فإذا حدث توافق بدأت عجلة المراسم التقليدية في الدوران.

وهذا ما تم بالنسبة لكيكو بنت كاناموري، فبعد اللقاء غير الرسمي تحدد موعد طلب يد ابنته رسميًّا.

جلست العائلتان في مواجهة بعضهما البعض علىٰ أرضية حجرة المعيشة (كما يجلس المسلمون في وضع التشهد أثناء الصلاة)، الأب في مواجهة الأب وخلف كل منهما بخطوة واحدة زوجته (الأم) وبجوارها العريس إلىٰ يمينها، أما العروس فجلست متأخرة عن أمها بنصف خطوة إلىٰ يمينها. ووضع والد العريس صندوقًا خشبيًّا صغيرًا أمامه، ظنه صاحبنا علبة حلوىٰ، أما والد العروس فلم يكن أمامه شيء، كانت هناك علبة أصغر حجمًا أمام أم العروس.

بدأ والد العريس الحديث مستعرضًا نسبه من أيام مايجي (القرن التاسع عشر)، ثم تحدث عن نفسه وزوجته وأولاده، وأهم الأحداث التي مرت علىٰ العائلة خيرًا كانت أم شرًّا، ثم تحدث عن ابنه وأهم خصاله وعيوبه، وتدرجه الوظيفي ودخله، ويرد والد العروس بالنظام نفسه في ترتيب عرض تاريخي للأسرة حتىٰ يصل إلىٰ الحديث عن ابنته، ويدعو أمها للحديث، فتحني هامتها وتتكلم وهي مطأطأة الرأس

تنظر إلىٰ الأرض، وتعود الكلمة إلىٰ والد العريس، فيطلب يد البنت لابنه وينحني رافعًا العلبة التي أمامه إلىٰ مستوىٰ الرأس، ثم يسلمها للأب الذي يفتحها وينظر إلىٰ ما بداخلها (وهو سمكة واحدة من نوع معين من السمك المجفف المبروم طول السمكة حوالي عشرين سنتيمتر)، وينحني ثم يستدير جانبًا فيقدم العلبة للأم التي تنحني وتتسلمها، ثم تتناول العلبة الأخرىٰ التي أمامها وتقدمها للأب الذي يعود إلىٰ جلسته الأولىٰ ويسلمها إلىٰ والد العريس، الذي يفتح العلبة وينظر إلىٰ ما بداخلها (وهو سبيط مجفف)، ويتبادل الرجلان كلمة الشكر، ثم يتناول الجميع شراب «الساكي» الذي يحمل معنىٰ الصفاء والود والمشاركة.

كان الجميع قد ارتدوا الكيمونو (الزي الياباني التقليدي)، وكان صاحبنا يجلس في ركن قصي من حجرة المعيشة بنظام جلوس الأسرتين نفسه يرقب المشهد الغريب، والمغزىٰ الواضح في الهديتين المتبادلتين الذي فُسر له بعد الحفل بأنه يعني أن ذكرنا يطلب أنثاكم، فيتسلم السبيط التي ترمز للأنثىٰ، وتعني قبول الطلب.

وحضر صاحبنا مناسبة زفاف مرتين كان أصحابها من باحثي المعهد والجامعة، والحفل يُقام عادة ظهرًا في إحدىٰ القاعات، ولا يزيد عدد الحضور عن ستين فردًا علىٰ الأكثر، ويختار العريس أحد أساتذته ليتولىٰ المراسم، فيلقي كلمة عن مناقب العريس شبيهة بكلمات التأبين عندنا، وتتقدم بعده صديقة العروس (التي تُحدد مسبقًا) فتتحدث عن مناقب العروس، ثم تُعطىٰ الكلمة للعريس، فيروي كيف عرف عروسه، وكانت إحدىٰ الزيجتين عن حب، فذكر العريس كيف عرف العروس وعاشرها لمدة عامين دون أن يجمعهما سقف واحد، ولما كان المعهد سيوفده في مهمة علمية إلىٰ الهند اكتشف أنه لا يستطيع الاستغناء عنها فلم يجد مفرًّا من الزواج بها.

ثم يطلب أصدقاء العريس الكلمة كل يتحدث في حدود ثلاث دقائق، ويغني الحضور أغاني شعبية ذات صلة بالمناسبة ويتناول الجميع الطعام ويشربون الساكي ثم ينفض الحفل بعد ساعتين لينصرف كل إلىٰ حال سبيله، ويقدم لكل مدعو وردة حمراء المفروض أن يقدمها لفتاة يرغب في إقامة علاقة معها تمهيدًا للزواج، أو تقدمها الفتاة من المدعوات للغرض نفسه.

حصل صاحبنا علىٰ الوردة الحمراء في أول حفل زفاف حضره، وحملها معه حتىٰ ركب القطار (مترو الأنفاق) في طريق العودة إلىٰ مقر إقامته، وكانت هناك طفلة في حوالي الثالثة من عمرها فقدم لها الوردة (دون أن يدري مغزىٰ ذلك في التقاليد اليابانية) فإذا بكل ركاب العربة يضحكون، أما أم الطفلة فكادت تفطس من الضحك، وعندما عاد صاحبنا إلىٰ الأسرة التي يقيم لديها شرح لهم ما حدث فانفجروا في الضحك وشرحوا له مغزىٰ إهداء وردة الزفاف، والمطب الذي وقع فيه[1].

---

(١) د. رءوف عباس، مشيناها خطىٰ ص٩٠، ٩٦.

الشعر والشعراء

الشعر

أريد أن أكتب قصتي مع الشعر قبل أن يكتبها أحد غيري، أريد أن أرسم وجهي بيدي، إذ لا أحد يستطيع أن يرسم وجهي أحسن مني، أريد أن أكشف الستائر عن نفسي بنفسي، قبل أن يقصَّني النقاد ويفصّلوني علىٰ هواهم، قبل أن يخترعوني من جديد.

ثلاثة أرباع الشعراء من فيرجيل إلىٰ شكسبير إلىٰ دانته إلىٰ المتنبي، من اختراع النقاد، أو من شغلهم وتطريزهم علىٰ الأقل، ومن سوء حظ الشعراء القدامىٰ، أنهم لم يكونوا يمتلكون دفاتر مذكرات، أما أنا فهذا هو دفتر مذكراتي، سجّلتُ فيه كل تفاصيل رحلتي في غابات الشعر.

ولأني لا أريد أن أدخل غرفة العمليات، وأسلم جسدي إلىٰ مباضع الناقدين، قررتُ أن أظهر علىٰ المسرح بشكلي الطبيعي ووجهي الطبيعي، وأتوجه إلىٰ الجمهور مباشرة بغير وسطاء، وإعلانات حائط وشُبَّاك تذاكر، قررتُ أن أستغني عن خدمات التراجمة، والأدلة وأتجول في مدينة الشعر وحدي؛ لأنني ما دمتُ أملك صوتًا، فلا حاجة بي لكل أشرطة التسجيل[١].

أنا من أُمَّة تتنفَّس الشعر، وتتمشَّط به وترتديه، كل الأطفال عندنا يولدون وفي حليبهم دَسَم الشعر، وكلُّ شباب بلادي يكتبون رسائل حبّهم الأولىٰ شعرًا.

أن يكون الإنسان شاعرًا في الوطن العربي ليس معجزة، بل المعجزة أن لا يكون، نحن محاصرون بالشعر، ومُرغَمون علىٰ كتابة القصائد، كما أرض مصر

---

(١) نزار قباني، قصتي مع الشعر ص١٦.

تحبل بقطنها، وأرض الشام بقمحها، وأرض العراق بتمورها[1].

أول ملاحظة أسجلها هي أنني لا أحفظ شعر غيري، ولا شعري! إنني أجد صعوبة كبيرة في تذكُّر شعري وروايته، وفي الجلسات الحميمة التي يُطلب مني أن أقرأ شعري، أشعر بعقدة الذنب، ويشعر أصدقائي بأنني أتعالىٰ عليهم.. ويبتلعون اعتذاري علىٰ مضض.

الواقع أنني لا ألعب لعبة النسيان، ولكنني بالفعل عاجز عن استحضار قصيدة كتبتها قبل خمس دقائق، وإنني لأشعر بغيرة حقيقية من الشعراء الذين يكفي أن تضغط زرًّا من أزرار ذاكرتهم حتىٰ يبدأوا بالغناء بدقّة شريط مسجَّل؛ لذلك أحمل جميع أوراقي إلىٰ الأماسي الشعرية التي أعطيها، وأتلمسها علىٰ الطريق ورقة ورقة حتىٰ لا أتورَّط.

والسؤال الذي ما زال يلاحقني ويعذبني هو التالي: هل نسيان الشاعر شعره، هو ظاهرة عافية أم ظاهرة مرض، وبالتالي هل الذاكرة الشعرية شرط أساسي في اللعبة الشعرية؟.

أنا أتصور أن كتابة القصيدة شيء وتلاوتها أو استحضارها شيء آخر، فالكتابة بَـرْقٌ لا عمر له، والحفظ ملكة مكتسبة، ورياضة ككل الرياضات التي تكتمل بالممارسة، والذاكرة بكل أنواعها، هي نوع من الارتباط بالماضي، والعودة إليه.

إننا نتذكر أحبابنا لأنهم ذهبوا، ونتذكر أمواتنا لأنهم ماتوا وعلىٰ هذا الأساس لا أحد يتذكر مستقبله.

التذكر التصاق والنسيان انعتاق، وكل قصيدة نكتبها هي إشارة مرور تجاوزناها، بحثًا عن إشارات جديدة، والبقاء عند الإشارات القديمة هو في

---

(١) نزار قباني، قصتي مع الشعر ص٩ـ١٠.

تصوري، نوع من الوقوف على الأطلال يعيق الرحلة وينحر الطموح ويجعل عينيْ الشاعر في مؤخرة رأسه.

وأعترف لكم أنني قليل الوفاء لقصائدي القديمة، فأنا لا أزورها ولا أراسلها، ولا أسأل عنها إلا في الحالات الاضطرارية؛ لأنني أعتقد أن كثرة زيارات الشاعر لقصائده القديمة يعطي هذه القصائد شكل الضريح، ولا أدري لماذا يتملكني الإحساس وأنا أقرأ قصيدة قديمة لي، أنني ألبس قميصًا مستعملًا، أو أسكن فندقًا غير مريح.

إن رواية الشعر هي استعادة حالة، واسترجاع مناخ نفسي من الصعب استعادته؛ لذلك يصعب علي استدعاء زمن خرج من يدي، طبعًا هذا لا يعني أنني أتنكَّر لأعمالي القديمة وأتبرأ منها، كل ما في الموضوع أنني أعتبر أن هذه الأعمال قد لعبت دورها الذي كان مقررًا أن تلعبه وانتهى الأمر[1].

كان صاحبنا مفتونًا منذ الطفولة بقراءة الشعر، وإنه كان يشتري كل كتاب يلمح فيه بيتًا واحدًا، وكان يعتقد في حداثته أن الشعر فن تفرد به العرب، وكان لا يصدق أن من أهل العصر من يحسن القريض، وما زلت أذكر كيف وقف مشرد اللب حيران حين عاد أبوه يومًا من القاهرة ومعه كتاب فيه أشعار منسوبة إلى رجل يعيش بين الناس اسمه حافظ إبراهيم.

ومضى الطفل يسأل المستنيرين من أهل سنتريس عن حقيقة هذا الحادث الخطير فدهش الأكثرون ودمدم فريق منهم قائلين، إن نظم الشعر ليس بالأمر المستحيل[2].



(١) نزار قباني، قصتي مع الشعر ص٢٠٥، ٢٠٨.

(٢) زكي مبارك، زكي مبارك بقلم زكي مبارك . ص٢٣.

قديمًا قال أجدادنا: الشعر ديوانُ العرب، أمَّا أنا فلن أتجاوزَ الحقيقة إذا قلت: الشعر ساحر العرب[1].

۞ ۞ ۞

لقد قال لي الصديق الأديب الدكتور محمد جابر الأنصاري مرة إن «مشكلتي» أنني لا أعتبر الشعر حياتي كلها وأنني شاعر «هاو» أو «غير متفرغ» وقال لي إن الشاعر لكي يكون شاعرًا عظيمًا يجب أن يعتبر وجوده كله مسخرًا لقضيته الأساسية وهي شعره. إنني بالتأكيد لا أنظر إلىٰ الشعر نظرتي إلىٰ هواية كجمع الطوابع أو التحف أو لعب الشطرنج ولكنني بالتأكيد أيضًا أرفض أن أختزل وأختصر وأصنف في كلمة واحدة هي كلمة شاعر.

من هنا فإنني أعتقد أنني في نظرتي إلىٰ الشعر أكثر موضوعية من الشعراء «المحترفين» الذين لا يتصورون لأنفسهم أي معنىٰ خارج إطار الشعر، بل ربما كنت أكثر موضوعية من النقاد المنقطعين لدراسة الشعر وتحليله، هؤلاء وأولئك بمنطق الأشياء يضفون أهمية مبالغًا فيها علىٰ الشعر وعلىٰ مكانه في سنن الحياة ونواميس الوجود.

إن الشعر منظورًا إليه من زاوية معينة، ظاهرة قديمة ثابتة عرفتها كل الشعوب المتمدنة والأمم المتحضرة عبر مراحل تاريخها المختلفة. والشعر يغني الروح البشرية شأنه شأن بقية الفنون الجميلة كالرسم أو الموسيقىٰ، والشعر بالنسبة للشاعر رئة يتنفس من خلالها، وبالنسبة للقراء عالم جميل من النشوة والظِلال والألوان.

هذا كله صحيح وباستطاعتنا أن نقيم عليه الأدلة والبراهين، ولكننا من ناحية أخرىٰ لا نستطيع أن ننكر أن الغالبية الساحقة من بني البشر عاشت وماتت دون أن تسمع كلمة واحدة من الشعر.

---

(١) سليمان العيسىٰ، علىٰ طريق العمر ص٤٤٨.

ومن هنا ندرك شطط الذين يطالبون الشعراء بأن يكونوا قادة الفكر والرأي وضمير البشرية الحيَّ. إن الشعراء ليسوا أكثر ذكاء، ولا أكثر حكمة ولا أكثر أخلاقية ولا أحدَّ بصرًا ولا و أرقَّ إحساسًا من غيرهم من البشر.

كل ما يميز الشعراء عن سواهم هو أنهم يحملون في ضلوعهم تلك الكيمياء العجيبة التي تنتج شعرًا، ولقد كان العرب في الجاهلية علىٰ علم أكيد بهذه الحقيقة؛ ولهذا فإنهم عندما جُوبهوا بمعجزة القرآن كان ردَّهم عليها أن القرآن شعر وأن النبي صلىٰ الله عليه وسلم شاعر.

كان العرب يدركون أن الشاعر من حيث أنه شاعر لا يتطلع إلىٰ ما وراء كتابة الكلام الجميل والمجد الذي يتبع كتابة هذا الكلام الجميل، وكان رد القرآن عليهم ردَّ من يعرف موقفهم تمام المعرفة، أجابهم القرآن أن الشعراء «في كل واد يهيمون» وهم بالفعل يتحدثون عن تجارب مختلفة متباينة دون حرص علىٰ اطراد منطقي ودون مبدأ ثابت أو منطلق واضح، والشعراء «يقولون مالا يفعلون» وهم بالفعل يعتبرون القول غاية تغني عن الفعل. وليس الأمر كذلك مع صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام(١).

❁ ❁ ❁

لما بلغت الرابعة عشرة من العمر تمكّنت لغتي وتقوّت ملكتي وأصبحت أقول الشعر الذي لا أستحي بنسبته إليَّ حتىٰ الآن، وماتت امرأة واصف باشا، متصرِّف لبنان إذ ذاك، فرثاها الشعراء ورثيتها أنا اقتداء بهم، والتماسًا لفرصة أقول بها الشعر، وطبعت المرثية وكان أولها:

أتنكر نبذ النصح في ما تحاوله	**بعذل وباكي العين جارت عوازله**
وتحجو انصباب الدمع ويحك منكرًا	**إذا ديجت خضر الروابي هواطله**

(١) غازي القصيبي، سيرة شعرية ص١٣١، ١٣٣.

ومنها:

أمصرعها يوم الثلاثاء وقد سرىٰ … بها نعشًا كالفلك والدمع حامله

تصعد فيه كل الناس كل شرارة … بما فيه قد ساوت ضحاه أصائله

وكانت القصيدة كلها علىٰ هذا النمط، فنشرت الجرائد من أبياتها، وقالت جريدة «الجنة» يومئذ، وكان ينشرها آل البستاني، إن ناظم هذه القصيدة لم يتجاوز من العمر الرابعة عشرة سنة.

وأنكر كثيرون أن أكون قادرًا علىٰ مثل هذا النظم وقالوا: إنما هي قصيدة من نظم أستاذه نسبها هذا إليه، ولم يكن لذلك القول أثر من الصحة، فلما بلغتني هذه الأخبار نظمت أبياتًا أرسلتُ بها إلىٰ بعض من ظنوا ذلك، أتذكر منها:

وقد يلوح البدر قبل تمامه … ويفوح عرف الورد في الأكمام

وقد سُئِلْتُ مرة أيام كنت في شرخ الشباب: أيهما أحب إليك، النظم أو النثر؟ فأجبت: إني أستحي أن أكون شاعرًا وأفتخر بأن أكون كاتبًا، وما أظن ذلك إلا من كون الشعراء امتهنوا مهنتهم التي هي القريض لذاته، وقصدوا بها مجرد الانتجاع، ومدحوا وذمّا لا حبًّا بالحقائق، بل حبًّا للجائزة وحطام الدنيا، فساءت سيرة الكثيرين منهم وشوّهوا سمعة الشعر من حيث هو، وإلا فالشعر هو بنفسه، لا سيما إذ علت طبقته، هو من ألذ ملاذ الحياة الدنيا وأوقعها في النفوس وأفعلها في إحياء الأقوام وتخليد المآثر علىٰ الأيام، ولقد كنت في أكثر قصائدي المقدمة إلىٰ الملوك أتجنب وصفهم بالكرم[1].



(١) شكيب أرسلان، سيرة ذاتية ص٤٠، ٤٤

حدثني زميل لي بالسنة الرابعة أن شاعرًا كبيرًا في دمياط ويسمىٰ الأستاذ علي الغربي يجتمع بطلاب المعهد وطلاب المدرسة الثانوية في إدارة -الجريدة التي يقوم علىٰ تحريرها - ليستمع إلىٰ قصائدهم حيث يتولىٰ تصحيح ما يحتاج إلىٰ تصحيح، وينشر ما يراه جديرًا بالنشر، فصمّمت علىٰ الذهاب إلىٰ مجلسه، وكنتُ في السنة الأولىٰ مستمعًا فحسب، إذ لم يتيسر لي أن أنظم شيئًا.

وقد سمعتُ منه أن ديوان حافظ إبراهيم أقرب الدواوين للناشئ الصغير وكان في مكتبة والدي، فأحضرتُه معي عند زيارتي الأولىٰ للقرية، وأخذت أجد سهولة في فهمه، وفي حفظ الكثير من أبياته، ثم جاءت العطلة الصيفية فجعلتها خاصة به حتىٰ كدت أتلوه عن ظهر قلب، ورأيت لساني يجيش بالشعر فحاولتُ النظم في السنة الثانية، وعرضت ما أقول علىٰ بعض زملائي، ولكني استحييتُ أن أعرضه في مجلس الأستاذ الغربي، وكان ذلك أَوْلَىٰ كيلا أحرج[1].

۞ ۞ ۞

سيطر عليَّ حفظ القصائد سيطرة تامة، فقصائد علي الجارم وخليل مطران ومحمد الأسمر تنشر تباعًا بالأهرام وقصائد علي محمود طه ومحمود غنيم ومحمود الخفيف ومحمود حسن إسماعيل تنشر في الرسالة وقصائد أحمد الزين وفؤاد بليبل وأحمد العجمي وأحمد محرم تنشر في الثقافة، وكانت قراءة القصيدة مرتين كافية لدي في استظهار أكثر أبياتها، فالذهن في الصبا صفحة بيضاء ينطبع بها ما يروق من رائع القوافي!.

وقد دفعني حبي للقصائد أن أقرأ الدواوين الشعرية في القديم والحديث، وإذا كانت مرحلة القسم الابتدائي قد قصرتني علىٰ الشعراء المحدثين مما ذكرت أسماؤهم من قبل، ونظرائهم في الوطن العربي من أمثال شلبي ملاط وبشارة

(١) د. محمد رجب البيوميّ، ظلال من حياتي ص٢٩.

الخوري وإيليا أبي ماضي والرصافي والزهاوي، فإنني في القسم الثانوي قد سموت إل قراءة دواوين المشهورين من أمثال المتنبي والبحتري وأبي تمام وأبي العلاء، وقد استأثر بميلي الأدبي ديوانان أثيران، هما ديوان الحماسة الذي جمعه أبو تمام، وديوان الشريف الرضي، فديوان الحماسة متنوع الأغراض، ومقطوعاته في أكثرها ذات جذب شديد للقارئ وبخاصة في غرضي الغزل والرثاء، والشرح في الهوامش يلقي الضوء علىٰ اللفظ الغامض فيجلوه،

أما ديوان الشريف الرضي فقد جذبني غزله الوجداني العفيف، وكنت أجهر بتفضيله حين أناقش زملائي في مكانة شعراء العربية من نفسي وهم يخالفونني لأن أساتذتهم لا يعدلون شاعرًا بأبي الطيب المتنبي، وقد قرأت أن حجازيات الشريف تحتل مكانها الجهير لدىٰ الدارسين، فأحضرت كراسة، وجعلت أنقلها في شغف، بل جعلت أترنم بأبياتها، وبخاصة الأبيات المجزوءة ذات الإيقاع الخالب مع المعنىٰ الجاذب مثل قول الشريف:

آهِ مـن جيدٍ إلىٰ الـدار كثير اللفتاتِ وغـرامٍ غيـر ماضٍ بلقاءٍ غيـر آتْ[1]

❖ ❖ ❖

كنتُ أستنسخ الدواوين والكتب الأدبية التي يصعب عليَّ اقتناؤها أو الاحتفاظ بها لفترة طويلة. ويستغرق استنساخ ما اختار من أكبر الدواوين أو الكتب الأدبية ما لا يزيد علىٰ ثلاثة أو أربعة أيام ومن هنا وبحكم المنطق اشتدت رداءة خطي حتىٰ يومي هذا[2]، وكنت استل خلسة الدواوين من مكتبة شقيقي (عبد العزيز)

---

(١) د. محمد رجب البيوميّ، ظلال من حياتي ص١٧٨، ١٧٩.

(٢) من باب «الطرفة»، فقد كتبت وأنا في بداية الثلاثينات من عمري، رسالة إلىٰ عمي الشيخ جواد، في النجف فكان الرد منه علىٰ هذه الرسالة قوله بالحرف الواحد «يا ولدي إذا كتبت رسالة مثل هذه بعد اليوم، فأرجوك أن تجيء معها إليَّ»!! محمد الجواهري ذكرياتي(١ / ٥١).

منتهزًا غيابه لأعيدها قبل أن يحضر. ومع حبي الخاص للشعر الذي بدأ من البيضة، فقد كنت محاطًا بالشعر والشعراء أينما ذهبت، وفي أي بيت دخلته وعرفته كنت أجدهم أمامي: من عهد «امرؤ القيس» في الجاهلية و«الكُمَيت» و«دعبل» في العهد الأموي، وكل عباقرة الشعر في العهد العباسي والعهد الأندلسي، وعهد شعراء المماليك والنموذج الفريد منهم «البهاء زهير» حتىٰ عهد المرحلة التي كنت أعيشها. وما من مناسبة إلا وكان الشعر حاضرًا فيها، يجري كالطعام والماء. فإذا كانت المناسبة فرحًا زغردت القصائد جميلة كالأغاني، وإذا كانت المناسبة حزينة خيمت القصائد مُذكّرة بالحادث الجْلَل أو غير الجَلَل. وبعد هذه المجالس تعود تلك القصائد وأصحابها حديث الناس من جديد حيث يقيم كل ذلك ويجادل فيه، ولتأخذ هذه القصيدة أو هذا الشاعر محلهما من الإعراب في موازين النقد قدحًا أو مدحًا أو فيما بين هذا وذاك.

وكان الشعر متعة المجالس الأثيرة، حيث المطاردات الشعرية التي تمتد ليالي وأيامًا، وفي المقدمة منها مسابقات التقفية الصعبة، حيث يقرأ المتسامرون هذا البيت وذاك ويتركون للآخرين استنباط القافية.

لقد بدأت في هذه المجالس مستمعًا، صغيرًا، مسحورًا بإيقاع الشعر وصوره، ثم أصبحت وأنا أتصاعد شيئًا فشيئًا، فحيثما ذهبت كان أترابي وحتىٰ من درست عليهم يتسلون باختبار حافظتي الشعرية، وكانوا يتلون عليَّ أربعة أو خمسة بل حتىٰ سبعة أبيات، وعليَّ أن أعيدها علىٰ الفور، فأعيدها فعلًا ولمرة واحدة، ويصل الرهان فيما بينهم بهذا الصدد حدًا بعيدًا. فقد تقدم صديق عزيز عليَّ ومن صميم مشابك العروق العائلية في الأسرة، وهو السيد «علي الجصاني»، ووضع أمام عيني ليرة رشادية ذهبية، كنت أحلم بأمثالها وقال: إنها لك إذا حفظت كل هذه الأبيات في يوم واحد! بين إغراء الليرة الذهبية وإغـراء التحدي، أخذت حزمة الورق تلك وفيها

أكثر من أربعمائة بيت من الشعر، أبيح لي فيها عشرون غلطة، البيت بكامله غلطة، والكلمة غلطة. وعدت إلىٰ المجلس في اليوم التالي وبدأت اتلوها عن ظهر قلب وأنا أرىٰ العيون والوجوه من حولي مدهوشة، وقد كانت غلطاتي المفروضة علي دون ذلك، وحين انتهيت كانت الليرة الذهبية في جيبي، وهي تكاد أن تكون كفاف عيش لشهر واحد لمن أراد الكفاف[1].

إنني أتعجب الآن من الجيل الجديد الذي يحاول عبثًا أن يقلد الجواهري مثلًا، أو غيره من الشعراء الذين فرضوا أنفسهم، فيجرب القلم، وربما لأول مرة بسبعين أو ثمانين بيتًا، أي بمستوىٰ قصائدي في الأربعينات أو الخمسينات، أن ذلك لم يحصل عندي بسهولة واذكر أن نفسي الشعري وبالضبط في العشرينات، بدأ يتصاعد، وبدأت القصيدة تطول بحكم الطبيعة والتمعن والعمر.

هكذا كان تفجر الشعر عندي طبيعيًّا. وهكذا كانت الفكرة عندي محدودة ولم تأخذ مجراها المتفرع والأعمق، إلا عامًا بعد عام وهزة بعد هزة وتجربة بعد أخرىٰ[2].

۞ ۞ ۞

كنتُ بدأتُ بنظم الشعر فنهاني عن تعاطيه أستاذي المبارك، وأرادني علىٰ إتقان الإنشاء فقط، وما ينبغي له من الأدوات، لئلا يشغلني الشعر بلذته عن طلب العلم. فصدعت بأمره، وهكذا حرمني شيخي الشعر. ولولا نصيحته لعنيت بهذا الفن وكان لي سلوىٰ وأي سلوىٰ[3].

۞ ۞ ۞

---

(١) محمد مهدي الجواهري، ذكرياتي (١ / ٦٩، ٧٠).
(٢) محمد مهدي الجواهري، ذكرياتي (١ / ١٢١).
(٣) محمد كرد علي، خطط الشام (٦ / ٤١٢).

إني أرىٰ سبب الاندفاع إلىٰ الشعر بفضل مواتاة الطبيعة البشرية . وحين يحاول الشاعر إكراه نفسه علىٰ القول لا يجد نجدة من روح الشعر، فإذا أمسك عن القول ساعات أو يومًا يندهش من سرعة إجابة الشعر، وذلك بفضل معاناة الحالة العقيمة، فيظن أن تلك الساعة مباركة مع أن بركتها جاءت من مواصلة جهوده التي سوف تثمر آجلاً إن لم تثمر عاجلاً، وحكاية الإلهام والإيحاء وحالة الشفافية ترجع إلىٰ مواصلة الجهد وطول قرع الباب.

صحيح أن وجود الأصالة المزروعة في النفس ضروري لخلق الأرومة التي يُغصِن منها الشعر، وليس التثقف وطول المزاولة إلا عوامل صقل وإرغاد، بدليل أن هناك شعراء أنتجوا شعرًا في الخمسينات ووقفوا عند البداية. فلا فرق فيما يقولونه في التسعينات وما قالوه في الخمسينات لانعدام الأصالة أو الموهبة أو الخليقة التي تؤسس المزرع إلىٰ الشعر، وشدة الميل إلىٰ تَتَبُّعه، أما الجهد بلا موهبة فقد يخلق نظمًا متسق الأوزان بما قبل وما بعد، ولكن لايُبدع شعرًا حقيقيًا، يتجدد في النفس كفصول العام[١].

(١) عبدالله البردوني، المذكرات ص٦٥، ٦٦.

الشعراء

المتنبي

• كان أول عهدي بالمتنبي أن والدي -سقىٰ الله ثراه - أهدىٰ إليّ في يوم من الأيام ديوانه، وكنت ما أزال غلامًا يافعًا قد ارتفع قليلًا عن سن الحداثة، فأنا أقرأ القصص وأحفظ المتون، وأتلقىٰ الدروس الأولية في الأزهر، وأُكْثِر من نظم الشعر في المناسبات المختلفة علىٰ معانٍ سقيمة وقوالبَ مشوَّشة.

فأراد أبي أن أستعين بالنظر في هذا الديوان علىٰ تقويم ملكتي وتهذيب طبعي، فأقبلتُ عليه إقبال المنهوم المحروم؛ لأنه الكتاب الوحيد الذي أملك، والغذاء الشهي الذي أحبُّ، والحنان الأبوي الذي أقدِّس، كنت أقرؤه فأدرك موسيقاه بشعوري وإن كنت لا أدرك معناه بعقلي، وأحسُّ أن شعاعًا سحريًّا ينبثق عن سطوره فيغمر القلب بالنشوة، ويرفع النفس بالحماسة، كاللحن القوي ينساب في الأذن الأميَّة نغمًا من غير معنىٰ، وجمالًا من غير تحديد، ووحيًا من غير بيان، ولذة من غير وعي.

ازداد علىٰ الدرس والأيام فهمي للمتنبي، فصار للذوق السَّاذج حجَّة من الفنِّ، وللحب الذي صادف خلاء من القلب وقوة من المنطق.

وكان أستاذنا المرصفي -تغمَّده الله بالرحمة- لا يصحُّ في رأيه أحدٌ من الشعراء المولَّدين، وبخاصة أبو الطيب، فدسَّ في أذواق تلاميذه الكراهة له، والنفور من شعره، وتأثر بذلك الإيحاء رفيقاي طه حسين ومحمود زناتي، وقاومه في نفسي تلك العوامل الأولىٰ فلم أر رأيهما فيه، ولم أمالئ تعصبهما عليه، وما أكثر ما كنَّا

نتمارىٰ في أدبه ونتهاجىٰ بسببه! وما زلنا نتذكر تلك المداعبات الأدبية الأخوية، فنستروح منها شميم الصِّبا الغريض، ونسيم العيش الأبله، ونفح الولاء الخالص.

إن أبلغ ما أثر في نفسي من حياة المتنبي منذ عرفته هي هذه النفسية المعذبة بين الطموح والعجز، وتلك الشخصية المذبذبة بين الوسيلة والغاية.

سمت نفسه منذ أيفع إلىٰ معالي الأمور، ولم يجد معينًا عليها غير المال والقوة، أما القوة فقد التمسها في قيادة الأعراب باسم الدين أو باسم العدالة فأخفق، وأما المال فاحتال عليه بوحي العبقرية وقوة الشاعرية فأصاب(١).

• لستُ أعرف أن للمتنبي نثرًا، وإن شعره لحسبُه، فما يحتاجُ بعد أن قال هذا الشعر أن يصنع شيئًا آخر، أو يجشِّم نفسه جهدًا في باب غيره، ولكني مع هذا أحسُّ بحسرة لأنه لم يشأ أن يترك لنا كتابًا عن مقامه في مصر ورحلته إلىٰ «الأستاذ» كافور! ألا يشعر القارئ معي أن كنوز الأدب العربي ينقصها هذا الكتاب من قلم المتنبي في كافور؟ يا لها من تحفة نادرة ضنَّ بها علينا المتنبي! أتراه لم يخطر له هذا قطُّ؟! فماذا كان يصنع يا ترىٰ حين لا يعالج النظم؟ لقد كان مقلًّا، وليس ديوانه الذي خلَّفه بالذي يستنفد عمر مثله أو جهدَه، فلماذا يا ترىٰ لم يشغل فراغه الطويل بالكتابة؟!

أكان الكلام الجيد لا يؤاتيه إلا منظومًا؛ لأن عواطفه لا تتدفَّق إلا علىٰ لحن، وخواطره لا تنتظم أو تتَّسق إلا علىٰ النغم؟! ربما(٢).

• علاقتي بالمتنبي بدأت مبكرة، أذكر أنني كتبت مقالًا عنه في مجلة الحائط الفصلية عندما كنت في الرابعة عشرة، إلا أنني لم أعجب به إلا تدريجيًّا علىٰ نحو متزايد بمرور السنين، إنني اليوم أشد إعجابًا بالمتنبي مني يوم قرأت ديوانه لأول

---

(١) أحمد حسن الزيّات، ذكرىٰ عهود ص١٢٠، ١٢١.
(٢) إبراهيم المازني، العمر الذاهب ص٩٣.

مرة، بل لعلني اليوم أكثر تأثرًا به مني في البداية، ولا أدري كيف أفسر هذه الظاهرة وهل تدل علىٰ أن شعر المتنبي لا يمكن أن يتذوقه بكل أبعاده إلا من بلغ قدرًا من النضوج والتجربة، أم تدل علىٰ أن المرء يجنح إلىٰ العودة إلىٰ جذوره الأولىٰ كلما تقدمت به السن، أم أن الأمر مزيج من هذا وذاك[1].



البحتري

لئن كان «البحتري» أقل إشغالًا للناس وإملاء للدنيا من «المتنبي» للبون الشاسع بين الشخصين والموقفين والحياتين والمزاجين فهو ومن مدخل آخر الأكثر إشغالًا وإملاءً للطبقات الخاصة المعنية والمتفردة بعنايتها بأمر الشاعر الفنان والشاعر الرسام وبخاصة بالشاعر الذي يحتل المكانة الأولىٰ والعليا في ذلك كله.

لقد كنتُ وما أزال وبما يشبه جمع المتناقضين وأنا الأقرب إلىٰ المتنبي، في كل خصائصه ومفارقاته ومغامراته لا أحرص علىٰ كل دواوين شعراء دنيا العرب من يومِ حفظتُ الشعر وفهمته بمثل ما أحرص وعلىٰ مدىٰ أكثر من خمسين عامًا علىٰ أن يكون «ديوان البحتري» معي في أي رحلة من رحلات العمر مهما قَصُرَت لأيام وأسابيع أو طالت لشهور أو سنين بل وعليّ أن أعيد وأعيد البيت والبيت والقطعة والقطعة والقصيدة والقصيدة وكأنني أتعرف عليها من جديد، وما تزال محفوظة عندي النسخة النادرة بمراجعة العلامة «الشدياق»، التي عنيتُ فيها بما قد لا يخطر علىٰ بال حتىٰ المعنيين بـ«البحتري» نفسه وذلك بأن أجمع فيها من فرائد البحتري

(١) غازي القصيبي، سيرة شعرية ص٣٥.

ما هو مضرب من مضارب الأمثال السائرة والتي يُفترض أن تبقىٰ علىٰ أفواه الناس في كل ما يعنّ لهم من حال أو حال وموقف أو آخر بأكثر بكثير مما هو علىٰ أفواههم من أمثال «المتنبي» لو لم تتغلب علىٰ البحتري بل أن تظلمه سبيكة الذهب من روعة الحرف وبساطته وعمقه[1].

۞ ۞ ۞

أحمد شوقي

• عرفت أحمد شوقي عن عيانٍ سنة ١٩٢٧ في المهرجان الذي أقيم لتكريمه في القاهرة، عرَّفني به الأستاذ محمد كرد علي، وكان قد وفد فيمن وفدوا من أقطاب الأدب وأعيان العرب ليشاركوا مصر في تكريم شاعر العربية العظيم.

فذهبتُ إليه في فندق الكنتنتال أزوره، فوجدته بالشُّرفة جالسًا في قلادةٍ من أولي الفضل يتوسطها شوقي، فلما رآني مقبلًا هش لي ورفَّ عليَّ، وقال لشوقي وهو يبسم ويتهلَّل: هذا هو الرجل الذي أنصفك! فلما استسماني الشاعر النابه عجب الأستاذ كرد علي ألا يكون بيننا تعارفٌ ونحن نعيش في بلدٍ واحد، ونسير في طريق واحد. وسمَّاني له، فتلقاني ببشرِه وشكرِه وأنْسِه.

ثم توثقت بيني وبينه أسباب المودة سنتين كاملتين، رحلتُ بعدهما إلىٰ العراق، وفي أثناء مقامي ببغداد اصطفاه الله لجواره، فم أره بعد ذلك إلا رؤيا، ولم أتمثَّله إلا ذكرىٰ!

توالىٰ اللقاء بيني وبين شوقي بعد ذلك، مرَّة في داره، ومرارًا في محلِّ «صولت»، وكان كلما أنشأ عبقريَّة من عبقرياته أقرأني إياها، وذلك شأنه في جميع

---

(١) محمد مهدي الجواهري، ذكرياتي (١ / ١٤٤).

أطواره يعرض ما يقرض على الآذان المتباينة والأذهان المتفاوتة، ليعلم موقعَه من كل ذوق، وأثره في كل نفس.

وكان أشد ما مكَّن الألفة بيني وبينه مَشَابِه في الطبع، من فرط الحياء، وحبِّ العزلة، وقلة الكلام، والانقباض في النَّدِيِّ الحافل، والابتعاد عن الحفل الجامع؛ فكأنَّ كلًا منَّا كان يرىٰ في الآخر عزاءً عن نقصه، وعوضًا من حرمانه[1].

• تعرفت إلىٰ الشاعر أحمد شوقي في فترة مبكرة عبر المقطوعات التي كنا نحفظها في المدرسة، لكن التعرف الحقيقي كان عن طريق (علي الطنطاوي) الذي سرب إليَّ الإعجاب بشعر شوقي كما صرَّح بذلك في أكثر من موضع من كتبه، وربما ورث هذا الإعجاب بشوقي من بعض أساتذته وخصوصًا: شفيق جبري، الذي ألقىٰ مجموعة من المحاضرات في كلية الآداب، وجُمِعت بعد ذلك في كتاب عنوانه (دراسة عن شوقي) وقال في مقدمة الدراسة:

إن أحمد شوقي شاعر لم يظهر مثله من ألف سنة، وقد تعرَّفتُ علىٰ كثير من شمائل شوقي من خلال كتاب شكيب أرسلان (شوقي أو صداقة أربعين سنة) وقد ذكر فيه أنه هو من أشار علىٰ شوقي بجمع شعره وهو الذي اختار (الشوقيات) عنوانًا لديوانه، وأشار شوقي إلىٰ ذلك في مقدمة الطبعة الأولىٰ لديوانه، وكانت هذه المقدمة حافلة بأبيات في غاية الجمال قالها شوقي في شكيب ثم حُذِفت هذه المقدمة الجميلة بأبياتها فيما بعد ذلك من الطبعات ولا أدري ما السبب، وكان مما قاله شوقي في صَفِي عمره شكيب:

صحبتُ شكيبًا برهةً لم يفُزْ بها ... سوايَ علىٰ أن الصحاب كثير

حرصت عليها آنةً ثم آنة ... كما ضنَّ بالماس الكريم خبير

---

(١) أحمد حسن الزيّات، ذكرىٰ عهود ٣٨٧، ٣٩٠.

فلمـا تسـاقينا الـوفاء وتـمَّ لـي ودادٌ علـىٰ كلِّ الـوداد أميـر
تفـرَّق جسـمي في البـلاد وجسـمُه ولـم يتفـرّق خاطـر وضمـير

وذات مساجلة في السكن الجامعي -وأنا في السنة الأولىٰ - أهدىٰ إليَّ صديق حميم ديوان (الشوقيات) فازددت قربًا من شعر شوقي، وأَسَرني فيه أنه السهل الممتنع، وبهرتني المقدرة اللغوية الهائلة علىٰ التصرف في الألفاظ لتجد طريقها إلىٰ القلوب، وآية إبداعه أنك تكاد تجد شعره علىٰ كل شفة، وعلىٰ كل المستويات[١].

• لقد كان شوقي الشاعر أسوأ من يلقي شعره، وكان أحد شعراء العرب يطوف علىٰ الناس بعد أن ينظم قصائده ليحفظوها ثم يلقوها عليه فيستمتع بسماعها[٢].

• يرجع السبب إلىٰ أن شوقي كان مصابًا بعلتين: العلة الأولىٰ زيغ البصر، والذي ينشد شعره في حفلة مضطر إلىٰ مواجهة الجمهور بعيون ثوابت، وقد تحدث شوقي عن هذه العلة في مقدمة الطبعة الأولىٰ من الشوقيات.

ولم يتحدث شوقي عن العلة الثانية ولم يتحدث عنها أحد ممن وصفوه، وهي علة لاحظتها عليه وقد صحبته مدة طويلة، وهذه العلة هي حبسة في اللسان كانت تعتريه من حين إلىٰ حين بصورة تمنعه من إتمام الحديث، وكان يجد مشقة في النطق وهذا عيب ليس له فيه يد[٣].

• (علي شوقي) ابن المرحوم الشاعر (أحمد شوقي باشا) وهو رجل من أكرم الناس، وعرفت منه أنه لا ينام إلا إذا قرأ شيئًا من ديوان أبيه[٤].

❁ ❁ ❁

---

(١) عبد الرحمن الجرعي، شذرات سيرية ص٦٥، ٦٦.
(٢) يوسف السباعيّ، من حياتي ص١٨٦.
(٣) زكي مبارك، زكي مبارك بقلم زكي مبارك . ص١٤٦.
(٤) يحيىٰ حقي، ذكريات مطوية ص١٥٤.

• كان حافظ إبراهيم من الجواهر التي ما تزال تلمع وتسطع في ذكريات جميع الذين عرفوه. وكان يمتاز أو يتسم بوجه كالح متجهم يصدم بل يخيف لأول نظرة، حتىٰ إذا قضىٰ معه الإنسان نصف ساعة ودَّ لو ينهض ليُقبِّله ويعانقه، فقد كان أنيسًا يحدثك بنكات، بالمعنىٰ العربي القديم لهذه الكلمة، وكان وطنيًّا يطابق بين أمانيه وأماني الدهماء من الفلاحين والعمال والمتوسطين، وأذكر من نكاته أني سألته ذات مرة عن رأيه في أحد الشعراء، فكانت إجابته العجيبة: «إن أشعاره يجب أن تُنسىٰ عن ظهر قلب»، وهو عندي ذكرىٰ تترنم بها نفسي[1].

• عرفت حافظ إبراهيم لأول مرة كشاعر، وأنا تلميذ من تلاوة قصيدته المبكية في رثاء مصطفىٰ كامل رحمه الله، والتي مطلعها:

أيا قبر هذا الضيف آمال أمة ... فكبر وهلل وألق ضيفك جاثيًا

وأذكر إلىٰ جانب ذلك أنه لما توفي حافظ في سنة ١٩٣٢، وجاءت العربة التي تحمل جثمانه من الزيتون، حيث كان يقيم، إلىٰ جوار محطة كوبري الليمون، حيث أقيم سرادق الجنازة، وكنت في لفيف المنتظرين لقدوم النعش، تقدم الشيخ عبد العزيز البشري من العربة حاملة النعش ولمسه بيده، وهو يقول بصوت مبك، «حانروح بعدك فين يا حافظ»[2].



---

(١) سلامة موسىٰ، تربية سلامة موسىٰ ص١٥٠.

(٢) محمد عبد الله عنان، مذكراتي في ثلثي قرن ص٨٤، ٨٥.

• كنا ذات ظهيرة في ربيع البصرة الشهي الدفء نتمشىٰ علىٰ كورنيش شط العرب وقد ارتفع مستواه بفعل ازدياد مياه نهري دجلة والفرات اللذين يلتقيان فيه ويصبان عن طريقه في البحر، وكانت أشجار الكاليتوس السامقة تظللنا ونسيم النهر العريض يحرك أوراقها المعطرة، وكل شيء نظيف وعذب وبدر السيّاب بيننا يلقي أشعاره المشحونة بآلام تحرك أقسىٰ المشاعر ومرَّ بنا بائع للبرتقال يعرض علينا سلته فأخذنا عددًا منها وشرعنا نقشره ونتناوله متمهلين في تذوق عذوبة طعمه في ذلك الجو السحريّ، وإذا بمتسول له يد واحدة، ملابسه الممزقة متسخة عفنة، يقترب منا، فما كان من بدر السيّاب إلا أن قال «هاي لازم يجي واحد ينكد علينه هذه اللذة البسيطة، عبالك يكول ليش تتونسون بالبرتقال وأنا إيدي مكطوعة» (هل لا بد أن يأتي أحد ينكد علينا هذه اللذة البسيطة، كأنه يقول لماذا تتمتعون بالبرتقال ويدي مقطوعة؟)، صمت هاجوب هاروتيان وذهب المتسول وبعد ساعتين ونحن في المقهىٰ، قال هاجوب لبدر: «أتعلم أن معاملتك القاسية للمتسول حجبت عني شعرك في وصف المآسي والآلام البشرية؟ قبل أن يأتي كنت تؤثر فينا بما لاقته «حسناء الكوخ» و«المومس العمياء» من عذاب أما بعد مجيئه فإني أعتقد أنك تلجأ للآلام الضخام من أجل تغطية انعدام المشاركة عندك».

فغضب بدر غضب المحرج وهجم علىٰ هاجوب قائلًا له: إنه لا يمكنه أن يتذوق الشعر العربي أصلًا لكونه أرمنيًّا، غير أن هاجوب لم يهتم بقول بدر وظل صامتًا صمته المترفع، وشيئًا فشيئًا أخذ بدر يصالحه[1].

---

(١) نجيب المانع، ذكريات عمر أكلته الحروف ص٦٩، ٧٠.

• حين كنت نائب رئيس تحرير مجلة العربي أرسل لي بدر شاكر السياب قصيدة، مرفقة برسالة منه يذكر أنه يريد نشرها ويطلب إرسال مكافأتها له ليشتري بها دواء فقد كان مريضًا مرضه الأخير، قرأتها فلم أفهمها، فعرضتها علىٰ الدكتور أحمد زكي، وبعد أن قرأها سألني: هل فهمتها؟ قلت : لا، قال: إذن لمن سننشرها؟! ولم تنشر، وأرسلنا له المكافأة وكانت المفاجأة أن الكتاب المُسجل المرسل إليه وبداخله الشيك، رُد إلينا دون أن يُفتح، وقد كُتِب عليه «المذكور قد تُوفي». وقد تُوُفِّي السياب بعد هذا التاريخ بأكثر من شهر!![1]



الجواهري

• في صباح يوم ١٤ كانون الأول عام ١٩٤٤ رأيت الجواهري بأم عيني لأول مرة واستمعت إليه وسُحِرتُ بإنشاده، وكان في كامل عنفوانه وشبابه وطريقة إنشاده وروعة قصيدته بصوته النجفي المحبب وسحر الحاضرين وخلب ألبابهم فراحوا يهللون ويستعيدون ويتنهدون، وعندما انتهىٰ من إنشاده ساد هدوء عميق سبق عاصفة توديعية، وهو يغادر مسجد الشيخ عبد القادر الكيلاني فقد تجمهر معظم أهالي باب الشيخ فخورين، حتىٰ أنهم أهملوا الكاتب المعروف إبراهيم المازني أحد المشاركين في الحفل، وكان المازني يعمل آنذاك أستاذًا للأدب العربي في بغداد.

وأذكر أن الجواهري عندما نشر قصيدته (أطل مكثًا) في جريدة الرأي العام وهو مؤسسها وصاحبها نفدت الجريدة بعد ساعات قليلة من صدورها، وبحثت عنها في كل مكان ولكنني لم أجدها، وعندما هدني التعب دلفت إلىٰ مقهىٰ

---

(١) محمود السمرة، إيقاع المدىٰ ص١٢٢.

شعبي وجلست بجوار رجل كان يبدو عليه الحزن والوجوم وإذا بي أجد (الرأي العام) بجانبه، فاستعرتها منه وبدأت بقراءة القصيدة، وعندما انتهيت من القراءة نظرت إلىٰ حيث كان يجلس الرجل، فلم أجده فشعرت بفرح عميق لأن الجريدة أصبحت ملكي.

وعندما نُشِرتْ المقصورة وهي أجمل مقصورة في الشعر العربي تدافع الناس وكادوا يحتربون من أجل الحصول علىٰ نسخة من الجريدة، وهكذا كان شأن القراء في التعامل مع شعر الجواهري فلقد كان لهم الزاد والماء والضوء في تلك السنوات العجاف[1].

• في سن الرابعة عشرة اكتشفت شاعرًا مفضلًا ثالثًا هو محمد مهدي الجواهري وعندما أعود اليوم إلىٰ قصائدي الوطنية الأولىٰ أجد تأثير هذا الشاعر واضحًا ملموسًا، وقد كنت أعجب إعجابًا خاصًا بالقصيدة الشهيرة في رثاء أخيه، ومطلعها:

أتعلـم أم أنـت لا تعلـمْ بـأن جـراح الضحايـا فـمْ؟

وما أزال حتىٰ اليوم أعتبرها درة من درر الرثاء، وشعر الرثاء لصيق بقلبي، وجوهرة من جواهر الشعر العربي قديمه وحديثه[2].

• جاء الشاعر محمد مهدي الجواهري إلىٰ الأردن ليقيم فيه، فاستضافته وزارة الثقافة، وتعهدناه في الوزارة بالرعاية، فاستأجرنا فيلا مؤثثة له في حي هادئ، وأخذت أدعوه مع عدد من الإخوة الأدباء والصحفيين، والمهتمين بالأمور العامة،

---

(١) عبد الوهاب البياتيّ، مدن ورجال ومتاهات ص٥٣، ٥٤.
(٢) غازي القصيبي، سيرة شعرية ص٣١، ٣٢.

ونظم قصيدة مَدَح فيها جلالة الملك الحسين مطلعها: «يا سيدي أسعف فمي»[1]، وكانت المفاجأة أن أحد الأدباء كان يعرف القصيدة وأنه سبق للجواهري أن قالها، أو قال بعضها في مدح الأمير فيصل الأول، ولم يرحم الكُتّاب الجواهري، فوجهوا إليه نقدًا شديدًا، إن سقطة الكبير كبيرة! ولكن ما قيل حول هذه القصيدة نص عليه الجواهري في قصيدته، إذ ضمنها ثلاثة أبيات سبق أن قالها في فيصل الأول فقال:

حِجَجٌ مَضَتْ وأُعيده في هاشم — قولًا نبيلًا يستميح نبيلا

يا ابن الذين تنزَّلتْ بِبُيُوتهم — سُوَرُ الكتاب ورُتِّلت ترتيلا

الحاملين من الأمانة ثُقْلَها — لا مُصْعِرِين ولا أصَاغِرَ مِيلا

والطامسين من الجهالة غيها — والمُطْلِعِين من النُهَىٰ قِنْدِيلا

وأخذ الجواهري يكثر من الاتصال بي ليل نهار مرعوبًا، ويروي لي أن هناك من يهددون حياته، وأصبح قلقًا خائفًا، وجاءني يوم ليستأذنني في السفر إلىٰ دمشق لكي يزوج ابنته، فتمنيت له سفرًا سعيدًا، ولم يعد[2].

❁ ❁ ❁

عمر أبو ريشة

كان لقائي بعمر أبو ريشة نقطة تحول في مساري الشعري ولعلي لا أعدو الحقيقة إذا قلت إنني تأثرت به أكثر من أي شاعر آخر، وعندما أسعدتني الظروف بمقابلة عمر أبو ريشة قدَّمت نفسي إليه علىٰ أنني تلميذ من تلاميذه ولم أكن أبالغ أو أجامل، بُهِرْتُ بقصائد أبو ريشة ووجدتُ نفسي أمام شعر جديد بطعم جديد ونكهة

---

(١) ذكر سليمان موسىٰ في سيرته الذاتية (ثمانون) ص١٦٩: «قد شاهدتُ ذات يوم منظرًا لا يُنسىٰ، يوم ألقىٰ الجواهري قصيدته «أسعف فمي..» في امتداح الملك حسين، إذ رأيتُ الرؤوس تتمايل طربًا وإعجابًا».

(٢) محمود السمرة، إيقاع المدىٰ ص١٨٩.

جديدة، لقد استمر إعجابي بعمر أبو ريشة قويًّا علىٰ مدىٰ السنين وإن كنت أعتقد أن تأثيره في قصائدي الأولىٰ كان أوضح من تأثيره في قصائدي في المرحلة الثانية[1].



مصطفى حمام

كان مصطفىٰ حمام لا يأتيه وحي الشعر -كما قال لي مرة - علىٰ أروع ما يكون إلا وهو علىٰ المائدة. كان مرة في إحدىٰ هذه «العزومات» وكان معه الشاعر محمود غنيم، وقبل الغداء تحفز شيطان غنيم فهجا حمام بأبيات مقذعة، ولم يستطع حمام أن يرد عليه، فقال له أحد الحاضرين: هكذا يغلبك الأستاذ غنيم!، فقال حمام: انتظر حتىٰ يحضر الغداء وسأريه كيف يكون الهجاء[2]!.



العقاد

العقاد رحمه الله شاعر. وفي شعره خشونة منشؤها من أسباب عدة أولها التجديد. نظر في أصناف الشعر الإنجليزي فراعته وسيء من غرور شوقي فجعل يتحداه بنوع من تقليده لأن شوقيًا كان مجددًا وكان شوقي يجدد ليضيف إلىٰ العربية من فنون الفرنسية كما آل إسماعيل أرادوا أن يضيفوا إلىٰ بهاء الدولة الإسلامية طابعًا أوروبيًّا.

---

(١) غازي القصيبي، سيرة شعرية ص٣٢.

(٢) عباس خضر، ذكرياتي الأدبية ص١٥ - ذكر الدكتور علي فهمي خشيم: أن الشاعر الرقيعي قال له: «أتدري أين أختلي بنفسي لأكتب قصيدة عنَّت لي وأحتاج إلىٰ مكان أختبئ فيه من الضجيج؟»! يسألني فأجيب متسائلًا: «أين؟ في المكتب؟ في صالة الجلوس؟ في حديقة منزلك العامر؟». فيضحك ساخرًا ويقول: «تحت السرير يا صاحبي». (هذا ما حدث د علي خشيم ص٣١).

وما عمد العقاد إلىٰ تقليد الشعراء الإنجليز إلا ليحقق نظريته في وثبة البيت وعطف القصيدة وتعاطفها. الإنجليز يعرفون القصيدة والعرب لا يعرفون وحدة القصيدة ولكن وحدة البيت. وهذا وهم كبير. والقصيدة وحدة متماسكة. وقف امرؤ القيس علىٰ أطلال الأحباء فجاء السيل فذهب حتىٰ بما وقف عليه، ولو فطن العقاد إلىٰ هذا ما كان ليضني نفسه بمقدمات تطول وتفصيل وتحليل.

كل هذا تكلف ما كان أغنىٰ العقاد عنه ولولا فتنته بأن ينظم القصيدة كما تنظم وحدة القصيدة الإنجليزية، وكان حسبه لو اكتفىٰ بقوله:

ذهبي الشعر ساجي الطرف حلو اللفتات وحيي لا يحيك بغير البسمات[2]

(١) عبدالله الطيب، من نافذة القطار ص ١٢٦، ١٣٣.

الرواية

أثناء نشأتي لم تكن الرواية ذات سيطرة واضحة علىٰ الميدان الأدبي العربي، وكنت لا أجد رواية عربية تستحق مني الاهتمام والدراسة إلا استثناءات يسيرة وكان مفزعي في القراءة إلىٰ الروايات المكتوبة بالإنجليزية، ومع الزمن أصبحت الرواية في حياتي هي الظل المريح الذي أفيء إليه من تعب البحث. فإذا تحوّلت الرواية في حياتي إلىٰ موضوع للدراسة تطلبت مني -لدراستها - بعد أن بدأت ذاكرتي تضعف، أن أعيد قراءتها مرتين أو ثلاثًا أو أكثر، وهذا أمر معجز، ولهذا بقيت قارئًا مدمنًا للرواية، ولكني أحجم عن جعلها موضوعًا للنقد والدراسة[١].

❁ ❁ ❁

أعجبتني بشكل خاص -في فترة مبكرة من قراءاتي الأدبية- روايات الكاتب والروائي الإسلامي نجيب الكيلاني، فقرأت معظم رواياته التاريخية منها والمعاصرة، وأعجبتني بشكل خاص الروايات المعاصرة التي تحكي مآسي المسلمين، مثل (عمالقة الشمال) وهي خاصة بنيجيريا، والصراع مع النصارىٰ لطمس الهوية الإسلامية، وهو يركز علىٰ جهود (أحمد بيللو) ذلك المناضل الكبير، وأعجبتني كذلك رواية (ليالي تركستان) التي تصف جحيم الشيوعية في الجمهوريات الإسلامية و(عذراء جاكرتا) عن قضية إندونيسيا وصراع الهوية وغيرها، فرواياته تجاوزت الأربعين رواية.

وقد فرحتُ بروايات نجيب الكيلاني أيما فرح، لأني وجدت فيها النفس الإيماني واضحًا. والكيلاني روائي متمكن شهد له بذلك كبار الأدباء ومنهم نجيب محفوظ، رغم أنه مهضوم إعلاميًّا، وربما لتبنِّيه منهج الأدب الإسلامي في أعماله

(١) إحسان عباس، غربة الراعي ص٢٣٠.

الذي لم يكن معروفًا حينذاك أو لم يكن مُرحّبًا به، بل إن كثيرًا من الشباب الذين لهم اشتغال بالعلم والدعوة لم يقرؤوا له شيئًا، وتلك قصة أخرىٰ[1].



الرواية فنٌّ ساحر قلَّما يوجد من يستطيع النجاة من غواياته المدهشة، وهذه حقيقة لها أسبابها الكثيرة وفي مقدمتها المقدرة التأثيرية للرواية في عقول القارئين إلي جانب شيوع اسم الروائيين العالميين وارتقائهم لمصاف النجوم العالميين؛ لكن هذه الغواية الروائية مهلكة وينبغي الحذر من تبعاتها السلبية[2].



أعيش فكرة الرواية شهورًا أو حتىٰ عامًا كاملًا أو أكثر وأتمتع بالفكرة وانبثاق الشخصيات في مخيلتي وكأنني في رحلة شيقة، أتجنت قراءة الروايات خلال الإعداد لروايتي الجديدة فاقرأ كتبًا متنوعة كثيرة تمدني بمعلومات معينة تاريخية أو علمية أو نفسية أو اجتماعية تخص أنماط الشخصيات التي اخترتها للعمل عليها، ثم أبحث عن طرز الملابس وأنواع الأقمشة والأطعمة والعادات الاجتماعية في فترة أحداث الرواية، وأسجل المعلومات في دفتر خاص أعود إليه عندما أشرع عمليًّا بالكتابة.

عندما أبدأ العمل في رواية بوتيرة متواصلة أصحو في حدود الرابعة فجرًا عندها يكون الذهن في أصفىٰ حالاته، وأكتب بتدفق ممتع، وعند الثامنة أتناول فطوري وأعود للعمل وأغلق هاتفي غالبًا وأخبر المقربين بأنني بخير لكني لن أرد علىٰ المكالمات ولا أستجيب لأي مغريات بعيدًا عن منضدة الكتابة[3].

---

(١) عبد الرحمن الجرعي، شذرات سيرية ص٦٠، ٦٢

(٢) لطفية الدليمي، عصيان الوصايا ص٤٢.

(٣) لطفية الدليمي، عصيان الوصايا ص٤٥ - ٤٦.

بيني وبين أختي

توفيت والدتي بعد أن أصيبت بالزائدة الدودية التي لم تكن معروفة آنذاك، وكان ذلك في يوم الخميس؛ ونظرًا لعدم وجود مستشفيات في ذلك الوقت، فقد توفيت صباح يوم الجمعة، حيث لم يمهلها المرض أكثر من عشرين ساعة، كان الموت صدمة لوالدي وأختي الكبيرة فاطمة ذات الاثني عشر عامًا، ولا سيما أن والدتي تركت رضيعة في شهرها الخامس، وأخي عبد الله في سنته الثانية وأنا في الرابعة من العمر وأخي محمد في السابعة، وأخي علي في التاسعة، أي إننا سنكون عبئًا كبيرًا علىٰ أختي الكبرىٰ، ووالدي ما يزال في مرحلة الاستشفاء بعد معاناته من المرض، وكانت جدتي طاعنة في السن، وتحتاج إلىٰ من يرعاها، ولكن أشقاء والدي وزوجاتهم وبناتهم كانوا يسعون لخدمتها، لقد قاسينا اليتم حقًّا بعد وفاة والدتي[1].

كانت أختي فاطمة بمنزلة الأم والأخت بعد وفاة والدتي، كنت أحبها كثيرًا، وأتألم عندما أراها حزينة، كانت تعتني بي كثيرًا، وتودعني صباح كل يوم عند ذهابي للمدرسة، وتوصيني، وتنصحني.

عام ١٩٥١م تقدم شخص لخطبة أختي فاطمة، فاجتمع والدي معنا، وأخبرنا بذلك علىٰ الرغم من أننا في سن الطفولة، وكان وقع هذا الخبر كالصاعقة؛ لأنني سأفقد أمي وأختي التي كانت تبعث في نفسي السعادة والأمل، ولم أنم طوال تلك الليلة من الحزن، وكنت أفكر في حياتي بعد زواجها، حتىٰ إن كانت في أبها، فسوف تكون في منزل آخر، كنت أفكر في الشخص الذي سيرعاني بعدها، ومن سيودعني صباح كل يوم وأنا ذاهب إلىٰ المدرسة.

---

(١) د. جابر سالم القحطاني، حياتي ص١٦.

تزوجت وتركت فراغًا كبيرًا في حياتي أكبر من فراغ موت والدتي. تعودت بعد زواجها أن أعتمد علىٰ نفسي، وكانت دائمًا عندما تزورنا تتفقد أغراضي وتعطيني كمًّا كبيرًا من النصائح، أذكر عندما ذهبت للدراسة في جدة كنت أدّخر من مكافأتي الشهرية (راتب الغربة) لأشتري هدية لأختي فاطمة، فقد أهدتني الحب والأمل والصبر، جمعت مبلغًا لا بأس به، وتوجهت للصاغة في جدة بعد انتهاء الدراسة، واشتريت سوارًا من الذهب، وعند عودتي لأبها ذهبت إليها وأعطيتها الهدية، فبكت كثيرًا وضمتني، كم كانت سعادتي كبيرة بفرحتها(١).

۞ ۞ ۞

عند التحاقي بكلية سانت جوزيف لم أعرف أي خيار آخر للدراسة العليا غير دراسة بكالوريوس العلوم، كما أنه لم تكن لدي معلومات حول فرص العمل المتاحة لطلبة العلوم، ولم أدرك أن الفيزياء لم تكن مادة مناسبة لي إلا بعد حصولي علىٰ شهادة البكالوريوس في العلوم، وكان علي أن أدرس الهندسة لتحقيق أحلامي، حيث كان بوسعي الالتحاق بالهندسة قبل وقت طويل فور انتهاء دراستي الثانوية، قلت في نفسي: إن التأخير في شيء خير من عدمه فالتحقت بمعهد مدارس للتكنولوجيا الذي كان يعتبر معهدًا ممتازًا للتعليم التقني في جنوب الهند آنذاك.

استطعت أن أنجح في امتحان القبول ولكن الالتحاق بهذا المعهد العظيم باهظ التكاليف، إنني أحتاج إلىٰ ألف روبية علىٰ الأقل ولم يكن باستطاعة والدي أن يوفر لي هذا المبلغ فساعدتني أختي زهراء ورهنت أساورها وقلادتها الذهبية، تأثرت كثيرًا بتصميمها علىٰ أن تراني متعلمًا إضافة إلىٰ ثقتها بقدراتي، قطعت علىٰ نفسي عهدًا بأنني سأعيد أساورها بالمال الذي سأجنيه بنفسي، فالطريق الوحيد الذي

---

(١) د. جابر سالم القحطاني، حياتي ص٢٩، ٣٠.

ظهر أمامي في تلك الأيام هو أن أجتهد في الدراسة وأحصل علىٰ المنحة الدراسية فتقدمت إلىٰ الأمام تقدمًا سريعًا[1].

❁ ❁ ❁

خلال العامين الدراسيين اللذين قضاهما أخي إبراهيم في الجامعة ببيروت عشت علىٰ رسائله التي لم يقطعها عني، والتي كان يوجهني من خلال سطورها، ويشجعني علىٰ نظم الشعر وكتابة النثر والدراسة.

كان قد اختار لي مجموعة من الكتب للمطالعة والتثقيف الذاتي، ولقد نظمّت أوقاتي ضمن برنامج وضعته لنفسي، كرست ساعات الفجر لدراسة قواعد النحو والصرف، وقد أتممت جميع أجزاء (النحو الواضح) تأليف علي الجارم ومصطفىٰ أمين، أتممتها كلها جزءًا جزءًا، من المرحلة الابتدائية حتىٰ آخر المرحلة الثانوية بما في ذلك (البلاغة الواضحة) لنفس المؤلفين.

وإذا كنت قد خصصت ساعات قبل الظهر لحفظ الشعر مع القيام بأعمال المنزل في آن واحد، فقد كرست ساعات بعد الظهر للمطالعة المركزة.

في تلك السنوات ما بين ١٩٣١ - ١٩٤٠ قرأت البيان والتبين للجاحظ و«الكامل» للمبرد، وأمالي القالي والعقد الفريد، وكثيرًا ما غصت في كتاب (الأغاني) لأبي الفرج كما قرأت كتب العقاد (الفصول) و(ساعات بين الكتب) و(مطالعات في الكتب والحياة)، وكذلك قرأت طه حسين، وأحمد أمين وبالذات «فجر الإسلام» والأجزاء التي تلته. ولفترة غير قصيرة أصبح عندي اهتمام بقراءة مصطفىٰ صادق الرافعي من جهة ومي زيادة من جهة أخرىٰ وذلك بعد أن تابعت سلسلة مقالات محمد سعيد العريان في مجلة (الرسالة) المصرية عن حياة الرافعي وقصة حبه مع مي زيادة.

---

(١) زين العابدين عبد الكلام، أجنحة من نار ص٣٣.

كنت شديدة الإعجاب والحب لأدب محمد حسن الزيات، وقد تأثرت بأسلوبه لفترة زمنية غير قصيرة، كانت ترجمته «لآلام فرتر» قد أوقعتني في شباك أسلوبه، وحفظت عن ظهر قلب كل «نشيد أوسيان» في تلك القصة الرومانسية المؤثرة، لقد كانت لدي القدرة علىٰ حفظ الشعر والنثر، واذكر أنني حفظت عدة مقطوعات أدبية مسجوعة لأحمد شوقي من كتابه «أسواق الذهب» كما كنت أحفظ خطب النشاشيبي والكثير من «نقل الأديب» الذي اختاره من تراثنا الأدبي ونشره بالتتابع في مجلة «الرسالة» الأسبوعية، تلك المجلة التي أصبحت مع مجلة «الثقافة» زادًا روحيًّا لا غنىٰ لي عنه كل أسبوع.

منذ البداية حذرني أخي إبراهيم من حفظ الشعر الحديث باستثناء بعض قصائد لشوقي وحافظ إبراهيم وإسماعيل صبري وخليل مطران كان هو يختارها لي ويوصيني بحفظها، كانت الرومانتيكية هي الاتجاه الغالب علىٰ شعراء الشباب العرب في تلك الفترة، ولم يكن يرضي ذوق إبراهيم الفني ما كان ينشر في الصحف والمجلات الأدبية من شعر لهؤلاء الشعراء المحدثين، لقد كان للتراث قداسة في وجدان إبراهيم، فقد كان ابنًا لجيل فتح عيونه علىٰ حركة إحياء كبيرة للتراث وذلك بنشر وابتعاث قيمه الفنية، كقوة السبك ونصاعة العبارة ورونق الديباجة، ابتداء من البارودي في مطلع عصر النهضة ومرورًا بشوقي ومعاصريه من شعراء مصر والعراق ولبنان وسوريا، فكان شعر الشباب المنتمين في ذلك الحين إلىٰ مدرسة «أبولو» مثله مثل الشعر المهجري في نظره، ضعيفًا ركيك الأسلوب، ولا يرقي إلىٰ مستوىٰ التعبير الشعري الجزل والمميز للتراث الشعري القديم، كان يلفت نظري دائمًا إلىٰ أن متانة تركيب الجملة الشعرية والتمكن من ناصية اللغة لن يتوفرا للشاعر دون العودة إلىٰ الينابيع الأصيلة للشعر العربي، يعني التراث.

التصقت بهذا التراث الشعري سنين عديدة ظل خلالها هو النموذج الذي أحتذيه في محاولاتي الشعرية علىٰ امتداد الفترة ما بين ١٩٢٠ و١٩٣٤ ، وظل اهتمامي ينصب علىٰ ما يسمىٰ بالديباجة والتعابير الفخمة.

لكم شعرت بالزهو والاعتزاز حين رأيت الدكتور عمر فروخ صاحب مجلة «الأماليّ» البيروتية يقدم لإحدىٰ قصائدي المنشورة في مجلته بقوله: «هذه أبيات لشاعرة ناشئة، وفي الوقت الذي نرىٰ كثيرين من الرجال ينظمون شعرًا مؤنثًا رقيقًا، نرىٰ فتاة في الخطوات الأولىٰ من حياتها تعيد إلىٰ خيالنا ذكرىٰ أبي تمام والمتنبي وتطلع علينا بديباجة شوقي»[1].

❁ ❁ ❁

من ذلك اليوم استقر الحزن العميق في هذه الدار وأصبح إظهار الابتهاج أو السرور بأي حادث من الحوادث شيئًا ينبغي أن يتجنبه الشبان والأطفال جميعًا، من ذلك اليوم تعود الشيخ ألا يجلس إلىٰ غدائه ولا إلىٰ عشائه حتىٰ يذكر ابنه ويبكيه ساعة أو بعض ساعة، وأمامه امرأته تعينه علىٰ البكاء، ومن حوله أبناؤه وبناته يحاولون تعزية هذين الأبوين فلا يبلغون منهما شيئًا فيجهشون جميعًا بالبكاء.

من ذلك اليوم تعودت هذه الأسرة أن تعبر النيل إلىٰ مقر الموتىٰ من حين إلىٰ حين، وكانت من قبل ذلك تعيب الذين يزورون الموتىٰ، ومن ذلك اليوم تغيرت نفسية صبينا تغيرًا تامًا، عرف الله حقًّا، وحرص علىٰ أن يتقرب إليه بكل ألوان التقريب: بالصدقة حينًا وبالصلاة حينًا آخر وبتلاوة القرآن مرة ثالثة.

ولقد شهد الله ما كان يدفعه إلىٰ ذلك خوف ولا إشفاق ولا إيثار للحياة، ولكنه كان يعلم أن أخاه الشاب كان من أبناء المدارس، وكان يُقصِّر في أداء واجباته

---

(١) فدوىٰ طوقان، رحلة جبلية رحلة صعبة ص٨٠، ٨٩

الدينية، فكان الصبي يأتي ما يأتي من ضروب العبادة يريد أن يحط عن أخيه بعض السيئات، كان أخوه في الثامنة عشرة من عمره، وكان الصبي قد سمع من الشيوخ أن الصلاة والصوم فرض علىٰ الإنسان متىٰ بلغ الخامسة عشرة، فقدّر الصبي في نفسه أن أخاه مدين لله بالصوم والصلاة ثلاثة أعوام كاملة، وفرض الصبي علىٰ نفسه ليصلين الخمس في كل يوم مرتين: مرة لنفسه ومرة لأخيه! وليصومن من السنة شهرين: شهرًا لنفسه وشهرًا لأخيه، وليكتمن ذلك عن أهله جميعًا وليجعلن ذلك عهدًا بينه وبين الله خاصة، وليطعمن فقيرًا أو يتيمًا مما تصل إليه يده من طعام أو فاكهة قبل أن يأخذ بحظه منه، وشهد الله لقد وفىٰ الصبي بهذا العهد أشهرًا وما غيَّر سيرته هذه إلا حين ذهب إلىٰ الأزهر.

من ذلك اليوم عرف الصبي أرق الليل. فكم أنفق سواد الليل كاملا يفكر في أخيه أو يقرأ سورة الإخلاص آلاف المرات ثم يهب ذلك كله لأخيه، أو ينظم شعرًا علىٰ نحو هذا الشعر الذي كان يقرؤه في كتب القصص يذكر فيه حزنه وألمه لفقد أخيه، معنيًّا بألا يفرغ من قصيدة حتىٰ يصلي في آخرها علىٰ النبي واهبًا ثواب هذه الصلاة لأخيه.

نعم! ومن ذلك اليوم عرف الصبي الأحلام المروعة، فقد كانت علة أخيه تتمثل له في كل ليلة، واستمرت الحال كذلك أعوامًا، ثم تقدمت به السن وعمل فيه الأزهر عمله، فأخذت علة أخيه تتمثل له من حين إلىٰ حين، وأصبح فتىً ورجلًا وتقلبت به أطوار الحياة، وإنه لعلىٰ ما هو عليه من وفاء لهذا الأخ، يذكره ويراه فيما يرىٰ النائم مرة في الأسبوع علىٰ أقل تقدير.

ولقد تعزىٰ عن هذا الفتىٰ إخوته وأخواته، ونسيه من نسيه من أصحابه وأترابه، وأخذت ذكراه لا تزور أباه الشيخ إلا لمامًا، ولكن اثنين يذكرانه أبدًا، وسيذكرانه أبدًا أول الليل من كل يوم، هما: أمه وهذا الصبي[1].

(١) طه حسين، الأيام ص١٠٩، ١١

رفيقة عمري

الحياة الهانئة الراضية الرخية ربح كبير في حياة البشر، والاستقرار هدف ووئام، وحسب اثنين أن يهنآ بحياتهما الخاصة في توافق وود وحنان، وصدق الله القائل: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الروم: ٢١] وأنا مدين لهذه الزوجة الصالحة الفاضلة دينًا لا حد له، ولا يقابله شيء مهما قلت ومهما فعلت، وأرجو الله الذي لا يضيع أجر من أحسن عملًا، وأن يجعل صنيعها نحوي ونحو أولادي في ميزان حسناتها، وأن يجزيها خير الجزاء إنه هو البر الرحيم، والتعبير عن وفائي ومشاعري أثبتها هنا وفاء بوفاء، ووددًا بوداد، ردًّا لبعض الجميل[١].

۞ ۞ ۞

قصة صاحبنا مع هذه الزوجة الجليلة تستحق أن تُروىٰ ليتعلم منها شباب اليوم الذين لا يصمدون في مواجهة صعوبات الحياة، ولا تدوم زيجاتهم إلا لبضع سنوات وربما لأشهر معدودات. إنها قصة زوجة وفيّة وأم مثالية استطاعت أن تحافظ علىٰ بيتها وأن تواجه ضغوط الحياة علىٰ مدىٰ أكثر من نصف قرن دون أن تنكسر، مع أن فترة التعارف بينها وبين زوجها لم تدم أكثر من أسبوع قبل ارتباطها به وسفرها معه إلىٰ لندن. ولم يكن سفرًا للسياحة أو النزهة كما يفعل شباب اليوم الذين يصحبون زوجاتهم في الأيام الأولىٰ لزواجهم في رحلة ترفيهية خارج البلاد، وإنما كان سفرًا للدراسة. والدراسة في جامعة مثل جامعة لندن ليست شيئًا هيِّنًا. والتوافق بين الزوجين لم يكن أمرًا يسيرًا. فصاحبنا ولد في الريف، ومع أنه لم يعش فيه إلا في طفولته المبكرة التي لا يعي منها شيئًا، إلا أنه كان ريفيًا في سلوكه وقِيَمَه، أما هي ففتاة حضرية ولدت في المدينة وتربَّت فيها ولم تر الريف إلا في الأفلام السينمائية.

---

(١) عبدالفتاح أبو مدين، حكاية الفتىٰ مفتاح ص٢٩٠، ٢٩١.

وصاحبنا تربَّىٰ في بيت أزهري، فأبوه شيخ معمَّم تخرَّج في كلية أصول الدين، وأمه ريفية بسيطة لم تذهب إلىٰ مدرسة أو كتَّاب، وهو يفخر بذلك. أما هي فأبوها متفرنج وأمها تركية المولد والثقافة.

وثقافة صاحبنا عربية محضة، فهو لم يلتحق بأيِّ من مدارس اللغات، وإنما درس في المدارس الحكومية الأميرية، وحينما التحق بالجامعة التحق بقسم اللغة العربية. أما هي فثقافتها فرنسية خالصة، ونطقها للغة الفرنسية لا يختلف عن نطق الفرنسيين الأُصلاء، ومعرفتها بتاريخ فرنسا وجغرافيتها وأُدبائها أفضل بكثير من معرفتها بتاريخ العرب وأدبهم وجغرافية بلادهم.

وبرغم هذا التباين الثقافي، استطاع الزوجان أن يتوافقا وأن يتغلبا علىٰ كل ما واجههما من أعاصير الحياة لأكثر من خمسين عامًا.

وما زال صاحبنا يذكر لهذه السيدة العظيمة أنها لم تتبرم يومًا بالمرتب الضئيل الذي كان يتقاضاه من دار الكتب، وأنها قبلت أن تعيش معه بدون ثلاجة في بيتها لمدة سبع سنوات، وأنها لم تكن تتردد في أن تبيع قطعًا من مصاغها لتشتري ملابس العيد لطفليها أشرف وأميمة وهما في سن السنتين والثلاث سنوات.

لقد كانت الأيقونة التي تضفي علىٰ الحياة بهجتها، وتُكْسِبها طعمها وحلاوتها، وكانت بالنسبة لصاحبنا وهَج الحياة وسرَّ جمالها. وبرحيلها انطفأ السَّراج الذي أضاء أيامه ولياليه أكثر من خمسين عامًا، وتفجَّرت ينابيع للدمع لم تستطع أن تطفئ نار الحزن التي تأججت في أعماقه. فقد كانت الواحة الظليلة التي يلجأ إليها ويحتمي فيها من وطأة القيظ ولفح الهجير. وإذا كان قطار العمر قد توقف في الثلاثين من يناير ٢٠١٨، فإن قطار الذكريات لن يتوقف طالما بقي لصاحبنا قلب ينبض ونَفَس

يتردد بين جوانحه، وعين قادرة علىٰ البكاء[(١)].

❁ ❁ ❁

ما أحلىٰ الحياة الزوجية في خريف العمر! إنها حب يبدأ مع الشباب ويصبح صداقة حلوة مع مرور الأيـام، ثم يصبح امتزاجًا ووحـدة بعد إنجاب الأولاد والاشتراك في مواجهة الحياة. لقد فقد صاحبنا أمه قبل أن يكمل السنة الأولىٰ من عمره فعوضه الله في شبابه وكهولته برفيقة حياته[(٢)].

❁ ❁ ❁

تعارفنا في حلب، وتمَّ زواجنا في السابع عشر من أيلول، في عام ١٩٥٠ كانت هي في الحادية والعشرين وكنت أنا قد قاربت الثلاثين.

ومنذ تلك اللحظة بدأنا الكفاح معًا، نواصل رحلة العمر، يَديْنِ متشابكتَيْن، وقدَمين علىٰ الأرض. وعينين لا تنسيانِ القمرَ والنجوم، مهما انهار الضوءُ، وعَرْبدَ الظلام، ولفظَتْ أنفاسَها النجوم.

نقطِّر عُمرنـا ضـوءًا شـفيفًا ... وتَألُفُنـا علـىٰ الرَّهَـقِ الـدروبُ

ونعتصـرُ النجـومَ بـراحتَيْنا ... لهـا كـوبٌ، ولـي يـا ليـلُ كـوبُ

---

(١) عبدالستار الحلوجي، أقدار ص٢١٣-٢١٤.

(٢) د. السيد أبو النجا، ذكريات عارية٢ ص٢٣٩ - «غيرت رأيي» هو الاسم الذي اقترحه أنيس منصور لهذه الذكريات في طبعتها الأولىٰ بعد أن قرأ أصولها ليكتب مقدمتها فوجدني قد غيَّرت نظرتي للحياة بعد أن عدت من بعثتي في إنجلترا قبل الحرب العالمية الثانية بأسبوع واحد، ولكن نزعة التسويق غالبتني حين وجدت أن كلمة «عارية» فيها تورية قد تشد الناس إلىٰ المعنىٰ القريب لا إلىٰ معناها البعيد وهو الصدق والتجرد، وقد وقع القراء فيما توقعت فصدر من هذه الذكريات ثلاث طبعات، وانتصر التسويق علىٰ الأدب والفلسفة! ولم يكن في التسويق غش وإنما كان فيه تشويق. فلو لم يكن في الذكريات مادة طيبة لما صدرت طبعتها الثانية ولا الثالثة. د. السيد أبو النجا، ذكريات عارية ص٧.

وكان الحُـبُّ واحَتَنـا.. نزلنـا   بهـا واعشَوْشَـبَ القفـرُ الجديـبُ

أنا مدينٌ لهذه الإنسانة الرائعة بنصف نتاجي علىٰ الأقل[1].

* * *

حالما رآني القاضي عبد الحميد الأتروشي، رحّب بي، فقد كنت أسلمت علىٰ يديه قبل أيام، ولم ينسَني. وبعد التعرف علىٰ لميعة و الشاهدين، وقراءة الاستمارات التي ملأناها، انتبه إلىٰ مبلغ البائنة المذكور في الشهادة التي سيوقّع عليها، فرفع رأسه وقال: «يا لميعة برقي شوقي العسكري، هل تعرفين أنّ مهرك المقدّم دينار واحد، ومهرك المؤخّر ديناران اثنان؟».

أجابت: نعم، فضيلة القاضي. فسألها: وأنت راضية بهذا المهر؟ فأجابت: نعم، راضية. قال: وهل تسلّمت الدينار الواحد، كمهر مقدّم؟ قالت: نعم.

فأجال بصره بيننا نحن الاثنين وبين الشاهدين، وهو يبتسم، وقال: «أشهد بالله أن هذا الزواج ليس الدافع إليه هو المال!»، وأجرىٰ بسرعة ما يقتضيه الأمر، ووقّع الشاهدان علىٰ الوثيقة التي تسلّمتُها، وودَّعَنا القاضي ببشاشة خاصة مع التهنئة. لقد رأىٰ بعينيه ذلك الصباح ما لا يراه كل يوم: زواج عاشقين[2].

شيء واحد رفضت لميعة أن تتعلمه، وهو كيف تغلي القهوة، كنت أنا دائمًا من يحضّر القهوة لي ولها، وأخذتْ عليّ عهدًا قاطعًا بأن أظلّ ما دمنا علىٰ قيد الحياة أغلي قهوتها وقهوتي كل يوم، وبقيت علىٰ عهدي طوال أربعين سنة كاملة حتىٰ النهاية[3].



(١) سليمان العيسىٰ، علىٰ طريق العمر ص٣٠١، ٣٠٣.

(٢) جبرا إبراهيم جبرا، شارع الأميرات ص٢٤١.

(٣) جبرا إبراهيم جبرا، شارع الأميرات ص٢٦٥.

شكَّلت زوجتي فرقًا حاسمًا خلال تلك السنتين اللتين أمضيتُهما في التعليم في هامبدن (وفي تنظيف الملاءات في مصبغة نيو فرانكلين خلال الإجازة الصيفية)، فلو قالت إن الوقت الذي أمضيه في كتابة القصص علىٰ الشرفة الأمامية لمنزلنا المستأجَر في شارع پوند أو في غرفة الغسيل في مقطورتنا المستأجَرة علىٰ طريق كلات في هيرمون هو وقت مُهدر، لكنتُ فقدتُ الكثير من الحماس الداخلي. لكن تابي لم تُبدي أي ارتياب أبدًا، كان دعمها ثابتًا.

أحد الأشياء الجيدة القليلة التي يمكنني أخذها من المسلّمات، وكلما أرىٰ رواية أولىٰ مُهداة إلىٰ زوجةٍ (أو زوجٍ)، أبتسم وأقول لنفسي: هناك شخص يعرف، والتأليف وظيفة منعزلة، ووجود شخص يثق بقدراتك يشكِّل فرقًا كبيرًا، لا داعي لأن يُلقي أي خُطب بمجرد الثقة بك تكفي عادة[1].

۞ ۞ ۞

أنا دقيق للغاية في مسألة الوقت وفي القصص التي قرأتها وأنا صغير، بدت الدقة في المواعيد خصلة جيدة ولذلك تمسكت بها، لكن حاسمه متأخرة دائمًا ولا مفر من بروز شيء يشغلها قبيل خروجنا. في البداية، سبب لنا هذا الفارق احتكاكًا كثيرًا، لكني تعلمت بمرور السنين كيفية التكيف مع هذا السلوك، بينما تكيفت مع كثير من سلوكياتي وأنا أمازحها الآن بشأن تأخرها المعتاد وأبذل جهودًا جبارة للعثور علىٰ ما تبحث عنه. وأنا أغيظها بتتبعها وهي تتنقل في أرجاء الغرفة، وأكذب وأقول علينا أن نغادر عند الساعة الثامنة مساءً، بينما الوقت الذي ينبغي أن نغادر فيه فعلًا متأخر عن ذلك، ولكنها تظل عصية علىٰ الإصلاح، وأنا الآن ألازم غرفة ارتداء الملابس إلىٰ أن تتهيأ للمغادرة وقد تعلمت بالطريق الصعبة أنه إذا نزلت السلّم أولًا، فلن تظهر.

(١) ستيفن كينغ، مسيرتي في التأليف ص٧٢، ٧٣.

يمكِّن الاحترام المتبادل والفكاهة الجيدة أن يحافظا علىٰ رباط الزوجية كما يظهر هذا المثال الصغير وأنا لا أحلم بالاقتران بزوجة أخرىٰ والتسبب لحاسمه وأولادي بالأسىٰ والألم، فكي يعيش المرء سعيدًا، يتعين عليه تعلم كيفية التوصل إلىٰ تسويات برحابة صدر(١).

يتزوج الرجل المرأة كي يقص عليها بطولاته فتريه أنها تصدقة، وتتزوج المرأة لسبب لا أعرفه، وظن شوبنهاور ونيتشه وعباس محمود العقاد أنهم يعرفونه؛ ربما لذلك لم يتزوج أيًّا منهم؛ قال أوَّلهم: إنك في الزواج تنال نصف الحقوق وضعف الواجبات.

وأنا بعد خدمة ثلاثين سنة في هذه المؤسسة ألين عريكة وأكثر خروفية من أن أقول كلمة في هذا الشأن، وكل ما أرجوه حسن الختام(٢).

كانت مقولة زوجتي المخلصة الوفية -التي أعترف بفضلها ونبلها وعونها لي- تتردد أصداؤها في أذني: «طالما أنك مشغول بنفع الناس فالله معك، والله لنا، ولن يخيب الله رجاءنا، والحد لله أولًا وآخرًا»، وغالبًا فأي إنسان ناجح يستند إلىٰ صديق مخلص أو زوجة وفية، وهاهنا وقفة لطلاب التفوق: زوجاتكم سكن لكم، وأكبر دافع للإنجاز والتقدم(٣).



---

(١) د. مهاتير محمد، طبيب في رئاسة الوزراء ص٣٨، ٣٩.

(٢) عارف حجاوي، حياتي في الإعلام ص٣٩.

(٣) د. حمد المانع، لكم وللتاريخ ص٣٥.

أنا الآن رجل، ولىٰ زوجة وبنون، لا بنات، فقد أبت مشيئة الله ألا يكون لي بنات علىٰ إيثاري لهن، وأنا ابن هذا الزمن، لا ذاك الذي عاش فيه أبي وجدي من قبله، ومع ذلك أراني أستحي أن أقول لزوجتي إني أحبها، وأشعر أنه لا يليق بي أن أقول ذلك، ولي كل هؤلاء البنين، وأحس أن زمن الكلام في ذلك قد فات وهو لم يفت في الحقيقة.

ويا ربما قلت لنفسي، حين أخلو بها وتتدفق خواطري في هذا المجرىٰ: «لماذا أخجل أن أقول لزوجتي إني أحبها، أمام هؤلاء الأبناء؟!» وأقول في جواب السؤال إن هؤلاء الأبناء يروننا كبارًا، ولا يتوقعون منَّا ما هو متوقع من الشبان، ولعلهم يظنون بنا أنَّا كنَّا في صدر حياتنا كل شيء إلا شبابًا، ويهيجنىٰ ذلك ويثير نفسي فأقول ساخطًا معاندًا: «ولكني لا أنوي أن أجعل حياتي وفق ما يظنون، قاتلني الله إن فعلت»، وأدخل علىٰ زوجتي ويكون معها هؤلاء البنون وغيرهم من الضيفان -من الأهل أو الغرباء - فأتعمد أن أنثني بالحديث إلىٰ ذكر الحب، وأهِمّ بأن أجري مع العناد، فأحس كبح الخجل، فأضطرب وأخرج من المأزق بمزحة، فيظن السامعون أني أهزل، وتعرف هي أني أجِدّ.

فلا فرق بيني وبين أبي، وإن كان بين زمنينا كل فرق، وما زلنا نحس اللجام علىٰ أشداقنا، والأعنَّة الخفية التي تصدنا وتلوىٰ رءوسنا، وتوجهنا وجهة غير التي تدفعنا إليها طباعنا وغرائزنا[1].

❁ ❁ ❁

كانت زوجتي عايدة ثابت إنسانة بكل معني الكلمة. رقيقة كالنسيم، باسمة كالزهور، في دماثة الكلمة الطيبة، وكانت دائمًا قادرة علىٰ أن تشيع في كل من

---

(١) إبراهيم المازني، قصة حياة ص٣٨، ٣٩.

حولها روح البهجة والسرور مهما كانت الظروف. تصدق عليها كلمة الكاتب الأمريكي مارك توين حين قال في «يوميات حواء» مشيرًا إلىٰ زوجته «أينما حلت كانت هناك جنة»![1]

❁ ❁ ❁

واجهتُ وزوجتي بعض الصعوبات في الأشهر الأولىٰ، بعد أن اكتشفنا أننا كنا مختلفين في الطباع والاهتمامات وأساليب التفكير والميول الاجتماعية. هذا الاختلاف الكبير لفت انتباه أصدقاء لنا، وأخبرني أحدهم بعد سنوات من الزواج أنه وزوجته توقعا أن لا يستمر الزواج بسبب هذه الاختلافات. ولكنه استمرَّ وأثمر أسرة كريمة وأبناء بررة يملؤهم النشاط والحيوية. ونما الحب بيننا وجمع بين قلبينا، فكانت الاختلافات تتكسر وتختفي عبر الطاقة السحرية التي ولَّدها الحب، تجلَّت في ودٍّ ورحمة متبادلة. السرُّ في نجاح الزواج يكمن من ناحية في فيض العاطفة، ومن ناحية أخرىٰ في طريقة التفكير في مسألة التماثل والاختلاف، وطريقة استثمارهما في تعزيز العلاقة الزوجية. نعم كنا مختلفين جدًا، وربما شعر كلانا أن توقعاتنا السابقة للزواج لم تكن دقيقة، ولكننا تمكَّنا من الحفاظ علي رابطة الزواج التي جمعتنا عبر إصرارنا علىٰ تحويل الاختلاف إلىٰ تكامل. أَوَليس الاختلاف والتكامل من أهم مميزات الاجتماع؟ كان يعتري الزواج بطبيعة الحال ما يعتري كل زواج من لحظات توتر وخلاف، ولكنها كانت خلافات زوجية تحتاج إلىٰ حكمة في التعامل معها بدلًا من تحويلها إلىٰ ذريعة للانفصال. ووصلت سريعًا إلىٰ القناعة بأن الزواج الناجح يرتبط بالجهد الذي يبذله الزوجان في بنائه، وأن السعي للخروج منه عند أول عقبة ومشكلة كما فعلت في زواجي الأول، ليس حلًا بل ربما يكون السبب الأساسي في فشل كثير من الزيجات. أدركت بسرعة أن التحديات جزء لا

---

(١) عبدالعظيم أنيس، ذكريات من حياتي ص٢٦٨.

يتجزأ من العلاقات الزوجية، تمامًا كما أنها جزء لا يتجزأ من العلاقات الإنسانية، وأن المقاربة النفسية الإيجابية والسعي المستمر للتخلص من أسباب الاختلاف سرَّ الزواج الناجح![1]



يغير الزواج إيقاع الحياة . يحتاج من اعتاد حياة الحرية إلىٰ فترة طويلة من عمره إلىٰ جهد كبير للتكيف. لا يعود حرًا في اختيار برامجه. هناك شريك لا بد من مراعاة حاجاته ومواقفه، ما يحب أو يكره من الأشخاص أو الأشياء أو البرامج.

اخترنا وزوجتي أن نتشارك فيما نتفق عليه، ونجامل بعضنا فيما لا نتفق، وأن تكون لنا حريتنا في الانفراد في برامج أو نشاطات لا تنفع فيها المجاملة. نجح هذا الترتيب في ردم الفجوة بيننا بسبب فارق العمر والتجربة. أعترف أني لم أكن الزوج المثالي أو الأب المثالي لكني كنت دومًا أجدّ لأن تكون حياة عائلتي الصغيرة، والكبيرة سعيدة، تسودها المحبة والتكافل[2].

---

(١) لؤي صافي، خيارات، ص١٧٩ .

(٢) فتحي البس، انثيال الذاكرة هذا ما حصل ص٣٢٦.

رفيق عمري

التقيت بزوجي «عمر أبو ريشة» في أعالي جبال الكربات في رومانيا، رأيته إنسانًا خارقًا فوق العادة، زلزل ثوابتي ودمَّرها، وغيَّر المعالم حولي، وحتىٰ الآن ما يزال نابضًا في أيامي أتحسَّس وجوده في وجودي.

عاهدته علىٰ الوفاء والإخلاص، كنت أنا من يقصُّ له شعر رأسه طوال خمس عشرة سنة ولا أدع شعرة واحدة منه تسقط علىٰ الأرض، وإني أبخِّرها من حين لآخر[1].

إنني لأعتز وأفخر أمامكم وأمام التاريخ العربي بأنني كنت آخر ملهمات عمر أبو ريشة رحمه الله، لمرحلة قاربت عشرين سنة، وهي آخر سنواته علىٰ هذا الكوكب، كنت له الصديقة المخلصة، وأنيسة لياليه الطويلة تفانيت في خدمته والسهر علىٰ راحته كما كنت له الحبيبة العاشقة والزوجة الوفية أدخلني عالمه بكل عفوية فتح لي باب هيكله، وترك لي حرية التجوال، أبحرت في عباب غرابته المذهلة وأحداثها المبهرة كل لحظة قرْبه كنت يَقِظَة الإحساس، متوقِّدة المشاعر تبنيت أفكاره مارست عاداته احتضنت أحلامه[2].

أذكر أنه بعد مرور ثمان سنوات علىٰ معايشتي عمر أبو ريشة حبيبًا وزوجًا، كان قد جاز لي أن استزيد معرفة به وأستجلي خفايا نفسه. أحببته، فأصبح جزءًا من وجودي، بعد أن سيج عمري بالبهي النادر من المشاعر الرهيفة والعواطف الزاهية سكب لي السعادة في كأس الأيام تاركًا لي حرية رشفها[3].



(١) سعاد أبو ريشة، ما كان أكبره قد كان إنسانا ص٦١.

(٢) سعاد أبو ريشة، ما كان أكبره قد كان إنسانا ص٧٨، ص٧٩.

(٣) سعاد أبو ريشة، ما كان أكبره قد كان إنسانا ص٢٠٥. هذا من العشق الذي لا يقاس عليه وهو أندر ما مرَّ بي في السير الذاتية الزوجية.

تعودت كلما نويت أن أكتب شيئًا، أن أفكر قليلًا قبل أن أكتب، وبالأمس نويت في نفسي أن أكتب إليك، وفكرت فيما سأقوله لك، وأنا بحسبي أن أعرف أنني سأكتب إليك ثم لا أفكر.

لقد تجاوز حبنا من عمر الزمن الثلاثين عامًا، والعجيب أنه ما زال كما عرفته منذ وَقْدَته الأولىٰ، وكأنه حب الأمس، القريب الذي يذكيه الغرام ويشعله الوله، ويزيد الشوق من وقدته وجبروته.. كأننا حبيبان مقدمان علىٰ الزواج وكأن أمينة ودسوقي أمنيتان لنا، ما زالا في علم الغيب المحجب من الزمن القادم، وكأنهما ما جاوزا العشرين وقارباها.

وكأنني ما شاب شعري وتثاقلت خطاي.. وكأنني ما أصبحت هذا المُقْدِم علىٰ سني الكهولة المتأخرة، فحبك هو الشباب الوحيد الذي ما زلت أحس به قويًّا في قلبي وكيانًا متدافعًا هدارًا، أحس به الحياة أجمل ما تكون الحياة، وكأنما أرسله الله لي لتعتذر به السنوات عما تصنعه السنوات[1].

الرد : وصلتني رسالتك وقد فرحت بها كالأطفال فلم أكن أعلم أنك ما زلت تحمل لي كل هذا الود وكل هذه المشاعر، ولعل هذه المشاعر الحلوة هي التي تساعدنا علىٰ تحمل تبعات الحياة، وفي نظري أن أجمل شيء في الوجود هو أن يحس المرء أن لقلبه قلبًا يخفق له، وأن لروحه روحًا تتلهف عليه، وإلاَّ فلا كانت الحياة ولا كانت الأيام[2].



(١) رسالة من زوجها الكاتب ثروت أباظة.

(٢) عفاف أباظة، همس القلوب (سيرة حياة، سيرة كتابة) ص٣١، ٣٢.

لما أُعْلنت خطوبة الأستاذ سامي الدروبي علىٰ الطالبة الإذاعية إحسان بيات وطلب سامي مني أن أستقيل من عملي الإذاعي لأتفرغ كسكرتيرة له وكان له ما أراد، وقد كان أول عمل مشترك بيننا ترجمة كتاب مذلون مهانون لدوستويفسكي، كان يمسك النص الفرنسي بيده ويملي علي بالعربية فأكتب وهذه الطريقة في العمل توفر الكثير من الوقت وكان قبل ذلك قد ترجم قصة نيتوتشكا لدوستويفسكي أيضًا(١).

دعينا في إحدىٰ الأمسيات إلىٰ العشاء عند السفير السوفييتي فينوغرادوف فقال لي مندهشا: عندما قيل لي أن السفير السوري الدكتور دروبي أنهىٰ ترجمة ثمانية عشر مجلدا لدوستويفسكي برغم أعبائه كسفير عربي بالقاهرة قلت: سأسألك كيف وجد الوقت؟ فأجبته: ببساطة يا سيادة السفير إن زوجي موزع وقته بدقة فائقة بين عمله الرسمي بالسفارة والبيت، وإن أديبكم هذا هو الضرة أي «الزوجة الثانية» التي تأخذ وقته مني في البيت، فضحك مقهقها وهو ينظر إلىٰ تعابير وجهي الحاقد علىٰ «الضرة» المستحوذة علىٰ زوجي(٢).

لا أستطيع أن أصف لكم سعادة سامي حين أنهىٰ المجلد الثامن عشر من المجموعة الكاملة لدوستويفسكي فقال لي: كم كنت أخشىٰ وأنا أعلم حق العلم حالة قلبي وعلة العلل التي أعاني منها، وكم من مرة تساءلت بيني وبين نفسي ترىٰ هل سيمهلني هذا القلب لإنجاز مثل هذا العمل الضخم وهأنذا قد أنجزته، فوالله لأتحدىٰ قلبي وشرايينه المسدودة وصماماته المتضيقة ولأبدأ بتولستوي فنهض من سريره واتجه نحو المكتبة وتناول الجزء الأول من كتاب تولستوي الطفولة والمراهقة والشباب، وجلس إلىٰ المكتب ليباشر بالترجمة، فلم يسعني إلا أن أصرخ محتجة حرصًا علىٰ صحته فأجابني ضاحكا. لا تتعبي نفسك سأظل أعمل وأعمل لأنني

---

(١) إحسان بيات الدروبيّ، سامي الدروبيّ ص١٤.
(٢) إحسان بيات الدروبيّ، سامي الدروبيّ ص٢١.

مؤمن أن الحياة بدون عطاء لا قيمة لها والموت أشرف منها وتابع كلامه بإصرار سأعمل حتىٰ النسمة الأخيرة من حياتي «وكم ردد هذه الجملة وكم سمعتها منه».

وفعلًا كان له ما أراده قبل ساعة واحدة من الرحيل وقد أصر علىٰ الجلوس إلىٰ المكتب وأذكر صرخت محتجة عليه أيضًا حرصًا علىٰ صحته وخوفًا من تعبه قال سأصلح كلمة كانت قد أقلقتني في الليلة السابقة ومسك القلم وأصلحها وهو يعلم أنه يقف علىٰ مشارف الأبدية قلت لنفسي وأنا أقف بقربه أضع له أنبوب الأوكسيجين في أنفه: لله درك يا سامي إن كلمة واحدة تقلقك فلا تنام وترغب أن تقدمها صحيحة لقرائك وأنت بأشد الحاجة إلىٰ الراحة والنوم، ولم أكن أعلم أنني في حضرة الوداع الأخير؛ إذ بعد ساعة واحدة فقط كان الرحيل[1].

❁ ❁ ❁

مع القراءة (العمل الإبداعي الكاشف) يطل الحضور المبهر للذاكرة، يتمتع أمل بذاكرة عظيمة، تستطيع استحضار كافة التفصيلات، واستعادتها في نضارتها الأولىٰ، إنه قادر دائمًا علىٰ استعادة جزئيات دقيقة من كتاب قرأه في ليلة واحدة من سنوات، قادر علىٰ استعادة قصيدة كاملة (ولو رديئة) لشاعر غير معروف، أو قصيدة نسي صاحبها أن ما يردده أمل هو كلماته.

إنه بالفعل -كما ذكر بدر توفيق - يعرف كل صغيرة وكبيرة من أصول أهل المدينة وتجاربهم. إنها الذاكرة، تلك الهبة الطبيعية التي شكلت إحدىٰ مفردات الموهبة.. ففي صباه الباكر حفظ ألف بيت من الشعر القديم (من أجل أن يكون شاعرًا) كما قال له مدرس اللغة العربية في المدرسة[2].

---

(١) إحسان بيات الدروبيّ، سامي الدروبيّ ص٣٧.

(٢) عبلة الروينيّ، أمل دنقل (الجنوبيّ) ٢ ص٧٣، ٧٤. من أحب أن يرىٰ شاهدًا لمقولة الحب أعمىٰ فليقرأ هذه السيرة التي كتبتها زوجته.

أبناء وبنات

كنت ذات يوم أتفرج علىٰ واجهة مكتبة شيوعية بشارع الرشيد، وقد غصت الواجهة بالكتب الحمراء فقرأت العناوين التالية: «انحراف تروتسكي» و«ثورة أكتوبر» و«مبادئ لينين» و«وطن حر وشعب سعيد» وكانت لحية لينين المدببة، وشارب ستالين المعقوف أبرز ما في الواجهة، وفيما أنا أهم بالانصراف تقدم إليَّ انضباط عسكري، وقال: هل أنت يونس بحري؟ قلت: نعم، فأشار إلىٰ سيارة جيب عسكرية فصعدت، وانطلقت بنا تخترق الجموع الحاشدة إلىٰ وزارة الدفاع ووقفت أمام لجنة التحقيق وجهًا لوجه فقلت: خير إن شاء الله!.

قال الرئيس وهو يقدم إليَّ رسالة مكتوبة بخط مرتجف باهت: أتعرف خط من هذا؟، وأمعنت النظر في الخط، ولم أحتج إلىٰ كبير عناء لمعرفة صاحب الرسالة، وأنا الخبير بمختلف الأساليب في الخط لطول المران، فقلت: هذا خط ابني الثاني سعد، قال: ألا تريد قراءتها؟ وبعد أن أشار إليَّ بالجلوس وضع الرسالة أمامي فقرأت ما نصه: سيادة الحاكم العسكري العام.

باسم «المقاومة الشعبية» أحتج علىٰ إطلاق سراح والدي يونس بحري، فهذا الرجل كان جاسوسًا لبريطانيا في برلين، ثم لما انتقل إلىٰ باريس صار جاسوسًا للفرنسيين، إن والدي مزواج ومقامر وعربيد، وهو يستحق السجن إلىٰ الأبد أو الموت.

ضحكت بعد تلاوة هذه الرسالة، وشر البلية ما يضحك فقال الرئيس وهو يحاول إخفاء ابتسامة عريضة علىٰ شفتيه: ما هو رأيك؟ قلت: هل إن ولدي سعد هو شاهد عيان أم مخبر؟ قال: مخبر! قلت: إن ولدي هذا قد ولد بعد ذهابي إلىٰ ألمانيا بستة أشهر، فهل يعقل أن يكون شاهدًا عليَّ؟ قال: لا. قلت: إنني متألم جدًّا يا سيادة الرئيس، قال: علام؟

قلت: علىٰ ولدي الذي صار شيوعيًّا يتكلم باسم المقاومة الشعبية، ويبلغ به الكفر حد الوشاية بأبيه، قال الرئيس متأثرًا: العزاء مشترك يا أستاذ، فإن ولدي هو الآخر قد صار مثل ولدك، والعياذ بالله.

ونادىٰ الرئيس علىٰ الانضباط وقال له: أوصلوا الأستاذ إلىٰ فندقه.

لقد هزلت حتىٰ بدا من هزالها كلاها وحتىٰ سامها كل مفلس

فإذا كان الابن يشي بالوالد وهو في أتعس محنة مر بها في حياته، فما الذي يرجوه الإنسان من صديق أنس، لا صديق ضراء وسراء؟

لم أتألم من الوشاية التي وجَّهها إليَّ هذا الولد فهو عمل غير صالح، بقدر ما تألمت من وشاية قام بها صديق كنت أعتقد أنه آخر من يقوم بدور «بروتوس» معي، بقيت في بغداد سنة ونصف السنة بعد إطلاق سراحي من السجن، وأنا أخدم هذا الصديق وأساعده، وأقتر علىٰ نفسي لأرفِّه عليه[1].

۞ ۞ ۞

إن رؤيتي الخاصة بماليزيا، والسياسات التي وضعتها إدارتي كانت للجميع لا لنخبة تتمتع بصلات سياسية أو دائرة صغيرة مؤلفة من أسرتي وأصدقائي، حتىٰ إني لم أمنح أيًّا من أبنائي فلسًا واحدًا لتكوين رأسماله، وكل ما أعطيتهم إياه هو التعليم الجيد، وفرصة للتطور ولبناء أنفسهم في هذه الحياة. لم يطلبوا منّي صنيعًا بل لم يحدّثوني عن الأعمال التجارية التي يزاولونها، كما إننا لم نكن نتباحث في القضايا المهنية أو السياسية، والفكرة التي فهمها الجميع بوضوح تام دائمًا هي أنني مشغول بإدارة البلاد وأن مشكلاتهم تخصّهم وحدهم.

---

(١) يونس بحريّ، المذكرات ص١٦٢، ١٦٤.

الحقيقة هي أنني لم أعد أنتمي إلىٰ أسرتي منذ أن أصبحت رئيسًا للوزراء، قَبِلَ أبنائي بأنه ليس في استطاعتي، كوني رئيسًا للوزراء، تمضية الوقت معهم أو إشغال نفسي كثيرًا في مشاكلهم والأمر نفسه انطبق علىٰ أمهم أيضًا، فلم تكن حاسمه تشتكي إذا لم أعد إلىٰ المنزل، أو إذا عدت في وقت متأخر، أو إذا لم أمنح أسرتي أو منزلي الاهتمام الكافي، بل كفتني هذين الهمَّين الأخيرين، فَهِمَت وفهم أبناؤها أن في وسعهم الرجوع إلىٰ أمهم وليس إليّ طلبًا للمساعدة عندما يواجهون مشكلات.

لم أسئ استعمال السلطة التي كانت في يدي، كما لم أشأ أن يسيئوا استعمال صلتهم بي. وهذا ما كنت أقوله لهم دائمًا، وهم عرفوا ما عنيت قوله، لقد كبروا وبلغوا مرحلة النضج وأنا رئيس للوزراء وحتىٰ عندما التحقوا بالجامعات، لم أطلب منحًا دراسية من الحكومة.

بالنسبة إلىٰ القيم الأخرىٰ، مثل الثبات ودقة المواعيد والجدارة بالاعتماد، أقول لهم إنه لا يجدر بهم التصرف مثل أبناء الأثرياء، كنت أحدثهم عن أيامي في المدرسة، وعن ذهابي إليها مشيًا علىٰ الأقدام وما شابه ذلك، كانوا يشعرون بالسأم، ربما سيقرؤون هذه الصفحات، ولا سيما استحضاري ذكريات والدي وطفولتي، ويجدون فيها ما يثير اهتمامهم. ربما سيتعلمون شيئًا يشرح لهم تصرفات والدهم أو بعض نواحي شخصيته بقدر أكبر من الوضوح، أو ربما يتلمّسون رؤية يمررونها بدورهم إلىٰ أبنائهم، فهناك دروس نتعلمها دائمًا بشرط أن نمتلك الحكمة التي تساعدنا علىٰ استخلاصها[1].



(١) د. مهاتير محمد، طبيب في رئاسة الوزراء ص٤١، ٤٢.

إذا كنت آسف علىٰ شيء في حياتي العائلية، فهو أنني لم أرزق من يمكن من أولادي أن يخلفني في حياتي الأدبية، ويرعىٰ تراثي التاريخي العريض، ويقوم علىٰ الاستمرار في نشر كتبي التاريخية والأدبية المختلفة؛ لكي تنتفع بها الأجيال اللاحقة، وإني لأترك هذا التراث وديعة بين يدي الله سبحانه، يرعاها ويحفظها وهو خير الحافظين[1].



تأكدت من صحة ما كان يقوله أبي من أن الشخص الوحيد الذي يفرح المرء إذا وجده أفضل منه هو ابنه، ولقد خبرت قدرة المرء علىٰ التعاطف التام مع ابنه أو بنته، إذا كان أحدهما يعاني من ألم من أي نوع، ومدىٰ استعداد المرء للتضحية في سبيل تجنيبهما هذا الألم، وهو نوع من الشعور لا أذكر أني شعرت بمثله تجاه أبي أو أمي[2].

حملني الله إلىٰ بغداد حيث جمعت منها ما قدرت به علىٰ الزواج. ورزقني النسل، ولكنه صنَّفني في الصنف الأول: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ [الشورىٰ: ٤٩-٥٠]، فسُررتُ بالبنات ورأيتهن من أجمل الهبات، وما أعدِل -صدِّقوني- بواحدة منهن اثنين من الذكور لو رزقني الله ذكورًا. ولقد استأثر الله بإحداهن فأكرمها بالشهادة فصبرتُ ورضيت، وأرجو أن يرزقني الله ثواب الصبر وأن يديمه عليَّ، وجعلهن جميعًا وله الحمد صالحات متعلِّمات داعيات إلىٰ ما يُرضي الله[3].

---

(١) محمد عبد الله عنان، مذكراتي في ثلثي قرن ص١١٤.

(٢) جلال أمين، رحيق العمر ص٣٤٢.

(٣) علي الطنطاوي. الذكريات (٧/ ٣٨٩- ٣٩٠).

بين التلاميذ

لكل إنسان في عمره مراحل ثلاث: مرحلة أولىٰ يكون فيها رأس ماله، ومرحلة وسطىٰ يقرض فيها تلاميذه، ومرحلة ثالثة يسترد فيها ما أقرضه.

ولكن صاحبنا كان يقرض في مرحلته الوسطىٰ ويسترد، بل لعله استرد ديونه من تلاميذه أضعافًا مضاعفة حين تسلق علىٰ أكتافهم إلىٰ حيث أراد الله له أن يكون، ولكنهم في مرحلته الثالثة ما يزالون يعاملونه علىٰ أنهم مدينون له، فهم يحيطونه بالعرفان، ويضعون أنفسهم في خدمته كلما بحث، ويكملون خبرته بعلمهم الجديد كلما طلب المشورة[1].

۞ ۞ ۞

إذا كانت أبرز صفة يتحلىٰ بها المدرس الناجح امتداد صلة الحب والتقدير، والذكرىٰ الحسنة بينه وبين طلابه فإن صاحبنا قد جاز الامتحان مسرورًا، وما يزال يتجدد سروره ويزداد بما يلقاه من أوفياء أولئك الطلاب من حسن التواصل، في كثير من مدن المملكة التي سعد فيها بامتهان تلك المهنة الشريفة.

لقد أدركت -أو هكذا تصورت - أن (الطفل) رجل (كبير) في إحساسه وكثير من غرائزه، وعلىٰ هذا التصور ينبغي أن ينظر إليه أستاذه، وهذا ما كنت أسير عليه في معاملة تلاميذي بحيث إنني كنت أتحاشىٰ في السنة الأولىٰ التمهيدية أن أجلس علىٰ الكرسي وهم جلوس علىٰ فرش مبسوطة علىٰ الأرض، بل أخرجت الكرسي من الغرفة، وجلست وسطهم، ثم إن ما يراد من الطفل إدراكه من العلوم يجب أن لا يزيد علىٰ مقدار ما يفهمه شيئًا فشيئًا، وكلما كانت وسائل التعليم مشوقة ومتجددة كانت نفس التلميذ أشد تطلبا وقبولًا لها، ولهذا كنت أتخذ من دروسي

---

(١) د. السيد أبو النجا، ذكريات عارية ص٢١٥.

مادة للترويح عنهم، بصياغتها بأسلوب قصصي، يستهوي نفوسهم، ويشدهم إلىٰ تلقيها والاستمتاع بالاستماع إليها، بدرجة تحملهم علىٰ استبقائي بينهم أثناء وقت الراحة لمواصلة الحديث معهم، وقد أطلب منهم القيام بعمل ما لأدرك مدىٰ فهمهم للدرس فيستعصي علىٰ بعضهم فعله، فأظهر له من الرضا وحسن التوجيه بلطف، ما يدفعه ليحرص دائمًا علىٰ أداء واجبه حسب استطاعته، وهو واثق بأني سأقابله بإصلاح ما يبدو في عمله من خطأ، مسرورًا من قيامه بذلك العمل علىٰ أي وجه كان، فلا يلبث أن يستقيم في سلوكه، ولا أذكر أنني لجأت إلىٰ مؤاخذة تلميذ مقصر بما يجرح شعوره بين إخوانه، أو بما يبدو له منه بأن المراد التشفي والانتقام، بل أحاول -ما استطعت- إقناعه بحنوي وعطفي عليه، وأن ما قد أكلفه بفعله ليس من قبيل

العقوبة علىٰ تقصير بدر منه، ولكنه حفز لهمته لئلا يبدو بين إخوانه أقلَّ منهم مكانة، وبتلك الطريقة التي أكتفي بعرض جوانب منها في معاملة تلاميذي شعرت بأنني حَلَلْت من نفوسهم منزلة المحب المكرَّم، ونمىٰ هذا الشعور ما استمرَّ بيني وبين كثير منهم من مشاعر الحب والتقدير[1].

۞ ۞ ۞

عُيِّن صاحبي -بعد حصوله علىٰ درجة الدكتوراه- مدرسًا بقسم اللغة العربية في آداب جامعة القاهرة سنة ١٩٤٢ وظل طوال نهوضه بالتدريس في قسمه -يشعر بصلة صداقة وثيقة منعقدة بينه وبين تلاميذه أو طلابه، وطالما اعتدَّ بهذه الصداقة وعدَّها نعمة كبيرة من نعم الله عليه، وهي نعمة يمنّ الله بها علىٰ المدرسين الجامعيين دائمًا، إذ تجعلهم -مهما تكبدوا في دروسهم وتدريسهم من عناء ومشقة

---

(١) حمد الجاسر، من سوانح الذكريات (١/ ٤٥٩، ٤٦١).

- يحسون براحة ومتعة في أدائهم لعملهم، معتقدين بينهم وبين أنفسهم -أن بين تلاميذهم مَنْ يقدرونهم ويحفظون لهم صنيعهم، بل من يودونهم ويجلّونهم نفس الإجلال والمودة اللذان ينعقدان بين الآباء والأبناء.

وربما كان ذلك أكبر جزاء معنوي يكافأ به مدرس الجامعة، إذ تتوثق الصداقة بينه وبين نفر من تلاميذه، وكان صاحبي ينوِّه دائما بالصداقة، ويقول: إنها تتفوق علىٰ جميع الخصال الإنسانية حتىٰ علىٰ خصلة الحب التي طالما تغنّىٰ بها الشعراء، محتجا لقوله: بإن الحب يربط بين اثنين فقط ولا ثالث، ومن شأنه أن يقيد كلًا منهما بصاحبه وأن يستغرقه في خواطره، بحيث لا يفكر في أحد سوىٰ من أحبّه، فتفكيره منحصر فيه، وهو كل متاعه ونعيمه في دنياه، وكأنما ليس للحب إلا باب واحد يفتح لمن آثره بحبه، ويغلق من ورائه إلىٰ الأبد.

أما الصداقة فتفتح الأبواب علىٰ مصاريعها لاستقبال غير واحد، وبعبارة أخرىٰ لانعقاد الأواصر بين صديق ومجموعة من الأصدقاء، والحب بذلك أناني مسرف في أنانيته، والمحب كأنه معصوب العينين إذ لا يبصر في الدنيا سوىٰ من أحبه، وإنه ليملؤها عليه من جميع أقطارها بخلاف الصداقة فإنها لا تعرف الأنانية ولا الأثرة ولا الاقتصار علىٰ فرد واحد، إذ يستطيع الصديق أن يضم لصداقته فئة قليلة أو كثيرة من الأصدقاء، والصداقة بذلك أرحب من الحب وأوسع آفاقًا كالشجرة الطيبة ما تزال تمد فروعها وأغصانها يمينًا ويسارًا فيستظل بها كثيرون ويطمئنون عندها ويستريحون.

والصداقة لا تمنح الصديق الراحة والطمأنينة في الحياة فحسب، بل إنها كثيرا ما تساعد علىٰ تحمل مشاق الحياة وصعوباتها لا بالتسرية وحدها، بل أيضًا بمد يد العون، ومعروف أن الإنسان يلقىٰ في اجتيازه لمرحلة الحياة الطويلة عقاب

وصعاب شتىٰ، وليس سوىٰ الصديق الذي يعينه في اجتيازها، علىٰ الأقل بالنصيحة وشد الأزر[1].

❁ ❁ ❁

لم أرزق أولادًا، والحمد لله علىٰ ما أعطىٰ وأولىٰ ، ولم أشعر بالفقد كما لاحظت علىٰ بعض من هم في مثل حالي، ربما كان ذلك راجعًا إلىٰ وثاقة العلاقة، وعمق الصلة الزوجية والفكرية، كما وصفت في تجربة التعليم بيني وبين طلبتي، وهم منبثون في أرجاء العالم، وقاراته المتعددة، حتىٰ إني كنت أفخر أحيانًا، وأتمثل قول الفرزدق في مناظراته مع جرير والأخطل، التي يقول عنها شيخنا مؤرخ الأدب العربي -في مختلف مواطنه وعصوره-: إنها كانت أشبه بمباريات الكرة في أيامنا هذه؛ تجذب جمهورها وتصنع نجومها، وقد يستغلها الساسة علىٰ نحو من الأنحاء، كما هو الحال مع كرة القدم الآن، وأقصد بما سبق بيت الفرزدق مع تغيير لكلمة واحدة فيه هي آبائي أضع مكانها «أبنائي»

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع[2]

❁ ❁ ❁

كان إخواننا يخافون أن يقع لي ما وقع لي في سنة ١٩٥٧ في مستشفىٰ المُجتهِد، وهو أكبر مستشفيات وزارة الصحة في دمشق في تلك الأيام، حين جاء طبيب داخلي يتدرب فيه وكان شيوعيًّا خبيثًا، فأدخل في دمي جرثومة نادرة هي التي تسمىٰ بالعربية «العُصَيّات الزرقاء»، فكان من أثر ذلك أن بقيت في هذا المستشفىٰ ثم في مستشفىٰ كلية الطب حين انتقلت إليه أربعة عشر شهرًا، فندب نفسه ولدي الأستاذ زهير الشاويش فأبىٰ إلا أن يقف علىٰ العملية، وجاهد وجالد وسعىٰ حتىٰ

---

(١) د. شوقي ضيف، معي (٢/ ٧).

(٢) د. حسن الشافعي، حياتي في حكاياتي ص٣٦٧.

سمحوا له أن يلبس ما يلبس الأطباء وأن يضع مثل القناع الذي يضعونه وأن يقف معهم يراقب ما يصنعون، وأنا أُسائلكم يا أيها القراء: لو كان لي ولد من صلبي هل كان يصنع أكثر مما صنع الأستاذ زهير أو هل كان يصنع مثله؟ فجزاه الله وجزىٰ إخواننا المخلصين خيرًا[1].

(١) علي الطنطاوي، الذكريات (٨ / ٢٤٠).

أحوال

الصحة

أحاول النوم ساعات كافية، ست ساعات ليلًا في سرير مريح إذا أمكن ذلك، ثم آخذ قيلولة قصيرة لمدة ١٥ دقيقة بعد الغداء، وفي هذه القيلولة لا أتمدد في أثناء نومي ولكن اجلس علىٰ كرسي مريح ورأسي إلىٰ أعلىٰ، وأنا أفعل الأمر نفسه حين أسافر وحين لا يكون بين يديّ عمل أقوم به؛ إذ إن أخذ القيلولة والرأس إلىٰ أعلىٰ أمر مهم لأنك إذا تمددت، ستستيقظ مع شعور بالدوخة ولن تقدر علىٰ العمل.

وإلىٰ جانب التمكّن من اقتطاع أوقات قصيرة للنوم، ساعدتني خبرتي كطبيب زاول المهنة علىٰ العمل ساعات طويلة كرئيس وزراء، فبعد أن أنام طوال مدة سفري جوًا، أتوجه مباشرة إلىٰ عملي، ففي النهاية، عندما أزور دولًا أجنبية لا أستريح ولكن أبدأ بالعمل فور وصولي أو في اليوم التالي علىٰ الأكثر.

لكنّ الأهم من ذلك كله أن نحافظ علىٰ سعادتنا إذا كنا نريد المحافظة علىٰ شبابنا، وإن سعادة من وقعوا في الغرام واضحة جدًّا لكن يصعب البقاء سعيدًا طوال الوقت طبعًا، لكنك إذا أحصيت نعم الله عليك كل صباح، ستشعر بالسعادة، ستبرز مشكلات يتوجب حلها، ومصائب تتعين مواجهتها، لكن يوجد شيء دائمًا يشعرك بالبهجة، وأنا أعتبر استيقاظي حيًّا نعمة عظيمة حتىٰ في الماضي، لكنني أكثر استحضارًا لها الآن.

كما ترىٰ، ليس لديّ وصفة خاصة كي لا أظهر في سني الحقيقي، أو الأشخاص الذين يتوقعون مني تسمية إكسير الشباب الذي يحفظ شبابي سيخيب أملهم والحقيقة هي أنه لا يوجد شيء من هذا القبيل[1].

۞ ۞ ۞

لقد كسرت دوامة اللهاث إذ أضعتُ حق صحتي فانعتقتُ من كل المؤذيات والمنبهات التي تحشر طالب العلم في دوامة العمل غير المتبصر بحيث ينسىٰ المدلول العظيم لتقلب الليل والنهار، و ياما أعظمه وأكرمه من مدلول في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا ...﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١] الآيات.

وكت بحاجة إلىٰ مشي أكيال يوميًّا أضعتها رغم كثرة الواعظين من أهل الطب والتجربة، ورغم ما أعانيه من آلام كثرة الجلوس ولا حجة لي إلا الشح بضياع ساعات في المشي!، فاستعنت بالله وذرعت بطن الوادي والنخيل يوميًّا إذا كنت بدارتي في الجنوب الغربي، وذرعت الوهاد والأكمات إذا كنت في الطرف الشرقي.

كنت أمشي أكيالًا وأنفق ساعات، ولم يكن ذلك ضياعًا لأنني أتحين أويقات الغفلة وفتور السابلة، وأستغل وقتا المشي لاستذكار وتلاوة وتعهد ما حفظته من كلام الله، أو من كلام المصطفىٰ، أو توثبات الأدب إذا حننت إلىٰ المذخور من روائع الفن.

وأحيانًا يكون للوقت خاصية يفرض علي وأنا أسير دعاء لله ابتهالًا ومناجاة وتوسلًا واستغفارًا وتسبيحًا وتقديسًا.أذكر سوالف من عمري فتهزني قشعريرة، وأقبض ذقني بيدي لأرىٰ شعيرات شابت علىٰ الإسلام والفطرة ومحبة خالق الكون

---

(١) د. مهاتير محمد، طبيب في رئاسة الوزراء ص٦٨٥.

وبارئ الخلق وما أشهده من ألطافه فأضرع إليه بأن يرحم شيبي وضعفي، وأعوذ بقدرته وأستزيد من إحسانه بأن يهب لي هداية العون والتوفيق كما وهب لي هداية البيان ووضوح الحجة وقيامها.

كما أسأله هذه الهداية دائمًا بأن يريني الحق حقًّا ويرزقني اتباعه، وأن يريني الباطل باطلًا ويرزقني اجتنابه، وأن يهديني لما اختلف فيه من الحق، وأسألأ معلِّم إبراهيم عليه السلام أن يعلمني، وأرىٰ قمرًا ونجومًا ومجرات وأفقًا رحبًا وقد حرمت من ذلك عقودًا، ويحضرني فكر وتأمل وعبرة، فكلما ازددت تفكيرًا ازددت إيمانًا ومحبة للخالق وشهودًا لعظمة آياته ووضوحها.

فأي ثانية ضاعت وكل السويعات التي أسيرها تجنح بي طربًا وشوقًا. أستذكر علمي تارة، وأضيف إلىٰ حفظي تارة، وأناجي ربي تارة، وأسيح في كونه سياحة المعتبر تارة، هذا إلىٰ مكاسب دنيوية لا يحصيها العد، أهمها وفرة نشاط تلازمني بقية يومي ما كنت أعهدها من قبل، ونفضت أعباء من أشباح الشيخوخة المبكرة كأوجاع المفاصل والظهر والكلىٰ وعسر الهضم والترهل والسمنة[١].

❁ ❁ ❁

حجزت موعدًا مع طبيب إنجليزي شهير متخصص في الأوعية الدموية، قيل لي إنه كان عائدًا لتوه من الرياض حيث كان واحدًا من الأطباء الذين استدعوا علىٰ عجل من إنجلترا لعلاج الملك فهد، ذهبت إلىٰ هذا الطبيب أيضًا، وكأني أريد أن أستمع أولًا إلىٰ كل الآراء الممكنة لأصل بنفسي إلىٰ العلاج الصحيح. كان هذا الرجل هو بالفعل أكثر من حاز تقديري ممن مررت بهم من الأطباء. كان أكبرهم سنًّا، لعله تجاوز السبعين، ووجدت من تصرفاته ما يوحي لي بأنه ما زال يطبق بعض

---

(١) أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري، تباريح التباريح ص٢٢، ٢٣.

التقاليد العريقة في الطب والآخذة في الزوال. كان، فيما بدا لي، يثق فيما يحسّه بيديه ويراه بعينيه ويسمعه من المريض، أكثر مما يثق في رسوم الأشعة، وأرقام التحليلات.

وعندما مددت له يدي بالأوراق والصور العديدة التي جمعتها من الأطباء السابقين والمستشفيات، قال: «لا، لو نظرت إلىٰ هذه الأوراق والصور الآن لكنتُ غشاشًا، دعني أفحصك أولًا، عندما أتم الفحص، قال مبتسمًا: إن حالتي لا تستدعي منه التدخل بالجراحة الآن، وعلىٰ الأرجح أني لن أحتاج إلىٰ هذا أبدًا»، سألته: «إذا كانت لديه نصيحة واحدة يوجهها إليَّ، فما هي؟»، فقال: «Do not sit about»، أي (لا تتعود الجلوس الطويل بلا حركة)[1].

---

(١) جلال أمين، رحيق العمر ص٣٤٨، ٣٤٩.

المرض

في المرض يزداد يقين المرء بأن الدنيا زائلة! فهو يأسي علىٰ ما جنىٰ، ويندم علىٰ ما جمع، ولكنه حين يصح تمتد آماله وتتشعب مطامعه ويعود عبدًا للطبيعة، يعمل لأنها تريد، وينفذ لأنها تحكم!، فليت شعري إذا عقل كل الناس فعمل كل امرئ ما يلزم، وقنع بما يقوت، وكف عما لا يحل، فبماذا يشتغل قضاة المحاكم، وقواد الجيوش، وصناع الأسلحة، ورؤساء الأحزاب[1]؟!

۞ ۞ ۞

لقد مرت علي ثلاثة آلاف من هذه الليالي الدهم، وكل واحدة منها أبدٌ كامل، بعضها جحيم وبعضها مطهر، أما ليالي النعيم بينها فتلك التي يكون فيها الألم خفيفًا، فأستيقظ في أثنائها مرتين أو ثلاث لتغيير ملابسي المغمّسة بعرق الوهن وهذا معنىٰ قولي في ختام ملحمتي عيد الغدير.

فتعجّب بسابح في جحيم صكه الخطب زورقًا بشريًّا

من الأمور المسلّمة أن الألم في الليل أشد منه في النهار، ولن تجد في الطب الصرف تأويلًا كافيًا لهذا الفارق لأن مبعثه نفساني محض: ذلك أن في النهار من شؤون الحياة ما يصرف العليل عن نفسه صرفًا جزئيًّا، فضلًا عما في الضوء من أنس، ذلك أن للعين عالمها الذي تنعم فيه فهي أشرف الحواس وأعمّها، وقد حللها

---

(١) أحمد حسن الزيات، ذكرىٰ عهود ص٣٦٩.

القديس اغوسطينوس في اعترافاته وأرجع إليها كل شهوة فقال: إن الإدراك الخاص بالعين هو النظر.

ولكننا نستخدم هذا اللفظ الأخير في ما يتعلق ببقية الحواس أيضًا حين نريد استخدامها في المعرفة. فنحن لا نقول اسمع كيف يلمع، أو شمّ كيف يضيء، أو ذق كيف ينير، أو المس كيف يشِعّ، ولكننا نقول ليس فقط انظر كيف يلمع، وهو شيء خاص بالعين حتمًا، بل نقول: انظر أيّ انسجام هذا، أو أية رائحة هذه، أو أيّ طعم ذاك، أو أية صلابة هاتيك» لذلك عرّفوا السماء والأشياء السماوية بأنها نور، وعرفوا جهنم بأن نارها مظلمة.

وإنما العتمة تعزل المريض عن العالم الخارجي فينطوي علىٰ نفسه، وتتوثق العلاقة بينه وبين أحاسيسه حتىٰ ليسمع دقات قلبه، ويقترب وريده من أذنه، وتزدوج شخصيته فيكون الشاهد والمحكوم عليه في آن واحد. وتنتبه مشاعره في سُدُف الظلمة فتلوّن بلونها؛ لذلك تراه يفرّ من الوحدة والظلام لأنه يعلم سلفًا أن الألم سيحول بينه وبين الرقاد، هذا الموت الهنيء الموقت، لذلك كنت أرجئ انصراف أصحابي المحبين لأرجئ موعد عزلتي، فأحدثهم الأحاديث موصولة، فإذا انصرفوا انصرفت إلىٰ الكتاب آنس برفقة أعلام القلم وبُناة الحضارة حتىٰ يعشو بصري، وتغمرني الظلمة، فأستعين بالله علىٰ البلوىٰ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

هذه الألفاظ وإخوانها من مثل إنّا لله وإنّا إليه راجعون، والحمد لله الذي لا يحمد علىٰ مكروه سواه، يرددها ألوف الناس كل يوم حتىٰ لا يدركون معناها، وهي في الحقيقة معصومة من الابتذال بما تنطوي عليه من حكمة أزلية، والحكمة تظل في جدّة دائمة، وأول فضائل الإسلام الإيمان، بل الدين الإسلامي كله في لفظة (إسلام) ومعناها التسليم لله الرحمن الرحيم والثقة به جَلّ وتعالىٰ، أجل لا حول ولا قوة إلا بالله، وفي القرآن عظات في الصبر وآيات منها:

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥] ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٦ - ١٥٧].

أجل لا حول ولا قوة ولا راحة إلا بالله، ولا يغرنّك ما بك من قوة جسدية أيها الضارب الأرض بقدمه كأنك تنذرها بنمرود جديد: ولقد كنت في مطلع شبابي مثلك مزهوًّا بنفسي وطوّح بي الغرور فقلت في قصيدة لي:

وكأن ربك قد برىٰ　　عمد السماء لمّا براني

أستغفرك اللهم وأتوب إليك توبة نصوحًا، فها هو العمود المسكين يصبح أوهىٰ من سنبلة عجفاء في ريح صرصر.

تالله ما أضعف الإنسان! هذا فردريك نيتشه القائل بالقوة والإنسان الأعلىٰ (السوبرمن)، نيتشه الذي يغار من يسوع فيريد أن يستقوي يموت مريضًا بين (المجاذيب)، وهذا نبّوليون الأول الذي لعب بالقارة الأوروبية لعب الرياضي بكرة القدم يموت يائسًا في جزيرة بائسة.

ولا تغرنّك فلسفة الملحدين فهؤلاء الملحدون أنفسهم كانوا في أعماق أعماقهم مؤمنين، ولكنها الشهوات أعمت قلوبهم وعقولهم وأهابت بهم الكبرياء فأزعجتهم عن السَمْت، فراحوا يبحثون عن فردوس أرضي فكان مثلهم مثل الظمآن يدير ظهره للنبع السخيّ ويضرب في البيداء فلا يَرِدُ إلا السراب، وهو كلما ابتعد عن النبع ازداد عطشًا فشارف علىٰ الموت ظماء(١).

كنت في الرابعة والثلاثين يوم ودّعت صفو العيش إلىٰ غير رجعة أي حين نكبني المرض سنة ١٩٣٦ وقد تهيأت للإنتاج الأدبي، إذ توفرت علىٰ كمية من العلم تمكنني

---

(١) بولس سلامة، مذكرات جريج ص١١٠، ١١٣.

من الزرع، كما يفعل الحارث حين تجتمع لديه كمية من البذور، قد تأتي بالثمر الصالح، وقد تنبت قتادًا وهشيمًا أو زؤانًا يخنق الحنطة، وكل معرفة نسبية إذا نظرت إلىٰ المطلق، وإني اليوم لأجهل مني بالأمس، وسأكون غدًا أجهل مني اليوم، ولن يدعي العلم والعبقرية إلا جاهل مطبق، ولكني كنت يومذاك أعرف شيئًا علىٰ كل حال.

وقد تراءت لي الخطوط الكبرىٰ فصممت علىٰ التوليد سواء أكان الجنين سِقطًا أم بشرًا سويًّا، ولكن المرض أطاح بهذه التصاميم، وتهاوت براعم الدوحة في مهبّ العاصفة قبل أن تنعقد ثمرًا.

وغلّ العذاب قلمي قرابة عشر سنين، وقد ملأت الآلام ليلي ونهاري، وجع متقطّع وسهد منقطع، وقلق دائم، ولعلك تقول إن الألم يشحذ العزائم، ويرهف الحس، ويقوّي الروح علىٰ الجسد، فتنطلق الغيرة مغرّدة في صباح ربيعيّ، وهو قول صحيح من جهة فاسدٌ من جهة أخرىٰ، أما صحته فعندما يكون الألم معنويًّا ناجمًا عن غرام مكبوت أو عن تبرّمٍ بجور جائر، أو يكون صدىٰ لحزن وإملاق وما شاكل ذلك من الجراح النفسية.

أما فساده فعندما يكون مبعث الألم جسميًّا، فإن كنت متعنتًا وأبيت التصديق، فحاول أيها الأديب المتعنت أن تنظم قصيدة بينما يكون طبيب الأسنان آخذًا في اقتلاع أضراسك، فإذا أفلحت فقد أحبطت حجتي.

إذن فقد كان الإنتاج متعذرًا عليّ إلا يوم كان يهادنني الألم وقلّما كان يهادنني، والإنتاج يتطلب صحوًا في الدماغ وقلما كنت أستشعر هذا الصحو، إذ كانت الدورة الدموية تمتصّ بعض الصديد الذي يفرزه العظم، فترتفع درجة الحرارة ويغيم الدماغ، سواء كثرت هذه الحرارة أم قلّت[1].

(١) بولس سلامة، مذكرات جريج ص١٣٤، ١٣٥.

وأعتقد أن في هذا الإنتاج الأدبي كثيرًا من الغثّ يشفع به بعض السمن، وكلّه مطبوع بطابع العجلة لأن حالة المريض المهدد بالموت كحالة من يخشىٰ أن يفوته القطار فيكتب إلىٰ أهله ماشيًا علىٰ الرصيف، وكل ما نظمت في هذه الفترة موسوم بميسم الألم لو استطعت أن تقرأ ما بين السطور[1].

لقد سمّرني الألم مستلقيًا علىٰ ظهري تسع سنين متواليات، لا أتحرك فيها إلا بقدر ما تتحرك الخشبة علىٰ الماء الراسب، وانطفأت زهرة صباي في المستشفيات حيث قضيت من الأعوام ستة، وهذا هو العام الرابع عشر لمرضي الوبيل واستشهادي الطويل ولقد لفّني الجبس تسعين يومًا وتسعين ليلة موصولة الأنّات بالأنّات، لهّابة الزفرات، دونها لفح الهجير ونار السعير[2].

اللهم لئن شللتني عن الحركة وعزلتني عن العالم الخارجي، فشلّ قلبي عن الخطيئة، واعزلني عن السيئات، وليكن هذا المطهر اليسير بديلًا عن مطهرك العادل، فأكون قد أسلفت في هذه الدنيا بعض ما يبهظ الكاهل من حساب الآخرة، ولترجح كفة الرحمة علىٰ كفة العدل[3].

❁ ❁ ❁

كنت قبل إصابتي بالاكتئاب بنحو أربعة أشهر مدخنًا شرهًا؛ إذ بدأت التدخين في آخر سنة لي في دراستي الجامعية، أي وأنا في العشرين من عمري، وزاد تعلقي بالتدخين أثناء دراستي بإنجلترا، حتىٰ وصلت إلىٰ تدخين ما يقرب من ٤٠ سيجارة يوميًّا، أصبح التدخين لدي شرطًا ضروريًّا لكل شيء: للاستمتاع بكوب الشاي في

---

(١) بولس سلامة، مذكرات جريح ص ١٥٣.
(٢) بولس سلامة، مذكرات جريج ص١٤٠، ١٤١.
(٣) بولس سلامة، مذكرات جريج ص١٧٣.

الصباح وقبل أي طعام، ثم بعد تناول أي طعام، وشرطًا لتحضير محاضرة، ثم بعد انتهائها، وعند البحث عما أريد أن أقول، ثم عندما أجد ما أريد قوله.

إني أذكر بالضبط اليوم الذي بدأت فيه الامتناع عن التدخين، ففي ١٥ نوفمبر ١٩٨٧، عندما ذهبت إلىٰ أول طبيب في تلك السلسلة الطويلة من الأطباء؛ لأستشيره في أمر الضعف الذي أصاب ساقي وأصابع يدي في نفس اليوم، وأخرجت سيجارة أمامه بحركة لا إرادية، عبّر عن استغرابه الشديد، وكان صارمًا في تحذيري من الاستمرار في التدخين، واستجبت لطلبه منذ تلك اللحظة حتىٰ اليوم، فلم أضع بين شفتي طوال الاثنين والعشرين عامًا الماضية إلا سيجارة واحدة، بعد بدء امتناعي بشهرين أو ثلاثة، فوجدت لهما طعمًا يشبه طعم شيء محترق فأطفأتها ولم أعد إلىٰ مثل هذا قط، وقد تكون هذه هي الفترة التي ظل الجسم خلالها يتحمل حرمان ما تعوّد إدخاله فيه لمدة ثلث قرن، ثم ثار الجسم فجأة علىٰ هذا الحرمان في صورة ما وصفته بـ«انهيار عصبي» في فبراير ١٩٨٨، والذي كان بداية لفترة اكتئابي الطويل، ربما كان هذا هو التفسير البسيط لكل ما حدث، ولكن أحدًا من الأطباء لم يسألني عما إذا كنت مدخنًا، أو ما إذا كنت قد أقلعت عن التدخين فجأة[1].

ظللت حتىٰ بلغت السبعين محتفظًا بدرجة عالية من اللياقة البدنية، ولكن أصابتني صدمة عنيفة بعد بلوغي السبعين بأشهر قليلة عندما ذهبت إلىٰ الطبيب في زيارتي الدورية، دون أن يكون هناك ما أشكو منه، فأضاف إلىٰ التحاليل السنوية تحليلًا جديدًا يناسب بلوغي هذه السن.

لم تعجب الطبيب نتيجة هذا التحليل، فأجرينا غيره، فلم يعجبه هذا أيضًا، واضطر إلىٰ أن ينصحني بأن الأفضل، ما دمت سأسافر إلىٰ إنجلترا في الصيف علىٰ أي حال، أن أجرىٰ تحاليل جديدة لاكتشاف حقيقة الأمر.

(١) جلال أمين، رحيق العمر ص٣٥٣، ٣٥٥.

قضيت شهرين أو ثلاثة قبل سفري إلىٰ إنجلترا، كانت من أقسىٰ الفترات التي مرّت بي في حياتي، وشغلتني فكرة الموت خلال تلك الأشهر علىٰ نحو لم أعهده من قبل.

لا عجب، فالأمر في هذه المرة يتعلق بموتي أنا وليس بأي شخص آخر، لم أجد أي رغبة فيمن حولي في الكلام طويلًا عن هذا الموضوع وهو موقف مفهوم تمامًا، فاكتفيت بالتفكير فيه بيني وبين نفسي، علىٰ أمل أن أعثر علىٰ فكرة تهدئ خاطري، فلم أجد الأمر سهلًا علىٰ الإطلاق.

لقد فشلت في التخفيف عني كل الأفكار الشائعة وغير الشائعة التي يحاول بها الناس التخفيف من وقع فكرة الموت، ولكني وجدت نفسي، بعد مرور ثلاثة أو أربعة أشهر وقد عادت إليَّ الطمأنينة، بل بدا لي وكأني نسيت الأمر برمته، وعدت إلىٰ ممارسة حياتي الطبيعية تمامًا.

لا أدرىٰ أكان السبب في عودة هذه الطمأنينة مجرد التعود علىٰ الفكرة، وكأن للنفس قدرة محدودة علىٰ العيش مع الفكرة المؤلمة، ولا بد بعدها من طردها من الذهن تمامًا، أم أنني اهتديت بعد طول التفكير إلىٰ فكرة أو فكرتين استرحت إليهما بينما قد لا يستريح إليهما غيري؟.

لم أسترح قط للفكرة الشائعة بأن تأمل المرء لمصائب الآخرين لا بد أن يخفف من شعوره بمصابه؛ إذ لم أجد المقارنة مجدية، وحاولت أن أذكّر نفسي، المرة بعد الأخرىٰ، بأقوال حكيمة سبق أن قرأتها وأعجبت بها، فلم أجدها تنجح الآن في انتشالي مما أنا فيه.

كانت نصيحة طاغور أن ننظر إلىٰ الموت وكأنه أمر طبيعي تمامًا مثل سقوط الأوراق في الخريف، من هذه الأفكار التي أعجبتني في الماضي، ولكنها لم تحدث في نفسي الأثر المطلوب في هذه المرة. وكذلك قول دافيد هيوم بأنه لا يبالي بما إذا

كان سيموت في هذا العام أو الذي يليه، بالضبط مثلما لا يبالي بما إذا كان قد ولد في أوائل القرن الثامن عشر أو القرن السابق عليه، ولكن كان مما جلب لي الكثير من الراحة هذا السؤال الذي وجهته لنفسي: ما الجديد الذي يحزنك كل هذا الحزن، ولم يكن معروفًا لك من قبل؟ هل قال لك الطبيب أو أي شخص آخر الموعد الذي ستموت فيه؟ كل ما حدث أنه وجد لديك سببًا يؤدي بطبيعته إلىٰ الموت دون أن يعرف أحد متىٰ يحدث هذا، فهل تنكر أن هذا كان هو بالضبط نفس الوضع الذي كنت فيه قبل أن تذهب إلىٰ الطبيب؟

بل هل هناك أي شخص في العالم لا ينطبق عليه هذا «الاكتشاف»، وهو أن لديه سببًا يؤدي بطبيعته إلىٰ الموت دون أن يعرف متىٰ يحدث هذا؟ بل أليست واقعة الميلاد نفسها ينطبق عليها هذا الوصف؟ أليس الميلاد «سببًا يؤدي بطبيعته إلىٰ الموت»، إن آجلًا أو عاجلًا؟

ثم فلننظر إلىٰ حالتك أنت بالذات، لقد بلغت السبعين وتجاوزتها ببضعة أشهر، وهي سن محترمة تزيد عن السن التي بلغها أبي وأمي، وعن متوسط العمر المتوقع في مصر لدىٰ الميلاد، وقد ظللت فترة طويلة أنظر إلىٰ سن السبعين علىٰ أنها سن متقدمة، وما زلت أنظر إلىٰ سن الثمانين علىٰ أنها سن يصعب جدًّا احتمال الوصول إليها، بل ربما حتىٰ لا يشتهىٰ الوصول إليها، فهل قال لك الطبيب أو قدم لك أي دليل علىٰ أنك لن تبلغ سن الثمانين؟، أو لا يكفيك بضع سنوات أخرىٰ كثلاث أو خمس، لتحقق كل ما كنت تتمنىٰ تحقيقه في حياتك؟ وعلىٰ أي حال، ما تلك الأمنيات العظيمة التي لا زلت تأمل في تحقيقها؟ هل تظن أن كتابًا أو كتابين آخرين تكتبهما سوف يغيران العالم إلىٰ الأفضل، وأن الناس في انتظارهما علىٰ أحرّ من الجمر؟

عاد إليَّ جزء كبير من راحة البال، ثم استرجعت راحة البال كلها تقريبًا، وكأن شيئًا لم يحدث عندما قال لي الطبيب الإنجليزي في مدينة كامبردج عندما فحص نتائج جديدة للتحليل بعد سنة أخرىٰ، وبعد بلوغي الحادية والسبعين، إنه لو كانت شركة للتأمين علىٰ الحياة قد طلبت منه قبل مرضي أن يقدر العمر المتوقع لي، لكتب «ثمانين عامًا»، والآن وبعد سنة ونصف من إصابتي بالمرض لو طلب منه نفس الطلب فسوف يذكر نفس العمر.

اعتبرت حينئذ أن المشكلة قد انتهت، ولكن شيئًا واحدًا لم تستطع أي فكرة من هذه الأفكار أن تمحوه من ذهني، وهو ذلك الإدراك اليقيني بأن الحياة، مهما طالت محدودة، وأن لا أحد يعيش إلىٰ الأبد.

قد يبدو هذا القول سخيفًا، ولكنه ليس كذلك في الحقيقة، فمن المدهش حقًّا كيف أننا كلنا نقضي حياتنا ونحن نحمل هذا الشعور الدفين بأن الحياة غير محدودة، وكأننا سوف نعيش إلىٰ الأبد، بل من المدهش كيف أن وجود هذا الشعور الدفين واللاعقلاني تمامًا، شرط ضروري للتمتع بأشياء كثيرة في الحياة، من الوقوع في الحب إلىٰ جمع المال، إلىٰ البحث عن الشهرة... إلخ، وإذا بنا نصدم صدمة كبيرة عندما نكتشف فجأة أن الحياة، علىٰ الرغم من كل شيء، محددة المدة[١].

۞ ۞ ۞

بدأت كتابة موسوعة (اليهود واليهودية) وأنا في الثلاثينيات من عمري، وكنت أعمل فيها ليل نهار. أبدأ أحيانًا في السادسة صباحًا ولا أنتهي إلا في الثانية عشرة مساءً. وعلىٰ الرغم من تقدمي في السن، فإن حصتي من النشاط والصحة كانت آخذة في الازدياد بحيث كنت أكثر نشاطًا في الثامنة والخمسين مني في الخامسة

(١) جلال أمين، رحيق العمر ص٤١٦، ٤١٩.

والثلاثين. كما أن الله عافاني من أي مرض طوال هذه المدة (باستثناء نوبات المرض الخفيفة المعتادة التي تدوم عدة أيام ولا تعطِّل عن العمل، وعملية جراحية صغيرة دامت عدة أيام).

ولذا حينما كان أحد يحدثني عن التقدم في السن كنت لا أفهم ماذا يقول.

ولكن يوم أن انتهيت من الموسوعة، عرفتُ نبًا حزينًا للغاية (موت زوج ابنتي). وقد لاحظت في ذلك اليوم أنني بدأت أفقد المقدرة علىٰ النطق أحيانًا. وكنت أظن أنه عيب في فكي. وظللت متماسكًا مدة شهرين تقريبًا، ثم بدأت أشعر بدوار كلما فكّرتُ أو مارست أي أحاسيس، وقد سقطّتُ مرتين أو ثلاثًا علىٰ الأرض. ويبدو أن مرضي كان في معظمه نفسيًّا، نتيجة للإرهاق الذي أصابني من جراء العمل المتواصل في الموسوعة ومن جراء الخبر الذي وصل إليَّ وأنا مُنهك القوىٰ تمامًا بعد الانتهاء منها. فكان جهازي العصبي يتصرف بإرادته مستقلًّا عني، إذ قرر أن يستجيب وبحدة لأي شيء، ولكل شيء حسبما يعنّ له، دون تدخل واعٍ مني. لقد وضعت جهازي العصبي داخل ثلاجة مدة ربع قرن، كنت أتباهىٰ في أثنائها بأنني أنظر إلىٰ وقائع الحاضر نظرة مؤرخ. (وأنني يمكنني أن أراقب العمال يغيرون رخام منزلي وأكتب في الوقت عن الفيلسوف الألماني عمانويل كانت Emmanuel Kant، وقد حدث هذا بالفعل). كما أنني كنت عبر كتابة الموسوعة أعامل نفسي، خاصة في مسألة الوقت، بيد من حديد. كنت حينما أجلس في الأوبرا للاستماع للموسيقىٰ أو مشاهدة أي عرض، لا أكف عن التفكير في الموسوعة، ولا أكف عن الكتابة في أي ورقة تقابلني. وحينما كان أحد أصدقائي يزورني، أو كنت أروِّح عن نفسي، كنت أتصنع الابتسام والمشاركة في الحديث، وأنا هناك في عالم الموسوعة، أشعر بالذنب الشديد لضياع وقتي. وحينما كان حفيدي نديم يأتي من الولايات المتحدة، حيث كان أبواه يدرسان، كنت أخفي أوراقي تحت الأريكة وأبتسم في

وجهه، وأتظاهر بأنني ألعب معه إلىٰ أن تنادي عليه جدته، فأخرج الأوراق بسرعة وأستأنف الكتابة. بل كنت قبل أن أخلد للنوم أضع إشكالية ما في عقلي، ثم أنام علىٰ أن يستمر عقلي في التفكير، حتىٰ إذا استيقظت في الصباح ألفيت بعض ملامح الحل قد تبلورت. بل إنني كنت حينما أغمض عيني أرىٰ بقعة واسعة من النور.

رفض جهازي العصبي كل هذا، وتمرد عليه وعليَّ. فكنت حين أود عبور شارع ما علىٰ سبيل المثال، يخاف جهازي العصبي أحيانًا من تلقاء نفسه، برغم معرفتي الواعية بأن العبور لن يسبب لي شيئًا. فكنت أضحك من توقفي، لكن قدميَّ كانتا لا تتحركان. ومرة قبَّلني طفل صغير، فتأثر جهازي العصبي كثيرًا وأُصبت بدوار شديد كدت أسقط علىٰ أثره. ومرة أخرىٰ رأيت خادمة صغيرة تحمل أثقالًا، فحزنت من أجلها، وأصبت بما يشبه الشلل، واستندت إلىٰ السيارات الواقفة في الشارع إلىٰ أن بلغت المنزل، وهكذا. وقد ذهبت إلىٰ عشرات الأطباء، وقمت بكثير من الفحوصات، فلم تكشف الفحوصات عن شيء محدد، ولم يجد الأطباء شيئًا (كان الدكتور مجد زكريا يعالجني، وكما هو معتاد في مصر بدأ الناس يقولون لي لا بد من السفر للخارج. وقد كان، فسافرت إلىٰ سويسرا، حيث عُرِضْتُ علىٰ ثلاثة متخصصين، ذهبوا جميعهم إلىٰ أن ما قاله د. مجد هو أقصىٰ ما يمكن أن يوصوا به!). وكنت علىٰ وشك أن تُجرىٰ لي بعض الفحوصات (رنين مغناطيسي) علىٰ مخي والفقرات الرقبية، فأخبرتهم بأن يفحصوا بقية العمود الفقري، اكتشفوا أن الفقرتين الرابعة والخامسة الصدريتين في عمودي الفقري قد انهارتا منذ مدة طويلة (ربما في أثناء كتابتي الموسوعة) وأنهما بدأتا تتشكلان مرة أخرىٰ. وقد أخبرني أحد الأطباء بأنهما تساقطتا بطريقة آمنة لأنهما لو كانتا تساقطتا بطريقة أخرىٰ لأصبت بالشلل منذ عدة أعوام. واقترح أحد الأطباء أنهما تساقطتا علىٰ أنفسهما حينما سقطت من علىٰ ظهر حصان، فأخبرته أنني لم أمتط صهوة جواد قط كي أسقط من فوقه.

وقد حضر لزيارتي صديقي الدكتور عبد الحليم إبراهيم عبد الحليم، المهندس المعماري، فأخبرته بأنني لا يمكنني أن أتحدث واقفًا، فضحك وقال: إذن فلتتحدث وأنت جالس. ونصحني بالرضا بحُسبانه مدخلًا للشفاء. وبالفعل، قبلت حالتي وبدأت رحلة الشفاء والعودة منذ تلك اللحظة، فخلدت إلىٰ الراحة التامة لأول مرة في حياتي تقريبًا، وقضيت إجازة شهرين أمام البحر، امتنعت خلالها قدْر طاقتي عن التفكير حتىٰ استرددت جزءًا كبيرًا من عافيتي (كنت أعمل مدة أربع ساعات في الصباح وحسب). وأشير لهذه الفترة من حياتي بالزلزال أو الكابوس لأنها جاءت مفاجئة وكانت بالفعل كالكابوس، وذقت طعم المرض والموت لا كمقولات مجردة وإنما كتجربة عشتها بنفسي، واستوعبتها بشكل وجودي[1].

وتعلمت الكثير في مرضي: تعلمت أنا الذي لم أمرض مرة واحدة تقريبًا في أثناء كتابة الموسوعة، بل وكنت أتحدث عن السيطرة علىٰ الجسد، والذي أعددت عشرات المشروعات البحثية فور الانتهاء منها- تعلمت حدود الجسد الإنساني وحدود المقدرة الإنسانية. وبدأت أتعاطف مع المعوقين أكثر من ذي قبل (وإن كنت اكتشفت كيف أن الإنسان المعوق يعوض نقط النقص فيه من خلال كفاءات أخرىٰ يطورها). وتعلمت ما قاله لي أحد الأصدقاء إنه لا يوجد مرض وإنما يوجد مرضىٰ، أي أنه لا توجد قوانين عامة (أو نماذج مجردة) وإنما يوجد أشخاص يصابون بمرض ما ويستجيب كل واحد منهم للمرض بطريقة مختلفة. كما غمرني أصدقائي وتلاميذي بالمحبة، فعادني عشرات منهم ووصل إليَّ نهر جميل من الأزهار، كان يفيض من غرفتي علىٰ بقية المستشفىٰ. وحينما كنت أسير في شوارع لندن، كان كل الناس يساعدونني، وحينما أركب إحدىٰ وسائل المواصلات العامة

---

(١) عبدالوهاب المسيري، رحلتي الفكرية ص١٠٢، ١٠٤.

يتركون لي مقاعدهم. (في الشدائد يظهر المعدن الإنساني الأصيل، و«يقدم الإنسان شاراته الأخوية»، كما يقول الشاعر الشيلي بابلونيرودا[1].

❁ ❁ ❁

إن مشاعري أصبحت تدمىٰ الآن من حالة القلق التي تستبد بي، والتي تتحالف مع الحيرة اليومية وعدم النوم، الداء الذي ابتليت به طيلة حياتي: فأنا لم أنم في أي يوم أكثر من ثلاث ساعات في الأربع والعشرين ساعة، وربما كان ذلك من بين أهم البواعث التي دفعت بي لأجمع بعض أوراقي القديمة لأحاول أن أكتب ما يشبه السيرة، وأن أحاول أن أكون في كتابتها صادقًا[2].

إن كل ما أسعىٰ إليه هنا هو استنقاذ بعض أعـواد أعشاب الذاكرة قبل أن تجف تمامًا، واستعادة بعضها، حتىٰ بعد أن جفت لأعيد الإحساس بها عبر بعض (المخطوطات) التي حفظتها الصدفة من كتاباتي منذ فترة بعيدة منذ طفولتي .. ربما.

أمر آخر وددت الإشارة إليه هنا أن الرعب الذي أحسه دائمًا كلما تذكرت النهاية يفوق أي وصف، ليس الرعب من النهاية، فأنا سأرحل يومًا ما، وهذا من طبيعة الحياة والوجود، وإنما (كيف) سأرحل.

الرعب من (كيفية) الختام كيف سيكون الختام، أخشىٰ أن أفقد بعض خلايا المخ، فأصاب بهذا المرض الزهايمر المخيف، وهو ما لم يبارح ذهني قط منذ رحل أبي، وأخشىٰ أن أصاب في بعض أنحاء من تكويني الجسماني، فأفقد فضيلة (الحركة) المستمرة التي تجري في دمي وتكويني، وأخشىٰ أن أصاب بمرض ما خفي أو شيء ما يعوق عقلي عن التفكير أو جسمي عن الحضور الدائم.

---

(١) عبدالوهاب المسيري، رحلتي الفكرية ص١١٤.

(٢) د. مصطفىٰ عبد الغني، قبل الخروج ص٩، ١٠.

إنه مرض يفقد به الإنسان تدريجيًّا الذاكرة، بحيث لا يعود يقدر علىٰ أداء عمله، ثم يفقد القدرة علىٰ استخدام الأدوات والأشياء التي دأب قبلا علىٰ استعمالها، ويصل النسيان إلىٰ درجة مفزعة: الحركة العادية عدم تذكر الأحداث الماضية.

عدم فهم أو عدم تذكر ما يجري حوله في الحاضر -وليس في الماضي فقط- بل ويضرب المرض في حياته بعنف فلا يعرف شيئا مما حوله من أحداث وأولاد وأفراد عائلة، بل يأتي وقت لا يكاد يتذكر فيه أي شيء، لا التفكير العادي الذي يغيب، وإنما -أيضًا- الحركة التي لا تستجيب لصاحبها، إنه النسيان/ الأبيض.

إنه ما أخشاه وأنا أقترب من الستين الآن، صحيح أنني ما زلت أحتفظ بالكثير غير أنني أعتقد -وربما يكون ذلك طبيعيًّا- أنني بدأت أغيب أو يغيب عني صفحات بعيدة من الماضي ومن هنا أُصاب أكثر بالرعب، رعب الختام يتملكني ولا يفارقني أبدا ودعاء حسن الختام لا يبتعد عني أبدا إنه الخوف من المستقبل والرعب من طبيعة المصير. ليس هو -بالقطع- خوفًا من الموت، وإنما هو ما يسبقه والذي قد يطول والذي أخشىٰ معه ألا أكون قادرًا لأحيا هذه الحياة التي أريدها، وهو ما يذكرني بأبيات أبي العلاء المعري:

من السعد في دنياك أن يهلك الفتىٰ   بهيجاء يغشىٰ أهلها الطعن والضربا
فإن قبيحا بالمسود ضجعة   يشكو فيها إلىٰ النفر الكربا

إنه الختام، كيف سيكون إنني بين يدي الله، لكنني -كإنسان- لا بد وأن يعتريني الخوف للغد ترىٰ أي غد ينتظرني، وأي ختام سأصل إليه![1]

---

(١) د. مصطفىٰ عبد الغنيّ، قبل الخروج ص٣١، ٣٤.

الآن أقترب من الستين، وأنا الآن أكتشف أنني كلما دعوت أردد دعاء بعينه تزيد الأدعية أو تقل ولا يتغير هذا الدعاء *أو ينقطع قط بما له من دلالة نفسية جاء فيه: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن وأردد وأشدد كثيرًا وأنا أضيف من دعاء آخر في موضع آخر: اللهم آمن روعاتي.

وهذه الحالة (الروع) أستعيرها من التراث حيث جاء الدعاء «اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي» وكتب التراث ترىٰ أنها جمع «روعة» وهي المرة الواحدة من الروع أي الفزع (النهاية) وهو ما نستعيد معه ما ورد عن أنس أنه: فزع أهل المدينة ليلة فتلقاهم رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وقد سبقهم وهو يقول: «لن تراعوا»، والروع بهذا المعنىٰ هو ما كنت أختزل به حالتي خاصة السنوات الأخيرة[1].

***

ورثت من هموم ذلك الجيل عادة التدخين التي عافاني الله منها بآخرة وله الحمد كثيرًا، وقعت فيه عابثًا لرداءة الجليس، وسرعة تكوين العادة، وصعوبة التخلص منها، وكنت أيضًا في حالة غضب ومشاجرة فنبزت مدخنًا بالتدخين وعيرته به في محفل فعوفي منه فترة ما وبليت، ولو تهزأ بأخيك في رضاع كلب لرضعته.

وجربت أن الذين يستسهلون عادة التدخين ويجعلونها دون مرتبة الحرمة مضللون بصيغة اسم المفعول والفاعل معًا، وجربت -أيضًا - أن تلاوة كتاب الله وحفظه وتدبره مطلب شريف نفيس ترد عنه عادة التدخين، وربما ضرب المدخن أسنانه بالفرشة ثم السواك ومس طيبًا أو بخورًا ليقرأ القرآن، ولكنه فيما بين خمس دقائق أو عشر دقائق يحن إلىٰ إشعال سيجارة فيطبق المصحف، ولن يعاود التلاوة إلا بعد فترة طويلة؛ لأنه لن يستخدم الفرشة والطيب في كل ربع ساعة!!

---

(١) د. مصطفىٰ عبد الغنيّ، قبل الخروج ص١٥٨.

وربما صام المدخن يومًا تطوعًا، ولكنه عند أذان المغرب يأكل تمرة علىٰ عجل، ويرشف مجة قهوة علىٰ عجل أيضًا، وليس ذلك من أجل أن يلحق الصلاة المكتوبة، وإنما غرضه أن يستلقي ويسترخي ويشعل سيجارة إثر سيجارة بنهم شديد، ويلغ في الشاهي بنهم، وبئس العشير السيجارة والشاي، ثم يقوم للصلاة متثاقلًا في بيته بعد إغلاق أبواب المساجد، فاعجبوا أيها القوم لصيام تطوع وصلاة في البيت!

وجرَّبت أن المدخن لا يذهب إلىٰ الصلاة جماعة إلا نادرًا بعد مؤونة شديدة من تغيير الملابس والفرشة والتطيب والاشتغال بقرض حب هان أو مسمار (عويدي) أو نعناع، وجربت أنه إن ذهب لصلاة الجماعة لا يمكن أن يتقدم مع الأذان أو قبيله. وجربت أنه لا يمكن أن يتأخر في المسجد بعد المكتوبة للاشتغال بنافلة أو ورد، وجربت أنه في وحشة من أهل الخير والصلاح يختلق المعاذير للابتعاد عنهم إن دعوه لزيارتهم، ويتباعد بحذر أن يطأوا بساطه!

وجربت أن المدخن إذا دخل المسجد دخله كالسارق لا يلج المسجد إلا بعد يقينه بأن المؤذن أقام الصلاة ثم يندس آخر الصف ويهرب من المسجد بعد التسليم مباشرة وقلما تنفل في بيته! ومرت بي مواقف أسهل منها الخسف والقصف!!

قال أبو عبد الرحمن: وليست تباريحي هذه كاعترافات النصارىٰ التي ترفع جانب التحفظ، فإنني أستعيذ بالله من ذلك، وأنا أول العائبين علىٰ مثل رسل وجورج صاند!

ولكن هذه التباريح تجربة مقصر ظلم نفسه في بعض الأحيان ولم يمت قلبه، فلما فاء الله بي كنت ممن جرب عز الطاعة وذل المعصية، فضفرت من بعض تجاربي مرائر يستمسك بها القراء للعظة والذكرىٰ، أسأل الله العفو عما مضىٰ وأستمنحه العصمة فيما بقىٰ، وإنني الآن لأتقزز من رائحته، وأعجب من قبول

نفسي له في سنوات خلت، فلله الحمد كثيرًا، ووجدت أعظم عون علىٰ الإقلاع من المعصية الاعتراف للرب بها، والانطراح بين يديه بالدعاء وطلب العصمة[1].

۞ ۞ ۞

لا يحب أحد أن يتكلم أو يسمع عن المرض، فهو بمثابة تعطيل للحياة ولا يكاد يعتبر جزءًا منها، ولكن المرض حقيقة تتفاوت حدة تأثيرها من شخص لآخر، وأما من يزعم أنه في تمام الصحة والعافية ولا يأبه للمرض فهو في الحقيقة يولي صحته الرعاية الكاملة، بل أحيانًا ما تشغله هذه الرعاية عن عمله! وكان الدرس الذي خرجت به من تجربة المرض والعمليات الجراحية المتوالية هو أنني قد أصبحت في الرابعة والخمسين ولم أحقق ما أصبو إليه من أحلام[2].

والحق أنني لم أكن خائفًا من الموت، فلقد درجت منذ الصبا علىٰ تقبله في إطار الإيمان الفطري، وأصدق ألوان الإيمان هو الذي ينبع من أعماق النفس، من مناطق يتجاوزها الوعي ولا يتساءل عنها، سواء شبهناها بأعماق المحيط أم بحلكة الليل الدامس في مجال السموات، ثم يبزغ فيهم نوره في الوعىٰ، ويؤكد للإنسان ما قد يصل إليه الوعي من إدراك لحياته الباطنة، ولذلك كنت وما أزال أعتقد أن لون الإيمان البسيط وهو الإيمان غير المتسائل، أو ما يسمىٰ في تراثنا بإيمان العوام، أصدق من إيمان الفلاسفة الذين يستخدمون شواهد الحواس فيما يسمىٰ بالاستدلال المنطقي وصولًا إلىٰ حقيقة الروح، فالإيمان غير المتسائل يأتي بيسر لمن درجوا علىٰ تدريب أرواحهم علىٰ التسليم باللغز الأكبر، لغز الوجود والروح معًا، فظفروا بالسكينة، واطمأنوا إلىٰ المصير، وتجلىٰ ذلك كله في سلوكهم، وإنك لترىٰ في سلوك مثل هذا المؤمن قناعة ورضا، وابتعادًا عن الأذىٰ، وابتسامًا في وجه

(١) أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري، شيء من التباريح ص١١٣، ١١٩.
(٢) محمد عناني، واحات مصرية ص١٧٢.

المحن، وصبرًا عليها ومكابدة لها، فلديه ما يمكن أن نسميه بالروح الحية، وذلك ما كنت أحس بضياعه من مجتمعنا الجديد، وإن كنت أراه ماثلًا حيًّا في بعض من عرفت وأحببت، ممن يقولون الحمد لله علىٰ كل حال، ويمسكون عن الخوض في الغيب، ويخلصون في العمل، ويقبلون علىٰ مساعدة الغير[١].



أذكر حادثة فريدة حصلت لي إبَّان عملي -في السعودية- إذ ظهر في الأفق البعيد رجل معه دابة علىٰ ظهرها شخص مسطح أفقيًّا، وبدأت الصورة تتوضح شيئًا فشيئًا إلىٰ أن وصلا إلىٰ باب المستوصف فتبيّن لي أن الشخص الذي علىٰ الدابة صبي لا يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، والبدوي رجل طويل القامة ذو شعر أسود طويل مجدول كشعر النساء، لمّاع وكأنه مدهون بالزيت، حمل البدوي الولد ووضعه علىٰ سرير الفحص، وإذا به جثة هامدة، فسألته: «من يكون هذا الولد؟»، فأجابني: «ولدي الوحيد»، فقلت له: «ولدك مات». فقال بثقة وراحة وبصوت ثابت: «الحمد لله». فصفعته بغضب وقلت له: «كيف تقول الحمد لله وابنك الوحيد جثة هامدة؟» فمفهومي للحمد كان آنذاك بمثابة حمد لله علىٰ الخلاص أو النجاة من مكروه ما، ولم أعرف للعبارة أي معنىٰ آخر، فقال لي عندئذٍ: «الحمد لله الذي لا يحمد علىٰ مكروه سواه»، فقلت له: «أعد ما قلت»، فأعاده فقلت له: «من أين لك هذا القول؟»، فقال: «هذا حديث نبوي»[٢]، فترقرقت عيناي بالدموع وحضنته وقلت له: «والله أسلمت»، وكان لهذه الحادثة أثر كبير في تفكيري، فبالرغم من أنني ما أزال أتأرجح بين الإيمان بالله وعدمه، فإن ما قاله هذا البدوي الأميّ وعمق إيمانه بالله أكَّدا لي عظمة الفلسفة الإسلامية وعظمة نظرتها إلىٰ الموت، وقد تأكدت لي هذه الحقيقة

---

(١) محمد عناني، واحات مصرية ص١٦٦، ١٦٧.

(٢) ليس بحديث والأولىٰ أن يقال الحمد لله علىٰ كل حال.

علىٰ مرّ السنين عبر تجربتي مع المرضىٰ المسلمين، وخصوصًا السعوديين الذين يقبلون الموت لكونه حتميًّا. فهم برغم حزنهم لا يجدون داعيًا للمسرحيات أو للنحيب والبكاء وكل المظاهر الفولكلورية التي يمارسها أبناء الديانات الأخرىٰ في حالات الموت وعند إقامة الجنائز، ويكفيني من الإسلام هذه الفكرة وهذه النظرة الرصينة لفلسفة الموت[1].

(١) منير شماعة، إقلاع وهبوط ص٧٠.

خلف القضبان

في السجن نماذج مذهلة في غرابتها، كأن يدًا مدَّت نفسها، وتمددت حتىٰ قاع المجتمع لتصل إلىٰ أعمق أعماقه وتستخرج منه عجائبه وغرائبه، وغير الأسوياء فيه[1].

والشيء الغريب في السجن أنك ما أن تدخله حتىٰ تشعر وكأنك به منذ ولدت، وما أن تخرج منه حتىٰ تحس وكأنك خلعت عنك كل جراحه وندوبه من زمن بعيد[2].

وفي السجن كل الناس «مظاليم»، ويصعب علىٰ أي إنسان أن يعرف الحقيقة؛ ولهذا فإن السجاَّن لا يصدق أحدًا من المسجونين، ويرمي وراء ظهره بكل القصص والحكايات التي يسمعها، ولا يكترث للدموع التي يذرفها المظلومون، فالسجن عالم من الشك والريبة والغموض، وصدق الشاعر الذي يقول:

لا يدخل السجن إنسان فتسأله ... ما بال سجنك إلا قال مظلومُ

وهكذا يخيل للرائي أن السجن ليس فيه سوىٰ المظلومين وأن خارج السجن هو العالم الواسع الذي يعج بالظلمة من البشر[3].



(١) رفعت السعيد، مجرد ذكريات ص١٥٤.

(٢) رفعت السعيد، مجرد ذكريات ص١٨٨.

(٣) نجيب الكيلاني، مذكرات الكيلاني ص ٤٢٣.

أخذت في السجن بقراءة الكتب، كنت أقرأ أي كتاب تقع عليه يدي، لقد كان السجن مكانًا جيدًا للقراءة والتفكير بدون إزعاج، فقد كنت أفكر في الحياة وفي معنىٰ السعادة بالنسبة لي، كان الجلوس في السجن هدوءًا، والقراءة والتفكير بدون الحاجة للتخطيط والاختباء والعمل الشاق والجوع أمرًا لا بأس به، بل إن السجن في الواقع كان وقتًا للتجديد جسديًّا وروحانيًّا.

أتاحت لي الحياة في السجن معرفة قوة الإنسان الهائلة علىٰ التكيف، في البداية، لم أستطع حتىٰ غسل يدي بالماء الذي يقدمونه لنا، لأنهم كانوا يعطوننا القليل جدًّا، ومع ذلك، بعد فترة لم تكن لدي مشكلة في غسل يديّ ووجهي، وتوفير القليل.

الطعام المقدم لنا كان عبارة عن قليل من الأرز، مضافًا إليه قليل من الفاصولياء، عندما رأيت الفاصولياء لأول مرة، لم أتوقف كثيرًا عندها، لكن عندما جاء الأرز بدون فاصولياء، لاحظت أنني قد أصبت بالخمول والكسل، وعندما أجري تمارين لمدة عشر دقائق يوميًّا كنت أعود لزنزانتي منهكًا.

وهكذا بعد هذه الواقعة أصبحت أُقدِّر حتىٰ أصغر الأشياء في حياتي وأعرف قيمتها، تعلمت أن الإنسان لا يحتاج إلىٰ كثير من الماء أو الطعام لكي يبقىٰ حيًّا، منذ ذلك الوقت لم أنغمس مطلقًا في «طعام جيد» أو أسعىٰ للحصول علىٰ «أصناف الطعام الذي يزيد القدرة علىٰ التحمل».

زارتني أمي مرة واحدة فقط في السجن، وكانت تلك قبيل الإفراج عني، لم أرغب في أن تراني في ملابس السجن، فطلبت من أحد الحراس الودودين أن يحضر لي بنطلونًا وقميصًا وذهبت لرؤيتها في قاعة الزوار، كانت أمي ترتدي فستانًا تقليديًّا أبيض اللون، والذي عادة ما ترتديه في الصباح، فاستغربت أن تأتي إليّ لابسة

هذه الملابس، ثم أدركت عندما دققت فيها أن السنوات تمر، وجسدها الهزيل يزداد ضمورًا، وتبدو مريضة، كانت تشعر علىٰ ما يبدو أنها أشرفت علىٰ نهاية العمر.

جلسنا معًا، ولم أستطع قول أي شيء. علمتُ أن أمي كانت قلقة عليّ لدرجة المرض، وأنها سرعان ما مرضت بعد القبض عليّ، لكن لكونها سيدة قوية، حاولت بصعوبة ألا تنهار أمام ابنها، وبعد فترة، نظرت إليّ قائلة: «هل تذاكر؟ هل تصلي؟ هل تقرأ الإنجيل»؟ هذا كل ما قالته، وسرعان ما قامت استعدادًا للمغادرة، فقال لها الحارس إنه ما يزال أمامها خمس دقائق أخرىٰ، لكنها قالت: «هذا يكفي، فقد رأيت وجهه، شكرًا».

عندما خرجت من السجن وعدت إلىٰ المنزل، وجدت أمي نائمة علىٰ سريرها غير قادرة علىٰ النهوض، كان قلبها معتلًّا وحالتها الصحية تزداد سوءًا، وعندما علمت أن ابنها الأصغر قد خرج سليمًا من السجن، يبدو أنها ارتاحت ونسيت كل همها وحزنها، لقد كرّست حياتها بالكامل من أجل الأسرة.

لم تتمتع أمي مطلقًا بامتلاك منزل يمكن أن تقول عنه إنه بيتها، في ذلك الوقت توفر لدىٰ أخي الأكبر مالٌ يكفي لشراء شقة صغيرة للأسرة، لكن أمي لم تعش لتتمتع بما حلمت به طيلة عمرها، وعندما انتقلنا إلىٰ الشقة الجديدة عقب وفاتها بكينا جميعًا.

عقب مرور بعض الوقت علىٰ وفاة أمي، سلمني أبي خطابًا كتبته أمي، كان مكتوبًا بخط اليد وموجهًا إليّ، اكتشفت أنها كتبت الخطاب، وهي علىٰ فراش المرض قبل زيارتها لي في السجن، مخافة أن تدركها المنية قبل رؤية ابنها الأصغر، كتبتْ فيه: «ابني الحبيب ميونج-باك، آمل أن تواصل التشبث بما تعتقد به والدفاع عنه، كن أمينًا دائمًا ولا تفقد شجاعتك، أنا أؤمن بقدراتك دائمًا، تذكّر أنني دائمًا أدعو لك بالتوفيق، وسأظل دائمًا كذلك»[1].

---

(١) لي ميونج باك، الطريق الوعر ص ٥٧، ٦٠.

وصايا

كان السيد فخري البارودي الشخصية الدمشقية المعروفة يقول لي بين حين وآخر: دع ربع ساعة من وقتك كلّ صباح لتكتب ما جرىٰ لك في اليوم السابق؛ ليكون لك فيما بعد كتاب تُسرّ به، وكان الأمير جعفر الجزائري رحمه الله، أمين عام مجمع اللغة العربية يقول لي أيضا: حين كنت إلىٰ جانبه في المجمع: اكتب هذه الحكايات القصيرة والنكات التي تحفظها فإنها تصنع لك كتابًا يذكرك به الناس[1].

❁ ❁ ❁

أنا مدين بأول تحذير أبوي مخلص للدكتور علي الراعي، الذي فاجأني وأنا أستضيفه ذات مرة لإحدىٰ ندوات البرنامج الثاني في بداية عملي الإذاعي بقوله: يا بني، إنك تذكرني بشبابي في مطالع حياتي، عندما كنت أعمل بالإذاعة، ووصلت إلىٰ منصب كبير المذيعين -وهو منصب كانت له في ذلك الحين أهميته وخطورته - لكنني سرعان ما أفقت، وأتيحت لي فرصة تعديل المسار عندما أعلنت جامعة عين شمس عن بعثاتها الأولىٰ، فتقدمت إلىٰ بعثة في الأدب الإنجليزي، عدت منها أستاذًا في الجامعة، وأنقذت نفسي من المهنة التي أحذرك منها الآن: مهنة التفاهات اللذيذة!، إنها مهنة تغرق صاحبها بالعلاقات الاجتماعية والمعجبين والمعجبات والمكالمات التليفونية والرسائل وتبعده تدريجيًّا عن الثقافة والعمق والجدية. ثم استدرك قائلا: لكن حظك الآن أفضل.

في زماني لم تكن هناك إذاعة البرنامج الثاني ولم يكن هناك سبيل للعمل الثقافي والأدبي في الإذاعة بهذا القدر من الشمول والاتساع والتخصص، ولو كان موجودًا لقررت الانتساب إلىٰ أسرته والعمل فيه.

---

(١) أحمد الجنديّ، لهو الأيام ص ٩.

وأيقظت كلمات الدكتور علي الراعي -بكل حرارتها وصدقها - شجونًا كثيرة في نفسي: البعثة إلىٰ أوروبا، تعديل المسار الإذاعي، مهنة التفاهات اللذيذة، لكنه عمّق من قراري الداخلي الذي كنت قد اتخذته لنفسي من أول يوم في حياتي الإذاعية وهو أن يكون عملي في المجال الثقافي وحده لا سواه، سواء في إذاعة البرنامج الثاني أو في غيرها[١].



بُعَيْدَ تخرجي من الجامعة وعندما كنت أتأهب للعودة إلىٰ بلادي؛ لآخذ نصيبي في خدمتها ذهبت لأودع الرجل الكبير الذي كان لي شرف التمتع برعايته، فترة غير قصيرة من سني دراستي الجامعية: ذهبت لأودعه ولأشكره كذلك، لقد حدثني يومها حديثًا طويلًا عن مسئولية الشباب ورسالة المثقفين، وختم حديثه بتوجيه نصيحتين: أولاهما: أن أعمل في حقل التدريس، وألا أنصرف عنه إلىٰ أي عمل إداري مهما بدا براقًا، وثانيهما: أن أتخذ سجلًا أكتب فيه مذكرات يومية، وسيصبح هذا السجل بتقادم العهد ذخيرة من الذخائر، ويرجع إليه كاتبه فيرىٰ فيه صورة لحياته الماضية، ولحياة عصره، وللظروف التي كان يعيشها أو تحيط به[٢].



إذا كانت قدماي لم تنزلقا في سبيل الفساد الأخلاقي، فالفضل في ذلك يرجع كله إلىٰ النصائح التي كانت تتعهدني بها أمي في صباي، إذ كنت أضع نصب عيني نصيحتها التي أسدتها إليّ في أخريات أيامها، فكثيرًا ما كانت تقول لي: «إياك يا نجيب حين تكبر أن تمشي في الطريق المعوج، وحاسب من الهفوة الأولىٰ، واعلم

---

(١) فاروق شوشة، عذابات العمر الجميل ص١٤٠، ١٤٢.

(٢) عبد العزيز الربيع، ذكريات طفل وديع ص١٣.

بأن الفارق بين الطريق المستقيم والطريق الأعوج شعرة لا تكاد ترىٰ في أول الأمر، ومع التمادي في الطريق الأعوج تجد نفسك قد سقطت السقطة التي لا تقوم منها»[1].

ولا أراني أغلو حين أقول بإجمال: إني حين أتتبع حياة من زلت بهم القدم في سلوكهم الأخلاقي والاجتماعي، أجد أن كثيرًا منهم خاب مسعاه، وأن الحيدة عن الطريق القويم تركت في حياتهم أسوأ الأثر، فإن من لم يخفق كل الإخفاق، تخلف عن ركب الطليعة، ولم يبلغ قمة المجد[2].

۞ ۞ ۞

اقرأ بتدبر كل يوم صفحات من كتاب جيّد للقدماء أو المحدَثين، وذلك في الموضوعات التي تأخذ من نفسك، فتزيد رأس مالك الأدبي، وتُدْخل السرور والسلوىٰ علىٰ قلبك، وتشغل جانبًا من وقتك فيما يفيدك، والأفضل أن تكون قراءتك بصوت عالٍ[3].

أوصيك يا بني أن تكون محسنًا علىٰ قدر يدك، وشفيقًا علىٰ مدىٰ قلبك، وليكن ذلك في سبيل الله فقط، غير منتظر جزاءً، ولا شكورًا لئلا تُمنىٰ بخيبة تبغّض إليك المروءة.

وإنما يجحدك الجاحدون، لأن في تذكر الصنيع نبشًا لماضٍ يدفنونه استكبارًا، يوَّدون لو خسفت بك الأرض فلا يرون لك وجهًا، لأن رؤيتك تعيدهم إلىٰ منازل الضعة والخمول، وهم أحرص ما يكون علىٰ نباهه الصيت، دفعًا لمركب الدونية، واستجابةً لداعي الصَلَف، يغطون بها ذلًا ما برح في أذهانهم حيًا ماثلًا، ينغص

(١) د. نجيب محفوظ، حياة طبيب ص٥٨.
(٢) د. نجيب محفوظ، حياة طبيب ص٦٢.
(٣) محمد كرد علي، المذكرات (٥ / ٢٣٨).

عليهم حاضرهم البهيج، وإلىٰ أمثالهم أشار الإمام علي في قوله: «احذروا صولة الكريم اذا جاع واللئيم إذا شبع». واعلم أنه علىٰ قدر الإحسان تكون الكراهية، فإذا كان جزيلًا جرَّ علىٰ المحسن الموت أو ما يدانيه من أذىٰ[1].



(١) بولس سلامة، حكاية عمر ص١٥٥.

عصارة الأيام

ليس من الضروري -في سبيل معرفة ظواهر الأمور وبواطنها - أن تنتظر حتىٰ يتراكم غبار السنين علىٰ كتفيك، بل يكفي أن تنظر إلىٰ الغبار المتراكم علىٰ أكتاف الآخرين[١].

* * *

قد علّمت الخلق التجارب، أنه كلما تطاولت الأيام وتراخت الآماد علىٰ الحوادث، زيد في الأخبار، ونقص منها، وما زالت تعتورها التصورات بالقلب والإبدال، إلىٰ أن تصبح الأخبار في واد، والحوادث الحقيقية في واد، ويعود التاريخ قصصًا موضوعًا، فالخبر أمانة في ذمة المعاصر للحادث، ولا سيما المطلع الشاهد، ينبغي أن تؤدي تلك الأمانة علىٰ أصلها، نصحًا بالرواية وحرصًا علىٰ التحقيق[٢].

* * *

لقد أفادتني التجربة المرة أن خير هبة يهبها الله للإنسان مزاج هادئ مطمئن، لا يعبأ كثيرًا بالكوارث، ويتقبلها في ثبات ويخلد إلىٰ أن الدنيا ألم وسرور ووجدان وفقدان وموت وحياة، فهو يتناولها كما هي علىٰ حقيقتها من غير جزع، ثم صبر جميل علىٰ الشدائد يستقبل به الأحداث في جأش ثابت، فمن وهب هاتين الهبتين فقد منح أكبر أسباب السعادة[٣].



(١) عمر فروخ، غبار السنين ص٢١٩.
(٢) شكيب أرسلان، سيرة ذاتية ص٢٠٧.
(٣) أحمد أمين، حياتي ص٢٩١.

خلقت أحب العمل؛ لأني أحس من أعماقي أن العمل الذكي الإيجابي هو الشيء الوحيد الذي يعطي هذه الحياة شأنًا وقيمة، وهو المقياس الأوحد الذي ينبغي أن نقيس به الناس.

آمنت أن قيمة كل إنسان، مهما صغر أو كبر ليست في أسرته أو حَسَبه أو شهاداته أو مركزه الاجتماعي أو ثروته أو ألقابه، فهذه قيم غير ثابتة، قد تزيَّف أحيانًا وقد تزوَّر، ولا تنبئ عن الحقيقة. إنما قيمة الإنسان بما ينتج، فلو آمن كل الناس بهذا المبدأ وشعر كلٌّ أن هدفه أن يعمل في اختصاصه، وأن يُقِلَّ الكلام، ويدع الآخرين يعملون فيما يعرفون لقفزنا بسرعة إلىٰ الأمام، هذا المبدأ ليس من ابتكاري، إنه من التراث العربي القديم، من قول علي بن أبي طالب: «قيمة كل امرئ ما يُحسن»، أي: ما ينتج[1].

۞ ۞ ۞

مذهبي في الحياة يتميز بالاستقامة والوضوح، وبفضل هاتين الميزتين بلغتُ الغاية التي قصدتُها منذ وعيت، لم أبلغ عليه الثراء الضَّخم ولا الجاه العريض، ولكني بلغت عليه العيش الرَّخِيَّ، والبال الرَّضِيَّ، والذِّكر الحسن، والسعادة الحقُّ أقرب إلىٰ الرضا والسكينة منها إلىٰ المال والمنصب.

حرصت علىٰ أن يكون مذهبي مستقيمًا، حتىٰ كانت العقبة الضخمة تعترض فأقف دونها طويلًا أفتِّتها بمعولي الصغير حصاة حصاة إلىٰ أن تذلَّ وتزول، وحرصت علىٰ أن يكون مذهبي واضحًا، حتىٰ كانت المشكلة الصعبة تعرض فيكون حلُّها يسيرًا بشيء من النفاق وقليل من المصانعة، ولكني كنتُ أنفر من ذلك كله وأحاول أن أعالجها بالصدق والصبر والصراحة، فتنحلُّ بعد أن تترك في النفس من الأثر ما

---

(١) صلاح الدين المنجد، لمحات عن تجاربي الفكرية ص١١٨، ١٢٠.

يتركه الجرح في الجسد من الندوب، ولكن هذه النُّدوب ستظل علىٰ الزمن مثارًا للذَّة من لذات الروح تُشِيع فيها العزة والحرية والكرامة.

من مذهبي أن أدع الخلق للخالق، فلا أنتقد ولا أعترض، ولا أمدُّ عيني وراء الحُجُب، ولا أرهف أذني خلف الجُدُر، ولا أدسّ أنفي بين الوجوه، ولا أزحمَ بمنكبي من يمشي عن يميني أو عن يساري ما دام الطريق مفتوحًا أمامي إلىٰ الوجه الذي أقصده؛ لذلك عشتُ لين الجانب، سليم الصدر، لا أدخل في جدل، ولا أشارك في مراء، ولا ألجُّ في منافسة، وكان من جدوىٰ ذلك عليَّ أن الله وقاني عذاب الحسد، وكفاني شر العداوة، وجعل ما بيني وبين الناس قائمًا علىٰ المجاملة والمساهلة والودِّ.

ومن مذهبي أن أسقِط الماضي من حساب الحاضر فور انقطاعه، فلا أحزن علىٰ ما فاتني فيه، ولا آلم لما ساءني منه، وتصيبني الخسارة فلا أجزع، إنما أطرحها من ربح الصحة والنجاح والأمن، ثم أدبِّر أمري علىٰ اعتبار أنها لم تكن، ويسوؤني الصديق فلا أبتئس، إنما أحمل إساءته علىٰ حيوانيته وأَثَرته، فإذا عاد إلىٰ الإحسان لا أعاتبه علىٰ ما كان، ولا أذكِّره بما فعل، وأيُّ نفع أرتجيه من تعكير ما راق وإشعال ما خمد؟! إني لا أصادق إلا من أحِبُّ، واللذَّة التي أجدها في حبِّ الإنسان تعوِّضني من الألم الذي أجده في لؤم الحيوان.

وللإيثار جانبٌ عظيمٌ من مذهبي في الحياة؛ فأنا أوثر صاحبي علىٰ نفسي في المجلس والحديث والهوىٰ، وقد أوثره أحيانًا بالمنفعة؛ لأن شعوري بأن أدخِل السرور عليه، أو أجلب السعادة إليه، أجلُّ في نفسي من شعوري بأن أتصدَّر في الجلوس، أو أنفرد بالكلام، أو أتغلَّب في الإرادة، أو أختصَّ بالفائدة.

ومن مذهبي أن أجعل الجمال سبيلًا إلىٰ الخير ودليلًا علىٰ الحق، فأنا أتوخَّاه في اللباس والطعام والمسكن والأثاث، كما أتوخاه في النفس والفن والطبيعة.

هذا مذهبي سننته على هدى الفطرة التي فطرني الله عليها، وسلكُته منذ ابتدأتُ حياتي، وسأسلكه إلى أن تنتهي، ولو كان في الإمكان أن أورِّثه ولدي لسعدتُ به حيًّا وميتًا، ورضيت عنه دنيا وأخرى[1]!

۞ ۞ ۞

تعلَّمتُ ألا أكون أسير رأي أو كتاب؛ فإن مؤدَّى هذا الأسرِ الإفلاسُ العقليُّ والعاطفي. وفائدة الكتب أن يقرأها الإنسانُ ويدرسها ويفكِّر فيها، ويضيف عقول أصحابها إلى عقله، لا أن يظلَّ أسيرها.

ولست أحتاج إلى مثل هذه الوصية؛ لأني أنسى ما أقرأ، والنسيان آفة، ولكن ضيرَه يسير، وكون المرء قد نسي شيئًا ليس معناه أنه لم ينتفع به، أو أن هذا الشيء اندثر وانمحى، فإنه يبقى وراء الوعي، وإن كان لا يطفو على السَّطح ولا تُلِمُّ به الذاكرة، فلا يسعفها حين تطلبه، والفائدة العقلية تحصل على الحالين، سواءٌ نسي المرء ما قرأ أم تذكَّره، كما تحصل الفائدة من الطعام وإن نسي المرء ما أكل، والمعوَّل على الهضم؛ فإن العقل ليس رفوفًا يُصَفُّ عليها ما يقرأ المرء أو يَدْرُس[2].

۞ ۞ ۞

سألت صديقا لي مرة عن السبب الذي جعله يشترك في حوار تليفزيوني لا أرى فيه أي ميزة تجذب المرء إلى الاشتراك فيه: لا الموضوع، ولا شخصية المذيع المحاور، ولا اتجاهاته السياسية، فقال لي إنه يظل سنوات يكتب المقالات في صحيفة من الصحف بعد أخرى فلا يشعر بأنها كوّنت له جمهورا يقرأه ويعرفه، ثم يظهر مرة واحدة في برنامج تليفزيوني، ولو في ساعة متأخرة من الليل، فإذا به في كل يوم يقابل من يتعرف عليه ويسأله باهتمام: «حضرتك بتطلع في التليفزيون؟».

---

(١) أحمد حسن الزيّات، ذكرى عهود ص٤٤٧، ٤٥٠.

(٢) إبراهيم المازني، العمر الذاهب ص ١٠٦، ١٠٧.

كما شكا لي المحلل السياسي القدير إلياس سحاب من أنه ظل ينشر مقالاته السياسية في الصحف اللبنانية لمدة تقرب من أربعين عامًا، ثم حدث وعاد أخوه الأصغر المايسترو سليم سحاب من دراسته في موسكو وقدم حفلة موسيقية واحدة أو حفلتين في بيروت وأذاعهما التليفزيون، فإذا بإلياس كلما قابل شخصا سأله «هل أنت شقيق سليم سحاب؟».

لقد تذوقت طعم الصيت والشهرة، منذ كنت تلميذًا صغيرًا في المدرسة الابتدائية، إذ كلما دخل زائر أو مفتش في أحد دروس اللغة العربية وجدت المدرس يهمس في أذنه «بأنني ابن الأستاذ أحمد أمين»، وقد وجدت الأمر لذيذا واستطعمته، ولا شك أن هذه التجربة المبكرة قد غرست في نفسي بذور الإدمان، أي إدمان السعي إلىٰ ذيوع الصيت ولفت الأنظار، وربما ساعد علىٰ نموها عندي أني أصغر الأولاد في العائلة، مما يجعل للفت الأنظار قيمة مضاعفة، والظاهر أن حب الشهرة يمكن فعلًا أن يتحول إلىٰ إدمان بحيث إنه متىٰ تسلط علىٰ الشخص أصبح من الصعب عليه أن يعيش بدون إشباعه إشباعًا مستمرًا، بل وقد تزيد أيضًا الجرعة اللازمة لإشباعه كلما زاد ما يحوزه منها.

بمرور الزمن ضعفت لدي الرغبة في لفت الأنظار وأصبحت فرصة نشر مقال لي في جريدة سيّارة، أو إلقاء كلمة أمام بعض الناس المهمين، أو الظهور في التليفزيون، لا تحمل جاذبية كبيرة لي، وكادت جاذبية أي من هذه الأمور تنحصر في مدىٰ جاذبية الموضوع الذي يطلب مني أن أتناوله بالكتابة أو الحديث، دون أن أبالي كثيرًا بما قد يتصل به من «جماهيرية»[١].



(١) جلال أمين، ماذا علمتني الحياة ٣٨٨، ٣٩٠.

ما المجد الأدبي؟ أهو أن يذكرك الناس في كل مكان وأن يتسابقوا إلىٰ قراءة ما تكتب وسماع ما تذيع، وأن تتوارد عليك كتب الإعجاب وتقام لك حفلات التكريم؟ لقد رأيت ذلك كله، فهل تحبون أن أقول لكم ما رأيت فيه؟ سراب، قَبْض الريح، أغلق يدك علىٰ الريح ثم افتحها لا تلقَ فيها شيئًا، لا والله، ما أقول هذا كلام أديب يتخيل ولكن، وأحلف لكم لتصدقوا: ما أقول إلا الحقيقة التي أشعر بها[1].

❁ ❁ ❁

في الخمسين رسخ اعتقادي في أنه لا خسارة أكبر من أن يربح الإنسان الآخرين ويخسر نفسه، وصح عندي أن الصراحة الكاملة هي المنهج الذي ينبغي اتباعه في الحياة العملية، إنني لا أتدخل فيما لا يعنيني أبدًا، ولكنني -فيما يعنيني - لا أُسْمع الناس أبدا ما يحبون، إذا تعارض هذا مع ما أعتقد أنه الحق، وأحاول دائمًا أن أضع ما أعتقد بصراحة في أسلوب قولي يتفق وأصول الأدب العام، وأعبر -في كل الأحوال - عن المعاني التي أجدها في ذهني بأقصىٰ قدر من الدقة والتجرد.

وفي الخمسين لم يعد «المظهر» يخدعني، ولم يعد الادعاء أو «علو الصوت» يستهويني، والحق أن ذلك لم يستهوني قط، وإن كنت خُدِعت ببعضه في بعض مراحل حياتي، فإن ذلك يعود إلىٰ أنني مفطور علىٰ حدة الخيال، وسرعة التأثر والانبهار، كما يعود إلىٰ نقصان واضح في تجربتي، وأنا الآن أحاول -ما وسعتني المحاولة - أن أعطىٰ نفسي فرصة لتأمل ما أسمع وما أرىٰ، وأتجنب التورط في وهج اللحظة الحاضرة.

وفي الخمسين أصبحت أكثر وعيا بقيمة الوقت، ونجحت في ضبط الموعد رغم صعوبة ذلك. كنت قد تعلمت ضبط الوقت وصدق الوعد في جهينة إذ أنا

---

(١) علي الطنطاوي، الذكريات (٣/ ٢٥٢).

صبي، ثم اضطرب ذلك عندي أول عهدي بالقاهرة، ولكنني حين رأيتهم في انجلترا -فيما بعد - يضبطون أوقاتهم ومواعيدهم بالدقيقة، حرصت علىٰ وصل إحساسي بالزمن ما بين جهينة وانجلترا، وكنت في انجلترا أرىٰ زملاء الدراسة يتأخرون عن مواعيد الدرس غير مبالين بتعليقات المدرسين من الإنجليز -التي تصدع الصخر - عن «المواعيد العربية» و«المواعيد المصرية».

ومن عادتي التي حافظت عليها ألا أتأخر عن درس أو موعد إلا لضرورة قصوىٰ -وأكاد أحصر هذه الضرورات في المرض و«موت عزيز» وتعطل وسيلة المواصلات - وقد وضعني ضبط الموعد أحيانًا في مواقف حرجة، فقد أصل في الموعد فلا أجد مضيفي، أو أجده نائمًا، أو غير مستعد لاستقبالي، وقد أذهب لمناقشة رسالة جامعية، وأكون ضيفًا فلا أجد المشرف الداعي، وقد دعيت مرة إلىٰ محاضرة فذهبت في الموعد بالضبط فإذا باب القاعة ما يزال مغلقًا بالمفتاح!

وفي الخمسين أصبح حجم ما أرفضه أكبر من حجم ما أقبله، وقد أزعجني هذا في البداية، وعزوته إلىٰ نقصان درجة التسامح لديَّ، ولكنني لم أجد راحتي في هذا التعليل، وإن الترخص ليس في طبعي، وأنا أمارس «الضبط» نحو نفسي قبل أن أمارسه نحو الآخرين.

إن عدد القصائد التي أعجب بها الآن -مثلًا - قليل جدًا إذا قيس بعدد القصائد التي كنت أعجب بها من عشرين سنة أو عشر سنوات، وقد يكون السبب زيادة خبرتي، وقد يقال إن الشعر تدهور.

وفي الخمسين هدأت نفسي قليلًا، وهدأ عقلي قليلًا، ولم أعد أنتظر ثوابًا علىٰ ما أفعل، كما لم يعد رضا الآخرين عني في جميع الأحوال يعنيني كثيرًا، وبخاصة إذا أتىٰ من طريق لا يتفق وما أعتنقه، وضاقت لديَّ رقعة أحلام اليقظة وإنلم تفارقني،

واتسعت أمامي رقعة العمل والخيال، وأصبحت أجد متعتي في اختيار ما أقرأ وما أكتب، ومن أصاحب[1].



هناك قانون يعرف باسم «قانون باركنسون» (Parkinson's Law) يجمع بين الطرافة والصدق في وصف البيروقراطية، ويقول: إن الشخص يظل يترقىٰ في السلم الوظيفي حتىٰ يصل إلىٰ أعلىٰ مستوىٰ من «قلة الكفاءة»، وتفسير ذلك أن الإنسان كلما أجاد أداء وظيفة رقي إلىٰ وظيفة أعلىٰ منها؛ حتىٰ يصل إلىٰ وظيفة أكبر من قدراته، فيسيئ أداءها فلا يحصل علىٰ الوظيفة الأعلىٰ منها؛ ويظل في هذه الوظيفة التي أساء أداءها إلىٰ الأبد، أظن أن شيئًا مماثلًا يمكن قوله عن سعي الإنسان إلىٰ تحقيق السعادة والنجاح والحياة؛ إذ كلما نجح في تحقيق أمل تاق إلىٰ شيء أكبر منه، حتىٰ يصل إلىٰ مطمح لا يستطيع تحقيقه فيخيب أمله ويبقىٰ ثابتًا علىٰ ذلك.

هكذا أشعر الآن، وقد تجاوزت السبعين، أني بنيت من الآمال أكثر بكثير مما يمكن تحقيقه، سواء لنفسي أو لأولادي أو لبلدي وأمتي، ولا أعتبر نفسي في هذا مختلفًا عن غيري، وهذا الشعور يضفي علىٰ الشيخوخة بالطبع بعض الحزن، وبعض الشعور بخيبة الأمل، الذي يتولد من إدراك يقيني بأنه لم يبق لا من الوقت ولا من القوة ما يسمح بالعودة إلىٰ نقطة البداية، وفي أيدينا كل ما أملنا في جمعه خلال الرحلة[2].

---

(١) د. محمود الربيعي، في الخمسين عرفت طريقي ص٢٢١، ٢٢٧.

(٢) د. جلال أمين، رحيق العمر٣ ص٤٠٤، ٤٠٥.

«كنت سأسمي الكتاب «لماذا تخيب الآمال؟»، وظللت أفضل هذا العنوان علىٰ أي عنوان آخر يخطر لي؛ إذ شعرت أنه يعبر عن حقيقة مهمة، ولا يريد الكثيرون أن يعترفوا بها. فمع تقدمي في السن، ومتابعتي لقصص حياة الكثيرين من أقاربي وأصدقائي ومعارفي، ووصول كثير من هذه القصص إلىٰ نهايتها، لاحظت بدهشة عظيمة في أول الأمر، وقبل أن أعتاد عليه، تكرر خيبة الأمل في نهاية قصة بعد أخرىٰ، حتىٰ خطر لي أن من الممكن وصف الحياة بأنها حلقات متتالية من خيبة الأمل» د. جلال أمين، رحيق العمر ص ١٩.

كم صادفت في حياتي من أمثلة لما يجده الناس من صعوبة في ملء وقت الفراغ، إنهم يتصرفون ويتكلمون وكأن أكثر ما يطمحون إليه هو أن يحصلوا علىٰ وقت فراغ يستطيعون فيه أن يفعلوا ما يشاءون، يقولون مثلًا إنهم يكدّون لجمع المال من أجل فقط أن يستطيعوا في وقت ما في المستقبل أن يكفّوا عن العمل، ويصبح لديهم من الفراغ ما يسمح لهم بالاستمتاع بالحياة، وبأن يفعلوا ما يحبون بالضبط، ثم لا يبدو أن لاجتهادهم وكدهم في جمع المال نهاية، وكأنهم فقط يؤجلون اللحظة التي يتفرغون فيها لعمل ما يحبون عمله؛ لأنهم لا يعرفون بالضبط ما هذا الذي يحبون عمله.

قال الاقتصادي الإنجليزي جون مينارد كينز في مقال مشهور له: إن الإنسان لن يمرّ به وقت طويل حتىٰ يتمكن من حلّ المشكلة الاقتصادية (أي مشكلة ندرة الموارد بالمقارنة بالحاجات)، ولكنه سوف يواجه بعد ذلك مشكلة أعوص، وهي مشكلة كيف يقضي وقت فراغه؛ إذ إن آلافًا من السنين قد مرت بالإنسان وهو مشغول بحل المشكلة الاقتصادية، أما هذه المشكلة، مشكلة تقضية وقت الفراغ، فهي جديدة عليه، وهو لن يجد حلًّا سهلًا لها.

قال كينز هذا منذ نحو سبعين سنة، وأظن أن نسبة كبيرة من سكان العالم قد نجحوا بالفعل في حل مشكلتهم الاقتصادية، ولكن ها نحن نشهد الفشل الذريع في حل مشكلة الفراغ. جرّب الإنسان، أو ها هو ذا يجرب، إنتاج المزيد والمزيد من السلع واختراع المزيد ثم المزيد من الخدمات عسىٰ أن يسلّي بها نفسه في وقت فراغه، فلا يبدو أنه نجح كثيرًا. وزاد استهلاكه من الخمر والمخدرات، دون أن يحل له هذا أيضًا مشكلة الفراغ، ولجأ إلىٰ الإباحية في الجنس بكل أشكاله، فلم يفلح أيضًا، وزادت ساعات الإرسال في التليفزيون حتىٰ شملت ساعات الليل والنهار كلها، وما زال الإنسان ضجرًا ويبحث عما يروّح به عن نفسه.

كم يكون الأمر سهلًا لو كان للمرء شيء يحبه حقًّا، وينسىٰ نفسه وهو منشغل به، كأن يهوىٰ ممارسة فن من الفنون، أو رياضة ما، أو مراقبة الطيور، أو البحث العلمي، أو حل مشكلة فلسطين... إلخ، في سيرة برتراند رسل الذاتية يقول لنا: إنه لولا غرامه الشديد بحل المشاكل الرياضية لقام بالانتحار وهو في مطلع شبابه، وزميله وصديقه الفيلسوف النمساوي فتجنشتاين يقال: إن من آخر ما نطق به علىٰ فراش الموت قوله: «إنها كانت حياة رائعة»، علىٰ الرغم من أننا نعرف كثرة ما مر به من فترات البؤس، وتفكيره في الانتحار أكثر من مرة، لا بد أن سبب وصفه لحياته بأنها كانت رائعة هو انشغاله المستمر بحل بعض المشاكل الفلسفية[1].

۞ ۞ ۞

يشكو الناس دائمًا من الرتابة، ويتطلعون دائمًا إلىٰ ما هو جديد ومدهش وكاسر للعادة، لكنَّ كاتبًا كبيرًا مثل (ميلان كونديرا) يقول في مكانٍ ما: «إن السعادة هي التكرار»، وقد يبدو هذا القول مستهجنًا بعض الشيء كونه يأتي من كاتب تذهب معظم رواياته إلىٰ هجاء «قوة العادة» والرغبة القوية في التحرر من أسرها، ولكنَّ هذا القول يمكن أن يُقرأ من زاوية أخرىٰ، هي زاوية «الألفة» مع الأشخاص والأشياء والعادات، التي تكتسب مع الوقت طابع التكرار.

إلا أن أكثر أنواع الألفة قوة هي تلك التي تنشأ بين البشر، ثمة أناس لديهم جاذبية خاصة بحيث إنك تألفهم بسرعة، تألف حضورهم وتواصلك معهم، وأنت لا تستطيع أن تحدد علىٰ وجه الدقة ما هي طبيعة المشاعر التي تشدك إليهم، إنها مشاعر غامضة أو متدثرة برداء شفيف، ولا تستطيع أن تختبر عمق هذه الألفة أو مداها إلا عندما يحدث ما يعكرها، فينتابك الشعور بأن شيئًا ما قد اختل، أو أن أمرًا

---

(١) جلال أمين، رحيق العمر ص٤١٢، ٤١٣.

ما أصبح ناقصًا، وأن الأمور لا تستقيم إلا باستعادته، هذا النوع من الألفة هي نفسه السعادة الناشئة عن التكرار[1].

❁ ❁ ❁

لا أشعر أن هناك عاطفة أرقىٰ ولا أنبل من عاطفة الإحسان، لم أكتب هذا علىٰ أثر إحسان قدمته، ولكن علىٰ أثر شعور بأن كل ما في هذه الحياة حقيقة أقل من مظهره، وأن خير طريق لذي العواطف أن يخفف بلوىٰ المبتلين ويسد حاجة المعوزين، وأن يشعر أن كل إنسان علىٰ وجه الأرض بائس يحتاج إلىٰ العطف والشفقة مهما ظهر في وجهه من نضرة النعيم[2].

السعادة التي يستمدها الإنسان من خارج نفسه، من حب أو مجد أو مال سعادة دنيوية لها آفة، أما السعادة التي يستمدها من داخل نفسه: شعوره بطهارة قلبه وبتأدية واجبه وبأنه جزء من كل سيرجع إليه. هذه لمحة من السعادة التي وعدت بها الكتب المقدسة[3].

إذا اعترف رجل بنقيصة فيه مختارًا فذلك لأنه في الغالب بدأ يشعر بأنه أصبح أقوىٰ من هذه النقيصة، شيء يشترك فيه أكثر العظماء: حياة الشظف والفاقة التي عاشوها أول حياتهم فنفخت في أخلاقهم روح الصلابة وعودتهم مكافحة الشدة فأذاقوا الحياة بأسهم بعد أن أذاقتهم بأسها[4].

علمتني الحياة أن الناس في درك هاو من الخسة، وفي درجة عالية من السمو، ينطوون علىٰ الشر والخير، ويهبطون بقدر ما يرتفعون، عرفته وأنا شاب في العشرين

---

(١) حسن مدن، ترميم الذاكرة (ما يشبه سيرة) ص١٣٤، ١٣٥.
(٢) عبد الرزاق السنهوريّ، عبد الرزاق السنهوريّ من خلال أوراقه الشخصية ص٦٠.
(٣) عبد الرزاق السنهوريّ، عبد الرزاق السنهوريّ من خلال أوراقه الشخصية ص٩١.
(٤) عبد الرزاق السنهوريّ، عبد الرزاق السنهوريّ من خلال أوراقه الشخصية ١٩٥.

شابًا في سني، وقامت بيننا أواصر الود والصداقة، ثم تنكر لي الصديق، وأبدىٰ من أسباب الجفوة ما دل علىٰ انحطاط في الخلق ودناءة في الطبع ثم ما لبث هذا الصديق -في ظروف أخرىٰ - أن صفا معدنه، وسمت نفسه، فتقدم في ميدان الجهاد، وبذل روحه فداء لوطنه، ومات شهيدًا، فعلمت أن الناس لا يخلصون شياطين، ولا يتمحضون ملائكة، والعاقل من لبس الناس علىٰ حالهم، لا يزهد في الصديق وإن بدا شره، ولا يقطع ما بينه وبين الناس لجرح لا يلبث أن يندمل ولعارض لا يلبث أن يزول[١].

❁ ❁ ❁

ليس الابتكار والإبـداع موهبة فقط، وكم من أصحاب المواهب أضاعوا مواهبهم فذهبت أدراج الرياح، إن الموهبة هي الجهد المتواصل والممارسة الدائمة حتىٰ إذا ما تراكم الجهد والممارسة أثمرا إبداعًا وابتكارًا، وإن الكثير من أصحاب المواهب يعترفون أن إيداعهم إنما هو ثمرة جهود متواصلة، وكم سهروا الليالي يعيدون ويعيدون سواء في ميدان الإبداع الفني أو الأدبي أو العلمي أو غير ذلك، وفي النهاية لا بد للجهود من أن تثمر[٢].

❁ ❁ ❁

بالعزم والسعي والجهاد نظفر بالقوة التي تعيننا علىٰ أن نصيب أهدافنا، وليست القوة وليدة الحياة المدلّلة المترهلة البليدة الرافلة في الثراء العريض، وإنما هي وليدة الكفاح والمغامرة والألم، وكثيرًا ما كانت الحياة المشوبة بالضنك حافزًا علىٰ العمل، ومجلبة لحميد الأخلاق، دون الحياة المفروش طريقها بالورود والرياحين.

---

(١) عبد الرزاق السنهوريّ، عبد الرزاق السنهوريّ من خلال أوراقه الشخصية ص٢٨٩.
(٢) معن زيادة، الفصول الأربعة ص١٩٣.

وقد علمتني صروف الدهر أن الدنيا أرحب من أن نضيق بمتاعبها، وأن اليأس عجز، والصبر سلاح نصرع به كل شدة، ونبلغ به أعز ما نتمنىٰ. فخليق بنا ألا نشكو وألا نتضجر إذا اعترضتنا المضايقات، وعلينا أن ننظر إلىٰ العالم الوسيع نظرة مستنيرة، لكي نراه في جماله وبهائه، وهنالك وراء ذلك كله ما أعده الله في الدار الآخرة من نعيم مقيم، فيه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر.

ولو كان لي أن أوجز خلاصة ما قرأت وما سمعت، وما رأيت من طبيعة الخير والشر فيمن صادفتهم من الناس في حياتي، لقلت: إني عرفت عمق الهوة التي قد ينحدر إليها من يبتعدون عن الله، ولا يفكرون إلا في أنفسهم. كما عرفت سمو الأوج الذي يبلغه من يتجهون إلىٰ الله ويفكرون في الآخرين[١].

علمتني الحياة أن خير فضيلة هي التواضع، تواضع العارف، وامتلاء القلب بالمحبة، فلا يترك المرء للحسد، والضغينة، والحقد، مكانا في نفسه، لأن هذه تُمرِض النفس، وتُشقي الإنسان.

لقد علمتني الحياة أشياء كثيرة كثيرة .. علمتني سر السعادة التي قد بحث عنها الإنسان طيلة حياته فلا يجدها، وقد يصيبه الوهم مرة بأن أهم أسبابها الثراء ومرة بأنه المنصب الرسمي أو المركز الاجتماعي، فلا يجدها في أي منها. ولكن بعد هذه الرحلة الطويلة الحافلة علىٰ يقين بأن القلوب سعيدة، هي القلوب العامرة بالمحبة[٢].



(١) د. نجيب محفوظ، حياة طبيب ص٢٨٦.

(٢) محمود السمرة، إيقاع المدىٰ ص٢٠٠.

الشيء الذي غدا أهم من ثروتي المادّية محافظتي علىٰ حسن سمعتي، لا لأني أردت أن أكون محل إعجاب ولكن لأني لم أشأ توريث أبنائي وأحفادي شيئًا يخجلهم بعد رحيلي أعتقد أنني بذلت كل ما في وسع وأنا مرتاح الضمير مع أنه سيوجد دائمًا أشخاص يلطخون اسمي، ولطالما قبلت بهذه الحقيقة، لكني بحسب ظني لن أترك خلفي ما يعيبني[١].

وحرصت علىٰ ألا أكون مدينًا بشيء لأحد، كرهت الاستدانة ولا زلت أكرهها فالدَّين يحرمني من النوم[٢].

لا بد أن أعترف بأن واحدًا من تحيّزاتي القوية والثابتة في ذهني منذ زمن طويل وتأبىٰ أن تفارقني، هو هذه الفكرة: أن الحرمان المادي في الصغر أمر خطير للغاية إذ يترتب عليه في الغالب مادية مفرطة في الكبر.

هكذا كنت أميل دائما، كلما رأيت شخصا يسيطر عليه حب المال، إلىٰ البحث عن سبب ذلك في ظروف نشأته، وكلما وجدت شخصًا كريمًا سخيًّا ومستعدًا للتضحية بالكسب المادي من أجل فكرة أو مبدأ افترضت علىٰ الفور أنه لم يصادف حرمانًا في صباه.

والحقيقة أني لم أصادف في حياتي أمثلة كثيرة تدحض نظريتي هذه، وصادفت الكثير جدا مما يؤيدها، ولكني علىٰ استعداد بالطبع للاعتراف بأن هناك حالات غير عادية تعجز هذه الفكرة البالغة التبسيط عن تفسيرها[٣].



(١) مهاتير محمد، طبيب في رئاسة الوزراء ص٣٥٤

(٢) د.مهاتير محمد، طبيب في رئاسة الوزراء ص١٠٦

(٣) جلال أمين، ماذا علمتني الحياة ص٢١٤

قبل أن أغادر فلسطين قد سيطرت عليّ فكرة خلاصتها أني لن أعيش طويلًا، وقد ساعدتني هذه الفكرة علىٰ تقبل الحياة دون تذمر، كما كانت حافزًا لإنجاز كل عمل أبدأه إذ كان يزعجني أن أشرع في عمل ثم لا أكمله ولهذا كفلت لي هذه الفكرة بذل الجهد دون ملل أو تعب، وبها وبتنظيم الوقت في العمل استطعت أن أقوم بأعباء يتطلب كل منها فريقًا من العاملين(١).

❁ ❁ ❁

وأنا أتسلق شجرة الذاكرة كنت أقول: هل من الضروري أن أحلل الشخصيات التي رأيتها؟ نعم كان ضروريًّا؛ لأن هناك بعض الكلمات والأقوال لا يمكن أن تسقط من ذاكرتي وقد أكملت مسيرتي بنصيحة من الأستاذ محمد حسنين هيكل الذي قال لي بالحرف الواحد لو أنك بعد أن وصلت سن المعاش وارتحت من أعمالك كرئيس تحرير لمجلة صباح الخير وتوقفت فإن مرض الزهايمر سوف يهاجمك ويقضي علىٰ ما فيك ولذلك عليك بالعمل انظر لي إنني منذ الساعة الثامنة صباحًا أجلس إلىٰ مكتبي وأقابل الناس وأكتب وأذيع وأنت والحمد لله تملك أن تذيع وتكتب وتقابل الناس، وأن يكون حولك أصدقاء ولكن خذ بالك مما قد يعطلك فإن الإنسان إذا تعطلت أدوات عقله قد يهاجمه الزهايمر، إن الطريقة الوحيدة والمناعة لوقف هذا العدو هي أن تعمل خصوصًا في سنوات الخريف في حياة أي إنسان، وأنت تكتب وتعتمد علىٰ ذاكرتك كثيرا ولا تعتمد علىٰ ذاكرة الكمبيوتر فإنها افتراضية لا بد أن تمسك بالكتاب، وتقرأ وتعيش هذه الصفحات، وتدون ملاحظاتك. إن كتاباتك واتصال الناس بك يحميك دائمًا من هذا العدو الذي يهاجم الناس في خريف العمر.

---

(١) د. إحسان عباس، غربة الراعي ص٢٠٧، ٢٠٨.

منذ أن خرجت من تجربتي في صباح الخير التي أعتز بأنها كانت مثمرة على مدى ثماني سنوات وأنا أفكر، وأعمل وأعتمد على ذاكرتي كثيرًا وأحيانًا تضيع بعض المعلومات ولكن بشكل مؤقت، وقد قال لي الدكتور أحمد عكاشة يوما ثق تمامًا أن هناك أوقاتا تسقط منك بعض الأشياء ولكنها بعد قليل تعود إليك.

إن الإحساس بالحياة يجب أن يعاش ببعض من الاستغراق في التأمل؛ لأن التأمل العميق ربما يحجب متع الحياة ولذاتها، إلا أن أجمل ما فيها أن الإنسان ينبغي أن يعيش متوازنًا فيعطي لنفسه قدرًا من التأمل الضئيل[١].

۞ ۞ ۞

انتهجت أسلوبًا -ساعدني من حولي - على الالتزام به في تكويني العلمي والثقافي وما زلت أحتفظ به حتى الآن، وهو بداية أن أوطن نفسي على مجالسة الكبار وملازمة الأعلام والنابغين وأن أرتشف من رحيق كلماتهم وتجاربهم ونفوسهم الكبيرة، وأن أغترف من بستان معارفهم، وأفيد من هذا «التاريخ الحي» الذي لا تضاهيه معارف أخرى[٢].

۞ ۞ ۞

سهوت في كل حياتي عن قيمة المال، وحين دخلت في مرحلة الشيخوخة بعد بيروت أدركت خطأي، وكان تدارك الأمر قد فات أوانه، هنالك أحسست أني فرّطت كثيرًا، إذ كثرت حاجتي إلى مشاورة الأطباء وإلى شراء الأدوية، وإلى الظهور بمظهر اجتماعي لائق. وإلى أشياء كثيرة لا يحققها إلا المال، وعجبت حين قرأت

---

(١) مفيد فوزي، نصيبي من الحياة ص١٣.
(٢) خالد محمد القاضي، رحلة ٣٠ سنة قانون (من سيرة قاضي مصري) ص٤٢.

متاخرًا لأحد الزهاد -أصدقائي - نعم المال معينًا علىٰ تقوىٰ الله تعالىٰ[1].

۞ ۞ ۞

أود أن أهمس في آذان أبنائي من شباب الجيل ببعض ما آمنت بأنه أساس النجاح في العمل والسعادة في الحياة.

نصيحتي الأولىٰ لهم أن يلتزموا الصدق مع أنفسهم قبل الصدق مع الناس، فلا يحاولوا تبرير عمل خاطئ بإقناع أنفسهم بأنهم علىٰ صواب، وأقوىٰ ضروب الشجاعة هي شجاعة المرء في مواجهة خطئه، والاعتراف به، ومحاولة إصلاحه.

وعليهم أن يعملوا جاهدين، ولا يهنوا في سلوك الطريق المستقيم مهما يلقوا من مشقة وعنت، وليقاوموا كل ما يصادفهم من المغريات ومزالق الأخلاق، وليعفُّوا عن التعرض لكل ما يخدش الشرف ويذهب بالكرامة.

ولكي يكونوا نماذج رفيعة للخدمة والتضحية والمحبة، لا بد أن يعملوا في هدوء وتواضع، ويحاذروا أن يكون هدفهم فيما يؤدون من مهمّات إحراز شهرة أو تصيّد مواقف رنّانة، فإن النجاح القائم علىٰ الشهرة الزائفة والتهريج المصنوع نجاح كاذب لا ترضىٰ به النفوس الكريمة.

ولي كلمة أقولها للذين وصلوا بجهادهم إلىٰ ما صبوا إليه من منزلة عالية، تلك هي أن يحذروا الغرور الذي يفسد عليهم ما أصابوه من فوز، فما من صفة يتعرض صاحبها للمقت أدهىٰ من صفة الغرور.

أما الذين جاهدوا وصابروا، وقاوموا عقبات الطريق بعزم وحزم، وأدوا للعلم ولبلادهم خدمات صادقة، ولكن فاتهم التقدير الذي يجدر بما لهم من عمل،

---

(١) د. إحسان عباس، غربة الراعي ص٢٢٥، ٢٢٦.

فليحذروا أن يجدوا لهذا الإغفال مرارة في أنفسهم، أو أن ينكصوا عن طريقهم الذي سلكوه؛ فليكافحوا ويناضلوا، حتىٰ ينتزعوا السبق والمجد، مسلَّحين بما توافر لهم من ملكات الجد والمثابرة والكفاح المرير الخليق بأن يورثهم كل مقومات النجاح، ورعاية الله وعونه لا تخطئان من جدّ وثابر، وليثقوا بأن التقدير الحق آت لا ريب فيه، وإن طال المدىٰ، من حيث لا يتوقعون، وحسبهم علىٰ أية حال أن عملهم قد أثمر ثمرته الطيبة، وذلك يفيء علىٰ المرء رضا النفس، وإن رضا النفس لهو أنبل غاية يتوخاها العاملون.

وإني لأجاهر بأن حياتي كلها كانت، بعد وفاة أبي، سلسلة نضال مع المكاره ، لا أكاد أتخلص من مكروه حتىٰ أجدني قد حاق بي ما هو أشد وأقسىٰ، ولم يكن ذلك شرًّا محضًا، بل لقد كان له أجمل الأثر في تكوين خُلقي، وترويضي علىٰ مجابهة الأرزاء، واحتمال الأعباء.

وقد كافأني المولىٰ علىٰ الرضا بالخطوب والصبر علىٰ المكاره، فأسبغ عليّ من جلائل النعم ما يستوجب الحمد الجزيل، والثناء الجميل[1].

۞ ۞ ۞

دخل عليَّ رجل يناهز الخمسين من العمر بلباس حمَّال ومعه «شرشوره» الذي يساعده علىٰ حمل البضائع، فسألته: «أنت عتَّال، ولا بد من أن يكون دخلك محدودًا، فلماذا لا تأتي إلىٰ عيادتي المجانية في مستوصف الجامعة الأميركية، لا لخفض كلفة أجر الطبيب، فحسب، بل لخفض أعباء الفحوص المخبرية والشعاعية التي سأجريها لك؟»، فابتسم العتّال وقال لي بصوت هادئ: «يا حكيم، لقد سمعت أنك ماهر في مهنتك، ولذا فضَّلت أن آتي إليك، إلىٰ رأس النبع، في عيادتك

(١) د. نجيب محفوظ، حياة طبيب ص١٦، ٢٠.

الخاصة، لأن الحياة والصحة هما أثمن شيء في الدنيا. فالحياة تختلف عن حضور فيلم سينمائي، لأن الفيلم إن أعجبك تستطيع أن تشتري تذكرة أخرىٰ وتشاهده مرة ثانية أو ثالثة إذا أردت، وإن لم يعجبك فما عليك إلا أن تخرج من القاعة. أما الحياة فإن أعجبتك فأنت لا تستطيع أن تعيشها مرة أخرىٰ، وإن لم تعجبك فأنت لا تستطيع أن تخرج منها، وعليك أن تتحمل كل إزعاجاتها حتىٰ النهاية، إلا إذا شئت الانتحار، وهذه جريمة محرَّمة عندنا. ولذا لا أجد سببًا يجعلني أبخل علىٰ صحتي وأتعالج عند أي طبيب كان». كان لهذا الكلام أثر عميق في نفسي لم ألبث أن نسيته أيام الشباب، إلىٰ أن جاءت الشيخوخة فأصبح كلام العتّال وأتعالج عند أي طبيب كان[1].

۞ ۞ ۞

ذكّرت نفسي بأن أحسن طريق للفوز هو أن لا أطلب الفوز. فإنك تنجز أحسن الأعمال عندما تكون حرًّا ولا تنتابك الشكوك[2].

إن التفاني التام هو الميزة الرئيسية للذين يريدون الوصول إلىٰ ذروة مهنتهم، والرغبة في العمل مع أفضل القدرات قلما تترك مجالًا لأي شيء آخر، ووجدت معي أشخاصًا يعملون أربعين ساعة فقط كل أسبوع ويسخرون من عملهم الذي يتقاضون عليه أجرًا، كما عرفت أشخاصًا يعملون ستين أو ثمانين أو حتىٰ مائة ساعة كل أسبوع لأنهم وجدوا عملهم مثيرًا وممتعًا ومجزيًا ومجديًا.

إن التفاني التام هو الظاهرة العامة بين جميع الشخصيات الناجحة من الرجال والنساء[3].

---

(١) منير شماعة، إقلاع وهبوط ١٦٤.
(٢) زين العابدين عبد الكلام، أجنحة من نار ص٤٩.
(٣) زين العابدين عبد الكلام، أجنحة من نار ص١١٤.

كان من تجربتي الشخصية أنه بدلًا من تخيل الإنجاز أو تخيل مصيره النهائي يجب أن نرجع إلىٰ أربعة عوامل نعتقد أنها مفتاح للنجاح، وهي تعيين الهدف، والفكر الإيجابي، والتصور والاعتقاد[١].

۞ ۞ ۞

كثير من الناس يسألونني كيف أحافظ علىٰ لياقتي مع أنني أكون دائمًا مشغولًا، فأجيبهم: أستطيع أن أفعل كل ذلك وأكثر لأنني مشغول جدًّا، وإذا توافر لي الكثير جدًّا من الوقت ما كنت لأحقق القدر نفسه من الإنجازات.

لقد رأيت كثيرًا من الموظفين الجدد في هيونداي الذين تميزوا في عملهم في البداية، ولكن بمجرد بلوغهم نقطة معينة فإنهم يذبلون ويسقطون، وكنت أتعجب لماذا يحدث ذلك لبعض الناس وليس للآخرين، وكان السبب هو أن الذين يستمرون في الأداء الجيد يستثمرون الوقت والطاقة في تعلم الأساسيات.

علىٰ نحو مشابه، حالما يكون للشخص قاعدة قوية في الأساسيات، فإن هذا الشخص يكون قادرًا علىٰ إضافة أساليب جديدة تسمح له بأن يصبح أفضل فيما يقوم به، وسيكون جيدًا أيضًا في إدارة الوقت، وفي النهاية سوف يهيمن علىٰ عمله وليس العكس، كل شخص يمكن أن يكون مجدًّا في عمله، ولكن من الأثمن كثيرًا جدًّا أن تكون ذكيًّا في عملك.

ولأنني تعلمت هذا الدرس في وقت مبكر، فقد كنت قادرًا علىٰ أن أشغل نفسي وأعمل ما هو مهم حقيقة؛ مثل الاعتناء بأسرتي، والتحدث إلىٰ زوجتي، والاستمتاع بالمتع الكثيرة التي تقدمها الحياة. كان دائمًا يتوفر لي وقت للعب التنس مرتين في

---

(١) زين العابدين عبد الكلام، أجنحة من نار ص١٦٤.

الأسبوع، والتحدث إلىٰ الأطفال حتىٰ إذا كان ذلك للحظات قصيرة في الهاتف عندما أكون مسافرًا والاستماع إلىٰ الموسيقىٰ أو قراءة كتاب جيد.

وتعلمت أيضًا من حالات فشلي ومن أخطائي، كنت دائمًا أقول لنفسي: إنه من الأفضل نسيان الأشياء الجيدة وتذكر الأشياء السيئة، وهذا لأن نجاحاتي سوف يتذكرها الآخرون، ليس عليّ أن أُذكِّر نفسي دائمًا بها، غير أنني يجب أن أتذكر دائمًا حالات فشلي لأنني إذا نسيتها فسوف أكررها لا محالة.

من الناحية الثانية، كان الذين يهيمن عليهم العمل مشغولين دائمًا، ولا يجدون وقتًا للمسائل المهمة الأخرىٰ، وقد لاحظت أن مثل هؤلاء الموظفين كانوا أولئك الذي يشكون دائمًا من عبء العمل ومن رؤسائهم، وكل شيء آخر كان خطًا في حياتهم، ونادرًا ما كان هؤلاء الناس يلومون أنفسهم.

وبالنسبة إلىٰ مثل هؤلاء الناس فلن تكون أي وظيفة أو يكون أي رئيس شيئًا مرضيًا، إن توقع الحصول علىٰ وظيفة أحلام مع رئيس عظيم شيء أبله وساذج، بالنسبة إليّ كانت الحياة دائمًا تعني فعل أفضل ما لدي، والرضا بذلك مهما كانت الظروف، لم أوجه اللوم قط إلىٰ والديّ كوني كنت فقيرًا، ولم استخدم الفقر قط كعذر، ولم يعترني الحنق لأنني ولدت في دولة فقيرة، كان ذلك سببًا آخر لأن أعمل بجد في أي شيء أفعله، كنت أرىٰ أن واجبي يتمثل في العمل بجد.

كنت مؤمنًا باحتمال الواحد في المئة، أي بفكرة أنه إذا كان هناك احتمال للنجاح ولو بنسبة واحد في المئة، فإن أي مشروع يمكن تحقيقه بإضافة العمل الجاد[1].



---

(١) لي ميونج باك، الطريق الوعر ص١٦٩، ١٧١.

تعلمت أن آخذ الناس علىٰ علاتهم، وأزن الصديق هكذا: أضع حسناته في كفة، وسيئاته أو هفواته في الكفة الأخرىٰ، فإذا رجحت الأولىٰ غفرت له في ما في الثانية، وهكذا يفعل الله[1].

۞ ۞ ۞

لم أحاول في حياتي الأدبية أن أرد شتيمة شاتم أو هجوم مهاجم، لأنني أعتقد أن الشتيمة تعاقب نفسها، كلما سمعت شاعرًا يشتم شاعرًا غمرني الأسىٰ، وتساءلت: تُرىٰ ألا تتسع الأرض كلها لركض حصانين؟

أنا لا أتصور أن شاعرًا يمكن أن يأخذ من سواه شيئًا، فالدروب كثيرة، وميدان السبق مفتوح لكل الخيول المتسابقة، ولن تربح في النهاية سوىٰ الموهبة[2].

۞ ۞ ۞

طرق الإجرام الأدبي كثيرة، لك أن تخنق صديقك إذ تطمره بأزاهير المدح، أو تهدم معنوياته تحت رداء النصح الطاهر، أو تهمل أمره خيلاء كي تظهر في الناس شريفًا لا يتبذل حتىٰ بإطراء أحبائه، ويل الناس من النفس البشرية، فلا يراها بيضاء أو سوداء إلا الذي أعياه تحليل أظلة ألوانها[3].

۞ ۞ ۞

وبعد ذلك وقبله فما أتفه هذه الحياة علىٰ علاتها وعللها، فكيف إذا اعتراها التزييف والتزويق[4]؟!

۞ ۞ ۞

(١) عباس خضر، مشيناها خطىٰ ص١٧٥.
(٢) نزار قباني، قصتي مع الشعرص١٦٤.
(٣) سهيل إدريس، ذكريات الحب والأدب ص١٧٥.
(٤) حمد الجاسر، من سوانح الذكريات (١/ ٨).

ليس هناك ما ينقذنا من ملاحقة أحزاننا ويخرجنا من ذواتنا كالأطفال وعالمهم الخاص المسحور، أنه عالم البراءة والصدق والحرية، العالم الذي لم يصبغ بصباغ التمويه والزيف ولم تنقسم فيه الحياة بعد، كم أحب النظر في عيون الأطفال؛ كلما نظرت في عيني طفل أحسست بمزيج من البهجة والإشفاق، الإشفاق من أجل البراءة التي سيسرقها عالم الكبار بكل ما فيه من تشوش وبشاعات[1].

❁ ❁ ❁

حب الدنيا والإخلاد إليها كل الإخلاد من مداخل الهوان أكبر مداخل الهوان. وفلسفة الاستعمار كلها كانت مرتبة علىٰ حب الدنيا دنيا التفرنج الجديدة والهوان من أجل هذا الحب لها وفي سبيله[2].

❁ ❁ ❁

إن طبق عليّ قانون: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ فيا ضيعة علي الطنطاوي! ولكن ينجّيني قانون: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، إني والله أخشىٰ ذنبي ولكن لا أيأس من رحمة ربي، وآمل أن تنفعني إن متّ صلاة المؤمنين عليّ ودعاء من يحبني، فمن كان قرأ لي شيئًا أو استمع مني شيئًا فمكافأتي منه أن يدعو لي، ولَدعوة واحدة من مؤمن صادق في ظهر الغيب خير من كل ما حصّلت من مجد أدبي وشهرة ومنزلة وجاه، ومن لذائذ الدنيا كلها[3].

---

(١) فدوىٰ طوقان، رحلة جبلية رحلة صعبة ص٢١٤.

(٢) عبدالله الطيب، من حقيبة الذكريات ص١٨٦.

(٣) علي الطنطاوي، الذكريات (٤/ ٩٠، ٩١).